





المجمع العالمي للتقريب
بين المذاهب الاسلامية

العلّامة المصلح
الشيخ محمّد تقي القمي

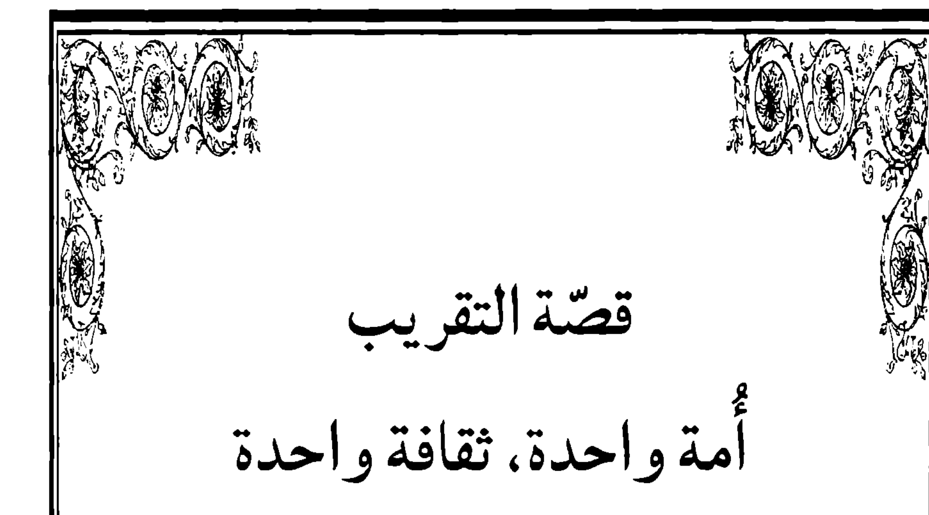
قصّة التقريب

أمة واحدة، ثقافة واحدة

إعداد و تقديم و ملاحق
سيد هادي خسروشاهي

مركز التحقيقات والدراسات العلمية
التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية





قصّة التقريب

أُمة واحدة، ثقافة واحدة

محطّات من أفكار وآراء

المصلح الكبير الشيخ محمّد تقي القمي

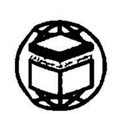
إعداد وتقديم وملاحق

سيد هادي الخسروشاهي



سر شناسه	: خسروشاهي، هادي ، ١٣١٧.
عنوان و پديدآور	: قصه التقريب امة واحدة، ثقافة واحدة: محطات من أفكار وآراء المصلح الكبير الشيخ محمد تقي القمي/ اعداد و تقديم و ملاحق هادي الخسروشاهي.
مشخصات ناشر	: تهران : المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية ، مركز التحقيقات والدراسات العلمية، المعلونية الثقافية، ١٣٨٦ .
مشخصات ظاهرى	: ٤٩٦ ص.
شابك	: ٩٧٨-٩٦٤-٨٨٨٩-٧٧-٥
وضعيت فهرست نويسى	: فيپا
يادداشت	: نمايه.
موضوع	: قمي، محمد تقي ، ١٢٨٩- ١٣٦٩، نظريه درباره وحدت اسلامى.
موضوع	: تقريب مذاهب،
موضوع	: وحدت اسلامى.
شناسه افزوده	: مجمع جهانى تقريب مذاهب اسلامى، مركز مطالعات وتحقيقات علمى.
شناسه افزوده	مجمع جهانى تقريب مذاهب اسلامى . معاونت فرهنگى.
رده بندى كنگره	:٥ / ٢٣٢ BP ٦ ق ٥ خ /
رده بندى ديويى	: ٢٩٧ / ٤٨٢
شماره كتابخانه ملى	: ١٠٢٦٢٧

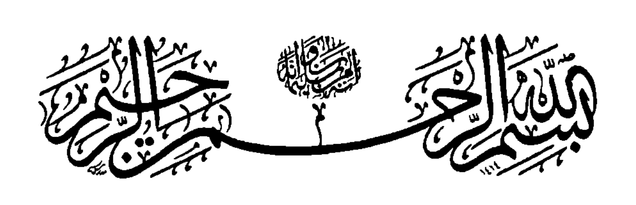


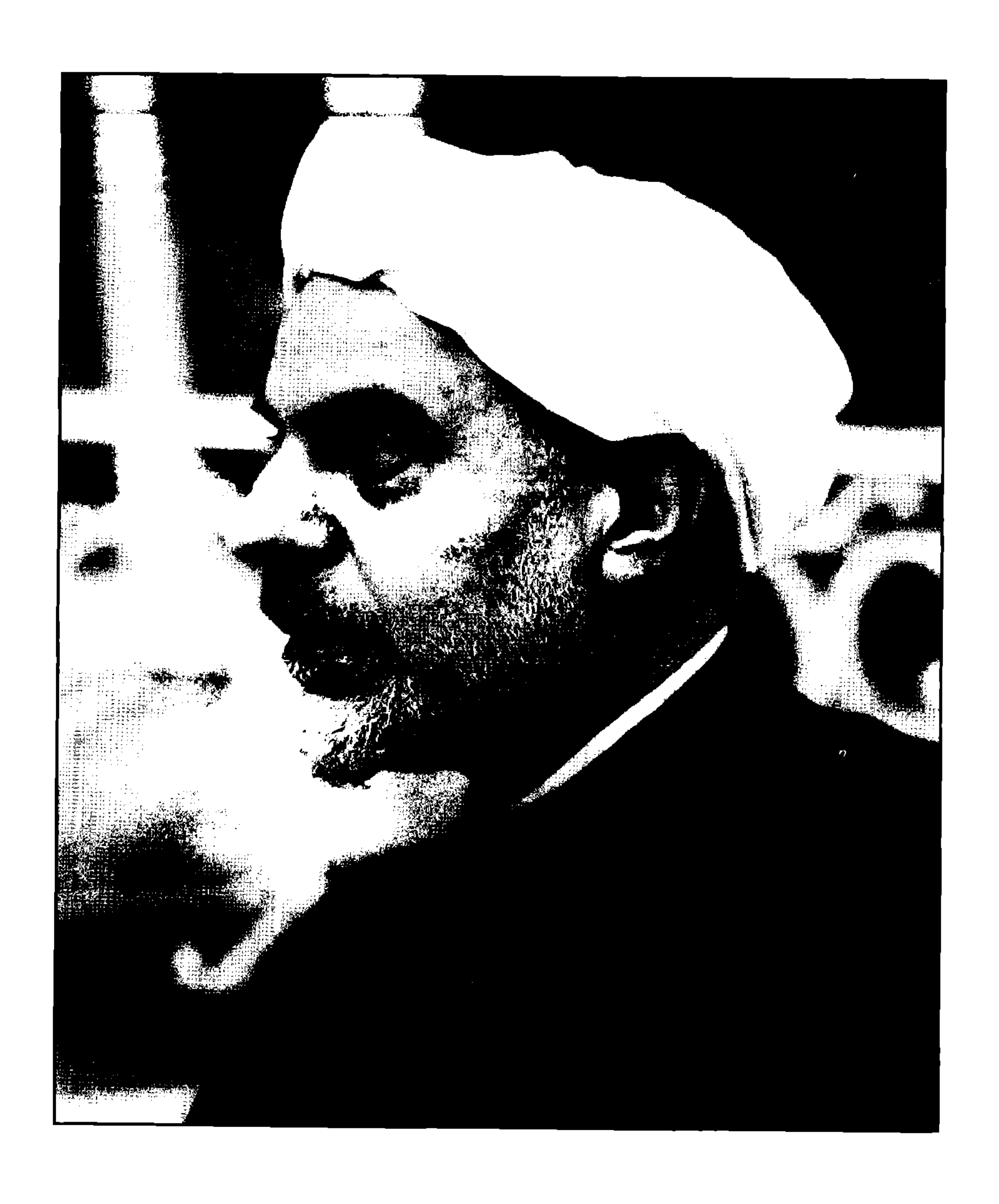


المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

- اسم الكتاب: قصّة التقريب : أُمة واحدة، ثقافة واحدة
- إعداد وتقديم وملاحق: سيدهادي الخسروشاهي
- تقويم النصّ: شوقي شالباف
- تنضيد الحروف: عصام البدري
- الإخراج الفني: رمضان علي القرباني
- الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية – المعاونية الثقافية- مركز التحقيقات والدراسات العلمية
- الطبعة: الأولى – ١٤٢٨ هــ.ق / ٢٠٠٧ م
- المطبعة: نگار
- الكمية: ٢٠٠٠ نسخة
- السعر: ٤٣٠٠ تومان
- ردمك: ٩٧٨- ٩٦٤ -٨٨٨٩ -٧٧-٥ ISBN: ٩٧٨- ٩٦٤-٨٨٨٩-٧٧-٥
- العنوان: الجمهورية الإسلامية في ايران _ طهران _ ص. ب: ٦٩٩٥ – ١٥٨٧٥

تلفكس: ١٤ – ٨٨٣٢١٤١١ – ٢١ – ٠٠٩٨





العلّامة الشيخ محمد تقي القمي

مقدّمة المركز

من الممكن أن تشهد رجالاً برعوا في مجال الفكر والكتابة فصاروا مفكّرين وكتّاباً لامعين في بلدانهم، وآخرين مهروا في حقول العلم فأضحوا علماء بارزين تتلقّف أخبارهم صحف ومجلّات دولهم، كما أنّ من الممكن أيضاً أن تجد فحولاً لمعوا في ميدان الفقه والشريعة فأصبحوا فقهاء ومتشرّعة، فحظوا بتقدير واحترام أبناء طائفتهم... وهكذا علىٰ صعيد السياسة والفلسفة والاجتماع والاقتصاد وغيرها من العلوم والمعارف الإنسانية والتطبيقية.

لكن أن تجد من يشدّ رحاله إلى بلاد بعيدة، فيبرع في مضمار الفكر والثقافة والكتابة حتّى صار نجماً متلألئاً في تلك البلاد، وكتب بلسانٍ غير لسانه، وخاض في ميدان التعامل مع علماء وفحول في الفقه وأصول الشريعة من غير مذهبه وطائفته، فنال حظوةً من احترامهم وتقديرهم، فهذا ممّا لاينبغي صرف النظر عنه، بل حريّ بنا الوقوف عليه والتأمّل فيه!

فقد يظنّ البعض أنّ من المبالغة القول بأنّ هذا لايحمل من الواقع شيئاً، أو أنّه يعدّ ضرباً من الخيال!

كلّا، ليس من المبالغة في شيءٍ إذا قلنا: إنّ ثمة رجالاً قد اجتازوا نظرية «التقوقع» القومي أو الطائفي، وبلغوا الحدود أقصاها، فانطلقوا ببراعة في عالم الإسلام، حيث الفكر السامي والثقافة الهادفة فكانوا من المبرّزين فيهما، فارتقوا

محلّاً رفيعاً في ميدان العلوم المقارنة، فكان أن جسّدوا الخلق المحمدي الرفيع، والثقافة التقريبية الراشدة.

ولم يكتفوا بذلك، بل حملوا بضاعتهم معهم، وصاروا يجولون الأرض الوسيعة، وينادون المسلمين علىٰ اختلاف لغاتهم وثقافاتهم ومذاهبهم الفقهية والعقائدية، بحماسةٍ بالغة، من أجل المساهمة في كلّ مامن شأنه أن يلمّ شمل الأُمّة، ويصون وحدتها، ويحمي كرامتها وشرفها العظيمين. فقطعوا بذلك أشواطاً طويلة في مضمار «التقريب» وحقّقوا انجازات كبيرة علىٰ هذا الصعيد، أثاروا الإعجاب والدهشة المفرطة معاً!

أمّا الإعجاب فلكونهم قاموا مالم يستطع غيرهم القيام به، وتمكّنوا ما عجز سواهم عن تحقيقه، فأضحوا قدوةً يحتذي بها العاملون. وأمّا الدهشة فلأنّهم حقّقوا ذلك بزمنٍ قياسي، وفي ظلّ ظروفٍ سيّئة، وإمكانيات رديئة، ودعمٍ أقلّ ما يوصف بالسلبي!!

فالمصلح إذا ما أراد أن يقوم بمثل هذا المشاريع «الوطنية» في نطاق بلده الصغير، فإنّه بلا شك يتطلّب منه جهداً مضاعفاً، ودعماً مالياً هائلاً، ويصحبه وفد عريض من الخبراء في مجالات مختلفة... كلّ ذلك من أجل تحقيق صيغة «مصالحة» مشتركة، تشتمل علىٰ عدّة نقاط تؤخذ كأساس لمراحل أخرىٰ يأتي دورها فيما بعد.

هذا في مشروع «مصالحة» وطنية في نطاق ضيّق إن صحّ التعبير، فما بالك لو كان مشروع المصالحة طائفي، وبين طرفين: الشيعة والسنّة اللذين يشكّلان معاً الأغلبية الساحقة من مجموع المسلمين في العالم الذي يناهز المليار نسمة؟

فلا مناص من الإعجاب بانجازات هؤلاء الثلّة المصلحة التي لم تكن تدعمهم جهة حاكمة، ولايقف وراءهم طرف قوي يمكن أن يشكّل سنداً وملجأً لهم، بل ولّوا وجوههم فرادىٰ شطر أطراف الأرض، إلى حيث جموع المسلمين علىٰ اختلاف ألوانهم وأطيافهم، لا لشيء إلّا لنشر المحبّة والوداد بينهم، وإحكام وشائج الأُلفة الممدودة خلالهم، وتكريس عوامل الاحترام المتبادل بين أبنائهم ونُخبهم المثقّفة.

ومن هؤلاء الثلّة، بل ومن أبرزها: الإمام الشيخ محمد تقي القمي الذي جازف بحياته، وقدّم كلّ ما يملكه في سبيل تحقيق هذا الهدف المتمثّل بـإيصال الدعـوة المحمدية المباركة إلى جميع أقطار المسلمين، وتبليغ الخُلق العلوي الراشد فيهم، بأن يسلكوا سلوك نبيّهم المصطفىٰ الأمين ﷺ وأهل بيته الهادين المهديّين، وأصحابه الأبرار المنتجبين، الذين جسّدوا الخُلق القرآنـي، والمُـثُل الرسـالية، فـلم يـفرّقوا جماعة المسلمين ووحدتهم وتكاتفهم لمصلحة شخصية طارئة! ولم يميلوا عن كفّة «الإخاء» و«الأخوة» التي وضعها النبي الأكرم ﷺ وثبّت أساسها فيهم، فلم ينحازوا إلى عشائرهم إذا ما رأوهم قد جاروا، ولم ينصروهم إذا ما وجدوهم قد مالوا.

لقد آمن هذا الرجل إيماناً راسخاً بضرورة التمسّك بـالوحدة الإسـلاميّة ونـبذ العصبية الطائفية من أجل تحقيق أهداف الإسلام العليا، والانتصار علىٰ أعـدائـه الذين تكالبوا عليه من جميع الجهات، وتكاتفوا في سبيل تضعيفه وانتزاع شـوكته وإلى الأبد!

وأثبت ببليغ العبارة والعمل أنّ تحقيق الوحدة بين المذاهب الإسلاميّة، وتهيئة «المناخ» التقريبي المناسب لها لا يعدّ ضرباً من الخيال أو التوهّم، لأنّ الاخـتلاف بينها ليس في مجال الأصول شيئاً، فربّهم واحد، ونبيّهم واحد، وكـتابهم واحـد؛ وقبلتهم واحدة، وحجّهم واحد... وهكذا صلاتهم وصيامهم وزكاتهم واحدة أيضاً، وليس الاختلاف إلّا في بعض الفروع الثانوية، وهو ما لا يمكن أن يشكّل عـاملاً «مريعاً» للتفرقة والعداوة، ولا مبرّراً شرعياً لتفعيل العصبية والشحناء التي نهىٰ عنها جميعاً القرآن الكريم، وسنّة النبي الأكرم ﷺ وتـعاليم أهـل بـيته الطـاهرين عليهم السلام، ووصايا علماء المسلمين الأبرار.

وكان رحمه الله علىٰ قناعة تامّة بأنّ اختلاف الإخوة لا يمكن أن يطّرد إذا كانت هنالك نخبة مخلصة يُلمس فيها إدراك العالم الحـصيف، ونـبوغ المـجتهد الواعـي الذي لا يخشىٰ في الله لومة لائم، ولا يبتغي إلّا الكلمة الحرّة والحقيقة الكاملة.

وهذا إذا ماتمّ بصورة صحيحة فإنّه يمكن أن يؤثّر بشكل فعّال في الجماهير الإسلاميّة العريضة؛ نظراً لمكانة العلماء والنُخبة المؤمنة عند عوام المسلمين، وطاعتهم لهم، ممّا يزيد من تفعيل حركة الشارع الإسلامي في الساحة الدولية باتجاه تصعيد الوجود الإسلامي وحمايته من كلّ تعرّض يقوم به أعداؤه الحاقدون.

إنّ الإخلاص والأصالة والخُلق الكريم الذي تحلّىٰ بها جميعاً شيخ المصلحين العلّامة القمي رحمه الله هي التي دعت علماء المذاهب الفقهية، وأساتذة الجامعات، والوجوه الاجتماعية والسياسية المصرية ـ إبّان توافده علىٰ مصر ـ إلى احترامه، وإبداء الإعجاب به، والإطراء عليه في صورةٍ أقرب ما تكون إلى المبالغة.

وحسبك الألقاب التي كانت تطلقه عليه الصحف والمجلّات المصرية، والعناوين التي كانت تحملها المنشورات التي صدرت ضمن لقاءاته الصحفية، وكيل المدح والثناء الذي كان يكيله له أصحاب القلم والمثقفون من العرب المسلمين وغيرهم، في خطبهم وكلماتهم من علىٰ المنابر.

إنّ من يقرأ مقالات هذا المصلح الكبير، وكلماته التي ألقاها ونشرتها الصحف آنذاك، يقف علىٰ سلامة ذهنه، ومتانة أُسلوبه، وقوة طرحه الذي لا يزيد المخاطب إلّا اقتناعاً.

ولعلّ أروع ما يستوقف النظر في شخصية هذا الرجل ـ بالإضافة إلى شجاعته وحماسه البالغين ـ شيئان:

الأوّل: أدب الاعتراض الذي تحلّىٰ به، والذي كان يقوم علىٰ الحوار والنقاش العلميَّين، بعيداً كلّ البُعد عن الحساسيات المفرطة، والعواطف الشخصية أو الطائفية الجيّاشة. فلم يطلب الوسائل الأخرىٰ التي تحمل طابع الردّ بالمثل، أو الردّ بخشونة، أو اعتماد القوة كأسلوب للتعامل مع معارضيه ومخالفيه، رغم تمتّعه بعلاقات وثيقة مع جهات حكومية وأطراف دبلوماسية غربية.

والثاني: التزامه بالمصلحة الإسلاميّة العُليا. فـفرض علىٰ نفسه سلوكاً من

شأنها تعزيز مكانة الدين الإسلامي في نفوس الناس ولو كانت علىٰ حساب مصلحته الشخصية.

لقد جسّد هذا الرجل بسلوكه وسيرته الأبعاد الحقيقية للتعاليم الإسلاميّة، والمُثل القرآنية، والأخلاق المحمدية الكريمة. وهو بذلك سعىٰ إلى تثبيت الخُطوات الأُولىٰ للحركة التقريبية، وتأسيس الوحدة بين أطياف المسلمين التي كان ﷺ من أبرز وأشدّ دعاتها، تأسّياً بالقيادة الحكيمة المتمثّلة بالإمام الخميني﵀ للثورة الإسلامية في إيران، ومن بعده خلفه الصالح آية الله السيّد الخامنئي في إداره شؤون البلاد، وامتداداً لتوجيهاتهما في إطار الدعوة إلى الفكر الإسلامي الأصيل.

وبذلك فإنّ الحشد الهائل من المواقف التي سجّلها في حياته، ومجموع السيرة التي حفظها عنه الناس، يعدّان امتداداً لأخلاق وسلوك أهل بيت النبوة عليهم السلام والصحابة الأبرار منهم والعلماء الصالحين.

ومن هنا فقد اكتسبت مواقفه بُعداً ربّانياً سامياً في هذه الأُمّة، الأمر الذي جعل الأنظار تتوجّه إليه، والاهتمامات ترتكز نحوه.

فلا عجب إذاً أن نرىٰ هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وهو يتعرّض إلى جانبٍ من الجوانب المشرقة التي تشتمل عليها هذه الشخصية الفذّة، وهو الجانب التقريبي: فكراً وثقافةً ودعوة. وهو من إعداد وتأليف حجّة الإسلام والمسلمين سيد هادي الخسروشاهي[1] الذي أراد من عمله هذا شيئين فيما يبدو:

---

١. وقد قام السيد الأستاذ بإعداد هذا الكتاب في القاهرة، في سنة ١٤٢٤هـ، حين كان يقيم في مصر كرئيس للبعثة الدبلوماسية للجمهورية الإسلامية الايرانية في القاهرة. كما قام بإعداد ونشر كتب أخرىٰ، منها: الآثار الكاملة للسيد جمال الدين الحسيني الأفغاني، وتقع في ٩ أجزاء، طُبعت في ستة مجلّدات، في ٣٥٠٠ صفحة، وقد قامت بنشرها في القاهرة مكتبة الشروق الدولية. ومنها: كتاب «أهل البيت في مصر» والذي نُشر مرّتين في القاهرة، ونُشر للمرّة الثالثة عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، عبر مركز العلمي بقم، وهي طبعة محقّقة ومزيدة ومنقّحة. وهذا إن دلّ علىٰ شيءٍ فإنّما يدلّ علىٰ أنّ الاشتغال بالأمور السياسية لا يمنع الناشطين والعاملين في سبيل الإسلام، عن قيامهم بالعمل الثقافي الجادّ والهادف...

الأوّل: نشر الثقافة التاريخية من خلال التعريف بأبرز علمائنا ودعاتنا ومصلحينا المعاصرين لغرض الاقتداء بهم، واعتبارهم أُسوة حسنة للأمة، خاصةً وهي تمّر في ظروف أقرب ما تكون متردّية.

الثاني: تجذير الوعي التقريبي بين أبنائنا وشبابنا الذين تغمرهم الحماسة وهم يتوقون انتصار الإسلام علىٰ جحافل المعتدين، من الاستعمار والصهيونية العالمية.

وهذا ما دعا مركز التحقيقات والدراسات العلمية التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة إلى تقديم ما يلزم من المساعدة من أجل طبع ونشر هذا الطرح الشيّق والهادف بأجمل حلّة، وإخراجه بهذه الصورة القشيبة، ليصطفّ كغيره ضمن المشاريع والنشاطات العلمية والثقافية التي يقوم بها هذا المركز من أجل تعزيز الوحدة بين المذاهب الإسلاميّة، وتكريس المودّة والمحبّة والاحترام بين نُخب المسلمين، ونشر ثقافة التقريب بين الأوساط الثقافية، والمحافل الفكرية والاجتماعية.

وفي الوقت الذي نثمّن مساعي المؤلّف وجهوده الحثيثة التي بذلها من أجل إخراج هذا الطرح الجامع، نشكر الإخوة الذين لم يبخلوا بما عندهم من تقديم المساعدة والتعاون مع المؤلّف من كادر قسم التاريخ وتراجم الرجال التابع للمركز، وخاصة الأخ الفاضل شوقي محمّد، كما لا يفوتنا أن نشكر الفاضلين علي الخزعلي وياسين العلوان حيث بذلا جهداً مشكوراً في صياغة المقدمة حول التقريب. فجزاهم الله خير الجزاء، ووفّقهم لأعمالٍ وأُطروحاتٍ أخرىٰ إن شاء الله تعالىٰ.

مركز التحقيقات والدراسات العلمية

التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة

المقدّمة

حول التقريب و: المؤسّس

سيد هادي الخسروشاهي

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وعلىٰ آله الطيّبين الطاهرين وصحبه المنتجبين.

وبعد، لا شكّ أنّ الاختلاف من الأُمور التي تقتضيها طبائع الناس؛ لاختلاف أفهامهم ومصالحهم الشخصية، وقد قرّر القرآن الكريم هذه الحقيقة في عدّة آيات:

منها: قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾[1].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[2].

وغيرها من الآيات الشريفة الواردة في هذا المضمون، وقد خضع المسلمون لهذه السنّة، فاختلفوا فيما بينهم اختلافاً بيّناً، فتولّدت فرقاً ومذاهب شتّىٰ.

وربّما أدّىٰ ذلك الاختلاف في كثير من الأحايين وعلىٰ مرّ التاريخ إلى النزاع والشقاق، بل وسفك الدماء أيضاً علىٰ الرغم من أنّ الإسلام يدعو إلى التوحّد

---

١. البقرة: ٢١٣.

٢. هود: ١١٨، ١١٩.

والتآخي، ورصّ الصفوف وذمّ التفرّق والتشرذم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[١].

وقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[٢].

وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٣].

وقال الرسول الأعظم ﷺ: «مَثَل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد، إذا اشتكىٰ بعضه تداعىٰ سائره بالسهر والحمّىٰ»[٤].

وورد عنه ﷺ: «يا أيها الناس، عليكم بالجماعة، وإيّاكم والتفرقة»[٥].

ولا شكّ أنّ الاختلافات المذهبية والعقائدية بين المسلمين هي من أهمّ الأسباب التي أدّت إلى تفرّقهم.

والسؤال المهمّ الذي يطرح هو: كيف يمكن علاج هذه المشكلة؟

فهل نسعىٰ في حلّها إلى إزالة الاختلافات المذهبية عن طريق إيجاد مذهب واحد؟

والجواب: أنّ محاولة كهذه هي أقرب إلى المستحيل منها إلى الإمكان، ولا نظنّ أنّ أحداً سيحاول مثل هذه المحاولة غير المعقولة، وهنا يقتضي البحث عن طريق آخر يمكن أن يساهم في إيجاد حلٍّ عادل ترتضيه جميع الأطراف، ولانجد طريقاً أفضل من سلك سبيل «التقريب» الذي نراه الحلّ الأمثل لهذه المشكلة التي أرقت الجميع.

ولابدّ لنا أن نشير إلى معنى «التقريب» في البداية، والمقصود من هذا المصطلح، لنكون علىٰ بيّنةٍ منه، فإنّ كثيراً من المشاريع المهمّة التي تأسّست في هذا السياق

---

١. الأنبياء: ٩٢.

٢. آل عمران: ١٠٣.

٣. الأنفال: ٤٦.

٤. بحار الأنوار ٦١: ١٥٠؛ صحيح مسلم ٤: ١٩٩٩ ب ١٧؛ تراحم المؤمنين وتعاطفهم، من كتاب البرّ والصلة ح ٢٥٨٦.

٥. كنز العمّال ١: ٢٠٦ ح ١٠٢٨ وعزاه إلى أحمد عن رجل.

لم يحالفها النجاح، ولم تحقّق أهدافها المرجوّة،لسبب بسيط وهو عدم استيعابها للمعنىٰ ولا فهمها لمقاصده.

معنى التقريب

جاء في كتب اللغة: قَرُب الشيء يَقرُبُ قُرْباً وقرباناً، أي دنا، فهو قريب، وتقرّب إليه تقرُّباً وتِقِرّاباً، واقترب وقاربه إذا لم يبتعد عنه، فالقُرْب نقيض البُعد، والتقاربّ ضدّ التباعد.

والتقارب لا يختصّ بالمكان،ففي حديث المهدي عليه السلام: «يتقارب الزمان حتّىٰ تكون السنة كالشهر» أراد: يطيب الزمان حتّىٰ كأنّه لا يُستطال، لأنّ أيام السرور والعافية قصيرة. وفي الحديث القدسي: «من تقرّب إليَّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً» المراد بقرب العبد من الله سبحانه القُرب بالذكر والعمل الصالح، لا قرب الذات ولا المكان، لأنّ ذلك من صفات الأجسام الفانية، والله يتعالى عن ذلك ويتقدّس كما هو ثابت في محلّه.

وقال الأصمعي: إذا رفع الفرس يديه معاً حال الجري، ووضعهما معاً، فذلك التقريب. وقال ابن زيد: إذا رجم الأرض بيديه معاً رجماً فهو التقريب.

وهو ـ كما ترىٰ ـ كلٌّ حسن، يشير إلى البركة والنضارة والوحدة والاجتماع، والدنوّ وعدم النأي والابتعاد.

وأمّا معناه اصطلاحاً، فإنّ التقريب بين المذاهب الإسلاميّة هو محاولة جادّة لتعزيز الروابط بين أتباع هذه المذاهب، من خلال تفهّم الاختلافات الواردة بينها، ونزع آثارها السلبية، وليس إزالة أصل الاختلاف من البين.

فالذي يدعو إلى التقريب لايريد أن يزيل المذاهب ويصيّرها مذهباً واحداً، فلا يريد أن يجعل السنّي شيعياً، ولا الشيعي سنّياً، بل يريد أن يحوّل ذلك الشيء الذي صار داءً للأمة ـ وهو الاختلاف ـ إلى صيغة علاج باهرة، ويقلبه إلى صورة دواءٍ ناجع للحالات المستعصية.

فبدلاً من أن تكون هذه الاختلافات بين المسلمين سبباً لضعفهم وتمزّقهم، يمكن أن تكون سبباً لوحدتهم وتطوّرهم، وإثراء معارفهم وعلومهم وأفكارهم دوماً بقيم وأُطروحات مواكبة ووقتنا الحاضر.

ففكرة «التقريب» يمكن أن تعدّ ثورةً ونهضةً للمسلمين ضد الواقع السيّء الذي يحيط بهم، فيحوّل الاختلافات المعقّدة ـ فضلاً عن البسيطة ـ إلى حالة ايجابية تنعش فكر المسلمين، وتبعث علىٰ ازدهار ثقافتهم، وتوسّع من أُفقهم، وتعمل علىٰ تجسيد حقيقة كون الشريعة الإسلامية هي الشريعة السمحاء كما عبّر عنها الرسول الأعظم ﷺ.

فإذن نستطيع من خلال التقريب أن نستوعب خلافاتنا، ونجعل منها رصيداً هامّاً يموّل حركة النمو والتطوّر والنهوض، بدلاً من أن تكون عاملاً من عوامل إضعاف الأمة، وقيداً يحبس طاقاتها وخيراتها.

آلية التقريب

ولايمكن للتقريب أن يحقّق هدفه بمجرّد دعوة المسلمين لرفع الخلاف بينهم، بل يحتاج إلى آلية عمل خاصة، من خلالها يستقيم العمل، وتستمرّ الانطلاقة.

ويمكن أن تكون تلك الآلية متمثّلة بعدّة خطوات:

(ألف) إحياء التعاليم الإسلاميّة المشتركة بين المذاهب، وذلك لأنّ المسلمين مهما اختلفوا فيما بينهم فإنّه تبقىٰ هناك قواسم مشتركة كثيرة علىٰ مستوىٰ أُصول الدين، وعلىٰ مستوى المسائل الفقهية والأخلاقية، بل يمكن أن ندّعي أنّ ممّا يتّفق عليه المسلمون أكثر ممّا يختلفون فيه.

(ب) نشر فكرة التقريب وإشاعتها بين طبقات الأُمة بكلّ وسيلةٍ ممكنة، خصوصاً ونحن نعيش عصراً أصبح العالم فيه كالقرية الواحدة.

(ج) السعي إلى إزالة التهم والظنون بين أتباع المذاهب، وذلك عند طريق تهيئة الأرضية لأن يفهم كلّ مذهب ما عند المذاهب الأُخرىٰ من عقائد ومعارف بلا

تحريف ولا تشويه، ويمكن أن يحصل ذلك بتيسير إيصال المصادر الأساسية لكلّ مذهب إلى أتباع المذهب الآخر، فإنّ من أسباب الضغائن التي تحصل بين أتباع المذاهب تنشأ من عدم معرفة أحدهم للآخر إلّا بصورة محرّفة ومشوّهة، لاتمثّل حقيقة المذهب، لا من قريبٍ ولا من بعيد.

(د) محاولة منع غير المختصّين بالعلوم الإسلاميّة من الدخول في المناظرات المذهبية، وخاصةً تلك التي تُعرض في وسائل الإعلام المصوَّرة والمكتوبة، لأجل أن لاتتسبّب في زيادة شدّة الاختلاف، لأنّ الاختلاف وإن كان متحقّقاً بين المذاهب ـ وهو أمر لا مفرّ منه ـ ولكن قد يحدث أن يصوّره غير المختصّين بغير حجمه الواقعي، في الوقت الذي نحتاج فيه إلى تقليص الاختلافات إلى أقلّ ما يمكن.

(هـ) التكثيف من عقد المؤتمرات والندوات بين العلماء والمختصّين من كلّ المذاهب الإسلاميّة، ففيها الفرص مؤاتية للجلوس مع بعضهم البعض، والحوار وجهاً لوجه، فيمكنهم أن يضعوا مقرّرات وثوابت من شأنها التأليف بين المسلمين، وتقوية أواصر الأخوّة الإسلاميّة.

(و) التسليم بحقوق المسلم بغضّ النظر عن مذهبه، والتي من أهمّها عصمة دمه وماله وعرضه.

(ز) الانشغال بالهموم الكبرى للأُمة، لأنّها تواجه أخطاراً سياسية وثقافية وعسكرية كبيرة، توجب علىٰ المسلم أن يهتمّ بها، وأن يتركوا النزاعات فيما بينهم جانباً، وفقاً لمنطق الأُخوّة التي دعا إليها الإسلام الحنيف.

ويتّضح ممّا سبق أنّ معنىٰ التقريب بين المذاهب الإسلاميّة هو السعي بطرق وآليات مختلفة لإزالة الآثار السلبية المترتّبة علىٰ الاختلافات بين المذاهب وعلىٰ مستويات مختلفة، وتهيئة الأرضية المناسبة للتعايش السلمي والأخوي بين أفراد المذاهب المختلفة تحت ظلّ الإسلام الذي يتحقّق بالإقرار بالتوحيد والعدل الإلهي، وبنبوّة محمد ﷺ وتصديق رسالته.

أهمّية التقريب

لا شكّ أنّ أهمية أيّ عملٍ تتجلّىٰ في الغاية المترتّبة علىٰ ذلك العمل، فاذا اتّضح لنا ممّا سبق في بيان معنىٰ التقريب: أنّ الغاية المترتّبة عليه هي تحقيق الوحدة بين المسلمين، والتي تعدُّ أمراً أساسياً في الإسلام ـ وقد ذكرنا بعض النصوص الشريفة التي تدلّ علىٰ ضرورة التوحّد وذمّ التفرّق والتنازع ـ يضاف إلى ذلك: أنّ المسلمين لو أرادوا أن ينهضوا ويتخلّصوا من حالة الضعف والتردّي فلا سبيل لهم إلّا التوحّد ونبذ الفرقة والتناحر، فلا مناص من القول: إن الغاية المترتّبة علىٰ التقريب بين مذاهب المسلمين هي غاية شريفة بلا ريب، بل هي مفروضة بحكم العقل والشرع، وعليه تتّضح أهمية التقريب وضرورته، وأنّه ينبغي علىٰ المسلمين أن يتعاملوا معه بجدّية وبمسؤولية كبيرة تتناسب مع عظم الغاية المترتّبة عليه وشرفها.

وتبرز اليوم الحاجة إلى التقريب أكثر من أيّ وقتٍ آخر، وذلك لأنّ الإسلام اليوم يعيش معركةً حضاريةً ومصيريةً خطرة، تستدعي تهيئة كلّ أسباب القوة والانتصار.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّٰهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاٰ تَعْلَمُونَهُمُ اللّٰهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[١].

ومن هنا، فعلىٰ الأُمة الإسلاميّة أن تعي أهمية التقريب ودوافعه؛ لتنعم بمعطياته، وتجني ثماره، كما وينبغي أن لا يعتبروا التقريب محاولات عقيمة وغير مجدية، بل هو أمر في غاية الأهمية، وسيعطي ثماره إن شاء الله تعالى عندما تلتفت الأُمة إلى أهمّيته ودوره، وتزول عنه الضبابية الذي قد تعتريه من هذا الجانب أو ذاك، فيوجب عدم التفاعل معه أو تفعيله.

---

١. الأنفال: ٦٠.

تاريخ التقريب

عندما التحق الرسول الأعظمﷺ إلى الرفيق الأعلىٰ والدولة الإسلاميّة في طور نشوئها، برزت طائفة من المشكلات التي واجهت المسلمين، استدعت المتصدّين إلى اتّخاذ المواقف تجاهها، فكان أن ظهرت الخلافات بين المسلمين في ظلّ غياب النبي القائدﷺ، ممّا أوجب علىٰ المصلحين من الصحابة التصدّي لإزالتها بكلّ سبيل ممكن.

ولقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سلام الله عليه هو السبّاق إلى هذا العمل، فبذل جهداً حثيثاً لا يُنكر في هذا الاتّجاه، فأصلح ماكاد يفسد بفطنته وذكائه، وبذلك فهو يعدّ المؤسّس الحقيقي لفكرة التقريب، والغارس الأوّل لبذرته.

فلقد رسم للمسلمين صورةً رائعةً، وممارسةً حيّةً لحقيقة التقريب عندما رأى الاصلاح ضرورة لديمومة هذه الدولة الفتية، وعلىٰ هذه الوتيرة سار أبناؤه أئمة أهل البيت عليهم السلام، فقدّموا نماذج رائعة في هذا المضمار، وأبدوا مواقف مدهشة أثارت إعجاب المسلمين، من المتقدّمين والمتأخّرين.

صحيح أنّه لم يكن مفهوم التقريب مطروحاً بهذا العنوان، ولا بهذه الصيغة التي عليها اليوم، لكن كلّ ممارسات ومواقف أئمة وعلماء أهل البيت سلام الله عليهم هي تجسيد واقعي لهذا المفهوم.

ومن هنا نجد علماء الإماميّة قد سلكوا ـ ومازالوا ـ هذا الطريق الذي سلكه أئمتهم عليهم السلام، فعملوا مابوسعهم لأجل إزالة كلّ ما من شأنه أن يعكّر وحدة المسلمين ويثير فرقتهم. بل كان منهم من يحضر مجالس دروس أهل السنّة، ويداوم علىٰ حضورها، ويتوسّلون بكلّ طريق من أجل إيصال وجهة نظرهم للآخرين بنفس الهدوء والموضوعية التي يتلقون بها أخبارهم في مجالس دروسهم.

فلم تخلُ مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي إلّا وتجد علماء الإماميّة قد

مارسوا دوراً هامّاً في ميدان التقريب بين المسلمين، ولم ينقل عنهم ضلوعهم في أيّ دورٍ يفضي إلى إيقاع الفتنة بين أبناء هذه الأُمة، أو تضعيف وحدتهم، و هو ما يشهد لهم التاريخ علىٰ امتداده.

لعلّ قائلاً يقول: إنّ علماء الشيعة عندما مارسوا هذا الدور إنّما ينطلقون من مبدأ التقية الذي أكّد عليه أئمتهم، فهم ليسوا جادّين في مسألة التقريب!

وهذا الكلام عارٍ عن الصحّة، ولا يمت إلى الواقع بصلة، لأنّ مبدأ التقية ليس الغرض منه تفتيت شمل الأُمة، أو تمزيق وحدتها، بل هو مفهوم وحدوي تقريبي بجوهره وحقيقته، فهو ـ في الواقع ـ إظهار التودّد للمخالفين؛ حفاظاً علىٰ وحدة المسلمين وتماسكهم.

فالأئمة عليهم السلام يطلبون من شيعتهم وأتباعهم أن ينخرطوا ما أمكنهم في المجتمع الإسلامي، ويساهموا في بنائه وتطوّره، بل وأنّهم يأمرونهم بالصلاة خلف من يخالفهم في الرأي وفي الصفوف الأُولىٰ أيضاً، حتّىٰ ورد عنهم عليهم السلام بأنّ الذي يصلّي خلفهم في الصفّ الأوّل كالشاهر سيفه مع رسول الله صلى الله عليه وآله [١].

وهذا إن دلّ علىٰ شيء فهو يدلّ علىٰ رغبة أئمة أهل البيت عليهم السلام في توطيد أواصر الترابط بين المسلمين، وعدم السماح لأيّ نوعٍ من الاختلافات العقائدية أو الفقهية بأن تكون مانعة من تحقيق ذلك، لأنّ الشيء الأهمّ بنظرهم عليهم السلام هو وحدة المسلمين وتماسكهم.

وعلىٰ هذا المبدأ سار علماء وأتباع أهل البيت عليهم السلام رغم الدعاية التي تريد شرّاً بالمسلمين، والظلم والتعسّف لهذه الطائفة وعلمائها الأبرار.

ولعلّ من الشواهد التاريخيّة في مجال التقريب في عصرنا الراهن المحاولة التي

---

١. رواه الشيخ الطوسي في تهذيب الاحكام (إحدى الكتب الفقهية الأربعة عند الإماميّة) ٣: ٢٧٧ حديث ٨٠٩ بسنده إلى إسحاق بن عمّار عن الإمام الصادق عليه السلام. وفي رواية الحلبي عنه عليه السلام أنّه قال: «من صلّىٰ معهم في الصفّ الأوّل كان كمن صلّىٰ خلف رسول الله صلى الله عليه وآله» رواه الكافي ٣: ٣٨٠ حديث ٦.

قام بها السيد جمال الدين الحسيني الأسدآبادي المعروف بالأفغاني من أجل توحيد المسلمين ورصّ صفوفهم لمواجهة أعدائهم، وذلك إبّان الغزو الأوروبي للعالم الإسلامي.

فلقد قام بنشاطات حثيثة في هذا المجال أدهشت الجميع، وكان مشروع الوحدة هو الشغل الشاغل له في تفكيره وسلوكه ﷺ، وكان ينتقل من بلدٍ إلى آخر يدعو إلى توحيد صفوف المسلمين، وتوجيه انتباههم نحو العدوّ المشترك الذي يريد شرّاً بالإسلام والمسلمين.

ومن الرجال الذين عاشوا هموم العالم الإسلامي، وساروا على خطى أهل البيت عليهم السلام، ونهج السيد جمال الدين الحسيني، هو الشيخ محمد تقي القمي رحمه الله، حيث عدّ من أبرز رجال التقريب في صيغته المعاصرة، والأوّل في تأسيس دار التقريب الغرّاء التي تعتبر محاولة فريدة من نوعها في هذا النطاق، والخطوة الأُولى باتجاه الوحدة والتقريب بين المذاهب الإسلاميّة.

حياة الشيخ القمي وسيرته الذاتية

ولادته ونشأته

ولد الشيخ عام ١٩١٠ / م ١٢٨٩هـ ش في مدينة قم المقدسة، من عائلةٍ دينيةٍ، حيث كان والده الشيخ أحمد القمي كبير القضاة الشرعيين في طهران، وكان أجداده أيضاً من رجال الدين، فهو حفيد لسبعة أجداد كلٌّ منهم كان يعدّ عالماً من علماء الدين، وكانت بيوتهم ملاذاً آمناً يلجئ إليه الناس لأجل حلّ مشاكلهم والنزاعات التي تحدث بينهم.

فنشأ الشيخ القمي في ظلّ هذا الجوّ الروحي والديني نشأةً مهّدت له في أن يكون من الأعلام البارزين علىٰ مستوىٰ العالم الإسلامي. فكان في صغره يرىٰ ويراقب والده وهو يجلس في مكان الصدارة، يدلي بأجوبته للسائلين، ويتصدّىٰ لحلّ مشاكل الناس الدينية والدنيوية، ويرىٰ أيضاً كيف أنّ الناس ينصتون إلى والده إجلال واحترام مفرطين، فمن الطبيعي جدّاً أن يترك ذلك الجوّ العائلي أثره في شخصية الشيخ ومواقفة.

بالإضافة إلى ذلك أنّه كان يتمتّع بمواهب خاصّة منَّ الله بها عليه، جعلت منه شخصيةً بارزةً جدّاً، بحيث نالت شهرةً ومكانةً اجتماعية طار اسمها في الآفاق.

تتلمذه وتحصيله العلمي

درس الشيخ محمد تقي القمي الابتدائية في العاصمة طهران، وحفظ القرآن الكريم

وتعلّم اللغة العربية وآدابها، وكانت آثار النبوغ بادية عليه في كلّ مراحل طفولته.

وعندما أنهىٰ المرحلة الثانوية التحق بالمدرسة العليا للآداب، وتعلّم خلالها اللغة الفرنسية. وفي نفس الوقت واصل دراسته الدينية علىٰ يد أساتذة متخصّصين، فدرس الفقه وأصوله، وعلم الكلام، وسائر العلوم الدينية الأُخرىٰ.

نشاطه التقريبي

من أبرز نشاطات الشيخ القمي ﷺ انشغاله بمسألة التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، فقد كان ﷺ يتألّم كغيره من المصلحين والمخلصين من هذه الأُمة لما يرىٰ من سوء الحال الذي وصل إليه المسلمون، وخصوصاً ما يجري بين السنّة والشيعة من نزاع لا طائل منه.

ولقد حدثت في زمانه ﷺ حادثة أليمة أسرعت من خطاه باتجاه الانخراط في التيار التقريبي، وملخّص الحادثة هي مقتل حاج إيراني من ذرّية الرسول ﷺ بحجّة إهانته الكعبة المشرفة!

والحقيقة أنّ هذا الرجل قد أصيب بحالة غثيان طارئة أثناء طوافه حول الكعبة، فأراد الخروج من بين الطائفين، لكنّه لم يتمالك نفسه، فجمع ثيابه وألقىٰ قيئه فيها حرصاً منه علىٰ عدم تلويث أرض المسجد، ثم أسرع بالخروج فاستوقفه شرطي وسأله عمّا يحمله، فحاول أن يوضّح له ذلك بالفارسية لعدم معرفته باللغة العربية، فلم يفهم منه شيئاً فأخذه وسلّمه إلى القضاء، وهناك أيضاً لم يفهموا منه شيئاً وعزّ الترجمان آنذاك. ولأنّ أذهان القضاة وعقولهم تحمل أفكاراً وتصوّرات سيّئة وغير واقعية عن الشيعة، بحيث أنّهم يتصوّرون أنّ الايرانيين جميعهم لا يحجّون بيت الله الحرام، وإنّما حجّهم هو إلى كربلاء والنجف! وأنّهم إنّما يأتون إلى بيت الله الحرام بقصد إهانته فحسب!! فاستنتج هؤلاء القضاة بأنّ هذا الشخص إنّما كان يستهدف تنجيس الكعبة وإهانتها، فحكموا عليه بالإعدام... وضربوا عنقه!

هذا الحادث المؤلم قد هزّ كيان الشيخ، فكان ذلك دافعاً قوياً لكي ينتفض ويتحرّك للانخراط في تيار المصلحين الذي يحاول أن يكسر حواجز اللاثقة وسوء الظنّ الحاصل بين الفريقين: السنّة والشيعة، فعزم علىٰ أن يقوم بطرح مشروع تاريخي، يهدف إلى التقريب بين المذاهب المختلفة، وإزالة كلّ ما من شأنه أن يثير التفرقة والبغضاء بين المسلمين.

وقد اختار مصر لتكون مركزاً لنشاطاته ومشروعه التقريبي، وذلك لعدّة اعتبارات، أهمها: كونها تضمّ أكبر مركز إسلامي في العالم، وهو الجامع الأزهر، وبما أنّ الشيخ لم يكن يجيد التحدّث باللغة العربية، لذا فقد جمع حقائبه وذهب إلى لبنان بهدف إتقانها، فأقام في إحدىٰ القرىٰ يعاشر أبناءها وشيوخها، ويعكف ليل نهار علىٰ ممارسة التحدّث مع الآخرين لأشهر عديدة.

وقد سجّل الشيخ ذكرياته في تلك القرية، أشار إليها في بعض مقالاته وأهمّها حكاية ذلك الرجل النصراني الذي كان يسعىٰ إلى كسب ودّ أبناء تلك القرية، وكانوا بالمقابل، يحبوّنه ويحترمونه، لدرجة أنّه كان إذا خرج إلى الشارع اجتمع حوله الناس يحادثونه ويقبّلون يده، وقد أثار ذلك الشيخ، فلقيه يوماً وسأله شخصياً عن سرّ هذا الترحيب، فأجابه وهو يشير إلى كنيسة القرية حيث توجد بجوارها مدرسة، بأنّ السبب هو هذا! وقال: نحن نسعىٰ إلى أن ننشئ إلى جانب كلّ كنيسة مدرسةً فنودع فيها أبناء القرية، ونحاول أن نرتبط بهم من خلالها فكرياً وروحياً وعاطفياً، وما تراه إنّما هو من ثمار ذلك!

وقد نبّهت هذه القضية الشيخ ﵀ إلى سرّ تطوّر الحضارة الإسلاميّة في عصورها الذهبية، وتتابع انتصاراتها في الميادين، حيث كان التعليم لا ينفصل عن المسجد في كلّ الأحوال.

ثم إنّه ﵀ ترك لبنان متوجّهاً إلى مصر عام ١٩٣٨م، بعد أن أتقن العربية كتابةً ومحادثة، وكان أولىٰ الشخصيات التي اتّصل بها هناك هو شيخ الأزهر آنذاك:

الشيخ محمد مصطفىٰ المراغي الكبير، وقد شرح له الحال الذي وصل إليه المسلمون من التشتّت والفرقة والتباغظ، فطرح عليه فكرة التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، فرحّب بها بحذر، حيث كان بحكم مركزه لم يكن ليستطيع أن يظهر بمظهر المؤيّد لفكرة كهذه علناً في ظلّ الجوّ الذي كان يسود الأزهر آنذاك، لكنّه عرف كيف يخدم الفكرة، ويقدّم المساعدة اللازمة في ذلك، فاقترح عليه أن يبدأ عمله أولاً بإلقاء المحاضرات في الأزهر وخارجه، وأعانه في تسهيل الاتّصال برجال الأزهر وعلمائه، فكان يجمعه بمن يعرف فيهم الميل إلى التقريب والتقارب.

في غضون ذلك كان الشيخ ﷺ استأجر بيتاً متواضعاً لسكنه، ثم صار مركزاً لنشاطه العلمي، ومن بعد أصبح هذا البيت مقرّاً فعّالاً لدار التقريب في القاهرة، وكان يعتمد في نفقاته علىٰ ما جاء به من مال، وعلىٰ ما يُرسل إليه من ذويه في إيران، وأمّا ما يحصل عليه من مالٍ مقابل تدريسه وعمله المكتبي فيوزّعه علىٰ مستخدمي الجامعة.

ومن خلال تواجده في الأزهر تمكّن الشيخ من الاتّصال بطائفة كبيرة من العلماء والأدباء والمثقّفين المصريّين الذين أُعجبوا بشخصيته العلمية، وباتّزانه وخلقه، ورجاحة عقله، وإخلاصه ومودّته.

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية اضطرّ الشيخ إلى العودة إلى إيران ليبشّر بدعوته إلى التقريب بين المذاهب الإسلاميّة في الوسط الشيعي، وكان آية الله العظمىٰ السيد حسين البروجردي قد استقرّ آنذاك في قم عام ١٩٤٥م فالتقىٰ به الشيخ وشرح تفصيل رحلته ومجمل نشاطاته، فأظهر السيد سروره تجاهه، وتأييد ما أبلاه علىٰ هذا الصعيد، وقرّر دعمه وإسناده.

وبذلك اكتسب هذا المشروع التقريبي تأييد أكبر أقطاب ومراجع السنّة والشيعة، وهو أمر يعدّ من أهمّ عناصر نجاحه وديمومته.

الشيخ القمي وتأسيس دار التقريب

وبعد انخماد لهيب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٦م عاد إلى مصر ثانيةً ليبدأ مرحلةً جديدةً أطلق عليها مرحلة التكوين، بعد أن كانت المرحلة الأولىٰ مرحلة التمهيد، وفي هذه المرحلة تمّ تأسيس دار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة في القاهرة في فبراير / شباط عام ١٩٤٧م وقد كان للشيخ مصطفىٰ عبد الرزاق ـ الذي عُيِّن شيخاً للأزهر بعد رحيل الشيخ المراغي ـ والشيخ عبد المجيد سليم دوراً كبيراً في ذلك وإن كان الاول لم ينضمّ رسمياً إلى جماعة التقريب، لكنّه كان بجانبها، ومسانداً لها.

وكان من أعضائها المؤسّسين بالإضافة إلى الشيخ القمي والشيخ عبد المجيد سليم: فضيلة الشيخ محمود شلتوت، وفضيلة الشيخ عبدالعزيز عيسىٰ، وفضيلة الشيخ حسن البنّا، وسماحة آية الله الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، وآية الله السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي، ومحمد علي علبوه باشا.

وكان قد اختير الشيخ القمي ليكون هو السكرتير العام لدار التقريب باعتباره المؤسّس الأوّل لهذه الدار، وقد انعقدت أول جلسة لها وسط آمال كبيرة، وحضور ممثّلي المذاهب الإسلاميّة المختلفة.

وكان ممّن التحق بها وانضمّ إلى هذا الركب لاحقاً فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري وفضيلة الشيخ محمد الغزالي.

وبعد سنتين من نشوئها أصدرت الجماعة مجلةً باسم رسالة الإسلام أيّ في يناير / كانون الثاني من عام ١٩٤٩م وكانت بإدارة فضيلة الشيخ عبدالعزيز عيسىٰ، واستمّرت في الصدور قرابة (٢٤) عاماً، وقد تركّزت أكثر بحوثهم حول مسألة التقريب وتفعيلها، وتضمّنت أيضاً تفسيراً للقرآن الكريم بقلم الشيخ محمود شلتوت والذي كان علىٰ فصول متتابعة حتّىٰ اكتمل كتاباً.

حركة التقريب والفتوى التاريخية

ومن أبرز ثمار حركة التقريب التي قادها الشيخ القمي هي الفتوىٰ التاريخية لفضيلة الشيخ محمود شلتوت في جواز التعبّد علىٰ المذاهب الإسلاميّة، ومنها مذهب الشيعة الإماميّة الاثني عشرية.

وقد صدرت هذه الفتوىٰ في أبريل /نيسان من عام ١٩٦٠م فمن جوابٍ لسؤالٍ نصّه:

إنّ بعض الناس يرىٰ أنّه يجب علىٰ المسلم لكي تقع عباداته ومعاملاته علىٰ وجهٍ صحيحٍ أن يقلّد أحد المذاهب الأربعة المعروفة، وليس من بينها مذهب الشيعة الإماميّة ولا الشيعة الزيدية، فهل توافقون فضيلتكم علىٰ هذا الرأي علىٰ إطلاقه، فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإماميّة الاثني عشرية مثلاً؟

فأجاب فضيلته: «إنّ الإسلام لا يوجب علىٰ أحدٍ من أتباعه أتّباع مذهبٍ معيّنٍ، بل نقول: إنّ لكلّ مسلمٍ الحقّ في أن يقلّد بادئ ذي بدء أيّ مذهبٍ من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً، المدوّنة أحكامها في كتبها الخاصّة، ولمن قلّد مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره ـ أيّ مذهبٍ كان ـ ولا حرج عليه في شيء من ذلك. فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلّصوا من العصبية بغير الحقّ لمذاهب معيّنة، فما كان دين الله، وما كانت شريعته بتابعةٍ لمذهبٍ، أو مقصورة علىٰ مذهب، فالكلّ مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز لمن ليس أهلاً للنظر والاجتهاد تقليدهم، والعمل بما يقرّرونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات...»[١].

وقد عزّزت هذه الفتوىٰ مشروع التقريب أيّما تعزيز، وكانت ـ بحقّ ـ خطوة عظيمة في هذا الاتجاه.

وممّا يذكر في هذا السياق أنّه كان من المقرّر أن تصدر هذه الفتوىٰ قبل هذا الوقت بعشر سنوات تقريباً، أيّ في زمان تولّي الشيخ عبدالمجيد سليم لمشيخة

---

١. دعوة التقريب، تاريخ ووثائق: ٢٢٥ منشور عن وزارة الأوقاف المصرية / القاهرة لسنة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

الأزهر، والذي كان يعتبر من الشخصيات التي برزت بين جماعة التقريب، فهو رجل كبير في علمه وإدارته وإخلاصه، ولذا فقد انتخب لمشيخة الأزهر دورتين متتاليتين، كما ويظهر من أحاديثه وكتاباته ما يدلّ علىٰ عمق عواطفه ومحبّته لآل بيت رسول الله ﷺ، وكان يستشعر معاناتهم وآلامهم علىٰ مرّ التاريخ، ولذا سعىٰ من موقعه إلى رفع هذا الظلم التاريخي عنهم، فارتبط بجماعة التقريب ارتباطاً وثيقاً حتّىٰ بعد اعتلائه لمشيخة الأزهر الشريف، بل كان توقيعه يحمل لقب شيخ الأزهر ووكيل جماعة التقريب.

وقد سنحت له الفرصة للاطّلاع علىٰ فقه الشيعة، إذ أنّ آية الله السيد البروجردي ﷺ في ضمن مراسلاته له قد أرسل له دورةً كاملةً من كتاب المبسوط في فقه الإماميّة للشيخ الطوسي، وقد أعجب بها إعجاباً كبيراً، حتّىٰ كان يقول: «متىٰ ما أردت أن أُشارك في جلسة استفتاء أُراجع كتاب المبسوط». وبالفعل فقد انعكس ذلك علىٰ فتاواه الفقهية.

ولمّا استعدّ لإصدار فتوىٰ بجواز التعبّد بفقه الشيعة حاول تهيئة أذهان جماعة التقريب لهذا الأمر، وتقرّر في غضون ذلك دراسة صيغة الفتوىٰ في جلسةٍ تعيّن وقتها، لكن قبل أسبوع من موعد انعقاد تلك الجلسة المقرّرة حدث مالم يكن بالحسبان، حيث وصلت إلى جميع أعضاء جماعة التقريب طرود بريدية تحمل ما ينسف فكرة إصدار الفتوىٰ.

فعندما حضر الأعضاء في تلك الجلسة المقرّرة، تحدّث الجميع بلهجة غاضبة، قائلين: أتريدون أن تصدروا فتوى بجواز العمل بفقه الشيعة وهم يعادون الصحابة؟!

ثم فتح كلٌّ منهم طرده وأخرج منه كتاباً منسوباً إلى الشيعة يتحامل فيه كاتبه علىٰ الخليفتين: أبي بكر وعمر، فاستولىٰ الوجوم علىٰ الشيخ القمي عند ذاك، وكان الشيخ عبدالمجيد سليم في ظلّ هذا الجوّ المتشنّج ينظر إلى الموجودين بكلّ هدوء وطمأنينة، ثم ساد بعد ذلك هدوء نسبيي وقال في ضمن ما قال:

«لو أنّ الشيعة والسنّة لم يكن بينهم اختلاف لما احتجنا إلى التقريب، ودار التقريب، ومجلّة رسالة الإسلام، ولكن علمنا بوجود الاختلاف، فنهضنا بهذا المشروع كي نركّز علىٰ المشتركات، ونقلّل الاختلافات، ونزيل الشبهات...».

فاستطاع أن يلطّف الجوّ بلغته المتّزنة، لكن المتضرّر الحقيقي من تلك الواقعة هي عملية إصدار الفتوىٰ، حيث تأخّرت لعشر سنوات إلى الوراء حتّىٰ أقدم الشيخ شلتوت بعد ذلك علىٰ إصدارها.

شاه ايران والفتوىٰ التاريخية

وعندما عاد الشيخ القمي ﷺ إلى ايران علم أنّ الإذاعة والتلفزيون ينويان قطع البثّ المعتاد ويذيعان نبأ الفتوىٰ محاطة بالتجليل والتبجيل موحين بكونها إحدىٰ انجازات أحد رعايا؟! إيران محمد رضا شاه!

فاتّصل الشيخ بالمسؤولين الإعلاميّين وطلب منهم أن لا يفعلوا ذلك، فأجابوه أنّها أوامر الشاه نفسه، وليس لنا من الأمر شيء، فسارع إلى لقائه، و أصرّ عليه أن لا يسمح بحدوث ذلك، فقال له الشاه مظهراً اندهاشه: أنا فعلت ذلك لصالح الفتوىٰ ولصالح التقريب! ولكن الشيخ القمي أصرّ علىٰ عدم السماح بحدوث ذلك الأمر وهو يعلم نواياه، فاضطرّ الشاه أن يلغي أوامره وهو في غاية الاستياء.

وقد اختار الشيخ مدينة مشهد المقدسة ـ لما لها من مكانة دينية وعلمية ـ ليعلن فيها الفتوىٰ ضمن محفل علمي ضمّ كبار العلماء، وكان علىٰ رأسهم المرجع الديني الكبير آية الله السيد محمد هادي الميلاني ﷺ.

مشايخ الأزهر والنهضة التقريبية

لقد كان موقف مشايخ الأزهر ثابتاً تجاه التقريب وحركته التي دبّت في وصال المجتمع المصري رغم معارضة بعض الأطراف ومحاولاتها اليائسة من فلّ عزائم

أقطاب الأزهر الشريف، إذ أنّ الشيخ محمود شلتوت نفسه قد لاقىٰ من جراء فتواه الكثير من المواقف التي سبّبت له الأذىٰ، فقد قيل له يوماً: إنّ الشيخ القمي قد خدعك واستحصل منك الفتوىٰ!! فأجابهم وكلّه ثبات وطمأنينة: «لو كان الشيخ القمي قد خدعني فنِعْم ما فعل، فأنا مؤمن بإخلاصه. وأسأل الله سبحانه أن أُحشر معه في يوم القيامة».

وقد حصلت بعد وفاة الشيخ شلتوت محاولات من بعض تلك الأطراف لإصدار فتوى تنقض فتواه، حيث قامت بالاتّصال بالدكتور الشيخ الفحّام بعد تشرّفه بمقام شيخ الأزهر، لاستحصال فتوى تنقض فتوى أُستاذه المرحوم شلتوت، لكنّه رفض هذا الطلب بشدّة، وأعلن لهذه الأطراف الشرذمة تمسّكه بها، قائلاً لهم: «إنّ فتوىٰ الشيخ محمود هي فتواي، وهو أُستاذي».

وينبغي الإشارة هنا إلى نقطة مهمّة ومثيرة، وهي أنّ العلاقات التي ترتبط وشائجها فيما بين المصلحين ودعاة التقريب كانت عظيمة واستثنائية، أثارت دهشة وإعجاب كلّ من كتب له التوفيق علىٰ الاطّلاع عليها، وما من سبب إلّا لكونها مبنية علىٰ الصدق والإخلاص والاحترام المتبادل، وكلّ ذلك خزين معنوي كبير يساعد علىٰ تخطّي المصاعب، وتقوية الإخاء والتكاتف معاً لتجاوزها، من دون فرقٍ بين كون هذا المصلح شيعياً أو سنّياً، مصرياً أو إيرانياً...

وعلىٰ هذه الوتيرة كانت توصف العلاقات التي تربط الشيخ القمي بدعاة التقريب في مصر، وكان لهذا الأمر أهمية كبرى في إنجاح مشروعه الإصلاحي.

وممّا يذكر في هذا الباب: العلاقة المتينة التي ربطته بالشيخ محمد محمد المدني الذي رأس تحرير مجلّة رسالة الإسلام مضافاً إلى عمله الجامعي كعميد لكلّية الشريعة بالأزهر، حيث تعرّض إلى حادث اصطدام في الكويت نُقل علىٰ أثرها إلى المستشفىٰ، فلمّا وصل نبأ الحادث إلى الشيخ القمي تأثّر بذلك أشدّ التأثير، وراح يتضرّع إلى الله سبحانه بأن يشفيه، ويدعوه ويلحّ في دعائه بأن يقبل

منه حياته فداءً لحياة الشيخ المدني لاعتقاده بأنّه أنفع منه للإسلام في مرحلته الخطيرة، ولحركة التقريب في أشواطها الأُولىٰ. وممّا يجدر ذكر أنّ زوجته كانت تسمع تضرّعه ودعائه، فلم تتمالك أن جاءت إليه بانكسار وقالت له: بالله عليك كفّ عن هذا الدعاء، فأنت لك أبناء صغار، وأبناء الشيخ المدني كلّهم كبار! ولكنّ الله تعالى شاء أن يتوفّىٰ الشيخ المدني وينتقل إلى جوار ربّه.

ولا شكّ أنّ هذه صورة صادقة تعبّر عن عمق العلاقة وطهارة العاطفة التي كانت تربط الشيخ القمي بزملائه في دار التقريب بمصر.

من سجايا الشيخ القمي وأخلاقه

كان الشيخ يتمتّع بسجايا وخصال عديدة كان لها الدور في نجاح مشروعه التقريبي، فمن خصائصه الفريدة التي كان يتّسم بها:

١ ـ الانفتاح وسعة الأُفق

وقد تجلّت هذه الصفة في أكثر مواقفه مع الآخرين، سيّما الذين يعدّون من مخالفي مشروعه الإصلاحي. ومن أبرز الأمثلة علىٰ ذلك أنّه يذكر: أنّه عندما اختار أعضاء جماعة التقريب، ليمثّلوا أول تشكيلة رسمية تتصدّىٰ أمور الحركة، وقع اختياره علىٰ اسم فردٍ معروف بتعصّبه لمذهبه، ومعارضته لفكرة التقريب مع الشيعة!

وحينما علم الشيخ المراغي ـ شيخ الأزهر آنذاك ـ بذلك أرسل إليه يسأله عن سرّ اختيار هذا الرجل، فأجابه الشيخ قائلاً: أنا اخترته وإنّي علىٰ علمٍ بتعصّبه؛ لأنّنا بحاجةٍ ماسةٍ في الجماعة إلى شخصٍ مثله، يطرح الاعتراضات دوماً، فإن كان حقّاً أخذنا بها ومحّصنا مسيرنا، وإن كانت مجرّد شبهات فإنّنا نتصدّى للإجابة عليها بشكلٍ غير مباشر قبل أن تنتشر بين الناس. فانشرحت أسارير الشيخ المراغي لمّا

سمع الجواب، فقال والفرح يغمره: «أُبارك لك هذا التفكير، وهذا الانفتاح وأنت بهذه الخصائص سوف تنجح بدعوتك حتماً».

٢ ـ الصلابة والحزم في المواقف

وهذه الصفة تعبّر عن قوة شخصية الشيخ القمي وتمسّكه بمبادئه الشريفة. فهو مرن في المواقف التي تتطلّب المرونة، لكنّه صلب في المواقف التي تتطلّب الحزم والصلابة.

ومن أبرز الشواهد علىٰ ذلك: أنّه عندما صدرت من الشيخ محمد متولّي الشعراوي في إحدىٰ خطب الجمعة كلماتٍ كان يراها الشيخ القمي مضرّة بوحدة المسلمين، فوجّه رسالة جوابية شديدة اللهجة إليه، وكان الشيخ الشعراوي في ذلك الوقت يتولّىٰ وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر، فجاء في هذه الرسالة:

«فوجئت مع الأسف بخطبة الجمعة التي ألقيتموها في التاسع من صفر ١٣٩٧ من فوق منبر الأزهر الشريف، الأزهر الذي يجب أن يكون للمسلمين جميعاً، والذي يجب أن يحترمه المسلمون جميعاً، وبحضور السيد رئيس الجمهورية وعلية القوم وعامة الناس. ففي هذه الخطبة (بعد ذكر مقدّمة بأنّ كلّ ما يقال علىٰ هذا المنبر يكون كلاماً مدروساً في أروقة الأزهر) استهللتم بالهجوم علىٰ الشيعة الفاطميّين، وأنّ الله بحكمته وقدرته أنقذ الأزهر من أيدي مؤسّسيه؛ لأنّهم شيعيّون !! والذي حزّ في نفسي قولكم: ولكن شاء الله أن يخلّصه ـ أيّ الأزهر ـ ويقصره علىٰ المذهب النقي الصافي، مذهب أهل السنّة والجماعة...! ومعناه الصريح: نفي النقاء والصفاء عن أيّ مذهبٍ آخر!

وأرجو يا فضيلة الوزير أن تقدّر موقفي كرجلٍ رسالته التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، وإنّي لست في موقف دفاعٍ عند المذهب الشيعي الفاطمي، وفي أخذي مذهب الشيعة الإماميّة والزيدية فقط إلى جانب مذاهب أهل السنّة في جماعة التقريب أمر له معناه، وإنّما أُريد أن أُدافع عن مبدأ جاءت به دعوة التقريب، وهو

العيش في سلامٍ وأُخوّةٍ للمسلمين، وعدم توسيع الشقّة بينهم، وعدم الهجوم عليهم، والعمل علىٰ جمع كلمتهم ...».

والشيخ القمي نفسه يذكر قصةً تدلّل علىٰ مواقفه الصلبة ضدّ كلّ من يحاول أن يعكّر صفو العلاقة بين المسلمين ليستفيد من خلافاتهم، ولا تؤثّر عليه المجاملات التي من شأنها أن تتناقض مع الهدف الذي نذر عليه حياته وفكره.

فهو يقول في مقابلةٍ له في إحدىٰ الصحف المصرية: «لويس ماسينيون، المستشرق الذائع الصيت، عرفته في القاهرة عندما قام بزيارةٍ مفاجئةٍ لدار التقريب في أول تأسيسها؛ للاستفسار عن رسالتها، ثم التقيت به في حفلٍ كان يضمّ الدكتور حسنين هيكل، وراح الرجل يحدّثنا ـ وهو يظنّ أنّ حديثه يرضيني ـ عن أبحاث له جديدةٍ عن فاطمة الزهراء عليها السلام، بحث يقارن بينها وبين العذراء مريم، وبحث عن حقّها في وراثة النبي...، ولقد فوجئ الحاضرون حين رحت أسأل ماسينيون منكراً صدق حماسته لفاطمة وحقّها في الإرث: ما حماسك الشديد لفاطمة يا سيدي؟ اتركوا لنا الأمر كلّه، ولا تزرعوا الشوك في أرض المسلمين الطيّبة، وأولىٰ بك وأنت فرنسي، لك مكانتك في بلادك، أن تطالب حكومتك بالكفّ عن ضرب المسلمين الجزائريّين، وكانت فرنسا في ذلك الوقت في حربٍ ضروس مع الجزائر»[1].

ونجده أيضاً في إحدىٰ مقالاته التي نشرتها مجلّة رسالة الإسلام ينتقد فيها كتاباً تحت عنوان المهدي والمهدوية لأحد الكتّاب الذين يكتبون في نفس هذه المجلّة، إذ لم ترق الشيخ طريقة بحثه واستدلالاته، ورأى أنّها لا تراعي المصلحة العليا للمسلمين فكتب يقول: «المسألة ليست مسألة كتاب بقدر ما هي مسألة مبادئ. إنّ هناك مصالح إسلامية عليا يجب علىٰ الكاتب الإسلامي أن يراعيها في كلّ ما يؤلّفه، بل في كلّ كلمةٍ يخطّها قلمه، مع فرض استيفاء الموضوع لكلّ الشرائط

---

١. عن مجلة روز اليوسف، العدد الصادر في ١٢ يناير ١٩٧٦م.

اللازمة للبحث الدقيق، هذا وأنّ من مصلحة المؤلّفين أنفسهم أن لايسقطوا من حسابهم الوعي الشامل بين المسلمين، ونزوعهم القوي إلى اجتماع كلمتهم وثورتهم وسخطهم علىٰ كلّ قلمٍ يحاول أن يفرّق بينهم من جديد»[١].

وهكذا نجد هذه السمة، وهي الصلابة في الموقف تتجسّد بشكلٍ واضحٍ في شخصية الشيخ القمي، فهو يعمل بمسؤولية تجاه واقعٍ تستدعي منه في بعض الأحيان الوقوف بوجه كلّ ما من شأنه أن يعكّر وحدة المسلمين، أو يكرّس النفور والوحشة بين أرباب المذاهب الإسلاميّة المختلفة.

وهذه مزيّة مهمّة في شخصيته، جعلت منه الرجل المناسب في الموقع المناسب وفي ظلّ تلك الظروف الصعبة والدقيقة التي أحاطت بالمسلمين آنذاك.

٣ـ بساطة العيش

ومن السمات التي كان الشيخ يتّصف بها هو زهده والبساطة الكبيرة في معيشته ومتطلّبات حياته، ممّا دفعته لأنّ يكون في المقدّمة، ويكسب قلوب الناس وتعاطفهم تجاهه.

ففي ذات مرّة مرض مرضةً أقعدته بيته، فجاءه الشيخ محمود شلتوت مع جماعة من علماء الأزهر ووجوهها لعيادته في مسكنه، ودخلوا عليه فجأة ودون أن يعلم الشيخ بقرار مجيئهم، ولمّا دخل الضيوف إلى غرفة سكنه في دار التقريب أصابتهم الدهشة لما رأوه، فقد وجدوا الشيخ مضطجعاً علىٰ سرير خشبي صغير متوسّداً عمامته وملتحفاً بعباءته، فخجل الشيخ من الحالة واعتذر اليهم، ولكن الشيخ شلتوت راح يغدق عليه عبارات الثناء والإعجاب الشديد، ثم قال: أشهد أنّ هذه حياة سيدنا عمر[٢].

---

١. من مقال للشيخ نُشر في مجلّة رسالة الإسلام، العدد ١٤ السنة الرابعة ابريل/نيسان ١٩٥٢ ـ رجب ١٣٧١هـ.

٢. انظر ملف التقريب: ١٣٢ ـ ١٣٣.

وهذه البساطة رسّخت في ذهن الشيخ شلتوت بأنّ الشيخ القمي ما جاء إلى القاهرة في طلب مالٍ أو متاعٍ، وما جاء ليروّج فكرة مذهبية معيّنة، بل جاء من أجل التقريب بين المسلمين، والدعوة إلى وحدتهم.

ولعلّ هذا هو سرّ إعجاب الشيخ شلتوت بشخصية الشيخ القمي، الذي تحوّل إلى صداقةٍ حميمةٍ وصميميةٍ حتّىٰ أنّه كان يشترك في مجلس تلاوة دعاء كميل الذي كان يعقده الشيخ مع جمعٍ من الشيعة والموالين من أبناء القاهرة في داره ليالي الجمعة.

٤ ـ التعفّف

فإنّ الشيخ القمي ﷺ ـ بالرغم ممّا كان يعانيه من شظف العيش، وقلّة المال في مصر، حيث إنّ الظروف لم تكن مهيّأة لوصول المال إليه بشكل منظّم من أُسرته في إيران ـ كان يتعفّف من قبول المال من أحد.

ففي فترةٍ عصيبةٍ من تلك الفترات التي كان يعاني فيها من قلّة ذات اليد، اتّصلت به سفارة عربية في القاهرة، ووجّهت له دعوة لزيارتها، فاستجاب لذلك، وشرح هناك أهدافه ومقاصده، وفي غضون ذلك قدّم له السفير مبلغاً مغرياً من المال دعماً لمشروعه، ففوجئ الشيخ بهذا العرض السخيّ غير أنّه بادر إلى مخاطبة السفير قائلاً: «إنّني احتاج فعلاً إلى المال أشدّ الاحتياج، لكنّي أرفض أن آخذ أيّ شيءٍ من هذا كي لا تدور حول الدعوة أيّ شبهة».

والغريب أنّ الشيخ رفض أن يقبض ذلك المال في وقتٍ كان جيبه يخلو حتّىٰ من الريال الواحد، حيث رجع من السفارة إلى البيت راجلاً؛ لعدم امتلاكه حتّىٰ مبلغ أجرة العربة!

ولا شكّ أنّ هذا الموقف يعكس وبشكلٍ واضحٍ سموّ روح هذا الرجل، وعدم خضوعه لإغراءات المال، ممّا يكشف عن سرٍّ آخر من أسرار نجاحه في مجال الدعوة إلى التقريب.

٥ ـ الاتّزان الفكري

فقد امتاز الشيخ ﵀ بفكرٍ متّزنٍ، فليس هو بالفكر الذي يرفض كلّ شيءٍ لا يتناغم مع الجديد، وليس هو بالفكر الذي يقبل كلّ قديمٍ بلا تمحيص.

ففي إحدىٰ مقالاته يروي لنا عن أحدهم كان يتحدّث معه في جلسةٍ خاصّةٍ وبحماس شديدٍ في مسألة وجوب التخلّص من الاسرائيليات، وضرب لذلك مثلاً موضوع خلق السماوات والأرض في ستة أيام! وبعد أن فرغ من حديثه الطويل، وظنّ أنّه قد أقنع الشيخ بكلامه، بادره الشيخ ﵀ قائلاً: ولكن هذا موجود في القرآن يا أخي، وليس من الاسرائيليات في الحديث كما تعتقد. فبهت المتحدّث واستولى عليه الوجوم، وأطبق صامتاً.

ويسترسل الشيخ في مقالته مضيفاً: «لست أنكر أنّ هناك دسّاً وخلقاً، ولكنّي مع ذلك أعارض أشدّ المعارضة في أن تمسّ كتب الحديث، ونستبيح لأنفسنا حقّ التصرّف فيما نراه نحن من دسّ الدسّاسين...، كان لدى القدماء مقاييس وموازين للحكم علىٰ الحديث استعملوها فيما سجّلوه لنا، وربّما كانوا علىٰ شيءٍ من حسن الظنّ لمكانتهم وحسن القبول عنهم لما خفي من أحوالهم»[١].

إذن كون الشيخ القمي من دعاة التقريب لا يعني ألبتة أنّه يعمل علىٰ إلغاء التراث الروائي، أو النظر إليه باستخفاف، بل أنّه يقف منه موقفاً علمياً، يحكّم فيه الموازين والأسس العلمية، وليس الأهواء والرغبات، لأنّ هذا ليس بإصلاح، بل هو ابتذال وإفساد للعقل، وجناية علىٰ الدين والتراث، وتضييع للجهود العظيمة التي بُذلت من أجل حفظ التراث وإيصاله إلينا عبر هذه القرون الطويلة.

والمتتبّع لما يكتبه الشيخ يرى بشكل واضح الأصالة والعمق الفكري الذي يتمتّع

---

١. من مقالة بعنوان: «محنة التراث الخالد علىٰ أيدي أهل الجديد»، نشرته مجلّة رسالة الإسلام، العدد الرابع، اكتوبر ١٩٥٢ محرم ١٣٧٢.

به. فلم يكن من أولئك الذين تنطلي عليهم حيل المستغربين، ولا الشعارات البرّاقة التي يتشدّق بها دعاة التجديد والحداثة، فهو ابن الحوزة العلمية الشيعية المباركة الذي كان في طيلة الفترة التي قضاها في مشروعه الوحدوي التقريبي يتحرّك علىٰ ضوء توجيهات المرجعية العليا المتمثّلة آنذاك بالمرجع الكبير آية الله السيد حسين البروجردي (قدس الله سرّه الشريف).

وعلىٰ كلّ حال نريد أن نؤكّد أنّ الشيخ كان يمتلك توازناً فكرياً واضحاً، إضافةً إلى الميزات الأُخرىٰ التي كان يتمتّع بها، كلّ ذلك جعله أهلاً لهذه المهمّة التي تحمّل أعباءها سنوات طويلة بلا كلل ولا ملل.

ولا بأس أن نورد هنا الكلمة المعبّرة والصادقة التي أفادها أحد زملائه وشركائه في تأسيس مشروع التقريب، الذي اطّلع عن كثبٍ علىٰ خصوصياته وشمائله، وهو الشيخ محمود شلتوت، حيث كتب في مقدّمته لقصة التقريب واصفاً الشيخ: «كنت أودّ لو كتب قصة التقريب أحد غير أخي الإمام المصلح محمد تقي القمي، ليستطيع أن يتحدّث عن ذلك العالم المجاهد الذي لا يتحدّث عن نفسه، ولا عمّا لاقاه في سبيل دعوته، وهو أول من دعا إلى هذه الدعوة، وهاجر من أجلها إلى هذا البلد ـ بلد الأزهر الشريف ـ فعاش معها وإلى جوارها منذ غرسها بذرة مرجوة علىٰ بركة الله، وظلّ يتعهّدها بالسقي والرعاية بما آتاه الله من عبقريةٍ وإخلاصٍ، وعلمٍ غزيرٍ، وشخصيةٍ قويةٍ، وصبرٍ علىٰ الغير، وثبات علىٰ صروف الدهر حتّىٰ رآها شجرةً سامقة الأصول، باسقة الفروع، تؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربّها، ويستظلّ بظلّها ائمة وعلماء ومفكّرون، في هذا البلد وفي غيره»[1].

٦ ـ الاستقلالية في العمل

ربّما تُثار بعض الشكوك فيما يتعلّق بعلاقة الشيخ القمي بشاه ايران المخلوع

---

١. مقدمة الشيخ محمود شلتوت لرسالة: قصة التقريب، طبع القاهرة.

وببعض الحكّام والزعماء السياسيين، ولكنّ الحقيقة التي ينبغي أن تقال: أنّ هـذا الرجل الذي قضىٰ عمره في خدمة المسلمين، والعـمل عـلىٰ وحـدتهم، لم تكـن علاقاته بالزعماء السياسيين وغيرهم إلّا في أطارها الصحيح، ولم تـتجاوز الحـدّ الذي يمكن أن يشكّل إساءةً إلى شخصية رجل الدين، ولا سيّما مثل شخصية هذا الشيخ الذي قد أشرنا إلى بعض مواقفه التي تعكس مستواه في العـفاف والتـقوىٰ والتواضع والإخلاص.

ففي هذا الإطار يقول الشيخ نفسه ضمن مقابلةٍ صحفيةٍ أجـرتها مـعه إحـدىٰ الصحف المصرية: «أُحبّ أن تعلم بأنّني لست موظّفاً لدىٰ أيّة جهةٍ من الجهات، أو حكومةٍ من الحكومات، وأنّني لا أتكسّب عن طريق هذه الدعوة، أنا رجل فلّاح، أعيش من عمل يدي، وكدح ذهني، وعرق جبيني، لايد لأحدٍ عـليَّ ولله الحـمد والمنّة، ومازلت أذكر اللحظة التي وصلتُ فيها إلى القاهرة لأول مرّة منذ حـوالي أربعين عاماً، ليلتها كنتُ وحيداً، لقد اتّجهت إلى السماء وقلت: يا إلهي، لقد جئت إلى بلدٍ لا أعرف فيه أحداً، ولا يعرفني فيه أحد. يا إلهي، أنت تعلم فـيما كـانت رحلتي، ولم كانت غربتي، ولماذا أُؤمن بفكرتي، فانصرني... وأسـتطيع أن أقـول الآن: إنّ الله قد نصرني.

اليوم حدث تحوّل عظيم، مذاهب الشيعة تدرّس الآن ضمن مناهج الفـقه فـي الأزهر، آراء فقهاء الشيعة يؤخذ بها في قوانين الأحوال الشخصية في مصر، كتب الفقه والتفسير التي وضعها علماء الشيعة تُطبع الآن ويتمّ تداولها في مصر... كلّ هذا حدث نتيجة الجهود الضخمة والشريفة التي بذلها كثيرون من العلماء الذين فتحوا قلوبهم وعقولهم لما نقول»[١].

وهكذا يتّضح من هذا الكلام الذي تدعمه الوقائع أنّ هذا الرجل لم يكـن فـي علاقاته خاضعاً لإرادة أحد أو جهةٍ، بل كان يتحرّك وفق ما يـمليه عـليه واجـبه

---

١. صحيفة الأخبار الصادرة في ١٩ أبريل /نيسان عام ١٩٧٦م.

الديني، ورغبته العارمة في التعريف بمذهب أهل البيت عليهم السلام ونشره في جميع الأوساط والمستويات.

وقد وقف موقفاً مؤيّداً للثورة الإسلاميّة في إيران بعدما لمس فيها الأصالة والواقعية، فكتب إلى زعيمها آية الله الإمام الخميني (رضوان الله عليه) رسالةً تعبّر عن موقفه تجاه هذه الثورة، هذا نصّ ترجمتها:

حضرة آية الله العظمىٰ الخميني دامت بركاته

بعد التحيّات القلبية

تصريحاتكم أيها الزعيم الكبير بشأن الأُخوّة بين المسلمين: الشيعة والسنّة، واهتمامكم بمكافحة الاختلاف، والنهي عند التفرقة بين الفرق الإسلاميّة، وتأكيدكم علىٰ عدم وجود فواصل بين الشيعة وإخوتهم السنّة، تتناسب حقّاً مع مسؤولية مرجع إسلامي كبير علىٰ صعيد العالم الإسلامي. وتأييد التلاحم الوثيق يعيد إلى الأذهان الدعوة الإصلاحية إلى التقريب بين المذاهب الإسلاميّة.

من هنا فإنّني باعتباري شخصاً قضىٰ عمره علىٰ طريق هذه الدعوة، وتحمّل أعباءها علىٰ الصعيد العالمي، باسمي وباسم كبار العلماء من الفريقين الذين تعاونوا معي من كلّ أرجاء العالم الإسلامي، نثمّن غاية التثمين كلماتكم الغالية، ونشيد بآثارها الإيجابية في استعادة عظمة المسلمين، وندعو لكم بمزيد التوفيق في هذا المسير لتحقيق أهداف الإسلام السامية[١].

محمد تقي القمي

٢٨ بهمن ١٣٥٧هـ ش

* * *

---

١. عن صحيفة «اطلاعات» الايرانية العدد (١٥٧٨٩) الصادرة في اول اسفند ١٣٥٧هـ ش المصادف ٢٠ فبراير/ شباط ١٩٧٨م.

... وأذكر أنّ السيد القائد آية الله الخامنئي لمّا عزم علىٰ تأسيس المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة، رأىٰ أنّ رعاية خدمة السابقين تقتضي استشارة الشيخ القمي، فنقل رغبة السيد القائد إليه، فسرّ كثيراً، وبعث بجواب جميل يتناسب وحجم الثقة التي أولاها إيّاه ﷺ.

وهذا التكريم قد بعث فيه مزيداً من الحيوية والنشاط، فدفعه إلى التحرّك من جديد علىٰ طريق التقريب، بل وفكّر في العودة إلى القاهرة لاستئناف نشاطات الدار، لكنّ حادث الاصطدام أنهى حياة هذا الرجل الذي أصبح في عصرنا الحديث أحد رموز التقريب البارزين.

علاقتي بالعلامة القمي

...وقد كانت علاقتي مع الشيخ القمي وحركة التقريب وطيدة للغاية، وتعود إلى قبل نصف قرن من الزمان، حيث كنت طالباً يافعاً من طلبة الحوزة العلمية بقم، وآنذاك كان اهتمامي منصبّاً في متابعة مجلة رسالة الاسلام الصادرة عن دار التقريب بالقاهرة، فأقوم بترجمتها ونشرها في مجلة مكتب اسلام وهي المجلّة الرسمية الوحيدة الناطقة باسم الحوزة العلمية بقم، ومن بعد في مجلّة نور دانش، والنشرة الاسبوعية وظيفه التي كانت تصدر بطهران العاصمة... في ظلّ ظروف محيطة سيّئة، مفعمة بالتعصّب، شبيه بما كانت عليه القرون الوسطىٰ!

وفي المقابل كنت أبعث بأغلب المقالات التي تُنشر بايران والمتعلّقة في هذا الموضوع، بعد أن أقوم بترجمتها، إلى العلّامة الشيخ القمي في القاهرة، مع كلّ ما ترافقها من ردود وتداعيات وأعداد من المجلّات التي كانت تصدر بطهران وقم، والذي كثيراً ما كان يحظىٰ بتقديره لي، واستحسانه لما أقوم به، بل ويستزيدني أكثر في هذا الإطار.

* * *

... وما زالت ذاكرتي عالقة بأول رسالة وصلتني من سماحته، وكانت مؤرّخة بتاريخ ٣٠ ذي الحجة عام ١٣٨١هـ من القاهرة. ثم تتابعت الرسائل فيما بيننا بعد ذلك، وكانت باللغة الفارسية، وما زلت محتفظاً بها، وقد آثرت أن أنشر بعضها هنا، بعد تعريبها؛ إمعاناً أكثر في الفائدة، سأوردها كاملةً بعد كلمتي هذه.

كما وأنّ ذاكرتي تحفظ بآخر رسالة وصلتني منه، وكانت من باريس، جواباً لسؤالي منه عبر الهاتف ـ وكنت آنذاك سفيراً للجمهورية الاسلامية الايرانية في الفاتيكان ـ مستوضحاً منه عن حقيقة الكلمة التي نسبتها إليه مجلّة المجلة السعودية! ـ اللندنية، ضمن حوار أجراه معه مراسلها، وقد نقلت عن لسانه قلقه اتجاه الوضع العام في إيران آنذاك، وإبرازه عدم الرضا؟ ممّا تجري فيها من أحداث إبّان أول الثورة، وتعريفه بكونه القائد الأوحد المرشح لقيادة المعارضة خارج إيران!!

ولا شك إنّ هذا اللحن والتعبير التي نقلت عنه هذه المجلّة لاتمت بذوق ولا بطبيعة الشيخ القمي أبداً، وليست هي لغته كما عرفتها عن قرب منه.

ولمّا اتّصلت به هاتفياً من «روما» حيث مقرّ عملي، إلى «باريس» حيث مقرّ إقامته، أكّد لي في حديثه معي عبر الهاتف، ولمدة عشرين دقيقة تقريباً، أنّ الخبر كذب محض، ولايمت إلى الواقع بشيء، وشارحاً لي أنّ هذه الحركة التي قامت بها المجلّة المذكورة، ما هي إلّا لعبة سياسية قامت بها جهات مغرضة ترمي إلى زيادة الضغط على إيران في هذه المرحلة الحسّاسة من أوائل الثورة الاسلامية.

وقد طلبت منه حينذاك أن يكتب خلاصة ما حدّثني به من توضيح حول هذه المسألة، ثم يرفقها بذكر حقيقة الحوار الذي جرىٰ مع مراسل المجلّة بالضبط، وأنّ ما نُسب إليه كذب محض يُراد منه تضعيف إيران من جهة، وإيقاع الوهن بشخصية التقريب التي كان يمثّلها ﵀ على مستوىً عالمي من جهة أخرىٰ. (سنأتي على متن الرسالة في هذه المقدمة).

وبعد أن وصلت الرسالة الجوابية هذه، أدرجتها ضمن متعلّقات وتقارير وزارة الخارجية للجمهورية الإسلامية الإيرانية. ثم قمت فكتبت رسالةً بهذا الصدد وبعثتها إلى سماحة الإمام الخميني ﷺ بطهران، مشيراً إلى موضوع الحوار الهاتفي الذي جرىٰ بيني وبين الشيخ القمي، وحقيقة المقابلة التي نسبها إليه مراسل المجلّة اللندنية ـ السعودية! والرسالة الجوابية التي حرّرها لي الشيخ العلّامة من مقرّ إقامته في باريس، ثم ذيّلتها بطلب من سماحته ﷺ أن يبيّن تكليفه الشرعي الحالي: هل يستمرّ في نشاطه في مجال حركة التقريب، ويستأنف فعالياته الى هذا المستوىٰ، أم يلتزم الصمت في مقرّه بباريس حتّى يأتيه الإذن منكم؟

وممّا يجدر ذكره أنّ الشيخ القمي ﷺ كان ينزل فندقاً بباريس يضاهي فنادق «شمس العمارة» المعروفة! في طهران، وأحياناً كان ينزل شقّة ابنه الصغيرة، وقد سنحت لي الفرصة لزيارته مرّة، والتحدّث معه بحضور ابنه عبدالله القمي في شقّته الصغيرة!

ولم تمض مدّة حتّى تلقيت جواب الإمام الخميني ﷺ في هذا الخصوص عن طريق ابنه السيد أحمد ﷺ عبر الهاتف، ليعلن لي بالحرف الواحد: أنّ الإمام لايرىٰ مانعاً من أن يستمرّ الشيخ القمي في عمله، وأن يستأنف نشاطه كما كان سابقاً، مستقلاً ومثابراً قدر إمكانه...

* * *

... وعقب انتخاب آية الله الخامنئي مرشداً للثورة الإسلامية بعد رحيل الإمام الخميني، وبعد استشارة أخي العزيز العلّامة الشيخ محمد علي التسخيري، المستشار الثقافي للسيد القائد آنذاك، قرّرت السفر إلى باريس، واللقاء بالشيخ العلّامة القمي وجهاً لوجه.

وبالفعل حزمت حقائبي وطرت إلى باريس، وذهبت إلى الشيخ القمي، وبعد حديث قصير معه دعوته لزيارة إيران، وبيّنت له ضرورة لقائه بالعلماء والمراجع الدينية في الحوزات العلمية لرفع الابهامات الواردة، وتوضيح وجهة نظره بصورة

مباشرة إليهم، ومن ثم يمكنه بعد ذلك السفر إلى القاهرة ليعود إلى سابق عمله، ويستأنف نشاطه على هذا الصعيد.

ولايخفىٰ ما كان سروره كبيراً، فقد رحّب باقتراحي ترحيباً عظيماً، ووعدني أن يأخذ الأمر على محمل الجدّ، وأنّه إن شاء الله سيبلغني حينما يتمّ استعداده في ذلك... ومن ايطاليا اتّصلت به عدّة مرات للبحث في صدد هذا الموضوع، حتّى أبلغني أنّه قد عزم على شدّ رحاله باتجاه إيران، وأنّه سيحزم حقائبه في الاسبوع القادم...

ولم يمض يومان من جوابه الأخير ذلك حتّىٰ هزّنا خبر نقله التلفزيون المحلّي ضمن تقرير خبري مفاده أنّ العالم الإيراني المعروف الشيخ محمد تقي القمي، وفي طريق عودته إلى محلّ سكناه كعادته مترجّلاً، وعند عبوره لأحد شوارع باريس، قد صدمته سيارة حمل كبيرة ودهسته.. فقضىٰ نحبه!!

لقدكان الخبر قصيراً للغاية، لكنّه حزين جداً في قلوب كلّ أصدقائه ومحبّيه في الداخل والخارج. ولم تكن الحادثة مصادفة هكذا، بل هو أمر مدبّر في تلك الأيام التي كانت حبلىٰ بالحوادث والوقائع، أراد الأعداء منها منعه من السفر إلى إيران، والحيلولة دون الاستمرار في نشاطاته على صعيد التقريب، وكفاحه المجيد في درب الوحدة الإسلامية.

لقد أدرك الأعداء موقع الشيخ ﵀ ومكانته في محافل الأزهر الشريف، ومنزلته بين رجال مصر، من السياسيين والمثقّفين والأدباء والوطنيّين، ثم توجهه الايجابي نحو إيران والثورة الإسلامية بزعامة الإمام الخميني ﵏ وخلفه آية الله الخامنئي حفظه الله، كلّ ذلك يدعو إلى الحذر ممّا قد يقوم به من دور فعّال سيؤثّر إيجابياً بلاشك على العلاقات بين البلدين الكبيرين: إيران ومصر، في الشرق الأوسط، وقد يستقطب الاهتمامات نحوه، ويحوّلها إلى إيران... وهو أمر غير مرغوب فيه عند الدوائر الاستعمارية، والامبريالية الاميركية، فعملت تلك الايادي المقيتة، وبالتعاون مع العملاء الايرانيين الفارّين بعد الثورة باتجاه أحضان الغرب، على تدبير حادثة القتل المروّعة، من أجل عدم تحقيق ما كان قد نواه ﵀.

فبعد عمر طويل قضاه الشيخ في العمل من أجل وحدة الصف بين المسلمين وجمع

كلمتهم، لبّى ربّه في أغسطس/آب عام ١٩٩٠م في باريس وعن عمر يناهز الثمانين عاماً.

وقد نقل جثمانه الطاهر الى طهران وشيّع هناك ودفن بجوار والده، بمقابر العائلة في طهران.

* * *

وهنا أجد لزاماً عليَّ أن أتقدّم بالشكر والتقدير للأخ عبدالله محمد تقي القمي ـ المقيم حالياً في القاهرة ـ لمساعدته ـ في القاهرة ـ التي أبداها من أجل تكميل هذا الكتاب، واهدائه بعض الصور والأوراق حول «السيرة الذاتية» لمؤسس دار التقريب المرحوم العلامة الشيخ محمد تقي القمي.

أمّا نصوص بعض الرسائل التي وصلتني من الشيخ العلامة القمي وقبل نصف قرن:

ترجمة نصّ أول رسالة بعثها لي العلّامة من القاهرة

القاهرة ٣٠ ذي الحجة ١٣٨١هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي في الله العزيز

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

أسأل الله تعالىٰ أن يغمركم بألطافه الجليلة، ويحيطكم بعنايته الشديدة، ويبارك لكم فيما تبلوه أنتم من وقت وجهد وقلم، وجميع الأخوة المفكّرين من نظرائكم، ويوفّقكم إن شاء الله أن تكونوا محطّ خير وفائدة، ومنبع آثار اسلامية دائماً.

أمامي الآن عدد من مجلّة مكتب اسلام الغرّاء، وبعد مطالعتي لها رأيتها تتّسم بالكلام المتين، والعبارات المرصوصة رصّاً محكماً، كما وجدتها ذات طابع منهجي جدير بالتقدير، حيث تشتمل علىٰ مقالات من الوزن الثقيل، والعناوين الجذّابة.

إضافة إلى أنّها تراعي كلمة الصدق، وتجتنب المظاهر الفارغة، والعناوين الطنّانة غير ذات فحوى. لقد شدّتني بحقّ ما فيها، واستمتعت كثيراً بمطالعتها،

وأمّا مقالتكم فقد قرأتها بإمعان، ولايسعني سوىٰ التقدير لها، وأن ادعـو لكـم بالموفقية والنجاح، وراجياً قبول هديتي بهذا الدعاء: أعزّك الله وبارك لنا فيكم.

ومع تقديري الكبير لجهود السادة الفضلاء العظام أعضاء هيئة تحرير المجلّة؛ لما يقدّمونه من خدمة كبيرة للإسلام، بحيث إنّهم ـوبحمد الله ـ قد ساهموا فـي فـتح الطريق إلى معرفته، وأنّه إذا ما استمرّوا بهذه الصورة من النشاط والفعالية البـاهرة فإنّه ستزداد هذه الطرق وتتوسّع الآفاق أكثر وأكثر.

ولا أكتمك أنّ هذا الأمر ـالطريق ـ الذي تسيرون عليه فهو مطابق لتطلّعاتي، وما ينشده قلبي.

ويسرّني أن أنبئك بأنّ العدد الثاني من مجلّة رسالة الاسـلام ضـمن المـجموعة الثانية، وطبعاً لم تصلكم بعد، يشتمل على قسم «الأخبار والآراء» التي تـصلنا مـن هـنا وهناك، ستجدونه عند مطالعتكم إيّاه قسماً مهمّاً جدّاً وأساساً، يتحدّث عن «مشروع علمي كبير» جدير بالإمعان فيه، لما يشتمل على الموضوعية في مجال الأحاديث التي تمّ الاتّفاق عليها عند الفريقين، ولاشكّ أنّ آثاراً طيّبة ستترتّب عليه إن شاء الله.

قد عقدت العزم على المجيء إلى إيران في أواسط محرّم الحـرام إن شـاء الله، وآمل في سفري هذا أن تتاح الفرصة لي لزيـارتكم ولقـاء الفـضلاء والأصـدقاء، والتعرّف عليكم أكثر فأكثر، وبالله التوفيق.

والسلام عليكم ودمتم مع الدعاء
محمد تقي القمي

يذكر.. أنّ موضوع المشروع العلمي الذي أشـرت إليـه فـي الرسـالة، لو نشـر بالتفصيل مع مقدّمة تناسبه في المجلة سيكون له اثراً جيّداً، ويسـعدني كـثيراً أن تلتقي آراء ونظرات الفضلاء حوله، وآمل أن يجد موقعه في اهـتماماتكم، ليـعيننا على تكميل نواقصه، وتقديمه بالصورة الفضلىٰ.

[illegible]

[illegible]

از هدایة مشغله [illegible] بمدینه [illegible] حضرت محبوب

[illegible] قدم قلم را [illegible] آگاهی [illegible]

[illegible] ستمکاران [illegible]

[illegible] تسلیم را [illegible]

[illegible]

در [illegible] شده [illegible]

[illegible]

[illegible] حضرت [illegible]

[illegible]

[illegible] حضرت [illegible]

[illegible] حضرت [illegible]

[illegible]

ترجمة إحدىٰ الرسائل التي بعثها إليَّ العلّامة القمي

هو

...تمنياتنا بالصحة ودوام السلامة، وأن يديم عليكم ألطافه السنّية، وأن يجعلكم في حفظه المصون دائماً.

من الطبيعي جداً وعقيدتي التي يعرفها الجميع هو التقريب، وأراكم أحد أنصارها ومفكّريها، أن أميل في المواقف الحسّاسة والحوادث التي تقع إلى هـذا الاتـجاه، وعلى ضوئها أحاول أن أسجّلها وأفسّرها وأضعها أمام الآخرين.

وبهذه الذهنية أبعث اليكم برسالتي، وكلّي أمل بمطالعتها، وقـد أرفـقتها بـنصّ الكلمة التي أُلقيت في احتفال العيد الألفي للأزهر[١]. وما ذكرته في تلك الكلمة، وما قلته باسم التقريب، هو تماماً ما اعتقد به، ويمثّل مقتضىٰ يقيني في هذه المسألة، من أجل أن يسجّله التاريخ على صفحاته، وتشهد عليه الأجيال المتلاحقة.

وتأكّد أنّنا حين قلنا ذلك ليس لأجل إبـراز البـطولة، ولا لجـذب الأبـطال أو بقولكم: الحكومات، ولم يبلغنا أن اتّصل أحد منهم بنا، ولم نفكّر حتّى لأجل هذا الشيء، وإنّما هو للإعلان عن قيمنا ومبادئنا، ويمكن أن ترسل إلى بعض الكتّاب تلبيةً لطلباتهم التي كانوا قد أرسلوها من قبل، حتّى نرىٰ حكم الله سبحانه فينا.

ومن جانبكم، لو أردتم أو رأيتم أنّه من المفيد أن يطّلع عليه من تجدونه جديراً على هذا الصعيد، فلابأس منه. وطبعاً أنا على يقين من أنّكم على مستوىً عالٍ من تشخيص المصلحة، وتحديد الظروف المحيطة بها.

ولا أكتمكم قلقي الشديد تجاه ما يحدث في الباكستان. لقد أنفقنا عمراً طويلاً، وكذلك الرجال المصلحون أنفقوا كما أنفقنا من أجل أن لاتحدث مثل هذه الفواجع

---

(١) نصّ الكلمة قد درج في طيّ صفحات هذا الكتاب، فراجع.

من النعرات الطائفية، وسعينا كثيراً أن نجهض العوامل المساعدة علىٰ إثارتها في مهدها.

يلعن الله الذي سبّب ذلك، وقطع كل الأيادي الخفيّة التي تحرّك الفتن وتلهب نارها، وتحاول التصيّد في الماء العكر.

علىٰ كلّ حال ما علينا فعلناه، ولكن ما نتخوّفه حقّاً هو من وجود «الاستعداد» في المسلمين هناك من أن يعيدوا الكرّة ثانيةً، ووجود العوامل المساعدة على تعديل دورهم ليلعبوا دور الآلة في العملية كلّها. هذا إلى جانب وجود عوامل أخرىٰ تدفع بالعملية إلى الحافّة، كوجود الإحساس بالانتقام من كون بيوتهم قد تهدّمت، ومواردهم أرزاقهم قد تعطّلت، ممّا تعيّن بقوة علىٰ إعادة الأحداث مرة أخرىٰ.

تُرىٰ ما العمل؟

فالطفل مريض ويرفض أن يتعاطى الدواء، كما أنّه يحطّم كل الملاعق والأقداح فما العمل إذن؟

وأخيراً: لو طلبتم توضيحاً أو تعليقاً على مطلب، فإنّ رقم هاتفي وعنواني عندكم وفي خدمتكم، فيمكنكم الاتّصال، أيها العزيز، نسأل الله لكم الخير.

وعذراً للمزاحمة..

العبد القمي

[illegible] [illegible] امیدوارم [illegible] [illegible] اللهی

بحمدالله [illegible] [illegible]

در [illegible] [illegible] [illegible] از همکاران [illegible]

[illegible] [illegible] طبیعت [illegible] [illegible] [illegible]

دیوان قرار گیرد [illegible] [illegible] نوشتم [illegible]

[illegible] [illegible] کلمه خود را [illegible] العبد الاقل

الاحقر [illegible]

اگر گفته [illegible] در تبریز هم گفته ام [illegible] [illegible]

بود [illegible] تعیین [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] آنها [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] آن [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

که کسی [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible]

ترجمة إحدىٰ الرسائل التي بعثها إليّ العلّامة القمي من طهران

طهران ٢١ ارديبهشت ١٣٤٠هـ ش[١]

هو

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ندعو الله أن يمنّ عليكم المزيد من التوفيق في حياتكم وأعمالكم، ونتمنّىٰ دائماً النجاح والموفقية في بلوغ جميع أمنياتكم بفضله ولطف منه إن شاء الله.

لقد وصلني الطرد الذي بعثتموه إليّ، ويحتوي على عدّة من النشريات الشريفة، وقد تشرّفت بمطالعتها، ولايسعني إلّا أن أقدم جزيل شكري العميق لكرمكم ومحبّتكم لنا، وأُعلمكم بشغفي الكبير لمطالعتها، وخصوصاً ما يتعلّق بالمواضيع التي أشرتم إليها من قبل، وكذلك التي تتعرّض لفكر التقريب، ودار التقريب أيضاً.

وممّا زاد سروري في هذا الطرد، ما رأيته في النشريات من نظم فكري وعلمي وافر على صعيد التحرير، وروعة ظاهرة في تنظيم الموضوعات الذي عكس صورته على هذا العمل بأجمعه، فأثمر شيئاً مرتّباً جذّاباً للقلوب، لما يضمّ أطرافاً من الموضوعات جمعت في بوتقة واحدة، وردود سريعة على مواضيع طُرحت وكُتبت مؤخّراً... فهي مفخرة ولاشكّ للجميع.

وأعلمكم أنّه قد وصلتني نسخة من كتاب حول حياة آية الله السيد الفقيد[٢] رضوان الله عليه الذي أرسله لنا الفاضل المحترم المحقّق السيد الدواني عن طريق البريد، فشكراً جزيلاً.

فإذا جئتم إلى طهران هذه الأيام القلائل نأمل أن نلتقي بكم، فإنّنا في شوق للقائكم. وطبعاً حاولوا أن تتّصلوا بنا أولاً تلفونياً، لأجل اطّلاعنا وتخصيص الوقت المناسب للقيام بضيافتكم.

مع دعائنا القلبي: محمد تقي القمي

---

١. أي قبل ٤٥ سنة.

٢. يريد المرحوم آية الله السيد البروجردي ﷺ.

۲۱ اردیبهشت ۱۳۴۰

طهران

[illegible] عزیز

[illegible] توفیقات [illegible] شکسته [illegible]

[illegible] بفضل الهی [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

اگر این چند روز طهران تشریف [illegible]

[illegible]

محمد [illegible]

ترجمة رسالة أخرى والتي بعثها إليَّ العلّامة من طهران أيضاً

طهران ١٢ اسفند ١٣٤٠هـ ش

أخي في الله.. أيّدك الله

كلّي أمل في أن تكونوا في طريق الحقّ، والجهاد من أجل الحقيقة وحدها، أنتم وأقلامكم معاً في هذا الدرب الطويل، سائلين المولىٰ عزّ وجلّ التوفيق لكم والمزيد من التأييد.

إنّ مسوّدة الرسالة[١] التي بعثتموها إليَّ، وما حصل أن لم يتوفّق السادة الأعزاء بملاقاتي ومن ثم القيام بخدمتهم، كان مصادفةً محضة، ومنه اعتذر كثيراً.

الصفحات وصلتني، وكانت مفعمة بالاشارات الرائعة والمعاني السامية التي يمكن أن ترتقي بالمستوىٰ المطلوب إذا ما تُرجمت، وأُظهرت محاسنها للقرّاء الأعزاء.

والسلام عليكم

المخلص

الميرزا محمد تقي القمي /طهران

١٣٦١/١٢/٣/١٠٠ ـ ١/٢٥٢٠

---

١. رسالة آية الله السيد البروجردي إلى شيخ الأزهر، وجواب الشيخ شلتوت لآية الله البروجردي.

ترجمة الرسالة التي بعثتها إلى سماحة الإمام الخميني ﷺ

حضرة إمام الأمة الخميني العزيز مدّ ظلّه الوارف

الموضوع: الشيخ محمد تقي القمي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

منذ فترة قصيرة مضت اتّصل الشيخ القمي من باريس هاتفياً، وأوضح أنّه بسبب طبع مقالة كُتبت عنه، ونشرتها مجلّة «جهاد سازندگی» (الجهاد والبناء) بمناسبة أسبوع الوحدة، فهو يحتمل من خلال هذه المقالة أنّه دعوة إلى مواصلة فعالياته على هذا الصعيد، وأنّه يمكنه استئناف عمله في هذا النطاق. (عدد من مجلّة الجهاد مرفقة مع هذه الرسالة نقدّمها إليكم).

ومن خلال حديثي معه حول حواره وتصريحاته التي أدلى بها في مجلّة «المجلّة» اللندنية، يحضرني الآن أن أنقل لكم قوله: إنّ الحوار المنسوب إليه من ألفه إلى يائه ما هو إلّا محض كذب وافتراء، إضافة إلى أنّه يعتبره إهانةً له شخصاً، أراد واضعوه تحريف الأذهان عنه وعن دعوته ونشاطاته.

وبملاحظة المناخ العام الملتهب ضد الشيعة والتشيّع اليوم، وعلى الخصوص في البلدان العربية، وبالالتفات إلى ما يمكن لهذا الرجل من أن يلعب دوراً مهمّاً ومؤثّراً في هذا السياق، وما يمكنه أن يصير مركزاً فعّالاً من خلال الاستفادة من علاقاته الوطيدة التي تربطه بالأزهر، وما بإمكانه أن يقدّمه في هذا الإطار، يجد الشيخ القمي نفسه منتظراً لما تبدون له من توجيهات في هذا المسار.

وطبعاً لا تخفى حاجته الماسّة إلى مساعدة الدولة الإسلامية من جميع النواحي.

وأُحيطكم علماً بأنّني قد أبلغت في الوقت نفسه الأخ الدكتور ولايتي بموضوع تلفون الشيخ القمي من باريس عن طريق التلكس، وهو الآن على اطّلاع كامل بالقضية، وإنّني الآن أعرضه عليكم، وعلى انتظار أن تبلغوني جوابكم القاطع في هذا الموضوع تلفونياً عن طريق السيد سيد أحمد.

مع الاحترام سيد هادي الخسروشاهي

واتيكان ـ ايتاليا

محضر امام امت ، خمینی عزیز مدظله الوارف

موضوع : آقای شیخ محمد تقی قمی

چندی قبل آقای قمی از پاریس تلفن کرد و گفت بعلت چاپ مقاله ای درباره ایشان در نشریه جهاد سازندگی بمناسبت هفته وحدت احتمال میدهد که میتواند از جانب جمهوری اسلامی ایران ، مجدداً فعالیت هائی در این زمینه انجام دهد (یک شماره از مجله جهاد به پیوست تقدیم میگردد).

اینجانب موضع گیری ایشان را دریک مصاحبه مطبوعاتی با " المجله " چاپ لندن ، یادآور شدم که گفتند " من الفه الی یائه " دروغ و مجهول است و حتی اهانت بخود او است وبرای بدبین کردن اذهان نسبت باو آنرا جعل کرده اند ، ... من افزودم که این را کتباً بنویسید ، که چند روز بعد نامه ای از ایشان رسید که عیناً خدمتتان میفرستم .

با توجه به جو ضد شیعه ای که بالخصوص دربلاد عربی راه انداخته اند و با توجه به روابط ایشان با الازهر وامکان اقداماتی مفید دراین زمینه ، آقای قمی انتظار دارد که نظر حضرتعالی را بداند و طبعاً به کمک دولت اسلامی هم نیازمند خواهد بود .

البته حقیر همانوقت موضوع تلفن را به برادر دکتر ولایتی تلکس کردم و اکنون اصل موضوع را بحضورتان معروض و انتظار آنست که آقای احمد آقا پاسخ را تلفنی اطلاع دهند .

با احترام

سید هادی خسروشاهی

إحدىٰ الرسائل التي بعثها إليَّ العلّامة القمي من باريس

هو

وبعد: تحياتي القلبية الخالصة، وتمنياتي لكم بالتوفيق.

تعقيباً على ما جرىٰ من الحديث عبر الهاتف، أودّ أن أطلعكم على أمور أجدها من الضروري أن تطّلعون عليها، وهي أنّني ومنذ ٤٥ عاماً من العمل الدؤوب في هذا الميدان، ورغم لقاءاتي العديدة مع بعض كبار الساسة العرب والأجانب خلال هذه الفترة الطويلة، وعلاقاتي التي اكتسبتها مع بعض الأغنياء والأثرياء وحفنة من النبلاء في المجتمعات المختلفة، لكنّني مع كلّ ذلك لم أركن إليهم، ولم يطب لي لحظة أن أفعل ذلك. وليس هذا بشيء عجيب!

كما وقد مرّت علينا فترات من الزمان، تحمل كلّ فترة شكلاً خاصّاً، وتضمّ ألواناً من الألاعيب المختلفة، وقد واجهناها بحزم وثبات، ولم نهتزّ قيد أنملة.

وهكذا فيما نحن بصدده، فإنّما نعدّه كسابقه من حيث الشدّة والنوع.

بل إنّه قد مرّت علينا حوادث مشابهة تماماً في السابق. ولعلّ أهمّها في زمان الرئيس الأسبق الراحل[1] للدولة العربية الكبيرة (مصر). حيث كنّا في سفر خارج تلك الدولة، ولمّا عدنا إلى البلد لم نلبث أن طلعت علينا إحدىٰ المجلّات المرتزقة وهي تنقل قولاً عنّي كان من تداعياته أن هزّت العلاقة بيني وبين الرئيس، وكان الغرض الإيقاع بي عنده. ولمّا انطلقت إليه لأوضّح ما يدور في عقول أولئك المرتزقة القائمين على تلك المجلّة، وأبيّن الأمر على واقعيته، فوجئت أن لمست العطف منه نحوي، والقبول والرضا من جانبه تجاهي، بل لم أجد فرقاً واضحاً في معاملته لي... وحينما عزمت أن أوضّح الأمر له بكامله بادرني قائلاً: إنّني على اطّلاع تام بعملك وطريقتك في سلك السبل، وأعلم أنّ ثمة من لايحبّك، ولايرغب في دعوتك، ويسعىٰ إلى الإيقاع بك عندي، لقد أراد أن أغضب عليك ويقتطف هو ثمرة ذلك!!

---

١. يريد: جمال عبدالناصر رئيس جمهورية مصر آنذاك.

وفي هذه المرة اعتقد أنّ الأمر كسابقه، ولكنّه يختلف هذه المرة بأنّهم لايريدون الايقاع بيننا فحسب، بأن يثيرون الطرف المقابل، ومن ثم يـدفعونني إلى دخـول المعركة من حيث شئت أم لم أشأ، ثم يقفوا لينظروا أيّنا يسقط قتيلاً أولاً! بل إنّهم بنفس الوقت أرادوا ـ في الواقع ـ تهميشي، واللعب بحيثية دعوتي!

إنّ كلّ من يطالع عن كثب هذه القضية يجدها مجموعة من التلفيقات والأكاذيب المزروقة في إطار غوغائي يراد منه إفراغ محتوىٰ دعوتي التي ناديت بها، وتضعيف شخصي من خلال تشويه سمعتي بين المراجع، والذي ليس من شكّ لم يجد أحد منهم ذلك فيَّ. وبصرف النظر عن الجهة المسؤولة عن إثارة هذه القضية، فإنّنا نجد من الضروري جداً التمسّك بهذه الحيثية التي عليها نحن! والالتزام بالمسيرة التـي اتّخذناها منذ اللحظة الأولىٰ من دعوتنا، واعتقد أنّ ذلك كافياً لأن نواجه الظـرف الحالي، وبنفس الوقت نوجّه لطمةً قاسيةً إلى جميع أولئك الذين يرغبون في إيجاد الصدع بيني وبين الأطراف الأخرىٰ، وتحطيم صفّ التقريب بعنف وقوة.

ولاشكّ أنّ من المسائل المعروفة لدينا اللعبة الدولية التي طالما تمارسها بعض الجهات، وهي أنّه حينما يحدث حدثاً في الشرق أو الغـرب يـنسبونه إلى فـلان بسرعة أو ينفونه عنه بنفس السرعة التي نسبوها بها، من غير تفحّص ولاتـنقيب، وهي لعبة قديمة جديدة، ونحن ومن خلال هذه المدّة الطويلة التي عشناها في هذا المجال، قد تعرّفنا على جملة من التقاليد والأعراف الجارية على هذا الصعيد، والتي يمكن أن تواجه التيارات التي يثيرها الأعداء، ولعلّ من أهمّها التزام طريق الهدوء، بعيداً عن الضجّة والغوغاء، لكي لانزيد في الطين بلّة، ومحاولة إيجاد طريق نثبت به واقعيتنا، ونصل من خلاله القلوب والعقول، حتّى إنّه اشتهر عنّا ذلك، إذ لم نرد طريقاً مخالفاً لأصولنا ومنهجنا ألبتة.

فهل سمعتم يوماً، وعلى طول المدّة التي قـضيناها فـي هـذا المـجال، وعـلى اختلاف أنشطتنا الثقافية وفعالياتنا التقريبية، حواراً أجريناه مع أيٍّ مـن الصـحف

العربية مثل: الأهرام والأخبار و...، أو الأجنبية الناطقة بلغات أخرىٰ، سواء كـان الحوار بصورة مباشرة أم غير مباشرة، وتحدّثنا بشيء سوىٰ بالمعنيّ بقضايا التقريب ووحدة المسلمين؟ وهل تجدون مورداً واحداً ـ ولو واحداً ـ تمّ فيه توجيه كلام منّي ضد سياسة بلد أو ضد أحد رموزها السياسيّين رغم وجود الكثير من المـخالفين لدعوتي لدرجة أن مارسوا الضغط عليَّ من أجـل التـخلّي عـنها، ورغـم أعـداد المطبوعات ووسائل الإعلام المعروفة وغير المعروفة؟

ولاشكّ أنّ المجلّة المذكورة قد طالعتموها، وآمل أن يطالعها الفـضلاء أيـضاً، وينظروا هل أشرت ـ ولو إشارة ـ إلى أشخاص أو أوردت أسماء في إطار خاصّ، أو أنّني سعيت إلى أن ألوّث سمعتي بطعون وكلام فارغ؟!

وهل تجدون مجلّةً أو صحيفةً معروفة بعلاقتها الوطيدة والقديمة بها، والمشهورة بالتزامها الأخلاقي، ولاسيّما صحف ومجلّات ذلك البلد العربي الكبير (مصر) والتي تعرّفني بالأب الروحي، وتحترم أفكاري، وتجلّ مبادئي التي أعلنتها من قبل، إلّا وتكنّ لي الاحترام والتقدير؟ إلّا هذه المجلة الأجنبية التي تُطبع وتُصدر في اوربا، والمـعروفة بارتباطاتها المشبوهة، وسمعتها الملطّخة بالوحل، وهو شيء معروف عند الجميع!

وهل يبدو منّي أنّني لم أجد ما أفرغ فيه آرائي وآلامي، والأشياء التي تجيش بخاطري إلّا لهذه المجلّة المرتزقة؟!

إنّ ثقتي بكم عالية، واعتقد اعتقاداً جازماً بفضيلتكم وذكائكم اللذين يشجّعاني علىٰ أن استرسل في توضيح هذه المسألة المحصورة بشخصي، وبيان الأمـور الأساسية المتعلّقة بالأشياء التي واجهتها، وما زلت أواجهها على هذا الصعيد.

وعليه أشكر لكم حسن توجّهكم وإصغائكم، وأمدّ يدي لكـم، سـائلاً المـولى القدير أن يفيض عليكم من ألطافه وتوفيقاته الجليلة.

القمي

٨٣/٣/٢٢م باريس

[illegible] یکی [illegible]

در تعقیب مذاکرات تلفنی با جناب [illegible] : راجع به این که ۴۸ سال است

در میدانی هستم که برای بعضی سیاستهای بزرگ و بعضی از دارندگان پول پرستی و همکاران از طرفی

فعالیتم خوش آیند نبوده چیز مهمی نیست که هر زمان بشکلی با نیرنگهای گوناگون از آنها مراجعه [illegible]

که موضوع ما نحن فیه منظور اساسی یکی از آنها است [illegible] در سالهای گذشته [illegible]

در زمان زعیم [illegible] این کشور بزرگ [illegible] بود که [illegible] سفر کرده بودم یکی از [illegible]

[illegible] چیزی [illegible] که [illegible] آن زعیم [illegible] ولی در این جهت در رفتار محبت آمیز

و بزرگ منشی خصوصی ایشان نسبت بخود تفاوتی ندیدم تا خود برای موضع مطرح کردم گفتند [illegible] شما را

خوب میدانیم [illegible] که دعوت شما را [illegible] خواسته اند [illegible] تعجب نکنند نتیجه بگیرند.

در این نوبت هم تصور میکنم نه تنها خواسته اند [illegible] در طرف [illegible]

مرا دارد [illegible] که از هر طرف که [illegible] . . . بلکه در این حال [illegible]

حیثیت [illegible] کرده اند هر کس بدقت [illegible] کرده باشد متوجه میشود که یک [illegible]

یک [illegible] در این حال [illegible] مطلب از همه [illegible] است که البته

[illegible] مخصوصاً قطع نظر از آنکه [illegible] بیش از آن [illegible]

[illegible] که برای خود انتخاب کرده ام [illegible] آور بوده است.

[illegible] وقتی کار [illegible] میگویند این کار [illegible]

[illegible] با یک [illegible] که هم [illegible]

[illegible] که اگر [illegible] این میدان را [illegible]

آیا در تمام [illegible] فعالیتم یک [illegible]

[illegible] الاول والاعتبار [illegible] بالا [illegible] !

آیا در یک مورد حتی یک مورد شده که [illegible] در راه [illegible]

[illegible] اگرچه [illegible]

[illegible] !

آیا [illegible]

[illegible]

که [illegible] که خود را [illegible] !!

با [illegible] مطلب [illegible]

[illegible] آن [illegible]

هذا الكتاب

... أما هذا الكتاب الذي بين يديك، كما أشرنا عن قبل هو مجموعة من المقالات والرسائل التي خطّتها يراعة الشيخ محمد تقي القمي، ونشرتها مجلّة رسالة الإسلام في أعدادها المتلاحقة، وطائفة من اللقاءات الصحفية مع بعض الصحف المصرية، تناول فيها الشيخ بعض المواضيع المتعلّقة بالتقريب، طرح من خلالها آرائه علىٰ هذا الصعيد، وأشار إلى بعض الهموم والمشاكل التي صادفته، وتمكّن بمعونة الله وإخوانه من جماعة التقريب من تجاوزها بنجاح كبير بحيث نال إعجاب جميع المراقبين وكسب ودّهم واحترامهم.

كما واشتمل علىٰ مقدّمات ثلاث كان قد كتبها الشيخ ﷺ لثلاث كتب شيعية ـ في التفسير والفقه ـ حرصت دار التقريب في القاهرة علىٰ طباعتها ونشرها، كانت قد طلبت منه كتابة المقدّمة والتي عادةً تقوم بإنجازها دور النشر كما هو معروف.

والمحور الأساس الذي تدور حوله أبحاث هذا الكتاب هو التقريب والوحدة بين المذاهب الإسلاميّة، وهي أبحاث مهمّة في هذا المجال، لكونها تمثّل أفكار رائد من روّاد الحركة التقريبية في القرن الرابع عشر الهجري، وهو الشيخ القمي الذي نذر كلّ حياته لأجل هذا المشروع الحيوي والمهم فكان كلّ كلمةٍ سطّرها هذا الرجل في هذه المقالات الرائعة، وعبّر عنها في لقاءاته مع الصحف تمثّل تعبيراً حيّاً وواقعياً لهذه الفكرة التي طالما شغلت بال المصلحين.

ولا شكّ أنّ تفعيل مسألة التقريب أمر في غاية الأهمية، خصوصاً وأنّ الأُمة تمرّ في مرحلة صعبة، يتطلّب منها القوة والصلابة وهي تواجه تكالب الأُمم الغازية والهجينة عليها، لذا ينبغي تكثيف الجهود من أجل إحياء وتطوير هذا المشروع، ودفقه بالحيوية والنشاط والدوام بصورة مستمرة، وإهماله تحت أيّ عذرٍ ستكون له عواقب ليست في صالح المسلمين ولا الأُمّة بلا ريب.

وهذا الكتاب ـ رغم الأيجاز ـ يشكّل خطوةً إلى الأمام باتجاه إحياء هذا المشروع الاستراتيجي حقّاً، حيث تمثّل كلّ مقالة أو كلمة فيه مبدأً أساسياً في مجال تكريس التقريب، وتصعيد الوحدة بين أطياف المسلمين.

ولأجل أن نسهّل علىٰ القارئ الكريم مطالعة هذا الكتاب والاستفادة من موضوعاته الحيوية، وأبحاثه الشيّقة، فقد قمنا بتقسيم المقالات علىٰ حدة وفق موضوعاتها، ووضعنا لها عناوين مميّزة يدلّ عليها، والرسائل كذلك، وبنفس الطريقة جرىٰ ترتيب لقاءاته الصحفية دون أن ننظر إلى زمان انعقادها وتاريخه، وبذلك سيشتمل الكتاب على ثلاثة أقسام رئيسية، بالإضافة إلى هذه المقدّمة الوثائقية الهادفة[١].

نسأل الله تعالى التوفيق والإثابة فيما قمنا به، إذ لم يكن إلّا خالصاً لوجهه، إنّه نعم المولىٰ ونعم الوكيل.

ايران ـ قم: الحوزة العلمية
سيد هادي الخسروشاهي
رمضان المبارك ١٤٢٧هـ

---

١. ولأجل توثيق مطالب الكتاب بما يناسب حجمه ومكانته، قمنا بتزيين الكتاب بمجموعة من الملاحق التاريخية المهمّة ـ في آخر الكتاب ـ وهي تشمل: وثائق تاريخية، ورسائل موثّقة، ولقاءات وزيارات مصوّرة، وصور مستندة.

صور تاريخية ناطقة



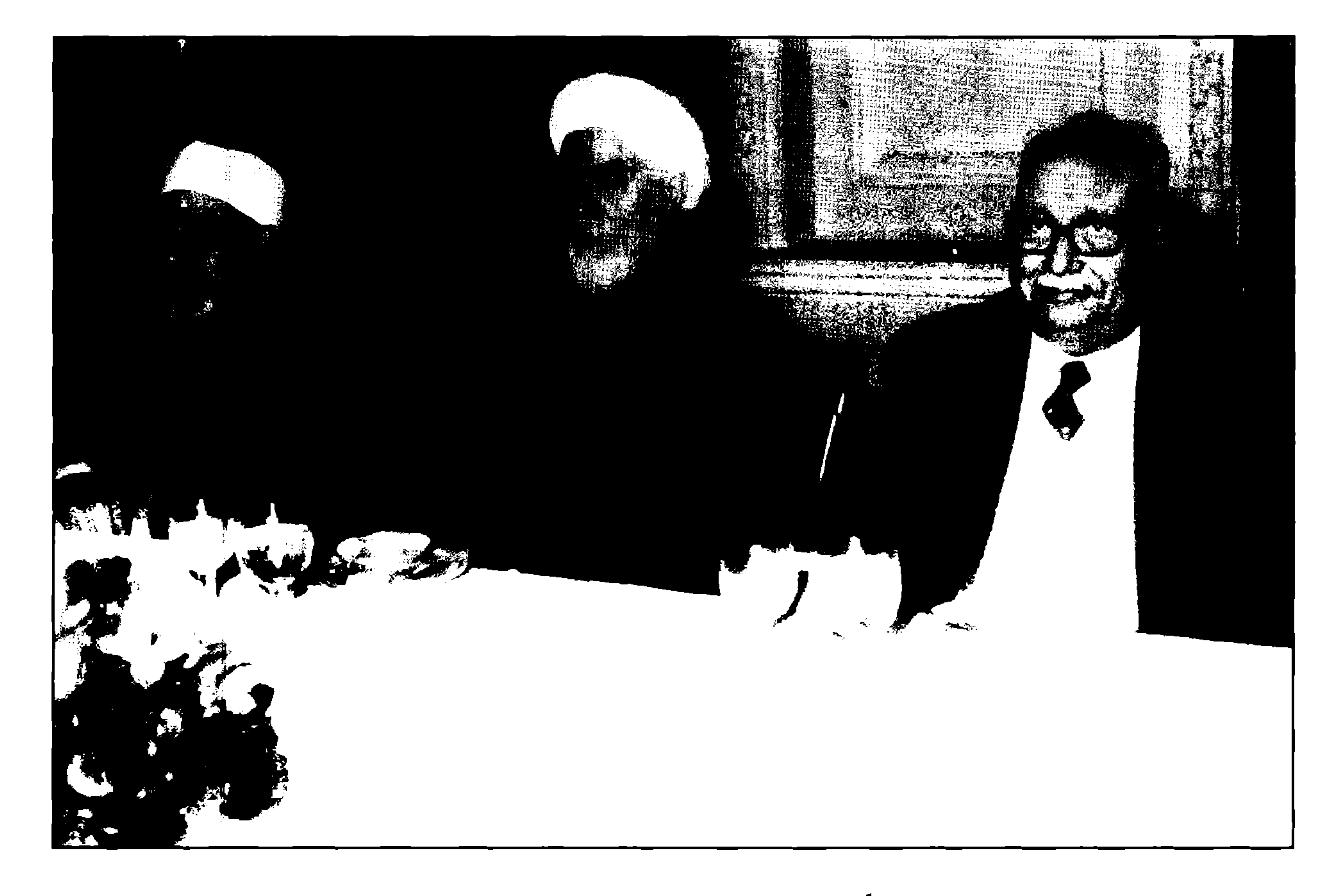
العلّامة القمي في زيارة لـ«قم» ايران



العلّامة القمي مع الإمام الأكبر الشيخ عبدالحليم شيخ الأزهر وعلماء من الأزهر الشريف



العلّامة القمي مع الرئيس محمد نجيب في أوائل «حركة الضباط الأحرار



العلّامة القمي مع الشيخ عبدالعزيز عيسى في القاهرة

مكتب شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

نصّ الفتوى

التي أصدرها السيد صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر

في شأن جواز التعبّد بمذهب الشيعة الإمامية

قيل لفضيلته:

إنّ بعض الناس يرى أنّه يجب على المسلم لكي تقع عباداته ومعاملاته على وجه صحيح أن يقلّد أحد المذاهب الأربعة المعروفة وليس من بينها مذهب الشيعة الإمامية ولا الشيعة الزيدية، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأي على إطلاقه فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية مثلاً.

فأجاب فضيلته:

١ ـ إنّ الاسلام لايوجب علىٰ أحد من أتباعه اتّباع مذهب معيّن، بل نقول: إنّ لكلّ مسلم الحقّ في أن يقلّد بادئ ذي بدء أيّ مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً، والمدوّنة أحكامها في كتبها الخاصة، ولمن قلّد مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقل الى غيره ـ أيّ مذهب كان ـ ولا حرج عليه في شيء من ذلك.

٢ ـ إنّ مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية مذهب بجواز التعبّد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنّة.

فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلّصوا من العصبية بغير الحقّ لمذاهب معيّنة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب،

فالكلّ مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز لمن ليس أهلاً للـنظر والاجـتهاد تقليدهم والعمل بما يقرّونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات.

محمود شلتوت

السيد صاحب السماحة العلّامة الجليل الأستاذ محمد تقي القمي
السكرتير العام لجماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية

سلام الله عليكم ورحمته

أمّا بعد فيسرّني أن أبعث إلىٰ سماحتكم بصورة موقّع عليها بإمضائي من الفتوى التي أصدرتها في شأن جواز التعبّد بمذهب الشيعة الإمامية، راجياً أن تحفظوها في سجلّات دار التقريب بين المذاهب الاسلامية التي أسهمنا مـعكم فـي تأسـيسها، ووفّقنا الله لتحقيق رسالتها

والسلام عليكم ورحمة الله

شيخ الجامع الأزهر
محمود شلتوت

مكتب شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

نص الفتوى
التي أصدرها السيد صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر
في شأن جواز التعبد بمذهب الشيعة الامامية

....

قيل لفضيلته :

" ان بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكي تقع عباداته ومعاملاته على وجه صحيح أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة وليس من بينها مذهب الشيعة الامامية ولا الشيعة الزيدية ، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأي على اطلاقه فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الامامية الاثنا عشرية مثلا .

فأجاب فضيلته :

١ - ان الاسلام لا يوجب على أحد من أتباعه اتباع مذهب معين بل نقول : ان لكل مسلم الحق في أن يقلد بادئ ذي بدء أي مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة ولمن قلد مذهبا من هذه المذاهب أن ينتقل الى غيره - أي مذهب كان - ولا حرج عليه في شيء من ذلك .

٢ - ان مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الامامية الاثنا عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة .

فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك ، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة ، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب ، أو مقصورة على مذهب ، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم ، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات .

محمود شلتوت

... ...

السيد صاحب السماحة العلامة الجليل الاستاذ محمد تقي القمي
السكرتير العام
لجماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية

سلام الله عليكم ورحمته أما بعد فيسرني أن أبعث الى سماحتكم بصورة موقع عليها بامضائي من الفتوى التي أصدرتها في شأن جواز التعبد بمذهب الشيعة الامامية ، راجيا أن تحفظوها في سجلات دار التقريب بين المذاهب الاسلامية التي أسهمنا معكم في تأسيسها ووفقنا الله لتحقيق رسالتها .

والسلام عليكم ورحمة الله .

شيخ الجامع الأزهر
محمود شلتوت

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور
محمد محمد الفحام
شيخ الأزهر

سماحة الشيخ حسن سعيد من كبار علماء طهران ـ شرفني بزيارة في منزلي ٥ شارع علي بن أبي طالب ومعه سماحة العالم العلامة والصديق الكريم السيد طالب الرفاعي. وقد أهاجت هذه الزيارة في نفسي ذكريات جميلة ذكريات الايام التي قضيتها في طهران سنة ١٩٧٠ فعرفت فيها طائفة كبيرة من طوائف العلماء الشيعة الامامية وعرفت فيهم الوفاء والكرم الذي لم أعهده من قبل. وما زيارتهم لي اليوم، إلا مظهر وفائهم جزاهم الله كل خير وشكر لهم مسعاهم الجميل في التعريف بين المذاهب الاسلامية التي هي في الحقيقة والواقع شيء واحد في أصول العقيدة الاسلامية التي جمعت بينهم على صعيد الاخوة التي جسدها القران حيث يقول: إنما المؤمنون اخوة. هذه الاخوة من واجب علماء الأمة على اختلاف اتجاهاتها المذهبية أن يحرصوا على كمنيتها ونبذ كل ما يسوء اليها ويكدر صفوها من عوامل التفرقة والتي شجبها الله تعالى في كتابه العزيز «ولا تفرقوا فتفشلوا وتذهب ريحكم».

ورحم الله الشيخ شلتوت الذي التفت الى هذا المعنى الكريم فخلد في فتواه الصريحة الشجاعة حيث قال ما مضمونه: بجواز العمل بمذهب الشيعة الامامية باعتباره مذهبا فقهيا إسلاميا يقوم على الكتاب والسنة والدليل الأسد وأسأل الله أن يوفق العاملين على هذا الفتح القويم في التقريب بين الاخوة في العقيدة الاسلامية الحقة «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم والمؤمنون وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

٢١ من شهر ذي القعدة ١٣٩٧

محمد الفحـــام
شيخ الأزهر السابق

تأييد فتوى الشيخ محمود شلتوت من قبل شيخ الأزهر

الشيخ الدكتور محمد الفحام



العلّامة القمي مع الدكتور الشيخ محمد محمد الفحّام شيخ الأزهر



الشيخ محمود شلتوت وعدّة مشايخ من الأزهر الشريف في لقاء تقريبي في القاهرة

بعونه وتوفيقه:

ضمن تشرّفي لزيارة المشهد المبارك، مشهد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، أجد لنفسي نصيباً من الفخر والشرف فوق هذا التشرّف الذي حظيت به، ويتمثّل بثمرة مجهود عمري في تأسيس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة، ودفقه بالحركة والنشاط والحيوية حتّى أتىٰ أكله فأثمر بإصدار الفتوىٰ التاريخية من قبل الشخصية السنّية الأُولىٰ، ومن أعظم مركز ديني في عالم التسنّن، في جواز التعبّد وتقليد مذهب الشيعة الإمامية، ممّا كان لهذه الفتوىٰ الأثر الكبير ـ وبمعونة الإرادة الإلهية ونشاط المخلصين ـ في جذب الاهتمام بمذهب الاثني عشرية الإمامية، والاعتراف به بعد ١٤ قرن من الخصام.

لقد كانت هذه الفتوىٰ بمثابة وثيقة تاريخية نفيسة، جديرة بالرعاية والحفظ والصون. ولذا أتقدّم بخضوع وجلالة إلى صاحب المشهد الطاهر الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، الذي هو إمام الفريقين، فأودعها بين يديه، في الخزانة التابعة لمشهده المقدّس، لعلّه يتقبّل خدمتي هذه، ويحفظها لي ذخراً في الدارين إن شاء الله.

والسلام الدائم على الإمام الرؤوف

من القمي

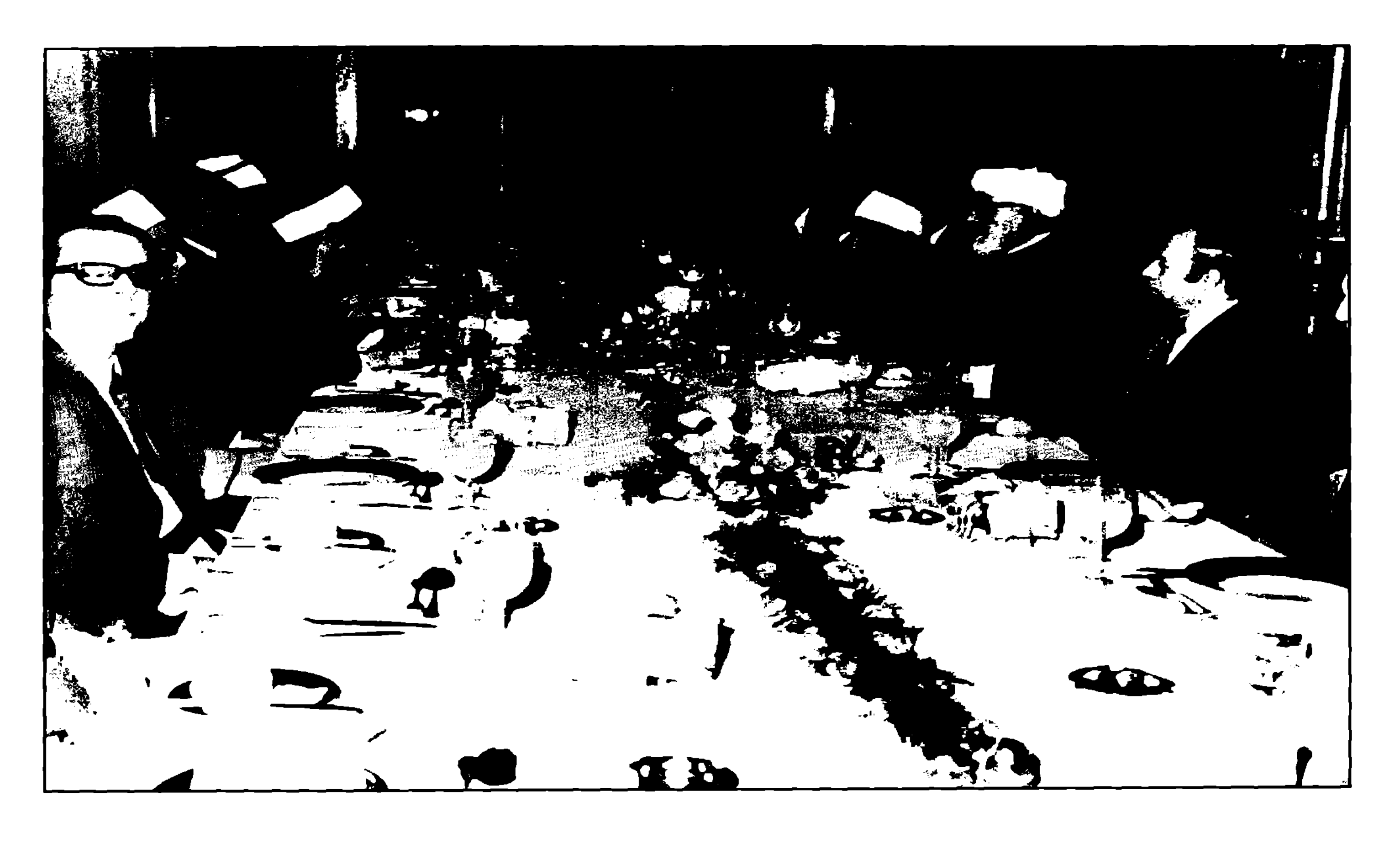
محمد تقي بن أحمد

٢٧ محرّم الحرام ١٣٨٠هـ

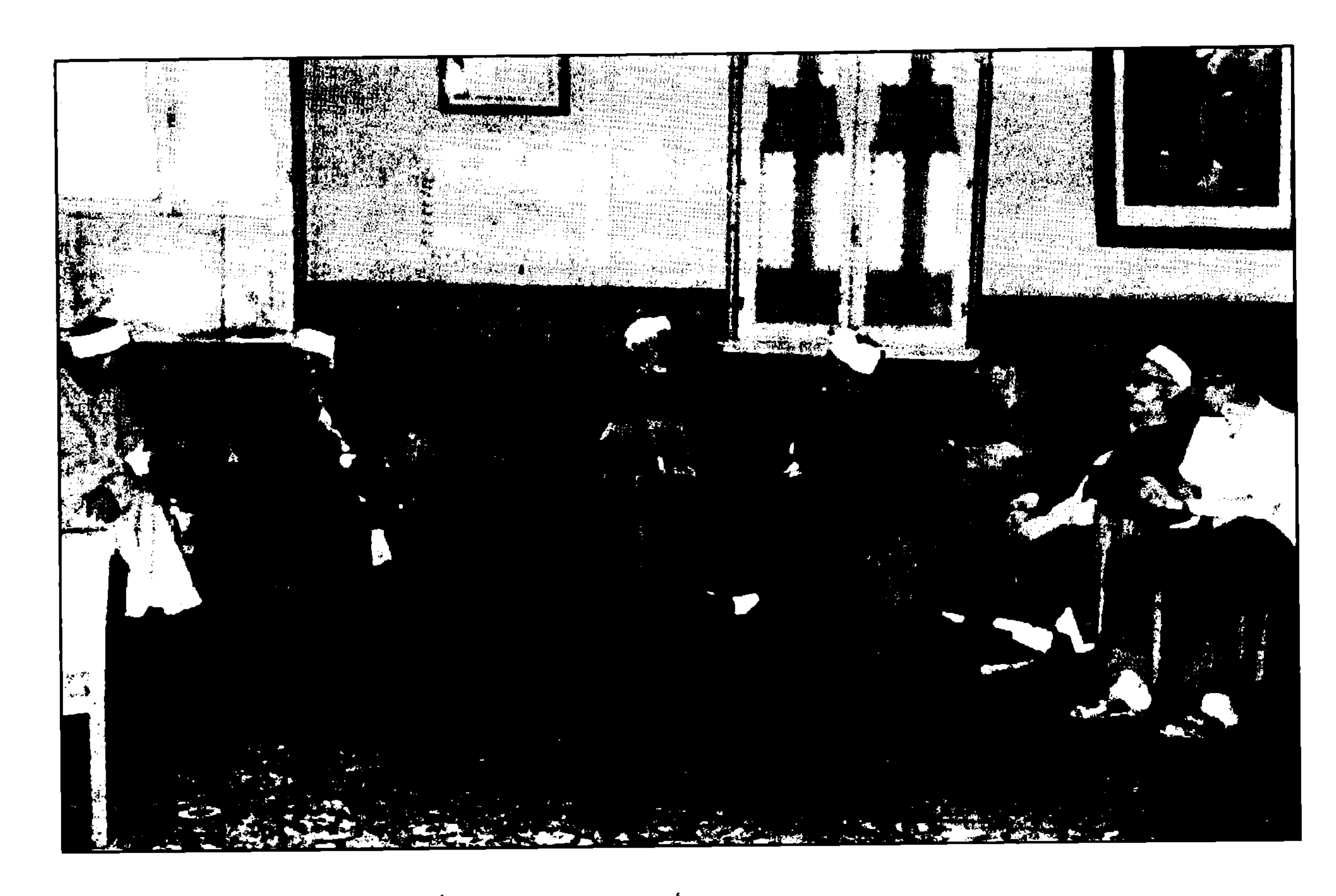
مشهد ـ ايران



الشيخ القمي أثناء إلقاء كلمة في جمعٍ من العلماء في المشهد الرضوي وإهدائه نصّ فتوى شيخ الأزهر حول الشيعة الإمامية



العلاّمة القمي في ضيافة مشايخ الأزهر الشريف: مع الشيخ متولّي الشعراوي والشيخ عبدالعزيز عيسىٰ



الشيخ القمي مع عددٍ من علماء الأزهر الشريف من مشيخة الأزهر



ندوة خاصة في مقرّ دار التقريب بين المذاهب الاسلامية سنة ١٣٤٥ هـ ق في القاهرة.

من اليمين: الشيخ حسن البنا (مرشد الاخوان المسلمين) الشيخ علي مؤيد (إمام الشيعة الزيدية في اليمن) الشيخ عبدالمجيد سليم (شيخ الأزهر الشريف، الإمام الأكبر) الشيخ أمجد الزهاوي (كبير علماء السنّة في العراق) الشيخ الحاج أمين الحسيني (مفتي فلسطين) الشيخ الآلوسي (من العراق) الشيخ محمد تقي القمي (مؤسّس دار التقريب ـ في ايران)



أعضاء الهيئة العليا لدار التقريب بين المذاهب الاسلامية في القاهرة.

من اليمين: الشيخ العناني، الشيخ علي الخيف أُستاذ الفقه والأصول في الأزهر، أحمد علي علوية، الشيخ السكي، محمد علي علوية باشا، الشيخ عبدالمجيد سليم رئيس الأزهر، الشيخ محمود شلتوت رئيس الأزهر، الشيخ حسن البنا مرشد الاخوان المسلمين، الشيخ محمد مدني رئيس كلّية الحقوق ومدير مجلّة رسالة الإسلام، الشيخ محمد تقي القمي.

الشيخ القمي في لقاءٍ مع الدكتور عبدالعزيز كامل والشيخ عبدالعزيز عيسى



العلّامة القمي في أواخر عمره في المهجر، حين التقيت به
في شقّته المتواضعة في باريس، فرنسا

قصّة التقريب

أمة واحدة، ثقافة واحدة

للعلّامة الشيخ محمد تقي القمي

القسم الأوّل

مقالاته الهادفة

ويشتمل على ثلاثة أبواب:

الباب الأُوّل: الدين والدنيا

الباب الثاني: قصة التقريب

الباب الثالث: ثقافة التقريب

الباب الأوّل

الدين والدنيا

علاقة العلم بالإيمان

ويشتمل على أربعة فصول:

* الأوّل: الدين في معترك الحياة
* الثاني: الدين في معترك الفضاء
* الثالث: ليكن شعارنا المدرسة بجانب المسجد
* الرابع: حياة كلّها هجرة

الفصل الأوّل

الدين في معترك الحياة

الدين قوة منذ وجد، ومَثَل تلك القوة كمثل أيّة قوة تظهر في الأرض فينبري لها المعارضون والخصوم بغية القضاء عليها، ويتّجه إليها الطامعون والمستغلّون رغبةً في استغلالها لمصالحهم، وفي هذا قضاء على مثله العليا وجوهر رسالته السامية.

والمتتبّع لتاريخ الأديان يلاحظ أنّ أخطر خصوم الدين في كلّ عصر: جاحدٌ ينكره، أو مستغلٌ يريد أن يسخّره. وأمامنا على ذلك أمثلة من التاريخ.

فقد طالما رأينا الدين في حرب مع منكريه، ورأيناه في خصام مع مستغلّيه، ورأينا الحكّام والسياسات تلتمس فيه سنداً وعوناً، ورأيناه في خدمة حاكم أو سياسة، والويل للدين إن استغلّ في خدمة أشخاص أو سياسات.

والتاريخ يحدّثنا عن الحروب الدامية بين الدين ومنكريه، وعن ملوك حكموا باسمه، لا اعتناقاً لمبادئه، بل استغلالاً لقوته الهائلة كي يظفروا على عدوّهم، أو يطمئنّوا على مجدهم ونفوذهم، ويعيشوا بعونه في راحة وهناءة.

وكان الحكّام يخالطون الكهنة أو يندمجون فيهم لا لشيء إلّا رغبة في السيطرة على النفوس باسم الدين، كي يجذبوهم إلى خدمتهم في شتّى الميادين.

وكان الملوك يهدفون إلى تسخير الدين حين كانوا يتّشحون بأثواب القداسة

ويرأسون الديانات. وقد أسرف بعضهم في ذلك وحاول أن يفيد من ديانتين متباينتين في وقت واحد، كما فعل قسطنطين، الذي لم يكتف بأن يكون الكاهن الأعظم في الديانة الوثنية السائدة، بل كان في نفس الوقت حامي المسيحية وناشر فكرتها، ومؤسّس القسطنطينية مركز الكنيسة الرومانية الشرقية.

على أنّ الدين رغم ما واجه من عنت خصومه ومستغلّيه في كلّ عصر، ظلّ قوي النفوذ، واسع السلطان، مسيطراً على القلوب، وذلك لأسبابٍ، أهمها: أنّ العلم كان بيده، بل كاد يكون احتكاراً لرجاله على مدى العصور.

ولا نريد أن نوغل في القديم أكثر من هذا، لنذكّر القارئ بآثار كهنة سومر ـ أقدم الديانات ـ أو كهنة بابل، أو غرائب علوم كهنة مصر، أو أسرار مؤبذان فارس، أو ما إلى ذلك، بل حسبنا أن نذكّره بأنّ العلم كان بيد الكنيسة المسيحية، وأنّ الإسلام جعل للعلم قداسة كالدين، فكان كلّ درس يبدأ باسم الله والتعوّذ من الشيطان الرجيم، وكان طلّاب التفقّه في الدين يدرسون الفلسفة والرياضة والفلك والطب والكيمياء، كما كانت المعاهد الدينية هي نفسها مدارس علوم الحياة، وعلماء الدين هم أساتذة تلك العلوم.

لكن معاهدنا الدينية الإسلامية هجرت كلياً علوم الحياة، كما أنّ الغرب المسيحي انحرف عنها إلى حدٍّ كبير وإن ظلّت المدارس الدينية في بعض بلادهم تساهم مساهمةً كبيرةً في تثقيف الشباب مع صبغهم بروح الدين، والدليل على ذلك ما قرأناه في الصحف بالأمس القريب عمّا وقع في بلجيكا البلد الأوربي المتحضّر، تحت عناوين بارزة مثيرة مثل: «بلجيكا على أبواب حرب أهلية» ومجمل الخبر أنّ الحكومة البلجيكية خفّضت المعونة التي تقدّمها إلى المدارس الكاثوليكية، وأنّ هذا أثار أغلبية الشعب ـ وهم تلاميذ تلك المدارس طبعاً ـ فاحتشدت مظاهرة في الشوارع من مائة ألف كاثوليكي، فيهم رئيس وزارة سابق، احتجاجاً على هذا التصرّف.

ولقد وقفت أمام هذه الأنباء إلى شغلت الرأي العالمي أياماً وقفةً طويلةً، وقرأت فيما بين السطور قوة الدين ومركز رجال الدين كأساتذة الجيل، وقارنت بين ربطهم الديني بالحياة، وبين ما نحن عليه الآن.

ومنذ زهد رجال الدين في علوم الحياة، بدأ العلم يشقّ طريقه غير آبه بالدين ولا حافل به، وبدأ الشبّان يفهمون أنّ العلم شيء والدين شيء، وانصرفوا بكل عقولهم إلى العلم، وانصرفوا بكل قلوبهم عن الدين، حتّىٰ أصبحنا الآن أمام علماء يسخّرون كلّ ما في الطبيعة لإثارة الشهوات، وإشاعة جوٍّ من الرذيلة، وهاهم يشتغلون ليلاً ونهاراً خفيةً وجهراً، ليطلقوا الذرّة، وليس يهمهم أن يدمّر ذلك قارةً بأكملها، ثم هم يتسابقون في صنع صواريخ تطلق في الجو فتهلك الملايين بأشعّتها دون أن تهوى إلى الأرض، ولا يأبهون أن ينزل العذاب والشقاء بالبشر أجمعين.

والعلم سلاح قوي خطر، إن وقع في يد الفضلاء نفعوا به الناس، والتمسوا به الخير، وأناروا به البصائر، وهدوا به إلى عظمة الخالق، وإن وقع في يد السفهاء آذوا به كثيراً، وأضرّوا به كثيراً، وجرّوا به على البشرية أفظع الشرور.

وقديماً فطن العلماء إلى هذه الحقيقة، فالتزموا قواعد لم يحيدوا عنها طوال العصر، ضمنوا بها بقاء العلوم في يد الأخيار من أهل الفضيلة، فحفظوا البشرية من الشرور، فكهنة بابل ومؤبذو فارس كانوا لايبوحون بأسرار علومهم لمن ليس أهلاً لها، ومن لا يُطمأنّ إليه؛ خيفة أن يؤذي به أحداً من الناس، وكهنة مصر كانوا يقولون: إنّ سرّ الموت والحياة هو سرّ الأسرار، ولابد أن يبقي سرّاً وإلّا خربت الأرض ومن عليها.

وهكذا فقد العلم في عصرنا صمام الأمان وهو الدين، وانتقل سلاح العلم من أيدينا إلى أيدي غيرنا، وتحوّل هذا السلاح النوراني من خدمة الخير المطلق، وسخِّر في خدمة الشرّ المدمّر.

فماذا فعلنا نحن رجال الدين؟ إنّ الشقّة بيننا وبين علوم الحياة ظلّت تتّسع

حتّىٰ وصل الأمر إلى أنّه لو عرض على طالب جامعي أن يدرس في معاهد الدين لبهت وأخذ كأنّما أُنذر بالموت، هذا بعد أن كانت المعاهد إلى زمن غير بعيد تلحق بالمساجد.

إنّ الدين كقوة فقد كثيراً من جنوده بتسريح الشباب من ميدانه، وباعتزال رجاله معترك الحياة بعد أن كانوا يعيشون في صميمها، ويأخذون بيدهم التعليم وهو ضرورة للإنسان كالماء والهواء، بينما خصوم الدين ومستغلّوه الذين كانوا في الماضي أفراداً أو جماعات متفرّقة أو حكومات محلّية محدودة القوى؛ تحوّلوا إلى كتلتين عالميتين، إحداهما تحاربه حرباً عنيفة قاسية، والأخرى تحاول أن تستغلّه استغلالاً كاملاً، وكلتاهما تؤذي الدين، وتقوّض دعائمه، وتعصف بكل مقوّماته عصفاً.

نعم، لقد أصبح الدين في العصر الحديث بعد ما ارتبطت أجزاء العالم المتباعدة يواجه كتلتين قويتين تشملان العالم تقريباً: كتلة تنكره، وتبني سياستها على محوه، وتحاربه بشتى الوسائل، وتصفه بأنّه مخدّر و«أفيون» للشعوب، وتسفّ في التعريض به، وتعزو إليه كلّ جدب يصيب النفوس وكلّ نقص يصيب الزروع.

وكتلة أخرى تظهر بمظهر المؤيّد للدين؛ رغبةً منها في استغلاله ضد غريمتها، فهي تعمّر المعابد، وتشجّع على بناء الكنائس، وتسرف أحياناً في هذا إسرافاً كثيراً[١].

وهذه الكتلة التي تتظاهر بتأييد الدين، هي نفسها تتحفنا بأفكار وتقاليد وتصرّفات أقلّ ما يقال فيها إنّها تبثّ روح الاستخفاف بالدين، وتغري الناس بالخروج على تقاليده وتعاليمه.

---

١. يدلّ عليه ما نشرته أخيراً إحدى النشرات الفرنسية تحت عنوان: أكبر لوحة زجاجية في العالم حيث تقول: أوصت إحدى الكنائس الامريكية خبيرين فرنسيين من مقاطعة «بريتاني» بصنع أكبر لوحة زجاجية ستزدان بها إحدى واجهات الكنيسة، وسيكون طولها ٤٠ متراً وارتفاعها ١٧/٥ مترا، وقد سبق للخبيرين المذكورين أن صنعا لوحة زجاجية أخرى بديعة لإحدى الكنائس بكندا!!

أليس في تصرّفاتها بفلسطين الشهيدة دليل على الاستخفاف بالمسيحية والإسلام ؟

أليست هذه الكتلة تفسد الشباب وتصرف الناس عن الدين بما تنشره من أفلام داعرة، وأفكار انحلالية ؟

ثم إنّنا كرجال للتقريب، نرى أيادي تلك الكتلة ـ مع الأسف ـ في النشرات المفرّقة، والمحاولات البارعة لإيجاد الخلاف أو توسيع شقّته بين أبناء الدين الواحد، وفي مقاومة أيّة فكرة تهدف إلى جمع الكلمة، وأخيراً نرى هذه الكتلة لا تروّج غير الخرافات، وهي وحدها كفيلة بالقضاء على الدين.

هذا هو وضع الدين في العالم ومركزه في معترك السياسة العالمية، ونصيبه من بطش الكتلتين العالميتين اللتين تهدّد كلٌّ منهما الأخرى وتبغي إفناءها، واللتين تجرّان على العالم كله القلق الشامل، والاضطراب الزائد، والخوف وعدم الثقة.

والدين وحده يستطيع أن يتحكّم في هذا الموقف، ويتغلّب على الأهواء البشرية وهستريا الحرب، ويردّ الطمأنينة إلى النفوس. ولكن كيف يمكن من أداء رسالته كقوة معنوية يحسب حسابها، وترجع بالبشرية إلى صوابها؟

سؤال ليس من السهل الإجابة عنه في بقية مقال، إلّا أنّ ذلك لا يمنعنا من أن نشير إليه في عرض سريع، وسوف نعود إلى تفصيله فيما بعد إن شاء الله.

التعليم كان سلاحاً بيد رجال الدين، والعلم والدين لم يفترقا إلّا في أوقات لا تكاد تُذكر، والتثقّف والتديّن كانا دائماً متلازمين، ولم يكن الدين يعرف بدعة القديم والحديث، ولا كان العلم ينتزع الشباب من أحضان الدين.

اعتزلنا وأوجدنا قديماً وجديداً. قدّمنا سلاح التعليم لأنصار الجديد واكتفينا بأن نحافظ على القديم، وبذلك سرّحنا جنودنا من الشباب، وتركناهم مطيّة لغيرنا، وعرضةً ليكونوا يوماً حرباً علينا.

نحن أمام جيل جديد، فماذا أعددنا لهم اليوم لنضمن صلتهم بالدين غداً؟

إنّ المعاهد انفصلت عن المعابد، والمساجد ابتعدت عن المعاهد، وبذلك انحرف العلم عن قدسيّته، والدين عن رسالته، ولا خلاص إلّا أن نهتم بالمعاهد اهتمامنا بالمساجد، بل لا نبني مسجداً إلّابنينا بجانبه معهداً، ولا معهداً إلّا بنينا معه معبداً، فليعدّ طلبة الدين أنفسهم ليكونوا رجال التعليم، وبذلك يفتحون آفاقاً جديدة، ويخدمون العلم كما يخدمون الفضيلة، ويكتسحون المكاتب والمدارس والجامعات، وينشئ منهم من يستطيع مدرسةً أو مكتباً، وممّا لاشكّ فيه أنّهم بعملهم هذا يضمنون للدين قوةً وبقاءً، وللبشرية سلامةً وأماناً، ولأنفسهم مكانةً تليق بهم في حاضرهم ومستقبلهم، والله يوفّق العاملين.

الفصل الثاني

الدين في معترك الفضاء

الحقيقة الثابتة

ليس في عالمنا حقيقة واقعة ثابتة كحقيقة الدين، قاوم كلّ حرب، وصدّ كلّ هجوم، وانتصر علىٰ كلّ عدو، وبقي حيّاً مزدهراً علىٰ مدى القرون.

حاربه الملاحدة، لأنّه لا يعجبهم، وذهب الملاحدة وبقي الدين. وحاربه الجبابرة، لأنّ في بقائه كسراً لشوكتهم، وذهب الجبابرة وبقي الدين. وحاربه الذين استغلّوه ليصلوا بواسطته إلى الحكم، فلمّا استقرّ لهم الأمر بطشوا به وطاردوه، وكانوا أشدّ عليه وطأةً من كلّ عدوّ، وذهب المستغلّون وبقي الدين.

حاربه كلّ هؤلاء، وكانوا يعنفون في حربه، لأنّ نصوع حقيقته، وشدّة حيويته، وقوة تأثيره في الناس، كانت تشكّل أكبر خطر عليهم، وتهدّد نفوذهم وسلطانهم بالزوال.

بل أنّ حربهم إيّاه بلغت في فترات من التاريخ غاية الشدّة، حتّىٰ لقد خشي المؤمنون ألّا يبقى علىٰ الأرض من يعبد الله ويوحّده.

ثم ذهبوا جميعاً، بجيوشهم وبربريتهم، وخلت الأرض منهم ليصبح ترابها معابد ومساجد للعابدين والساجدين.

ثم جاء القرن الأخير، وظهرت فيه المذاهب والنظم السياسية والاقتصادية

والاجتماعية المستحدثة، التي تقوم علىٰ المادّية الخالصة، أو علىٰ الإلحاد السافر وإنكار الله.

وزعم أصحاب هذه المذاهب أنّ مبادئهم تحقّق السعادة للبشر، ولكنّها عند التطبيق ظهر عجزها وقصورها، وعدم جدارتها لإدارة شؤون العباد، بحيث اعترى الكثير من مبادئها التغيير والتبديل، وربّما الالتحام مع مبادئ من يعارضونها.

وقد تعرّض الدين لهجمات هذه الكتل الكبيرة المارقة، فتعطّلت الكنائس في بلاد، وتعطّلت المساجد في بلاد أخرى.

فماذا كانت النتيجة؟

إذا كان لكل مائة أو مئات كنيسة أو مسجد يجتمعون فيه، فقد صار لكل واحد مسجد أو كنيسة بناها في قلبه.

وإذا كانت الشعائر قد تعطّلت أو أهملت بفعل البيئة، فإنّ جوهر الدين ـ وهو الإيمان بوجود قوة فوق القوى ـ قد بقي في القلوب سليماً، أدرك الإنسان ذلك وأحسّ به أو فاته إدراكه بتأثير الدعايات.

أي أنّ النتيجة كانت علىٰ عكس ما ذهبت إليه الظنون، ومن الأحداث ما يكون له أثر كبير في تقوية الدين، بل في إحيائه وإن لم يكن ميتاً في وقت من الأوقات.

وستذهب هذه النظم المستحدثة، لعجزها عن إسعاد البشر. وستختفي من الوجود هذه المذاهب التي قامت علىٰ المادية أو الإلحاد.

ولن يبقي علىٰ تلك المذاهب والنظم تقدّم العلوم في تلك البلاد ـ كما يظنّ كثير من الناس ـ لأنّ العلم لا يعارض الدين، فضلاً عن أنّ كثيراً من العلوم من شأنها أن تدفع أهلها إلى الإيمان بالله.

الذرّة والكون

ومن عجيب الصدف اشتغال العالم في نصف القرن الأخير بالذرّة وبالكون، أيّ بأصغر شيء وبأكبر شيء في الوجود.

أمّا الذرة، فهي أصغر لبنة يمكن أن تنقسم إليها العناصر مع احتفاظها بخصائصها المختلفة، وقد تمكّن الإنسان من تحطيمها، وكانت النتيجة الملموسة فضيحة «هيروشيما».

ولعلّ الإنسان لم يكن يدرك الدمار الذي يحدثه التفجير النووي، فلمّا رآه رأي العين بدأ يخافه ويرهبه، ويدعو إلى التعايش السلمي ليدفع عن نفسه خطر هذا المارد الجبّار.

وأمّا الكون، فإنّه أوسع ممّا يتصوره أيّ عقل، أو يحدّه أيّ حدّ. والإنسان حين أراد أن يشرف هذا الكون غير المتناهي بقدومه، أنفق في سبيل ذلك مبالغ طائلة كانت تكفي لإسعاد كثير من البشر، وسخّر في العمل لهذه الغاية أكثر من اثني عشر ألف عالم، وأجرى التجارب الباهظة التكاليف سنين عديدة، وأرسل الأقمار الصناعية بعضها في إثر بعض، فعل ذلك كله لكي يطأ برجله القمر.

ويتساءل الكثيرون: ماذا يكون مستقبل الدين بعد أن وجد الإنسان في نفسه الجرأة علىٰ تحدّي الكون؟.

والجواب: أنّ كثيراً من العلوم من شأنها إن تقدّم فيها الإنسان: أن يحسّ بعجزه وضعفه، وأن يتوجّه بصورة إرادية أو لا إرادية إلى الله.

كثير من الأطباء دخلوا قاعات الطب غير مؤمنين، وخرجوا منها وهم أشدّ ما يكون إيماناً بقدرة الله. كثير من الفلكيين دخلوا المراصد غير مؤمنين، وخرجوا منها وهم أشدّ ما يكون إيماناً بعظمة لله. كثير من علماء الفيزياء دخلوا المعامل غير مؤمنين، وخرجوا منها وهم أشدّ ما يكون إيماناً بسلطان الله.

وعلوم الفضاء لها الصدارة علىٰ كلّ العلوم، ولابدّ أن تنتهي بأصحابها إلى الإيمان واليقين، والاعتراف بعظمة الخلاق وربوبيته.

ومع ذلك، لننظركم تقدّم الإنسان بسفره إلى القمر، وهل هو حقيقة تحدّى الكون أو سخّر الفضاء؟

كلنا نعرف أنّنا نعيش في الكرة الأرضية، وهي سيارة من السيارات التسع التي تدور حول الشمس، والقمر سيارة أخرى أصغر من الأرض، والشمس بدورها تجري في مدار خاصّ بها، تدور فيه حول مركز مجرّتنا الطريق اللبني ـ أو التبني ـ وتكمل دورتها حول المجرّة في ٢٥٠ مليون سنة، ومعروف أنّ مجرّتنا هذه ليست من كبريات المجرّات، بل هي واحدة من مجرّات تعدّ بالبلايين، وكلّ مجرّة منها قوامها مئات آلاف الملايين من النجوم والشموس والكواكب.

هذه كله بالنسبة لعالمنا المرئي، ومن الممكن وجود كثير من المجرّات خارج النطاق الذي عرفناه، فقد يتعدّد وجود الأكوان بحيث يفوق الوصف والخيال.

فالكون وسيع إلى درجة أنّ العلماء جعلوا مقياس المسافة فيه السنة الضوئية، والضوء كما نعلم يقطع في كلّ ثانية ٣٠٠ ألف كيلو متر!

النظام الأتمّ

وهذا الكون الوسيع يحكمه نظام دقيق، يعجز البشر عن التفكير فيه لدقّته.

فكل شمس، وكلّ نجم، وكلّ كوكب، وكلّ مجرّة تدور في دائرة محدّدة، لاينحرف واحد منها عن دائرته، ولايبطئ في سيره، ولايسرع عن مألوفه، ولايتخلّف عن حركته واحد من المليون من الثانية.

والنظام الذي يتحكّم في هذا الكون الوسيع، من أرضنا التي هي تحت أقدامنا إلى كواكب في مجرّة تبعد عنّا بمليوني سنة ضوئية، هو النظام الأتمّ الذي عجز الإنسان بالأمس عن التفكير فيه لدقّته، ولمس اليوم كماله وروعته بخروجه إلى الفضاء، علىٰ ضآلة المسافة التي قطعها فيه.

ويكفي دليلاً علىٰ تفاهة ما وصل إليه الإنسان أن نذكر أنّ المسافة بيننا وبين القمر تقرب من ٢٤٠ ألف ميل، لو حسبناها بحساب السنة الضوئية، وهي المقياس المألوف لقياس الفضاء، لوجدنا أنّها تقطع في ثانية وربع الثانية، فإذا وضعنا إلى

جانب ذلك أنّ بيننا وبين المجرّة المتسلسلة مليوني سنة ضوئية، أدركنا تفاهة ما وصلنا إليه بالنسبة إلى سعة الكون العظيم.

فهل يحقّ لنا أن نزعم أنّنا غزونا الفضاء، أو ندّعي أنّنا سيطرنا عليه؟

إنّ مثل الإنسان في صعوده إلى القمر كمثل طفل صغير يحبو، تمكّن بعد جهد شديد من صعود درجة واحدة في سلّم عمارة شاهقة، فلمّا استقرّ علىٰ هذه الدرجة، جعل ينظر إلى نفسه بإعجاب، وينظر إلى ما حوله بغرور، وهو يحسب أنّه سيطر علىٰ العمارة الشاهقة، مع أنّه لم يعرف شيئاً عن ارتفاعها، ولا عن هندستها، ولا يعرف لماذا بنيت، وكم عدد الأدوار فيها.

يقول بليفون العالم الشهير: «إنّ الكون كله بنجومه المختلفة الأحجام التي لاحصر لها، والتي تندفع في جميع الاتّجاهات كأنّها شظايا قنبلة متفجّرة، صورة لايكاد المرء يتخيّلها حتّىٰ يدركه البهر وتنقطع أنفاسه، ولكن يبدو أنّ الأجدر أن يبهر ويقطع الأنفاس هو رؤية هذا الكائن البشري الضئيل الذي يعيش علىٰ شظيّةٍ من شظايا نجم صغير في زاويةٍ حقيرةٍ من زوايا مجرّة لا تختلف شيئاً عن الملايين من أمثالها، هذا الكائن يجرؤ علىٰ أن يسمو ببصره إلى أطراف الفضاء، ويجرؤ فيتحدّى، ثم يجرؤ فيحاول أن يعرف الكونّ».

رسالة السماء

إنّ الإنسان لتعتريه الحيرة كلّما تعمّق في هذا الكون، وإنّ حيرته لتبلغ منتهاها حين يرىٰ أنّه حتّىٰ بالنسبة لما وفّق فيه، كنزوله علىٰ القمر، أو إرساله الصواريخ إلى الزهرة أو المريخ، يجد أنّ هذا التوفيق مرهون بالنظام الدقيق في حساب الكون، فلو كان هناك تخلّف بمقدار ثانية في دوران القمر، أو تغيّر طفيف في اتّجاهه، هل كان الإنسان يمكنه أن يدرك القمر وأن ينزل عليه؟ لو أنّ لحظة من التأخير أو السرعة طرأت علىٰ حركة القمر، لبقي الإنسان يتيه بسفينته في الفضاء دون أن يبلغ مايريد.

فتوفيق الإنسان في وصوله إلى القمر، أو في وصول صواريخه إلى المريخ والزهرة، هذا التوفيق نفسه يعتمد كلّ الاعتماد علىٰ النظام المحكم الدقيق الذي يسيطر علىٰ كلّ الأجرام السماوية، صغيرها وكبيرها، ويجعلها تسير في مداراتها دون أن يطرأ علىٰ حركتها أدنى اختلال، كأنّما هي عقارب ساعة تتحرّك علىٰ مينائها بغاية الدقّة وبغاية الانتظام.

واعتماداً علىٰ هذا النظام المحكم الدقيق، لم يكن علىٰ الإنسان إلّا أن يحسب المدّة والطاقة، ويضع لسفينته الأوصاف التي تضمن لها قوة المقاومة للجاذبية والضغط، لتصل إلى النقطة التي يريد، وهذه النقطة تبدو لشدّة الضبط وكأنّها نقطة ثابتة تنتظر وصول سفينة الفضاء.

بغير هذا، هل كان يمكن للإنسان أن يحسب ويقرّر أنّه في يوم كذا، وفي الساعة والدقيقة والثانية كذا، يمكنه أن يدرك القمر في جانبه المنير أو جانبه المظلم، يطابق حسابه الواقع؟

واعتماد الإنسان علىٰ دقّة النظام الكوني والانتفاع به، لا يعني أنّ الجهود التي بذلت في رحلات الفضاء كانت هيّنة أو ضئيلة. كلّا، بل أنّ علماء الفضاء قد بذلوا جهوداً جبّارة مضنية، وقد حقّقوا انتصارات علمية كبيرة.

فالتغلّب علىٰ الجاذبية، والانفلات من سلطانها هو انتصار علمي كبير، وخروج الإنسان إلى مجال انعدام الوزن والسبح فيه هو انتصار علمي كبير، ومعرفة الضغوط المتباينة في مختلف الأجواء هو انتصار علمي كبير، وإرسال سفينة تخترق الأجواء، وتحتمل الضغوط، وترسو علىٰ القمر، هو انتصار علمي كبير، والتحكّم في مسيرة سفن الفضاء ذاهبة وآيبة هو انتصار علمي كبير.

وهذه الانتصارات العلمية لا تدلّ فقط علىٰ الجهود الضخمة التي بذلها علماء الفضاء، بل تدلّ كذلك علىٰ النبوغ والعبقرية والعلم الغزير.

وليس من شكّ في أنّ هذه الانتصارات العلمية قد نقلتنا في مجال المعرفة من

نطاق الفروض والظنون إلى الحقائق المسلّمة والواقع الملموس، ومثل هذه النقلة العلمية الكبيرة قد تورث النفس البشرية الحيرة، وحين تبدأ الحيرة تبدأ رسالة الدين؛ وواجب العلماء أن يهتبلوا فرصة حيرة البشر ليضعوا أمام الحائرين قدرة خالق الكون الكون العظيم. ولن يستطيعوا أداء هذا الواجب إلّا إذا تتبّعوا الحركة العلمية، وعنوا بدراسة علم الكون أو علم الفضاء عنايتهم بدراسة علم التوحيد ليستعينوا بذلك علىٰ تثبيت معالم الإيمان.

أمّا إذا تقوقعوا علىٰ أنفسهم، وظلّوا سادرين عن كلّ ما يجري حولهم، وعاشوا علىٰ معارف قديمة تناسب قروناً مضت، فويل لهم من هذا التقصير، وويل للبشرية من علم متمرّد طليق.

إنّ عصرنا هذا سمّي بعصر العلوم، ثم سمّي بعصر الذرة، وسمّي أخيراً بعصر الفضاء، وأرىٰ من الإنصاف أن نسمّيه عصر التبحّر في عظمة الله، وبالتالي عصر التمهيد لمعرفة الله والإيمان بقدرته التي لا تقف عند حدود ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

---

١. فصّلت: ٥٣.

الفصل الثالث

ليكن شعارنا المدرسة بجانب المسجد

إنّ علاقة الدين بالمجتمع كثيراً ما تتعرّض لأزمات، وتطرأ عليها تطوّرات. فالمجتمع تارةً يكون متمسّكاً بدينه متحمّساً له، وكان الدين عنده كلّ شيء، وتارة أخرى يقع ـ نفس المجتمع ـ في فوضى خلقية، وكأن لم يكن بينه وبين الدين صلة، حتّىٰ أنّه ليسخر من معتقداته السابقة، ويعتبر المادة كلّ شيء ولا شيء سواها.

إنّ الدين في الغالب يظهر في أحلك الأوقات وأشدّها حيرة، فعندما تتحكّم الفوضى، وتسود المادية، وتنبذ الفضائل ويتنكّر للمثل، يظهر الدين فيجمع نفراً على عقيدة، ويوحّد كلمتهم، ويوجّههم إلى الفضيلة وإلى الخلق وإلى المثل، ويتّخذ من مساوئ المجتمع أدلّة على الحاجة إلى الأخذ بتعاليمه، ويحرص في كلّ ما يأتي به على توجيه معتنقيه إلى قوة فوق البشر، تجزي الخير بالخير والشرّ بالشرّ.

فإذا خرج بأتباعه من الحيرة والفوضى، ونظّم الصلات بينهم على أُسس من الفضيلة، كان من الطبيعي أن يتكوّن منهم مجتمع سليم يتمتّع بقوة روحية وأدبية، وفي مثل هذا المجتمع تهدأ النفوس وتنصقل العقول، وهدوء النفس وانصقال العقل يمهّدان السبيل للمعرفة، بل أنّ الدين نفسه يوحي بالمعرفة ويغري بها. والدليل على ذلك أنّ روّاد العلوم كانوا غالباً من رجال الدين.

والدين أول ظهوره فكرة تقدّمية، تلاقي ـ لمدة من الزمن ـ معارضة عنيفة من

أنصار التقاليد البالية الذين يستمسكون بالقديم لأنّه مألوف، وفي المعارضة قوة، وكم من أفكار إصلاحية تدين في بقائها ونجاحها للمعارضة له، وعندئذٍ يطمئن رجاله، فيبطئون في السير اعتماداً على سابق الفوز، أو يقعدون عن العمل اغتراراً بما بلغوا من مكانة، ويكتفون بالدفاع عن ماضٍ مشرق بدل أن يهتموا بما يدور حولهم في حاضر له ما بعده، فإنّ الدنيا بطبيعتها متطوّرة، وكلّ لحظة منها يمكن أن تكون مولد فكرة جديدة، ولكل فكرة ـ مهما كانت ـ نهجها وأنصارها، كما أنّ للغرائز آثارها، وللفوضوية عشّاقها ومؤيّديها، فالظروف تتبدّل، والأفكار تتغيّر، والمعارف قد تنطلق من مدارها الخلقي وتصطدم بالدين إن غفل رجاله عن سنّة التطوّر أو تخلّفوا عن ركب الحياة، وبمقدار ما تتقدّم المعارف تتضاءل رقابة رجال الدين وتضعف آثار معارضتهم، حتّىٰ ينتهي الأمر بتقسيم المعارف إلى مدنية ودينية، ثم تطغى المدنية فتفرض أنظمتها على أخصّ شؤون رجال الدين، مثل الطلاق والنكاح وإجراء العقود، وتجعلها دنيوية بحتة.

بهذا الأسلوب يأخذ العلم طريقه إلى رجال غير دينيين، وتلامذة اليوم هم رجال الغد، وعلى هذا الأساس يقوم الفصل بين العلم والدين، وبين الجديد والقديم، ولايقف الأمر عند هذا الحدّ، بل أنّه يتطوّر إلى اعتبار الدين سدّاً في وجه التقدّم العلمي، ثم ينتهي بتحويل الفلسفة والأدب من خدمة الدين والعواصف الدينية إلى معاكسة الدين والنيل من رجاله، وهنا يظهر التدهور الخلقي، والاستهانة بالقيم، وإنكار المثل، وجحد العقائد، وبذلك يتم الفصل بين القديم والجديد، وينشأ التعصّب القديم، والافتتان بكل ما هو جديد، وتسود الفوضى الأبيقورية.

إنّ الدين من غير علم ـ إنّ صحّ هذا التعبير ـ لاينمو في ظلّه إلّا الخرافات، والعلم من غير دين لا يجرّ سوى النكبات والاضطراب والفوضى، والمجتمع اللاديني ينتهي دائماً بالسقوط في هاوية المادية، ولكنّه بكل أسف يجرّ معه الدين أيضاً.

هذه هي السيرة الطبيعية لازدهار الأديان وذبولها، ما لم تجد عوامل لها تأثيرها تساعد الدين على النمو أو تسرع به إلى الاندثار؛ كالحروب والسياسات. ومن هذا يبدو جلياً أنّ نقطة التحوّل الحقيقية تبدأ عند فصل التعليم عن الدين، وكم كان رجالنا الأقدمون حكماء حين بنوا المدارس بجانب المساجد، فإنّه مهما تطوّرت تلك المدارس بتطوّر العلوم، بقي الدين في مركز الموجّه، وبقي السلطان فيها للفضيلة، وللفضيلة وحدها، والدين صمّام الأمان للعلوم، به لا تنحرف عن كونها نوراً يضيء للبشرية، ولا تنجرف إلى خدمة الشرور والآثام.

إنّ التجاوب بين الدين والمجتمع لابد أن يأتي من دور التعليم، وهناك حقيقة تؤيّد ذلك لمستها بنفسي ورأيتها بعيني في آخر أسفاري إلى الخارج، ففي قرية كبيرة أو بلدة صغيرة هي إحدىٰ المراكز الجبلية التي يؤمّها المصطافون، رأيت قسّ القرية هو صاحب الكلمة في مواطنيه وموضع التكريم والاحترام، وكان كثير التودّد إلى القادمين والمصطافين، يزور كثيرين منهم، ويعرض خدماته على الجميع، سألته ـ ونحن في أحد شوارع البلدة بعد أن لمست ترحيب الشيوخ والشبّان به ـ عن سرّ هذا الترحيب، فما كان منه إلّا أن أشار بيده إلى بناية قريبة وقال بالفرنسية مامعناه: هذه البناية كنيسة، وبجانبها مدرسة كما ترى، فنحن نربّي هؤلاء صغارا ونربطهم بالكنيسة، فينشؤون متديّنين، فهم تلامذتنا ومريدونا.

هذا مارأيته في بلد لا ديني، يكثر فيه السيّاح ـ وللسيّاح تأثيرهم ـ ورغم هذا فقد نجح الرجل أيّما نجاح في ربط قلوب التلاميذ بالدين. وهو فيما عمل لم يجاوز ما كان يعمله المسلمون قديماً من جعل المدرسة بجانب المسجد.

إنّ العالم الذي نعيش فيه مليء بالأفكار الهدّامة، مشحون بالسياسات المختلفة، منها ما هي إلحادية صريحة، ومنها ما تؤيّد الدين في الظاهر وتهدمه في الحقيقة، وقد يلبس الإلحاد مظهر الدين، وتبرز الأخرى عداءها له حسب المصالح والأهواء.

وهذه السياسات هي التي ضخّمت الخلافات بين المسلمين، ولا تزال تغذّي إلى

الآن هذه الناحية، تارةً بنشر البحوث باسم الاستشراق، وتارةً بتشجيع النشرات المفرّقة، كما تُظهر الأمة الإسلامية بمظهر الأمم المختلفة، والحال أنّها أمة واحدة.

فلماذا لا نتسلّح نحن بهذا السلاح، فنتناول بالبحث ما يتناولونه لكي يقف المسلمون على الحقائق، فلا يتأثّرون بما يقرؤونه للمغرضين من عملاء السياسات المفرّقة، وبذلك ندفع عن ديننا ما يشوّه سمعته، وندرأ عن أمتنا ما يمزّق شملها.

لماذا لا ندرس أحوالنا، ونتعرّف شؤوننا، ونحدّد موقفنا من العالم؟

لماذا يقف الكثير منّا في بحوثهم عن الطوائف الإسلامية عندما كتب قبل قرون عن الملل والنحل بما فيه من خبط وتشويه، بدل أن ننظر حولنا، ونتعرّف ما في مجتمعنا، ونأخذ عن الواقع الراهن؟

إنّ خطر هذه السياسات على مجتمعنا الإسلامي ظاهر واضح، والحرب الأخيرة لاتزال آثارها ـ من انحلال خلقي وتحلّل ـ تعمل عملها، والدين هو القوة الفعّالة التي يمكن أن تنقذ البشرية ممّا تردّت فيه، ولكن المثل وحدها لا تسود إلّا إذا حملها دعاة مخلصون يجلونها للناس، ويبرزونها للأعين، ورجال الدين هم أهل هذه الرسالة، والمسؤولون عن هذه الأمانة، فإن توانوا أو قصّروا فستظلّ السياسات تعبث بنا، وتعمل عملها فينا، وتفرّق كلمتنا، وتحطّم كياننا، وإذا كانت في الماضي القريب قد أوجدت فرقاً وألصقتها بالاسلام زوراً، فإنّها في المستقبل سترمينا بما هو أدهى وأمرّ، ولن ينجينا من المصير المحتوم إلّا أن نهبّ ونعمل لنصل ما انقطع بين العلم والدين، وليكن شعارنا: المدرسة بجانب المسجد.

الفصل الرابع

حياة كلّها هجرة

يذكّرني شهر الحج بالهجرة، لأنّ المسلمين يهاجرون فيه إلى مكة، ولأنّ مكة -في نظري- هي رمز الهجرة، فأول من نزل بقعتها مهاجر، وأول من تفجّر له الماء في أرضها مهاجر، وأول من رفع قواعد البيت فيها مهاجر، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[1]».

والرابطة قوية بين هجرة المسلمين إلى مكة، وهجرة الرسول منها، فمكة التي تتّسع اليوم لمئات الآلاف من الحجيج، لم تتّسع بالأمس لرسول الله وصحبه -على قلّة عددهم- وضاقت بهم ذرعاً.

والنفس تألف الحديث عن الهجرة لما فيه من لذّة وسمو، ولأنّ الإنسان يألف الهجرة من طول ما تلازمه، فحياته سلسلة من الهجرات الطبيعية، ففي بطن أمه يهاجر من النطفة إلى العلقة إلى المضغة، إلى نهاية أطوار تكوينه السبعة المعروفة. ثم يخرج إلى الدنيا، فيتنقّل من منزل إلى منزل، ويهاجر من طور إلى طور.

ويتّفق الفلاسفة والعرفاء والطبيعيون على حدوث هذه الهجرة وإن اختلفت نظرتهم إليها، وتسميتهم إياها.

---

١. البقرة: ١٢٧.

فالحكماء يعبّرون عنها بالعقل الهيولاني، والعقل بالفعل، والعقل بالملكة، والعقل المستفاد، ومقام القلب، ومقام الروح، ومقام النفس.

والعرفاء يسمّونها بالمقامات، وهي: الطبع والصدر والقلب والروح والسرّ والخفيّ والأخفىٰ.

والطبيعيون يعرّفونها بالأطوار، وهي تبدأ بالطفولة العاجزة، وتمرّ بالنضوج، والرقّية، والحرية، واستكمال العقل (الاستكمال الروحاني والجسماني)، ثمّ تنتهي بالكمال.

وهؤلاء وأولئك يتّفقون في تقسيمها كذلك إلى سبعة منازل، وهو أشبه ما يكون بتقسيمنا اليوم إلى ليل ونهار، لأنّ الظلمة تفرّقهما، والحال أنّ كلّ دقيقة وثانية وثالثة، فيها تغيّر وتبدّل.

وهكذا الإنسان يتنقّل من طفولة عاجزة، إلى صبا وثّاب، إلى كهولة وشيخوخة، وكلّها هجرة إجبارية، لا تحكّم له فيها ولا خيرة، بل هي سنّة من سنن الله في عباده ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً﴾[1].

أمّا الهجرة المعنوية، فهي هجرة النفس من صفة إلى صفة، ومن خصلة إلى خصلة، ومن خلق إلى خلق، ومن درجة أدنى إلى درجات أعلى، ومن عادات ضارّة إلى أخرىٰ مفيدة، ومن تقاليد فاسدة إلى غيرها صالحة، ومن تعصّب للسخافات إلى تعشّق للتسامح، وتطلّع للكمال.

وهذه الهجرة المعنوية طبيعية بالنسبة لمن جعل الدين مرشده، واتّخذ من تعاليمه دليله، وضرورية بالنسبة لأصحاب الدعوات والمجاهدين في سبيل الفكرة، الذين لا يهاجرون بأنفسهم فحسب، بل يهاجرون بالناس من السيء إلى الحسن، ومن الحسن إلى الأحسن، ومن الأخلاق الذميمة إلى الكريمة، ومن مواطن السوء والرذيلة إلى مواطن الخير والفضيلة، ويدفعون الناس إلى الكمال، وإلى ما فيه صلاح دنياهم وأُخراهم.

---

١. الأحزاب: ٦٢.

وحياة الرسول الكريم، تجمع الهجرات كلّها: طبيعية ومعنوية، وتزيد عليها تلك الهجرة المعروفة التي لولاها لقُضي ـ بغير شكّ ـ على الإسلام ورسوله والمسلمين، تلك الهجرة التي هي درس عملي في التضحية والجهاد، والتي اتّخذها المسلمون مبدأً لتاريخهم، والتي جمعت كلّ المعاني والمحسوسات التي تفهم من هذه اللفظة.

كان ﷺ نموذجاً فريداً في هجرته الطبيعية، فلم تشعر أمه إبّان حمله بما تشعر به الحوامل من تعب وألم، ولم تجد في وضعه ما يجده النسوة عادةً من الإجهاد. وكذلك كانت هجرته من الطفولة إلى الصبا والشباب، ثم إلى نهاية الأجل، فذّة في كلّ أطوارها.

أمّا الهجرة المعنوية، فقد اكتمل له أمرها في مستهلّ حياته، ففي صباه لم يله كما يلهو الصبية، ولم يعبث كما يعبثون، بل كان يجلس مع جدّه في مجالس الحكم، ومواطن الحكمة، وفي شبابه كان ينتزع نفسه من مجالس اللهو، ويؤثر الخلوة، ويجنح إلى السكون ليجتلي معاني العظمة في الكون، حتّىٰ بلغ به الأمر أن يتحنّث في غار حراء، كذلك هجر عادات قومه وتقاليدهم، وتميّز عليهم بسمو خلقه وسمو طبعه، وسُمّي عندهم بالصادق الأمين.

وأمّا هجرته المشهورة، التي جمعت كلّ أسباب الخير، وحوت كلّ معاني العظمة، وغمرت الدنيا بأسمى التعاليم؛ فقد كانت بدعاً لا مثيل لها في تاريخ قومه الذين عرفوا الهجرة الجماعية، أي هجرة القبيلة كلها في سبيل العيش، أمّا الهجرة الفردية، الهجرة من أجل العقيدة والمبدأ؛ فشيء جديد لا سابقة له، اضطرّ إليه الرسول بعد إيذاء قومه إياه، ومحاولتهم القضاء على دعوته.

استخلف عنه في مكة من استخلف، وأخذ معه من أخذ، وهاجر إلى المدينة، وفيها وضع أساس الأُخوّة الإسلامية، ومبدأ وطن العقيدة، فآخىٰ بين المهاجرين والأنصار، وبين الأوس والخزرج، وقضى على العصبية الجنسية، والنعرة القبلية، وأعلن أنّ وطن المسلم هو كلّ موطن فيه للإسلام صحبة، وأنّ وطن صاحب

الدعوة كلّ رقعة فيها للدعوة مصلحة؛ وبعد أن انتزع من النفوس كلّ معاني التعصّب والخلاف، غرس فيها مبدأ العمل للإسلام في كلّ مكان، وعلى نهجه سار المخلصون من المسلمين.

كان يستطيع أن يبقى بمكة عزيزاً موفور الثراء، ألم يعرضوا عليه المال فأبىٰ؟ ألم يعرضوا عليه الجاه فرفض؟ إنّه رجل الدعوة، إنّه رسول الله، إنّه لن يترك دعوته أو يقصّر في أداء رسالته، ولو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره، ذلك فناء الذات في الفكرة، وذلك أسمىٰ مراتب الكمال.

لقد رأى أنّ البقاء بمكة لا قيمة له ولا وزن ما دامت كلمة التوحيد ليست هي العليا، فهاجر، وبهجرته امتدّت الدعوة الإسلامية، واتّسع نطاقها، وتخلّص وطن المسلم من النطاق الضيق المحدود.

ومن المؤسف أنّنا إليوم في نظرتنا الوطنية، نقف عند الحدود الضيّقة التي فرضتها علينا الحروب الداخلية أو الخارجية، أو الثورات أو الاستعمار الأجنبي، فحين ننادي بالوطنية، إنّما نعني البقعة التي نعيش فيها أو ننتسب إليها، ونسينا أنّ صاحب الهجرة حدّد وطن المسلم يوم هجرته بأنّه كلّ بلد تسمع فيه كلمة التوحيد، ويوجد فيه من يتّخذ الإسلام دينا.

كذلك نحن نهاجر اليوم، ولكن لا من الكمال إلى الأكمل كما كانت هجرة الرسول، وكما ينبغي أن تكون هجرة المسلم العارف لدينه، وإنّما نهاجر من الحسن إلى السيّء، ومن السيّء إلى الأسوأ، نهاجر عن عاداتنا وتقاليد ديننا، إلى عادات وتقاليد منافية، بل جاهلية وبربرية بأصحّ تعبير، ونحسب أنّنا نسير إلى تقدّم ومدنية، مع أنّنا نتدهور، ونهوى إلى الحضيض.

ليست هجرة الرسول قصة تُقرأ، ويُردّد أمرها، ويرجع حديثها فحسب، وإنّما هي نموذج عملي خالد للهجرة إلى المبادئ السامية والمثل العليا التي تضمن للفرد العزّة والرقي، وتضمن للدولة النهوض والسؤدد.

وما أشدّ حاجتنا إلى التحصّن بتلك المبادئ، ليمكن أن نعيش في هذا العالم المضطرب الذي يريد كلّ ظالم فيه أن يحملنا على مبادئه زاعماً أنّها مثالية، تضمن السعادة والهناء للبشرية.

نحن نكتب هذا ومئات الآلاف من المسلمين يطوفون حول البيت العتيق، يهلّلون ويكبّرون، ويسبّحون الله الواحد الأحد، فهل يذكرون أنّ مكة التي تفتح صدرها لهم، ويتردّد في أرجائها تكبيرهم وتسبيحهم، قد ضاقت بالرسول وصحابته، وحالت بينه وبين عرض عقيدة التوحيد على الناس فيها، فهاجر تلك الهجرة المباركة، التي أوجدت الملّة الإسلامية، ومهّدت للمسلمين سبيل الحجّ، وطهّرت كعبتهم من الأوثان والرجس؟

* * *

وبعد. فلماذا لا نتّخذ من حياة الرسول المليئة بالهجرة الصالحة مثالاً نحتذيه، وطريقاً نسلكه لنتخلّص ممّا نحن فيه، فقد لزمنا الذلّ، وركبنا العار، وهان أمرنا على الناس حتّىٰ أنّ شذاذ إليهود أقاموا لهم دولة في قلب أرضنا الإسلامية، تهدّد وجودنا بأشدّ من تهديد يهود يثرب لمسلمي صدر الإسلام.

ولئن كان الأولون تخلّصوا من كلّ خطر حاق بهم، بفضل تحصّنهم بمبادئ الدين، والتزامهم بحجّة الرسول ونهجه، فإنّ على القادة في أيامنا هذه ـ إن أرادوا النجاة والخلاص من كلّ خطر داهم، وذلّ جاثم، وعبودية مهينة ـ أن يبدأوا من أول الطريق، فينظروا بعين الاعتبار إلى الهجرة، ويتفهّموا حقيقة معناها، وماهي إلّا التضحية، ونسيان الذات، وعدم الخضوع لمؤثّرات البيئة والمجتمع، واتّخاذ خطوات إيجابية حاسمة، تساعدهم على الهجرة بأنفسهم وبالناس معم... فإلىٰ الهجرة.

الباب الثاني

قصة التقريب

الولادة والنشأة

ويشتمل على سبعة فصول:

الفصل الأوّل

قصّة التقريب

الآن وبعد أن نجحت فكرة التقريب، بفضل الله وتوفيقه، وتحدّثت عنها الإذاعات، ونقلت أخبارها وكالات الأنباء، وكتبت عنها الصحف والمجلّات الآن، وبعد أن خرجت الفكرة من محيطها المحصور بين العلماء إلى محيط أوسع وأشمل هو المجتمع العام.

الآن، وبعد أن سجّل التاريخ تلك الخطوة الكبرى التي تمّت، والتي تعتبر نقطة تحوّل في التاريخ الإسلامي. الآن، وبعد أن تمّ هذا كله لا نرى بأساً من التحدّث عن نشأة الفكرة، وعن بدء ظهورها، وعن مراحل سيرها، وعن الظروف التي أحاطت بها.

ولاشكّ أنّ فكرة تاريخية كهذه باعتبار ما مرّت به من الأطوار كانت تحتاج في بيان قصتها إلى مجلّد في كلّ عام، ولكن لأنّنا نكتب مقالاً فحسب، ولأنّنا لانحبّ أن نطيل في الحديث عن الفكرة، وإنّما نحبّ أن ندعها تتحدّث عن نفسها، فإنّنا نوجز في العرض ما وسعنا.

* * *

لقد كان الإقدام على العمل للتقريب مجازفةً خطيرةً، تدفع الذهن إلى التفكير العميق في أسئلة كثيرة:

هل في طاقة المسلمين أن يعالجوا مشاكلهم بأنفسهم؟

هل هناك مبادئ من صميم الإسلام تضمن للأمة الإسلامية وحدتها، وبالتالي تضمن لها عزّها ومجدها؟

هل يفهم المسلمون أنّ التقريب معناه نبذ كلّ خلاف؟ أو أنّهم لايرون بأساً بأيّ خلاف يتبع الدليل، ويراعي الأصول التي لا يحقّ لمسلمٍ أن يخرج عليها؟

هل تتحكّم المصلحة في النهاية أو يسيطر التعصّب؟

وأخيراً هل المسلمون يريدون حقّاً أن يعيشوا أو أنّهم سيظلّون يتهاونون حتّىٰ في وجودهم، ويتركون الأمر لأعدائهم الذين يعرفون كيف ينتهزون الفرصة، ويحسنون الانتفاع بموقف كلٍّ من المتزمّتين الذين يسيطر عليهم الجمود، وأصحاب الهوى الذين يخدمون السياسات الأجنبية. وبذلك يزداد ضعفهم، ويعجزهم صدّ أيّ تيّار خارج على مبادئهم، فيسهل تحطيمهم والقضاء عليهم؟

كانت هذه الأسئلة تدور بخلد كلّ من يفكّر في الإصلاح، وتراود عقل كلّ من يرغب في العمل لخدمة الدين والأمة.

وكان لابد للردّ عليها من تجربة تنير الطريق، وتكشف عن حقيقة حال المسلمين.

وكانت فكرة التقريب هي التجربة الأولى من نوعها في هذا المجال. ولو أنّ هذه التجربة فشلت ـ والعياذ بالله ـ لكان الجواب على تلك الأسئلة صريحاً واضحاً، فإنّ فشلها وإن كان في ظاهره مجرّد ضياع فكرة، إلّا أنّه في حقيقته يكون حكماً بعدم صلاحيتنا لعلاج أمورنا، وعدم بلوغنا مرتبة الوعي والرشد، بل يكون دليلاً حتّىٰ عند أكثر الناس إنصافاً لنا على أنّنا لسنا أهلاً لحمل رسالة الإسلام الذي جاء ليحقّق السلام، ويضمن الخير للبشر أجمعين.

ولو أنّها فشلت لما اقتصر أثرها على ضياع هذه الفكرة، بل كان يمتدّ على الزمن

فيثبّط ـ في المستقبل ـ عزيمة كلّ من يحاول إنجاز عمل إسلامي أو تحقيق غاية إسلامية، بل ربّما ألقى هذا الفشل ظلّاً من التشكّك في مبادئنا الإسلامية نفسها، فنظلم الإسلام، ونتيح للبسطاء أو المغرضين أن يحكموا عليه بتصرّفاتنا نحن، وشتّان بين حقيقة الإسلام وواقع المسلمين.

كان الوضع قبل تكوين جماعة التقريب يثير الشجن، فالشيعي والسنّي كلٌّ كان يعتزل الآخر، وكلٌّ كان يعيش على أوهام ولّدتها في نفسه الظنون، أو أدخلتها عليه سياسة الحكم والحكّام، أو زيّنتها له الدعاية المغرضة، وساعد على بقائها قلّة الرغبة في الاطّلاع.

كانت الكتب المشحونة بالطعن والتجريح تتداول بين أبناء كلّ فريق، وتلقى عند كلٍّ أحسن القبول حتّىٰ ولو تكلّمت عن طوائف وعقائد لا وجود لها على سطح البسيطة، كما في كتاب الملل والنحل الذي يبدو لقارئه في بعض الأحيان كأنّه يتكلّم عن خلق آخرين في الكواكب الأخرى.

وفي الجملة، كان يسود الفريقين جوّ من الظلام، فلايرى أحدهما من صورة الآخر إلّا شبحاً تحوطه الظلمة، ولايتكلّم عنه إلّا بما توحي به الظلمة، ولا يقرأ عنه إلّا ماتسمح به حلكة الظلام.

فإذا ألّف أحد من أبناء الفريقين كتاباً، فهو لايعرض إلّا آراء مذهبه، ولا يدافع إلّا عنها، ولا يسير إلّا إليها، وإذا طلب الأمر إشارةً إلى ما في غير مذهبه، فلا تكون أشارته إلّا طعناً واتّهاماً، وإلّا ترديداً لما سمعه أو قرأه أو ورثه عن آبائه.

وبذلك كبّروا الخلافات وضخّموها، وردّدوا الشكوك وأسفوا فيها، حتّىٰ أصبح كلّ معنىً يؤيّد الوحدة يُفسّر في ظلّ الشكوك بما يوجب الفرقة، بل وصل الأمر إلى التشكيك في وحدة المصحف! وشكّ كثير من أهل السنّة في أن يكون مصحف الشيعة هو المصحف الذي في أيدي سائر المسلمين! ومع ذلك لم يكلّف أحدهم نفسه مؤونة التقليب في نسخةٍ من ملايين النسخ التي في متناول يده، ولو أنّهم فعلوا

لذهب الشكّ، ولحلّت المشكلة، ولكنّهم حكموا على الموجود المحسوس بما ليس فيه؛ اعتماداً على قول مؤلّفٍ مغرضٍ مات قبل قرون.

أجل، ولقد ظلّت الفرقة بين المسلمين غذاءً مناسباً للحكم والحكّام قروناً عدة، دأب فيها كلّ حاكم على استغلالها لتثبيت سلطانه، ولتحطيم عدوّه،ثم جاءت السياسات الاجنبية فوجدت في هذه الفرقة خير وسيلة، لتدخلها، وبثّ نفوذها، ودعم سلطانها، وفرض سيادتها.

والسياسات الاجنبية هي التي أوحت إلى كثيرٍ من أعدائنا الذين يتستّر بعضهم وراء اسم المستشرقين، بالعمل ليكملوا إحكام الحلقة حولنا ببحوثهم التي تقوم على دسّ السموم، وانخدع بهم بسطاؤنا، فكان بعضهم يحكم على بعض بما كتبه هذا المستشرق أو ذاك.

وهكذا صدّقنا هؤلاء المستشرقين، كما كنّا نصدّق المؤرّخين الدسّاسين وكتبة الأوهام وواضعي الأحاديث، وسيطرت علينا جاذبية الجديد البرّاق، كما سيطرت علينا هيبة القديم المألوف، فحرمنا أنفسنا حقّ التفكير فيما ذكره هؤلاء وهؤلاء، وأنكرنا على أنفسنا أن يكون لنا تفكير مستقلّ ندرس به أنفسنا من واقعنا.

وبجانب هذا وقفت السياسات الاجنبية المسيطرة علينا، وقفت بالمرصاد في وجه كلّ فكرة إصلاحية ترمي إلى توحيد كلمة المسلمين.

لقد تقرّر «توقيفية» اسماء الله تعالىٰ، فليس لأحدٍ أن يبتكر من عند نفسه أسماً لله لم يرد عن الله، وتقرّر «توقيفية» العبادات، فليس لأحدٍ أن يبتدع عبادةً لم تشرَّع.

أمّا أن يقول المسلم ـ وهو الذي فتح الله أمامه أبواب التفكير في السماوات والأرض ـ بتوقيفية البحث والتفكير، فهذا مالم نكن نتصوّره. ولكنّه مع الأسف الشديد كان سيرتنا في التعصّبات الطائفية.

إنّ الأُسر التي حكمت باسم الخلافة الإسلامية قروناً طويلةً، كانت ترى في آل علي عليه‌السلام المعارض الوحيد الخطير عليها، فكانت تسيء إلى شيعة آل علي،

وتستخدم الاقلام والألسنة ضدّهم، حتّىٰ أوجدوا حول الشيعة كثيراً من الخلط، وكثيراً من التشويش. وكان يمكن لأيّ مصلح يتصدّى للدفاع عنهم أن يدرأ عن المسلمين شرّ التفرّق، ولكنّ القوة التي بيد الخلفاء، ومقاومة بعض الحكّام من الجانب الآخر، كلاهما سخّر الاقلام والضمائر ضدّ كلّ محاولة من هذا القبيل، وقضى عليها.

نعم، هناك محاولات وقعت فيما مضى، إلّا أنّها كانت فردية من جهة، ولم تكن على أساس علمي مدروس من جهة أخرى، وكانت تارةً سياسية ترمي إلى وحدة الحكم، وتارةً غير عملية كمحاولة توحيد المذاهب سنّيها وشيعيّها... وبجانب هذا لم يكن الرأي العام يدرك حينئذٍ ما في التفرّق من أضرار.

من أجل ذلك كله، لم تنجح واحدة من تلك المحاولات المشكورة وإن تركت أثاراً في نفوس قلّة من المفكّرين.

وبعد هذا ساق الله الظروف المؤاتية لايقاظ المسلمين، وهيّأ الأسباب التي تعين على ذلك في أعقاب الحرب العالمية الثانية. فإنّ الدول القوية التي كانت تهيمن على قدراتنا، وترسم لنا سياستنا منذ أمد طويل، هذه الدول خرجت من الحرب محطّمة القوى، مخضودة الشوكة، سواء في ذلك الدول الغالبة والمغلوبة.

وقبل أن تستردّ الدول الغالبة أنفاسها بدأت بينها حرب ثالثة. غير أنّها كانت حرباً باردة. فجعل بعضهم يضرب بعضاً، وجعل كلٌّ منهم يخلق المشكلات للآخرين حتّىٰ سقطت هيبتهم جميعاً، وبذلك سقطت هيبة الدول التي كنّا نؤخذ بها ونسحر بقوتها، وانهار كبرياؤها، وشغلت عن تجديد مساعيها للتفرقة بيننا بمشاكلها التي أصبحت تهدّد كيانها، وبذلك ضعفت قبضتها علينا.

وهناك جانب آخر من الواقع في هذه الحرب وما ترتّب عليها من آثار: ذلك أنّها أوجدت في الشعوب الإسلامية لوناً من الاعتزاز بالنفس، والاعتزاز بالمبادئ الإسلامية، فقد رأوا بأعينهم ما جرّته المدنية الحديثة على صناعتها من ويلات

وبلايا، ومن فتك ذريع، ومن جرائم وحشية اقترفها أساتذة المدنية الحديثة ضدّ الإنسانية، حبّاً في السيطرة!

وأدركوا بيقين أنّ المدنية والمذاهب الاجتماعية التي كان يتيه بها أصحابها في الشرق أو الغرب، والمثل التي يتشدّق بها هؤلاء وهؤلاء لم تستطع أن تكبح من ضراوتهم، أو تحدّ من وحشيتهم، وأنّ الاسلحة الفتّاكة التي طالما هدّدونا بها استخدمت في القضاء عليهم.

لقد كان هذا كله بمثابة ضجّة أيقظت المسلمين من سباتهم، ودفعتهم إلى الاهتمام بما عندهم من مبادئ إنسانية، ومن مثل عليا خدعهم عنها العدوّ الطامع فيهم بأباطيله حيناً من الدهر. وهكذا كان التنافس بين الدول الغالبة، وشعور الاعتزاز عند المسلمين، كلاهما من الأسباب المهيّئة لظهور فكرة إصلاحية جديدة.

وفي هذا الوقت الذي أرهفت فيه مشاعر المسلمين، وقعت حادثة هزّت عواطفهم هزّةً عنيفةً، مع أنّها لو وقعت في غير وقت الحساسية لمرّت عادية ولم تترك أثراً، والحوادث العادية إن وقعت في زمن الحساسية فغالباً ما تصنع المعجزات.

وقعت الحادثة في الحرم الآمن، وفي الشهر الحرام، وفي أيام الحج بالذات، وراح ضحيّتها شاب مسلم قصد إلى الحج، وقطع أكثر مراحل سفره سائراً علىٰ قدميه حتّىٰ وصل البيت الحرام، وهناك أصابه مرض، فغلبه القيء فلتقّاه في حجره حرصاً على طهارة البيت، ولكن حظّه السيء خيّل لبعض الطائفين أنّه يحمل ما يحمل يريد به تلويث البيت، فصاح بذلك في الناس. وليس من عادة الجماهير أن تتثبّت إذا هيّجها مهيّج، فشهدوا عليه بما كان منه بريئاً، وقتلوه مظلوماً، وهو في رحاب الحرم الشريف الآمن!

وإنّما كان مبعث ذلك سوء ظنّ طائفة بطائفة، وكان يمكن أن تؤدّي هذه الحادثة إلى أسوأ النتائج وأن تثير الأحقاد، وأن تهيّج العصبيات القديمة، وأن تقطع الصلات بين فريقي المسلمين، ولكن هذه الحادثة أثّرت في كثيرٍ من المفكّرين تأثيراً كان له

عاقبة محمودة، ووضعت الأصبع على موضع الداء، فكأنّما أراد الله أن تكون موجَّهة للمصلحين إلى الاهتمام بهذا الداء الوبيل، داء التفرّق الطائفي بالذات.

ولا عجب أن تكون هذه الواقعة مع ما اكتنفها من خطورة مفزعة حافزاً على التفكير، وعلى العمل، فكثيراً ما يأتي الشرّ بالخير. لقد بدأوا بسؤال أنفسهم:

كيف تعيش أمة موزعة على نفسها في دنيا الاقوياء؟

كيف يمكن أن تقدّم المبادئ الإسلامية إلى العالم، والإسلام في حرب بين أبنائه داخل بلادهم؟

وكيف يتمكّن الذي تسوء حالته الداخلية من إصلاح مركزه الخارجي؟

هكذا بدأنا التفكير في التقريب، ثم سلخنا بعد ذلك شهوراً نبحث في سبل العلاج، فدرسنا الدعوات التي سبقتنا وأفدنا منها كثيراً، ودرسنا المشاكل الطائفية برمّتها، والكتب المعتمدة عند كلّ فريق، لنحدّد الطوائف التي تتّفق في الأصول الإسلامية، ودرسنا الخلافات الفرعية الفقهية ومبلغ ماوصلنا إليه، ثم حدّدنا أنجح طريقة للوصول بفكرتنا إلى الأعماق.

وقد أدّىٰ بنا التفكير إلى أنّ هذه الدعوة يجب أن تقوم بها جماعة بدل أن يقوم بها فرد يتعرّض لكثير من الأخطار، وأن تكون الدعوة إلى التقريب بين أرباب المذاهب لا إلى جمع المسلمين على مذهب واحد، فيبقى الشيعي شيعياً والسنّي سنّياً، وأن يسود بين الجميع مبدأ احترام الرأي الذي يؤيّده الدليل، وأن تكون الجماعة ممثّلة للمذاهب الأربعة المعروفة عند أهل السنّة ومذهبي الشيعة الإمامية والزيدية، وأن يمثّل كلّ مذهب علماء من ذوي الرأي والمكانة فيه، وأن تكون الجماعة بمعزل عن السياسة، وأن تكون محدّدة الأهداف، وأن يكون سعيها على أساس البحث والعلم كي تثبت أمام المعارضة، وتكسب الأنصار عن سبيل الإقناع والاقتناع، ولكي تستطيع بسلاح العلم محاربة الأفكار الخرافية الطفيلية التي لاتعيش إلّا في ظلّ الأسرار والأجواء المظلمة. ولكي تتمكّن في الوقت نفسه من

مقاومة الطوائف والنحل التي ليست من الإسلام في شيء، والتي يحسبها الشيعي سنّية، والسنّي شيعية، بينما هي في حقيقتها حرب على الإسلام.

وهكذا تكوّنت جماعة التقريب، معتمدة على الله، وعكفت على البحث الدائب والعمل المستمر، والاتّصال بالمراكز الدينية في كلّ بلد إسلامي اتّصالاً هادئاً مثمراً، وابتعدت بنفسها عن الدعاية، ولكن الدعاية جاءتها من قبل المعارضين، فإنّ المتعصّبين والمتزمّتين وذوي النزعات والأغراض رأوا في نشاط الجماعة بدعةً لا يصحّ السكوت عليها، فبدأوا هجومهم على الفكرة وعلى الجماعة، واشتدّ هجومهم على الأيام، وليس بيننا من لم يأخذ نصيبه من هجومهم كاملاً غير منقوص.

لكنّ الجماعة هيّأت نفسها لهذا من أول الأمر، لأنّها تعلم أنّها تواجه رواسب قرون، وكانت تتوقّع حملات فيها الطعن والتجريح، وبدل أن تُضعف الهجمات العزائم، شحذت الهمم، وقوّت الجماعة على السير بالفكرة إلى النهاية.

وكانت هذه الهجمات نفسها دليلاً على ضرورة فكرة التقريب للمجتمع الإسلامي، كي يتخلّص من العناصر البغيضة ذات التفكير السقيم الذي يبلبل الخواطر، ويصرف الأذهان عمّا ينفع الناس ويمكث في الأرض.

أذكر أنّ أحد هؤلاء المتعصّبين ملأ كتاباً بالطعن على الشيعة، والهجوم على جماعة التقريب، لقيامهم بهذه الفعلة النكراء، فعلة التقريب بين السنّة والشيعة!

وفي الوقت نفسه وصلنا كتاب عن الطرف الآخر من تلك الكتب المؤلّفة في عهد الصفوية، مليء بالهجوم على أهل السنّة، وكلا الكتابين التقى مع الآخر في الهجوم على فكرة التقريب. فماذا تظنّ كان موقف الجماعة؟

أنّهم قرأوا بهدوء تلك المهاجمات العنيفة، ولكنّهم لم يتأثّروا، ولم يكفّوا عن الجهاد كما كان المؤلّفان المتجنّيان المتعصّبان ـ سامحهما الله ـ يأملان، بل أنّهم أجمعوا على أنّ الحاجة ملحّة إلى بذل نشاطٍ أكبر ما دام في العالم الإسلامي هذا النوع من الأشخاص، وهذا اللون من التفكير، وهذا الإصرار على محاولة التفرقة.

ولم يقف الأمر عند هذين الكتابين، بل جاء من مثلهما الكثير، وكثر كذلك الكلام هنا وهناك، وكلّ هذا في جملته كان يحفّز الجماعة إلى أن تسعى لتحقيق ما حسبه البعض مستحيلاً.

لقد كان أكثر الناس يسمّي هذا النشاط «محاولة» هيهات أن تؤدّي إلى نتيجة، وكان منهم من يرى هذه «المحاولة» مستحيلة. وكان فريق آخر يظنّها «سياسة» على المألوف من الذين تعوّدوا ألّا تنبع أفكارهم من ذوات نفوسهم، مع وضوح أنّه لا يمكن أن يكون لسياسةٍ أجنبيةٍ ما رغبة في تجمّع على أساس وحدة المبادئ الدينية؛ لثقتها بأنّ ذلك هو عين القضاء عليها.

كلّ هذا كان دعاية نافعة لجماعة التقريب، لفتت إليها الأنظار، وجعلت كثيراً من الناس يدرسون فيعرفون فيصبحون جنوداً، فكثر بذلك أنصارها، وضمّ كثير من المفكّرين وعلماء الدين في مختلف البلاد جهودهم إلى جهودها، وأصبحت هذه الجماعة التي تكوّنت في القاهرة مركزاً فكرياً علمياً أعضاؤه من أولي العلم وأصحاب التوجيه والرأي في العالم الإسلامي كله، وضاقت الأرض على الأقلام المفرِّقة ونبّاشي القبور الذين لا هّم لهم إلّا تحريك الماضي المتعفّن، وإثارة العواطف البغيضة.

إنّ تكوين الجماعة نفسه كان توفيقاً، لأنّهم هيّأوا للمسلمين مركزاً ايصلح للنظر في مشكلاتهم، ويلتقي فيه رجال الإسلام من كلتا الطائفتين، ويظلّه الهدوء وتقدير المصلحة، ويسوده الوفاق لا الخصام.

وكأنّ المسلمين بمشاكلهم الطائفية كانوا في ظلامٍ لايرى بعضهم من بعضٍ إلّا أشباحاً مخيفة، وكأنّ الجماعة أضاءت لهم، لترى كلّ طائفة أختها على حقيقتها لا على وحي الظلام.

ولقد كان للسان الجماعة: مجلّة رسالة الإسلام دور عظيم، إذ جعلت توصل الفكرة إلى مكتبات العلماء ورجال الفكر، وكان كلّ عدد منها يزيل الستار عن جزءٍ

من المحجوب، ويكسب عدداً أكبر لجانب التقريب، وتبيّن بوضوح أنّ المسلمين لايختلفون في كتابهم ولا في صلواتهم ولا في صومهم ولا في حجّهم، بالإضافة إلى اتّفاقهم المطلق في أصول العقائد وأصول الدين والتوحيد والنبوة، وليس يضيرهم أن يكون لبعضهم أصول مذهبية خاصة؛ كالولاية عند الشيعة الذين يرون أنّ علياً عليه السلام وأولاده أحقّ بها من غيرهم.

لقد قرأ السنّي عن الشيعة أبحاثهم واستنباطهم، وأعجب بالكثير منها. وقرأ الشيعي عن السنّة أنّ أهل البيت مجمع بينهم على حبّهم وإكرامهم، وأنّ ما صدر عن بعض الظالمين لايمثّل رأي السنّة في أهل البيت.

وعرف أهل السنّة أنّ الشيعة يعتبرون الغلاة نجساً، ويحكمون بكفرهم، ويحكمون بخروج أصحاب الحلول كذلك.

واذن فشتّان بين الشيعة على حقيقتها، والشيعة التي تصوّرها المتصوّرون، وشتّان بين الناصبي الذي كان يناصب أهل البيت العداء، وأهل السنّة الذين يرون في حبّ أهل البيت عبادةً ويصلّون عليهم في تشهّدهم «اللّهم صلّ على محمّد وآل محمد، وبارك على محمد وآل محمد».

❋ ❋ ❋

ولم تكن سنّة التدرّج تفارق الفكرة إلى أن جاء دور جعل الجامعات الدينية إسلامية عامة، وهو نصّ في القانون الأساسي للجماعة منذ نشأتها، فالمادة الثالثة (هـ) تذكر من بين أغراضها: «العمل على أن تقوم الجامعات الإسلامية في جميع الأقطار بتدريس فقه المذاهب الإسلامية حتّىٰ تصبح جامعات إسلامية عامة».

فلمّا تهيّأت الأفكار بعد أن قامت الدار بطبع بعض الكتب الفقهية على نفقة وزارة الأوقاف المصرية وتوزيعها، جاءت الخطوة الحاسمة بعد ذلك، خطوة تقرير دراسة فقه المذاهب الإسلامية الشيعية مع السنّية في أقدم جامعة إسلامية، وهي الأزهر الشريف.

ولم تكن الفكرة ارتجالية، بل كانت مبدأ نادت به الجماعة منذ نشأتها، فلمّا قدِّر لرجلٍ صالحٍ مصلحٍ من رجالها المجاهدين ـ له مركزه الديني الكبير ـ ان يجلس على كرسي مشيخة الأزهر، كان من الطبيعي أن ينفّذ ما عاهد الله عليه لخير الإسلام وصالح المسلمين.

ولقد زلزل هذا القرار كثيراً من الانتهازيين، وقضىٰ على آمال كثير من المتربّصين، ولكن التاريخ لا يخدع. وقد سجّل هذه الخطوة كحدث هام في تاريخ الإسلام والمسلمين لم يكن سجّل مثله منذ بدأ الخلاف بين الطائفتين إلى اليوم.

ومن فضل الله العلي الكبير أن اقترنت هذه الخطوة بخطوة أخرى جليلة الشأن، هي تلك الفتوى التي أصدرها صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بجواز التعبّد على أيّ مذهب من المذاهب الإسلامية التي عرفت أُصولها ونقلت نقلاً صحيحاً. فلقد كانت هذه الفتوى ثمرة يانعة من ثمار التقريب، صدرت من رجل عظيم ذي مركز خطير في الإسلام، اعتنق الفكرة من أول يوم، وأيّدها بقلمه وعلمه، ومشكور سعيه في كلّ مناسبة.

❋ ❋ ❋

فنحمد الله على أنّ المسلمين أثبتوا أنّهم جديرون بإصلاح شؤونهم، قادرون على علاج مشاكلهم، فإنّ نجاح فكرةٍ كفكرة التقريب ـ رغم المعارضة التي قامت في وجهها، والعراقيل التي وضعت في طريقها، في زمن لم يتجاوز ثلاثة عشر عاماً ـ تجعلنا نأمل خيراً كثيراً في مستقبل الزمن.

ولانحبّ أن ننسىٰ أنّ أمامنا فريقين من المعارضين، فريقاً له إيمانه بفكرته، وله عذره من بيئته أو ثقافته أو غيرته، وهؤلاء لنا فيهم أمل ورجاء، لأنّ المخلص لابد أن ينتهي به إخلاصه إلى معرفة الحقّ والرجوع إليه يوماً ما، أمّا الفريق الآخر ففريق

كان أمثالهم يقولون في عهد نزول القرآن لرسول الله ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، وهؤلاء لاشأن لنا بهم، ولعلّهم لايعيشون إلّا بالفرقة، أو يحسّون لها لذّة لا يحبّون أن يفقدوها.

وإنّي لعلىٰ يقين من أنّ الفكرة ستكون نقطة الانطلاق لكثير من الأفكار الإصلاحية. ولايزال أمامنا خطوات جديدة تحتاج إلى تعضيد فكري كبير لنقدّم للإسلام كلّ ما أخذناه على عاتقنا في القانون الاساسي.

أكتب هذا ولاتزال في خاطري صورة أول اجتماع بدار التقريب ـ ولعلّه أيضاً أول اجتماع من نوعه في الإسلام ـ جلس فيه علماء من السنّة والشيعة حول مائدة واحدة، في هدوء العلماء المتضلّعين، وفي وجوههم تصميم المجاهدين، وقلّبوا وجوه الرأي لعلاج داء التفرّق، على هدى رسالة الإسلام والمبادئ الإسلامية، فكتبوا بعملهم هذا فصلاً من فصول التاريخ الإسلامي المجيد.

وهكذا قدّر الله لهم أن يكونوا من صانعي التاريخ، وقدّر للمسلمين مرةً أخرى أن يعيشوا في نشوة النداء الإلهي الكريم: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدٰاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوٰاناً وَكُنْتُمْ عَلىٰ شَفٰا حُفْرَةٍ مِنَ النّٰارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهٰا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ آيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١].

---

١. آل عمران: ١٠٢.

الفصل الثاني

نقط على الحروف أو مزيد من الإيضاح (١)

القسم الأوّل

طبيعي جداً أن يهتم المسلمون بفكرة التقريب هذا الاهتمام، ويؤيّدوها هذا التأييد، أليسو هم أول من جرّبوا أنّ الفرقة ضعف، كما أنّ التكتل قوة؟

وطبيعي أيضاً لفكرةٍ اتّسعت دائرتها، وامتدّت آثارها، وذاع صيتها في كلّ البلاد الإسلامية، وبين الطوائف المختلفة، أن تتساءل بعض الأقلام عنها، وتستوضح نقطاً منها، كما أنّه من الطبيعي أن تجد أيّة فكرة في أولى خطواتها شيئاً من التحامل، من قلّةٍ اعتادوا التسرّع في الحكم، وفي فكرتنا بالذات، لعلّ الداعي مع التسرّع هو التعصّب الموروث ضدّ طائفة من الطوائف.

وطبيعي كذلك أن نسرّ بكلٍّ من هذا وذاك، لأنّنا لسنا عن سنّة الدعوات بغافلين، ونرى أنّ في كلّ هذا لفتاً للإنظار إلى دعوةٍ هي في الواقع دعوة الفطرة، وإلى فكرة هي فكرة الإسلام السليمة، وأنّ شأن دعوةٍ كهذه أن تتقبّل ما قلّ تنبيهه.

فكيفما كان فنحن نرحّب بكل ما يكتب حول الفكرة، ونفيد منه، فإن كان سؤالاً سقنا جوابه، وإن كان استيضاحاً أتينا ببيانه، وإن كان تحاملاً على طائفة إسلامية من الطوائف الذين شملتهم جماعتنا، أحسّ المسلمون شدة الحاجة إلى فكرة

التقريب، وأحسسنا نحن ضرورة مضاعفة الجهد لنبيّن للناس ما غمض، ونوضّح من الأمور ما استبهم.

ولئن تبارى أصحاب الأقلام المخلصة في تأييد فكرة التقريب ـ وما أكثرهم ـ ينصرونها ويشرحون أهدافها، فإنّها لا تزال بحاجة إلى مزيد من الإيضاح، أو وضع النقط على الحروف كما يقولون.

وهذا ما قصدنا إليه في هذا البحث.

قال قائل منهم: ما دعوة التقريب هذه؟ وكيف يمكن التقريب بين المذاهب؟ أيريدون من كلّ طائفة أن تنزل عن بعض ما تراه لتقرب من الأخرى، وهل ترضى الشيعة بأن تنزل للسنّة عن كذا وكذا، أو ترضى السنّة بأن ترى رأي الشيعة في كيت وكيت؟

وإنّي أقول لهذا القائل وأضرابه ما قلناه من قبل مراراً: لا يا أخي، فما هذه دعوتنا، ولا إلى هذا قصدنا. إنّما دعوتنا أن يتّحد أهل الإسلام على أصول الإسلام التي لا يكون المسلم مسلماً إلّا بها، وأن ينظروا فيما وراء ذلك نظرة من لا يبتغي الفلج والغلب، ولكن يبتغي الحقّ والمعرفة الصحيحة، فإذا استطاعوا أن يصلوا بالإنصاف والحجّة البيّنة إلى الاتّفاق في شيءٍ ممّا اختلفوا فيه، فذاك، وإلّا فليحتفظ كلٌّ منهم بما يراه، وليعذر الآخرين ويحسن الظنّ بهم، فإنّ الخلاف على غير أصول الدين لايضرّ بالإيمان، ولايخرج المختلفين عن دائرة الإسلام.

❊ ❊ ❊

وقال قائل منهم: إنّ الطوائف الإسلامية مختلفة في بعض المسائل الجوهرية التي تجعل البعد بينهم شاسعاً، والتقارب بينهم يكاد يكون مستحيلاً.

وإنّي أقول له: على رسلك، إنّ الطوائف التي نعمل على التقريب بينها هي السنّة بمذاهبها، والشيعة الإمامية والشيعة الزيدية، فهل المسائل التي اختلف فيها هؤلاء ممّا كفرت به طائفة صاحبتها؟ ولابد من «لا» فإنّ أحداً من علماء هذه الطوائف

لم يرم طائفة منها بالكفر، ولم يقذفها بالمروق عن الإسلام، وما ذلك إلّا لأنّ الخلاف إنّما وقع في غير الأصول، فليس صحيحاً أنّه خلاف في مسائل جوهرية.

ولعلّ قائلاً يقول: ما هذه الأصول التي تجعلونها الحدّ الفاصل بين المسلمين وغيرهم؟ فاذكر له بعضها على سبيل التمثيل، لا على سبيل الحصر: فنحن جميعاً نؤمن بالله ربّاً، وبمحمّد ﷺ نبياً ورسولاً، وبالقرآن كتاباً، وبالكعبة قبلةً وبيتاً محجوجاً، وبأنّ الإسلام مبني على الخمس المعروفة، وبأنّه ليس بعده دين، ولا بعد رسوله نبي ولا رسول، وبأنّ كلّ ما جاء به محمّد ﷺ حقّ، فالساعة حقّ، والبعث حقّ، والجزاء في الدار الآخرة حقّ، والجنة حقّ، والنار حقّ... . الخ.

وما اختلفنا فيه من شيء فحكمه إلى الله ورسوله، أيّ أنّنا متّفقون على أسلوب الخلاف، فليس منّا من يقول: هذا أمر أمر به الله أو رسوله ومع ذلك لا نلتزمه ولا نقول به، وليس منّا من يقول: كلّفنا الله أو رسوله أن نؤمن بكذا ومع هذا لا نؤمن به، وليس منّا من ينكر معلوماً من الدين بالضرورة، وإنّما يقول المختلفون: هذا أمر به الله أو أمر به رسوله، أو هذا لم يأمر به الله ولا رسوله، أو هذا من المواضع التي يسوغ فيها الاجتهاد، فالخلاف إنّما هو في إثبات أنّ الله ورسوله أمر بهذا الشيء أو لم يأمرا به، مع الاتّفاق على أنّ امرهما واجب الطاعة على المسلم، وأنّ شريعة الله إنّما ترجع إلى كتاب الله وسنّة رسول الله.

وقد قلت: إنّني لست الآن بصدد استقصاء أصول الإسلام، فإن كان أحد يعرف شيئاً من أصول الإسلام أنكرته إحدىٰ هذه الطوائف فليدلّنا عليه، وإن كان أحد يعرف أنّ إحدىٰ هذه الطوائف زادت في أصول الإسلام ما ليس منها على سبيل اليقين، ممّا تعدّ زيادته كفراً وخروجاً على الملّة، فليأت ببرهانه على ذلك إن كان من الصادقين.

بهذا يتبيّن أنّه ليس من أغراضنا أن يتشيّع سنّي، أو يتسنّن شيعي، بل لو نظرنا إلى أصل التسمية في هذين الاسمين لوجدنا المسلمين كلّهم شيعة لأنّهم جميعاً

يحبّون أهل بيت الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، ثم لوجدناهم كلّهم أهل سنّة لأنّهم جميعاً يوجبون الأخذ بسنّة الرسول متى وردت من طريق معتمد عليه، فنحن جميعاً سنّيون، شيعيون، قرآنيون، محمديون.

❊ ❊ ❊

وقال قائل منهم: إنّ جماعة التقريب تريد أن تقرّب بين المذاهب الفقهية، وذلك غير ممكن فإنّ الشافعية إذا اختلفوا مع الحنفية مثلاً في أنّ كذا من نواقض الوضوء أو ليس منها، لم يمكن حمل أحد المذهبين على الرجوع إلى الآخر، وإذا حكمنا بينهما فرجّحنا رأي هؤلاء في مسألة، ورأىٰ أولئك في أخرى... وهكذا، لم نفعل أكثر من أنّنا زدنا مذهباً على المذاهب الموجودة، فهو تشعيب لا تقريب!

وإنّي أقول لهذا القائل: إنّنا لم نجعل من أهدافنا إدماج المذاهب الفقهية بعضها في بعض، فإنّ الخلاف أمر طبيعي، وهو في الفقه مبني على أصول ومدارك كلّها في الدائرة التي أباح الله الاجتهاد فيها، فلا ضرر منه، بل فيه خير وسعة، وتيسير ورحمة.

وهبنا قصدنا إلى التوفيق فما ضرره؟ ألم يقل الشافعي مثلاً: هذا قولي وما رأيته، وإذا صحّ الحديث فهو مذهبي، واضربوا بقولي عرض الحائط. أو لم يرد مثل ذلك عن كلّ مجتهد؟ بل أليست هذه هي القاعدة التي أوجبها الله علينا في كتابه إذ يقول: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[١].

فطلب إلينا عند الاختلاف أن نردّ الأمر إلى الله ورسوله، والردّ إلى الله هو العمل بكتابه، والردّ إلى رسوله هو العمل بسنّته.

---

١. النساء: ٥٩.

وهل لذلك من معنى إلّا أن يعدل أحد المختلفين عن قوله المخالف لما تبيّن أنّه قول الله أو رسوله إلى قول صاحبه الموافق لهما؟ وهل هذا إلّا سبيل المؤمنين ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[1].

إنّ كلّ مجتهد يرى أنّ مذهبه الفقهي صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيره خطأ يحتمل الصواب، وهذا أعظم ما يتصوّر من الإنصاف: إنصاف المرء لنفسه وإنصافه لغيره.

بيان ذلك: أنّ المجتهد إذا غلب على ظنّه بعد البحث في الأدلّة أنّ حكم الله هو كذا وجب عليه الفتوى والعمل به، لأنّه هو الراجح في نظره، وغيره هو المرجوح، وصريح العقل أن يتمسّك بالراجح على المرجوح، ولكنّه مع هذا الإنصاف لعقله ونظره، لايفوته إصناف غيره، فيقول: إنّ ما رأيته وقلت به ليس هو اليقين الذي لا محيص عنه حتماً، وإنّما هو ظنّي وما رجح لديّ، وهو محتمل للخطأ احتمالاً ضعيفاً، ويجوز أن يكون غيري قد تبيّن أنّه الراجح القوي فيجب عليه الأخذ به. فهذه هي خطّة الإنصاف والسماحة، وعليها كلّ المجتهدين في الشريعة الإسلامية.

ومعنى هذا أنّ هناك أملاً كبيراً في أن يتّفق فقيهان في بعض ما اختلفا فيه حين يدلي كلٌّ منهما بما عنده لصاحبه، فيتكاشفان ويتراجعان.

وهل هذا إلّا التقريب!

* * *

وقال قائل منهم: لقد سمعنا أنّ من غايات التقريب أن يدرَّس مذهب الشيعة في الأزهر؟

---

١. النساء: ١١٥.

وإنّي أقول له : إنّ من غايات التقريب أن يعرف المسلمون بعضهم بعضاً، وأنّ أول من يجب عليهم التعارف هم العلماء وأهل الفكر في كلّ طائفة، والعلم لا يصادر ولا يكتم، فلا بأس على الشيعة أن يعلموا علم السنّة، وهم يدرسونه فعلاً، وكثير من مجتهديهم يتوسّع في درسه، ويتعمّق في بحثه، ولا بأس على أهل الأزهر أن يعلموا علم الشيعة، بل ذلك واجبهم الذي يدعو إليه الإخلاص العلمي، ولا يكون النظر تاماً إلّا به.

أليس الأزهر جامعة علمية أعدّت للدرس والبحث، وشعارها الدليل وما يثبته النظر السليم ؟ أو ليست مقارنة المذاهب تدرّس بالأزهر منذ عهد المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي، وهي لا تتقيّد بالمذاهب الأربعة ولا بمذاهب أهل السنّة، ولو تقيّدت بذلك لما كانت مقارنة تامة ؟ بل أليس الأزهر يدرّس في إحدى كلياته أقوال الفلاسفة والمعتزلة والجبرية وغيرهم فيحكم في آرائهم الحجّة والبرهان، ويأخذ بما يراه حقّاً، ويبطل ما يراه باطلاً، فهل يكون الفقه الشيعي الإمامي أو الزيدي أخطر من هذه المذاهب حتّىٰ يتحفّظ في شأنه هذا التحفّظ؟

ثم ألم تأخذ لجنة الأحوال الشخصية في مصر بأحكام من هذا الفقه، وفيها صفوة من رجال الأزهر، وكبار علمائه؟

* * *

وفي الوقت الذي يقف فيه هؤلاء من التقريب هذا الموقف، فيرونه أملاً بعيداً، ويتخيّلون في طريقه ماشاء لهم الخيال من عقبات وأهوال، لا يخلو التقريب من أفراد آخرين يقفون على طرف النقيض من هؤلاء، فيقولون: لماذا تكتفون بالتقريب؟ وكيف تبذلون في سبيله ما تبذلون من جهود؟ هلّا كانت دعوتكم إلى الاندماج والتوحيد؟ أليست الأصول واحدة، وقواعد البحث والنظر واحدة؟

ولسنا الآن بصدد الردّ على هذه الفكرة، وبيان ما فيها من خطأ، وما يدعونا إلى

رفضها وأبعادها ـ فقد نفرد لذلك فيما بعد مقالاً ـ وإنّما نذكرها لنسجّل هذا الاختلاف الواضح بين طرفي النقيض من الفريقين: هل التقريب جرأة واقتحام، أو تقصير وإحجام؟

* * *

الحقّ كلّ الحقّ أنّه لا ضرر على المسلمين في أن يختلفوا، فإنّ الاختلاف سنّة من سنن الاجتماع، ولكن الضرر كلّ الضرر في أن يفضي بهم الخلاف إلى القطيعة والخروج على مقتضى الأخوّة التي أثبتها الله في كتابه العزيز، لا على أنّها شيء يؤمر به المؤمنون، ولكن على أنّها حقيقة واقعة، رضي الناس أم أبوا ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[١].

---

١. الحجرات: ١٠.

الفصل الثالث

نقط على الحروف أو مزيد من الإيضاح (٢)

القسم الثاني

«لمّا حجّ المنصور قال لمالك: قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي صنّفتها فتنسخ، ثم أبعث في كلّ مصر من أمصار المسلمين منها نسخةً، وآمرهم بأن يعملوا بما فيها ولا يتعدّوه إلى غيره، فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا، فإنّ الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كلّ قوم بما سبق إليهم، وأتوا به من اختلاف الناس، فدع الناس وما اختار أهل كلّ بلدٍ منهم لأنفسهم».

هذا ما رواه التاريخ في ذلك الشأن الإسلامي الخطير، وليست العبارة لي، وإنّما هي في كثير من الكتب المطبوعة المتداولة، وقد نقلتها بنصّها عن أحد هذه الكتب[1].

ترى هل كانت فكرة التقريب تشغل الأولين من العلماء المسلمين كما تشغلنا الآن؟ وماذا كان موقف المنصور منها؟ أكان لها أم عليها؟ وماذا كان رأي مالك، هذا الإمام العظيم الذي يتّبع مذهبه ملايين المسلمين في كثير من شعوب العالم الإسلامي؟ وما رأينا نحن في هذا؟ أسئلة لا صعوبة في الجواب عنها.

فالمنصور شهد اختلاف العلماء في عصره، وهو حاكم نظامي يهمّه كما يهمّ سائر

---

١. عن كتاب حجّة الله البالغة للدهلوي ١: ١٤٥ ط ـ مصر، سنة ١٣٥٢هـ.

الحكّام النظاميين أن يتوحّد الناس في مملكته تحت قانون واحد، يأخذ به قاصيّهم ودانيّهم، ويعمل به في كلّ ناحية من نواحي هذه المملكة المترامية الأطراف.

وهو من جهة أخرى لم يكن يحبّ هذا الضجيج الذي أثاره العلماء بجدالهم ونقاشهم، وذهاب كلّ فريق منهم مذهباً يخالف صاحبه، وتمسّكه بهذا المذهب حتّىٰ يراه وحده هو الجدير بأن يتّبع، ويرى غيره فاسداً أو باطلاً.

وهو من جهة ثالثة، يريد أن يرضي أهل الحجاز ويصطنعهم، ويتقرّب إلى هذا الإمام العظيم إمام دار الهجرة، وقد بهره ما في كتابه من العلم المستمدّ من الرواية عن الرسول ﷺ، وعن ثقات أصحابه، ليخالف بذلك عن سنّة الأمويين الذين كانوا لا ينظرون إلى أهل الحجاز نظرة المطمئنّ إلى ولائهم لسلطانهم ودولتهم.

هذه فيما أرجّح وجهة المنصور فيما عرض على مالك، ولعلّها تتّفق في بعض نواحيها مع وجهة القائلين بإدماج المذاهب الفقهية في مذهب واحد ـ وليست جماعة التقريب منهم ـ وإن فهم بعض الناس خطأً عكس ذلك.

وإنّي أكرّر في هذا المقام ما قلته من قبل، وما قاله غيري من أعضاء جماعة التقريب في مناسبات مختلفة من أنّه ليس من أهدافنا أن ندمج المذاهب الفقهية بعضها في بعض، ومن أنّنا ـ على العكس من ذلك ـ نرى في هذه الفكرة خطأً يدعونا إلى رفضها وأبعادها، بل نراها في حكم المستحيل مادمنا نلتزم كتاب ربّنا، وسنّة رسولنا، وأصول شريعتنا.

وهذا هو الإمام مالك ينهى المنصور عن تنفيذ فكرته، فيعدل عنها عدول من تبيّن له وجه الخطأ فيها، فقد جاء في بعض ما روي من هذا الشأن: أنّ المنصور حين سمع مقالة مالك أكبره وشكره، ودعا له بالتوفيق.

إنّ مالكاً لم تستهوه هذه الفكرة وإن كان فيها كلّ التأييد لمذهبه، ولم ينتهز الفرصة لقبول هذا الاقتراح ممّن يملك تنفيذه وحمل الناس عليه بما له من قوة السلطان والحكم، فلقد كان أجلّ من أن يخدعه هذا الإغراء عن الحقّ، وأجلّ من

أن يتعصّب لنفسه أو لمذهبه في هذه القضية الأساسية، وأجلّ من أن يكتم السلطان ما يجب عليه من النصح له وللمسلمين وإن فوّت عليه هذا النصح ما قد يحرص عليه كثير من الناس.

إنّ مالكاً قد أرجع المسألة إلى أصلها، ولم ينظر إلى أواخر الأمر في هذا الخلاف بين علماء الشريعة، وإنّما نظر إلى أوائله، فهذا الخلاف في أصله ليس صادراً عن الهوى والتعصّب، ولكنّه صادر عن أصول الشريعة وأدلّتها التي يجب على المسلمين أن يعوّلوا عليها في معرفة دينهم، والتعبّد بما شرّعه الله لهم.

فالقرآن الكريم الذي هو المصدر الأوّل والأعظم للمسلمين، قد نزل بأسلوب كان من رحمة الله وفضله على خلقه أنّه جاء قاطعاً في أصول العقائد، ومالا يتغيّر بتغيّر الأزمان والأحوال، محتملاً في كثير ممّا وراء ذلك من الأمور والأحكام، فكان ذلك من أول أسباب الخلاف تبعاً لاختلاف الأفهام، وقواعد النظر، وتقدير العلل والمصالح.

والسنّة المطهّرة لم تكن قد دوّنت، وإنّما اعتمد الناس على روايات تلقّوها عمّن حفظها ووعاها، وكثير من هذه الروايات عن فعلٍ فعله الرسول، أو قولٍ قاله، وربّما حفّ بهذا الفعل أو بهذا القول قرائن وظروف تساعد على فهمه، وربّما خلا من ذلك، وقد تأتي الرواية من طريقٍ بلفظٍ غير ما جاءت به من طريقٍ آخر، وقد تبلغ الرواية هذا العالم أو هذا البلد، ولا تبلغ غيرهما، إلى غير ذلك ممّا كان ذا أثر ظاهر في الخلاف.

وقد اختلفت كذلك القواعد التي استنبطها العلماء لفهم الكتاب والسنّة، والأدلّة التي رأى بعضهم أنّها تقيّد حكم الله، ورأي غيره أنّ كتاب الله وسنّة رسوله مغنيان عنها.

هذا على وجه الإجمال، هو مادعا إلى اختلاف العلماء، وهذا هو ما قضت به الحكمة الإلهية، ولو شاء الله لجاءت أحكام الشريعة ومسائلها جميعاً على نمط واحد، ولكن الله جلّ جلاله علم أنّ أمر الناس لايصلح على ذلك، فلايصلح في

أمور العقائد وأصول الدين التي يدخل بها المرء في ربقة الإيمان، ويخرج من هذه الربقة حين يخرج عنها، لا يصلح في هذه أن يترك الناس لعقولهم وأفهامهم وظنونهم، فلذلك بيّنها بياناً واضحاً، وجعلها من بين أمور الدين وأحكامه، حرماً مقدّساً، لا يجوز أن تختلف فيها الأنظار، ولا أن تكون مجالاً لتعدّد الآراء، وهدفاً لجدال المتجادلين، ذلك بأنّها حقائق أخبرنا الله تعالى بها، وأوجب علينا أن نعتقدها، ليس من شأنها أن تتغيّر بتغيّر الزمان، أو تختلف باختلاف المصالح، أو تتأثّر باجتهاد المجتهدين، وقد ألحق بهذه الأصول ما شابهها في عدم التأثّر بالأزمان أو الأفهام من حقائق العبادات وصورها ـ في الجملة ـ وأصول المعاملات وأنصبة الوارثين، ونحو ذلك.

فكان هذا كلّه رحمة من الله وحكمة، لأنّه وقى الناس شرّ التفرّق في الأسس والأصول، ورسم لهم دائرة محدودة واضحة المعالم، يعرف من دخلها ومن خرج عنها، وسما بالحقائق الواقعة عن أن تكون محلّ خلاف أو تنازع، وألحق بها ما هو في حكمها من رسوم العبادة التي لا يرجع فيها إلّا إلى ما يريده المعبود، ومن دعائم المعاملة التي يجب في كلّ زمان ومكان أن تكون مرتكزة على أساس سليم من العدل والخلق الكريم.

أمّا الفروع التي لا يضرّ الاختلاف فيها، سواء أكانت في الشؤون العملية أم في المسائل النظرية، فلم يكن يصلح أمر الناس على توحيدها، والإلزام بصورة معيّنة منها، ذلك بأنّ الله خلق العقول، وجعل لها مجالاً في النظر والتفكير، والموازنة والترجيح، والاستقراء والتتبّع، فإذا كانت الفروع كالأصول يقينية لم يبق للعقول مجال، ولذلك جاءت أكثر أحكام الفقه ظنّية، وكثر فيها الاختلاف والترجيح، وأصبحنا نرى في كثير من المسائل الخلافية آراء الفقهاء التي تمثّل جميع الصور المحتملة عقلاً.

وأمر آخر هو أنّ صور التصرّفات التي تقع بين الناس، والقضايا التي تحدث

فيهم، لاتنتهي ولا تقف عند حدّ، فكلّما جاء جيل من الناس جاءت معه أحداثه وتصرّفاته وألوان نشاطه، فإذا كان من قصد الشريعة أن تنصّ على كلّ حكم من لدن جاء محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة، لما وسع الناس أن يحفظوها، ولا سيما وقد أُنزلت على قوم أُميّين في جزيرة صغيرة محدودة القدرة، وفي زمانٍ أقرب إلى البدائية الأولى، لم يكن العلم فيه قد تقدّم كعهدنا به اليوم، فلم يبق إلّا أن تضمن الأدلّة والمصادر المحدودة للشريعة ما يمكّن العقول من الاستنباط منها كلّما دعا إلى ذلك داعٍ، ولذلك وجدت المبادئ العامة والأصول التي يرجع إليها، وكان منها ما هو قطعي دائم، ككون الشريعة يسراً لا عسراً، وكون المعاملات مبنية على المصالح، وكون العرف محكّماً فيما لا نصّ فيه، ووجوب حفظ المال والنفس والعرض والعقل والدين... وغير ذلك من الكلّيات التي ترجع إليها الفروع والأحكام.

هذا هو الوضع الحكيم الرحيم الذي جاءت عليه الشريعة الإسلامية، ولم يكن من الحكمة ولا من الرحمة أن تجيء على وضعٍ سواه، بل أنّ ذلك غير ممكن في نفسه، فلا نتصوّر أن يكون، ولذلك أبى مالك أن يقبل ما عرضه عليه صاحب السلطان، لأنّه يعلم أنّ كتابه الذي ألّفه وجمعه ليس هو كلّ شيء في هذه الشريعة، وليس هو الكلمة الفاصلة في كلّ أمرٍ من أمورها، أو مسألةٍ من مسائلها، فلغيره نظر كنظره، وبحث كبحثه، وجمع كجمعه، وقد يكون عند غيره من العلم ما ليس عنده، ولعلّه لو اطّلع عليه لأخذ به، ورجع عمّا كان قد اختاره، وقد يحمل علمه إلى قوم في بلد من بلاد المسلمين سبق إليهم من قبله علم من غيره أخذوا به. وعرفوا أنّه الحقّ، فكيف يحملون على غير ما يعلمون، كلّ هذا دعا مالكاً ﷺ إلى أن يقول للمنصور، وهو يعلّل إباءه قبول ما عرضه عليه: «إنّ الناس قد سبقت لهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كلّ قوم بما سبق إليهم، وأتوا به من اختلاف الناس، فدع الناس وما اختار أهل كلّ بلد منهم لأنفسهم».

في هذا التعليل الواضح تكمن نظرية التقريب القائمة على عدم الدعوة إلى الاندماج المذهبي، وفي الفقرة الأخيرة من عبارة هذا الإمام الجليل، وهي قوله: «فدع الناس وما اختار أهل كلّ بلد منهم لأنفسهم»، في هذه الفقرة تعبير عن الأسلوب الصحيح الذي يجب أن نسلكه للتقريب بين المسلمين، فللناس أن يحتفظوا بما عندهم من العلم، ولهم أن يرجّحوا ما شرح الله له صدورهم من الأفهام والروايات ماداموا مؤمنين بأصول دينهم ومصادر تشريعهم، غير خارجين على كتاب ربّهم وسنّة نبيّهم، ولا مشاقّين للهدىٰ من بعد ما تبيّن لهم، ولا متّبعين غير سبيل المؤمنين.

وبعد هذا يجب أن يعذر كلّ فريق أصحابه، كما كان سلفنا الصالح يفعلون، يجب أنّ يذكروا أنّ الخلاف الحرّ الشريف لايفسد قضية الودّ والتعاون بين الأخ وإخوانه.

إنّ مالكاً حين أشار على صاحبه أن يدع الناس وما اختاروا لأنفسهم، لم يشر عليه بذلك لأنّه لايعتّد بأمر المسلمين، ولا يعبأ بهم، ولم يشر عليه بذلك لأنّه ضنّ عليهم بأمرٍ يعلم فيه صالحهم، ولكنّه أشار عليه بذلك لأنّه هو الخير كلّ الخير، وهو الموافق لما أراده الله عزّ شأنه حين وضع شريعته هذا الوضع الحكيم الرحيم، ولايعقل أن يكون مالك قد أراد من ترك الناس وما اختاروا أن يتعصّبوا لما عندهم، وأن يحتربوا عليه فيما بينهم، وأن يقطعوا في سبيل التعصّب له ما أمر الله به أن يوصل من إخوة الإيمان، وتعاون الإسلام.

* * *

ولم ينفرد مالك ﷺ بالنهي عن أتباعه في كلّ ما قال به، وإلغاء ما سواه، فقد حدّثنا التاريخ عن سائر الأئمة بمثل ما حدّثنا به عن مالك.

فأبو حنيفة ﷺ، كان يقول: «لا ينبغي لمن لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي» وكان ﷺ إذا أفتى يقول: «هذا رأي النعمان بن ثابت ـ يعني نفسه ـ وهو أحسن ما

قدرنا عليه، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب».

والشافعي ﷺ كان يقول: «إذا صحّ الحديث فهو مذهبي»، وقال يوماً للمزني: «يا ابراهيم، لا تقلّدني في كلّ ما أقول، وانظر في ذلك لنفسك، فإنّه دين».

وكان الإمام أحمد ﷺ يقول: «ليس لأحد مع الله ورسوله كلام»، وقال يوماً لرجل: «لا تقلّدني ولا تقلّد مالكاً، ولا الأوزاعي ولا النخعي ولا غيرهم، وخذ الأحكام من حيث أخذوا من الكتاب والسنّة»[١].

ولقد كانت سيرة سلفنا هؤلاء في ثقة بعضهم ببعض، وعذر بعضهم لبعض، آية من آيات الله في الإخلاص وحسن النيّة، والاحتفاظ بما ينبغي أن يكون بين أهل العلم والدين من أخوّة، فكان بعضهم يصلّي خلف بعض، مثلما كان أبو حنيفة وأصحابه، والشافعي وغيرهم رضي الله عنهم يصلّون خلف أئمة المدينة، وإن كانوا لا يقرؤون البسملة لا سرّاً ولا جهراً، وصلّى الرشيد إماماً وقد احتجم، فصلّى الإمام أبو يوسف خلفه ولم يعد. وكان افتاء الإمام مالك بأنّه لا وضوء عليه. وكان الإمام أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الرعاف والحجامة، فقيل له: فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضّأ، هل تصلّي خلفه؟ فقال: كيف لا أصلّي خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيب؟ وصلّى الشافعي ﷺ الصبح قريباً من مقبرة أبي حنيفة ﷺ، فلم يقنت تأدّباً معه[٢].

* * *

أمّا الشيعة ـ إمامية وزيدية ـ فيرون بقاء باب الاجتهاد مفتوحاً إلى يوم الدين، ولا يتّبعون في عباداتهم ومعاملاتهم وسائر أحكام دينهم إلّا ما فهموه من الكتاب والسنّة، وما يأخذونه من ائمتهم عليهم السلام لا يأخذونه بحكم الاتّباع والتقليد، ولكن على أنّه رواية صحيحة صادقة لا شكّ فيها عن النبي، وإذا كان ذلك هو مذهبهم، الذي

---

١. حجّة الله البالغة للدهلوي ١: ١٥٨ـ١٥٩.

٢. المصدر السابق: ١٥٩.

عليه سلفهم وخلفهم، فإنّه ممّا لا يتّفق ومنطقه أن يعملوا على إدماج المذاهب بعضها في بعض، أو على نصر مذهب منها على مذهب وتعطيل ما سواه، فالمذاهب كلّها لديهم سواء، وكلّ ما جاء فيها فهو في نظرهم أقوال لقائليها، وصلوا إليها باجتهادهم، فما وجدوه صحيحاً قبلوه، وما لم يكن كذلك في نظرهم عذروا قائليه، واتّبعوا ما أدّاهم إليه اجتهادهم.

* * *

من هذا يتبيّن أنّ دعوة التقريب ليست بدعاً في الدين، ولا حدثاً في العلم، وإنّما هي تجديد وتنظيم لأمر وفاق مع شريعة الحكمة والرحمة: أن نأتلف حول أصول ديننا، ولانتفرّق كما تفرّق الذين من قبلنا، وأن يكون خلافنا فيما وراء ذلك خلاف المنصفين المهذّبين ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾[1].

---

١. الزمر: ١٨.

الفصل الرابع

صوت التقريب

«دار التقريب» بمثابة جهاز إرسال واستقبال بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، عنها يصدر «صوت التقريب» وإليها يرجع، وعلى هذه الصفحات من رسالة الإسلام في كل عدد تسجيل الصدى[1].

نبدأ هنا بتسجيل أول صوت انبعث من «دار التقريب»، وهو بيان الجماعة إلى العالم الإسلامي، الذي أقرّته في أول جلسة عقدتها، نسجّله عهداً وتاريخاً وذكرىً، وهذا نصّه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

أمّا بعد، فإنّ الدين الإسلامي دين واضح الأصول، بيّن المعالم، لا تعقيد فيه ولا غموض، ولا حرج ولا إعنات، أنزله الله على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ على حين فترةٍ من الرسل، وضلالةٍ من الناس، واختلاف بالهوى، وتنازع وتطاحن

---

1. صدر بتاريخ ٣٠ ربيع الثاني سنة ١٣٦٦هـ

بالقوى، فهدى الناس في العقيدة إلى كلمة سواء، هي كلمة الله التي بعث بها كلّ رسول، وأنزل بها كلّ كتاب، وبيّن لهم شريعة الحكمة والرحمة والصلاح.

وأساس هذا الدين هو القرآن الكريم والسنّة المطهّرة، بهما تقرّرت عقائده وأصوله، ومنهما استنبطت قواعده وأحكامه، وإليهما يرجع المسلمون في كلّ شأن من شؤون دينهم ودنياهم.

تلقّى المسلمون الأولون هذا الدين كما أنزله الله، والتفّوا حوله يعتقدون عقيدته، ويدرسون شريعته، ويمضون على سنّته وطريقته، فما كان من نصّ ظاهر واضح في دلالته، قاطع في معناه، اجتمعوا عليه، ونزلوا على حكمه متوافقين، وما كان محلّ نظر وتأمّل اعملوا فيه عقولهم واجتهدوا فيه بقدر وسعهم في دائرة الأصول التشريعية، والمقاصد التي أرشد إليها كتاب الله وسنّة رسوله، فإذا شجر بينهم خلاف عالجوه بالحجّة والاقناع ولم يتجاوزوا به دائرة العلم والبحث، ولم يسمحوا له ـ مهما تباعدت وجهات النظر فيه ـ أن يقطع ما بينهم من الأواصر، أو يفسد ما أصلحه الله من القلوب، بل كانوا يتبادلون الثقة والمحبّة والاحترام، وربّما سأل بعضهم بعضاً عن دليله أو مدركه على ما يقول، فإذا لقّنه واستراح إليه سارع إلى إعلان قبوله والرضىٰ عنه غير مستكبر على الحقّ، ولا متعنّت في الخطاب.

هكذا كان شأن الأمة الإسلامية في أولها، ثم عدت عليها بعد ذلك عوادٍ جعلتها تتفرّق فرقاً وتقسّم طوائف وشيعاً، وابتدأت هذه الانقسامات بأواخر عهد الراشدين، ثم مازالت السياسة والحرب الأهلية تغذيها وتنفخ في نارها حتّىٰ تمخّضت البلاد الإسلامية عن فرقٍ شتّى، وتشعّبت كلّ فرقة إلى شعب، وكان هذا هو الأساس الأوّل لما عاناه ومايزال يعانيه المسلمون إلى الآن، من تفرّق وتنازع، وتقاطع وتدابر.

وقد كانت المساجد والمجامع والمجالس أندية رأي ونقاش وجدل، ذهبوا فيها مع الحرية الفكرية والنشاط العقلي إلى مدى بعيد جعلهم يخوضون حتّىٰ فيما نهوا

عن الخوض فيه من البحوث العقيمة، والمسائل التي لا تتّصل بها فوائد علمية، وساعد على اتّساع دائرة هذا الجدل امتزاج الثقافات المختلفة والعلوم الجديدة التي جاءتهم من الأمم الأخرى حين دخل الناس في دين الله أفواجاً من كلّ جنس ولون، حاملين معهم قضايا تفكيرهم وأساليب منطقهم وجدالهم.

ولم تقف الخلافات والآراء عند دائرة المعارف الفكرية الكلامية، بل شملت الفقه والأحكام التشريعية المستنبطة، غير أنّها لم تكن في هذه الناحية الأخيرة عنيفة ولا مشتطّة، وإنّما كانت تجري في هدوء وسكينة ووقار، لا يسيطر عليها إلّا العلم والحجّة والبرهان، وذلك في عهد الائمة المجتهدين، ومن بعدهم من تلاميذهم الذين أشربوا مبادئهم، وساروا على سنّتهم، فلم نعرف أنّ أحداً منهم رمىٰ غيره بالخروج على الشريعة، أو المروق من الدين لخلافٍ بينه وبينه، ولم نعرف أحداً زعم لنفسه أنّه هو وحده صاحب الرأي المقدس في الشريعة، أو فكّر في حمل الناس على ما يراه، بل كلّهم ورد عنه ما يدلّ على أنّه مجتهد قد أتى بما وسعه أن يأتي به، ويحتمل أن يكون مصيباً وأن يكون مخطئاً، وأنّ العمدة في ذلك كتاب الله وسنّة رسوله عليه الصلاة والسلام، وما ارتضاه المسلمون من قواعد الشريعة وأصولها العامة، وها هو ذا مالك ﷺ يصرف أبا جعفر المنصور عمّا همّ به من حمل الناس على «الموطّأ» ذاكراً له أن أصحاب رسول الله ﷺ قد تفرّقوا في الأمصار، وعند كلٍّ منهم علم، وليس من الرأي أن يحمل الناس على كتابٍ ما إلّا كتاب الله.

هكذا كانت ريح الفقه تجري رخاء، ولذلك نما وزكا، وأينعت ثمراته ودنت قطوفه، ووفى أعظم التوفية بحاجات المسلمين، أمةً ودولةً وأفراداً، وحفظ به التاريخ أعظم تراث فكري في الأحكام التشريعية والمبادئ الإصلاحية التي تقوم عليها الأمم.

ولذلك أيضاً استطاع الفقه الإسلامي أن يقف عالي الرأس عزيزاً كريماً، فلم يعزّه يومئذٍ فقه فارسي ولا فقه روماني ولا فقه يوناني، على كثرة مادخل بلاد المسلمين

من علوم هذه الأمم وثقافاتهم، وعلى ما عهد في المسلمين من ترحيب بالنافع من هذه العلوم والثقافات، وتلقّيه بسماحة وحسن قبول.

ثم جاءت بعد ذلك طبقات من المقلّدين والمتعصّبين للمذاهب، كلّت هممهم عن حمل ما كان يحمله سلفهم من العلم والنظر، وصادف ذلك عهود الضعف السياسي وانقسام الأمة الإسلامية إلى دويلات صغيرة لا تربطها رابطة، ولا تجمعها جامعة، ومن شأن الضعف السياسي ـ إذا أصيبت به أمة ـ أن يخيّل إلى أبنائها أنّهم أقلّ من سواهم قوةً، وعلماً، وتفكيراً، وأن تركد معه ريح العلم، ويفتر نشاط العلماء.

بهذا وبغيره تأثّر أكثر المشتغلين بالفقه، فحكموا على أنفسهم وعلى جميع أهل العلم في زمانهم بأنّهم ليسوا أهلاً للنظر والاستنباط، ولا لفهم كتاب الله وسنّة رسوله، ومن ثم حكموا بإغلاق باب الاجتهاد، وترتّب على ذلك أن وقف الفقه وجمد، وأن تعصّب كلٌّ منهم لرأي أمامٍ، وزعم أنّه الحقّ وأنّ ما سواه باطل، وأسرفوا في ذلك إسرافاً بعيداً حتى كان منهم من لا يصلّي وراء إمام يخالفه في مذهبه ومن لا يزوّج ابنته لفلان، أو يتردّد في أكل ذبيحة فلان، أو في قبول قضاء فلان، لمجرد أنّه يخالفه في المذهب! ثم حصروا الأئمة الذين أوجبوا اتّباعهم في عدد معيّن، وهكذا ضاق أُفق الأتباع والأشياع عمّا اتّسع له أُفق المتبوعين، وضاقت بهم دائرة الفقه الإسلامي، وركدت ريحه، وصوح نباته، وقلّت ثمراته، وكان من آثار ذلك أن خرج كثير من البلاد الإسلامية عن هذا الفقه عامة، والتمسوا فقهاً آخر في هذه القوانين الوضعية يحكمون به، ويجعلونه نظامهم في القضاء والتشريع والمعاملات، التمسوا فقهاً لم يتقيّد بهذه القيود الطارئة، ولم يحدّ بهذه الحدود المصنوعة، ومن ثم رأينا القذى في العيون، والشجىٰ في الحلوق حين رأينا أُمم الإسلام تحكم في بلادها بغير فقه الإسلام ومنهاج الإسلام.

ولكنّا قد استطعنا في عهدنا الحاضر ـ ونرجو أن يكون ذلك أُولى الخُطى في سبيل العودة إلى مجدنا الفقهي التشريعي ـ استطعنا أن نتخلّص إلى حدٍّ بعيدٍ من آثار

هذه العصبيات التي تنكرها الشريعة، ولا يعرفها الأئمة المجتهدون أنفسهم، وأن يسير بعضنا مع بعض على وفاق، فلم نعد نسمع خلافاً يؤدي إلى تضارب أو تقاذف أو تراشق بالتهم بين حنفي وشافعي مثلاً، وهاهو ذا الأزهر الشريف أكبر جامعة إسلامية يدرّس فيه المذاهب الإسلامية الأربعة، ونرجو إلّا يكون هناك من يمنع أو ما يمنع من دراسة غيرها من مذاهب المسلمين إذا تهيّأت له أسباب هذه الدراسة، وأنّ كلية الشريعة لتدرّس في العهد الحاضر إلى جانب الدراسات المذهبية دراسات فقهية مقارنة لا تتقيّد فيها بالمذاهب الأربعة، وممّا يبشّر بالخير أنّ الأساتذة والطلّاب يتلقّون هذه الدراسات المقارنة بإقبال وشغف، وبروح من السماحة، ورفض العصبية المذهبية، غير ناظرين إلّا إلى الدليل، ولا باحثين إلّا عن الحقّ.

إذن قد انتهت هذه المشكلة أو كادت، ولم يعد لها خطرها ولا ضررها، ولعلّنا نشهد في القريب العاجل إن شاء الله مذاهب إسلامية أخرى يدرَّس فقهها في الأزهر كما يدرَّس فقه المذاهب الأربعة، ويومئذٍ يحقّ لنا أن نستوفي جهات الفخر برجوع الفقه الإسلامي إلى مجده الأوّل، يوم كانت الآراء المحكمة، والحجج المتقابلة، والأدلّة، ووجهات النظر هي مادته وغذاءه، وعمدته في التنوير الفكري والوصول إلى الحقّ، لا قول فلان ولا رأي فلان.

إنّنا لنستبشر خيراً بهذا، وقد قارنه في نفس العهد إحساس المسلمين بأنّه لا ينبغي أن يحكموا بغير شريعتهم، وتلك هي الصيحات ترتفع عالية من كلّ جانب، ينادي بها المشتغلون بالفقه الإسلامي والمشتغلون بغيره من رجال القانون والقضاء والتشريع أن عودوا إلى فقهكم، فإنّه عنوان مجدكم وعزّكم، وقد اعترف بقيمة هذا الفقه وعظيم صلاحيته مؤتمر دولي عقد في مدينة لاهاي سنة ١٩٣٧م، حضره ممثّلون للأزهر الشريف والحكومة المصرية، وماكان هذا كلّه ـ علم الله ـ إلّا لأنّنا نبذنا التعصّب، فتجلّى لنا ما في شريعتنا وفقهنا من روعة وجلال، ومن قدرة على مسايرة أرقى أنواع الحضارات والمدنيات.

هذا هو تاريخ الخلاف في الفقه والتشريع، بدأ خلافاً علمياً مهذّباً، فكان بركةً وفتحاً مبيناً، ثم تطوّر إلى عصبية مذهبية عمياء، فكان جموداً وركوداً، وكان سبباً في انسلاخ كثير من الشعوب الإسلامية من تشريعها، ثم أخذ يعود إلى هدوئه وسنّته الأولى، فاستروحنا منه روح النهضة والتجدّد، وابتدأنا نلتفت إليه، ونعتزّ به، وننادي بأنّه فكرتنا ومنهاجنا في الحياة.

هكذا كان شأن الفقه، فماذا كان شأننا في غير هذه الدائرة؟ ماذا كان شأننا في المعارف الفكرية والقضايا التي أثارها الخلاف الطائفي والكلامي؟

لقد بكرت هذه الخلافات على المسلمين منذ أول الأمر كما قلنا، وكانت عنيفة حادّة، وكانت في نفس الوقت متلوّنة بألوان مختلفة؛ تبعاً لما كان يمدّها من السياسة والأهواء، ولما كان يغذّيها من الثقافات المختلفة، وظلّت هكذا تتزايد وتقوى وتتّسع آفاقها، ويتفاقم شرّها، حتّىٰ أصبح المسلمون فرقاً شتّى وطوائف مبعثرة، بل أصبحت الأمة الواحدة متشعّبة إلى فرق، والفرقة الواحدة متشعّبة إلى شعب، وكلّهم متقاطعون متدابرون، ينظر بعضهم إلى بعضهم كأنّهم أرباب أديان مختلفة، فلا تعاون ولا تزاوج ولا تبادل للأفكار، كلّ طائفة عاكفة على ما عندها، متعصّبة له، نافرة عمّا سواه تعتقد أنّها على الحقّ، وأنّ سواها على الباطل، وإذا تقاربت منها طائفتان أو أكثر في بلاد واحدة احتكّ بعضها ببعض وهاج بعضها على بعض، وكثيراً ما أفضى ذلك إلى سفك الدماء، وتخريب البيوت، وعداوات الأسر والطوائف ممّا نشهده بأعيننا ونسمعه بآذاننا في الحين بعد الحين.

وساعد على ذلك المستعمرون الذين يهمّهم أن تتقطّع أسباب المودّة، وعوامل الائتلاف بين المسلمين ليسودوا عليهم في بلادهم، وليكونوا هم قبلة المختلفين، والحكم الأعلى بين المتنازعين، وهكذا طاوع المسلمون هذه الأساليب الاستعمارية الماكرة، فزادوا من حدّة الخلاف بينهم، وتراموا بالكفر والفسوق والزندقة والخروج على الدين، وأمثال تلك الاتّهامات الطائشة التي أرست بينهم

العداوة والبغضاء، وزرعت في قلوبهم الحقد والضغينة وسوء الظنّ، وبذلك ساعدوا على أنفسهم، ومكّنوا لأعدائهم من رقابهم وأوصالهم.

حدث هذا كلّه، ومازال يحدث، مع أنّ هذه الخلافات عند كثير من طوائف المسلمين وفرقهم لا ترجع إلى أصول الدين، ولا تمسّ العقائد التي أوجب الله الإيمان بها، والتي يعدّ الخروج عنها خروجاً عن الدين، ومن الممكن ـ إذا وجدت هذه الفرق من يقرّب بينها، ويدرس أسباب خلافاتها ـ أن تعرض هذه الخلافات عرضاً هادئاً، دون تأثيرات خارجية ولا تعصّبية، فيتبيّن الحقّ فيها، ويزول كثير من أسباب الجفوة والقطيعة بين أرباب الدين الواحد، والنبي الواحد، والكتاب الواحد.

من الممكن أن يتقارب المسلمون فيعلموا أنّ هناك فرقاً بين العقيدة التي يجب الإيمان بها، وبين المعارف الفكرية التي تختلف فيها الآراء دون أن تمسّ العقيدة، ويؤمئذ يهون الأمر، فنجمع على ما نجمع عليه، وإذا اختلفنا لم يكن خلافنا إلّا كما يختلف أهل المذاهب الفقهية دون خصام ولا اتّهام، ودون توجّس واسترابة وسوء ظنّ بما يجعلنا متقاطعين في معاملاتنا، ومصاهراتنا وثقافاتنا.

يومئذٍ يعود المسلمون كما كانوا أمةً واحدةً، دينها الإسلام، وكتابها القرآن، ورسولها محمد عليه الصلاة والسلام، تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتتقبّل الكلام فيما وراء ذلك على أنّه آراء يدلي كلّ بما يراه منها، دون أن تسيء إلى وحدة المسلمين، أو تكون عاملاً من عوامل فرقتهم وضعفهم.

كان هذا ممكناً، ومازال ممكناً، ولا سيما بعد أن اتّسع نطاق العقول، وانتشر لواء العلم خفّاقاً، وأحسّ المسلمون بضرر ماهم عليه من التفرّق والتطاحن، وبأنّ هذه الخلافات قد احتسبت خلافات متّصلة بأصل الدين وأساس العقيدة، واتّخذت لذلك علامة عند أعداء الإسلام على أنّ هذا الدين لا يستطيع النهوض بأمةٍ تريد أن تنهض، وأن تّتخذ لها مكانةً بين الأمم.

لقد كان من نتائج هذا الاضطراب في الأفكار والمعارف الدينية، وتكفير كلّ طائفة للأخرى، أو اعتدادها بآرائها على أنّها هي الحقّ وما سواها هو الباطل، وأنّ من خرج على هذه الآراء فقد خرج على شيء مقدَّس ومرق أو تزندق أو تطرّف. كان من آثار ذلك مثل ما كان من آثار الركود الفقهي حين خرجت الأمة الإسلامية عن فقهها إلى ماسواه، ذلك أنّ كثيراً من الشباب يخرجون على هذا التراث الفكري عامة، ويجنّبون أنفسهم مشقّاته وأهواله، ويبتعدون عن أخطاره ومزالقه، ومغبّة البحث فيه؛ حذراً من أن يضلّوا في مجاهله، أو يصيبهم رشاش من التكفير أو التفسيق، فنراهم يتجاوزون هذه الثقافات الفكرية الإسلامية، غير مميّزين بين غثّها وسمينها إلى غذاء علمي آخر لأرواحهم وعقولهم في المعارف الفكرية الأجنبية، يتلقّفونها من علماء الغرب ومفكّريه ومستشرقيه والمأخوذين به، ويعتقدونها هي العلم الصحيح، والغذاء المفيد، والآراء الصالحة للحياة.

ولقد رأينا هذه النزعة الخطيرة تستولي على شبابنا وكثير من مفكّرينا، وتتغلغل في أعماق نفوسهم، وتسيطر على أفكارهم وعقولهم، وتعمل عملها دون أن يشعروا أو تشعر الأمة بما لها من إيحاءات خفيّة، وضرر يسري كالسمّ الزعاف في أناة ومثابرة حتّىٰ يهلك أو يقارب، ومن شأن هؤلاء أن يهون عليهم تاريخهم، وتصغر في أعينهم ثقافتهم، بل أن يصبح دينهم غير عزيز عليهم، ولا أثير لديهم، وربّما مقتوه وفرّوا منه، وتباهوا بأنّهم علوا عنه، وارتفعوا بأنفسهم عن مستواه.

هذه بعض أخطار التفرّق الذي مني به المسلمون، أضعفتهم وأطمعت فيهم أعداءهم، بل سلّطت عليهم هؤلاء الأعداء يسومونهم الخسف والذلّ وسوء العذاب، وهوّنت من شأن ثقافاتهم ودينهم، وجعلت العزّة والسلطان لغيرهم، وإنّما العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

من الممكن أن تتلافى هذه الأخطار، وأن يجنّب المسلمون شرّها وضررها

إذا تعاونت القلوب، وتآزّرت الجهود، ونسيت العصبيات، ورجعنا إلى الحقّ ننشده مخلصين.

أنّ حوالي أربعمائة مليون من المسلمين منبثّين في بلاد الله[1] شرقاً وغرباً، لم يؤتوا من قلّة، ولم يؤتوا من فقر في عقولهم، أو في بلادهم، أو في استعدادهم، أو في ثرواتهم الطبيعية، ولقد شهد التاريخ كيف كانوا أقلّ من ذلك عدداً، وأقلّ من ذلك مالاً وثروةً وخصباً، ومع ذلك سادوا وشادوا، ولفتوا إلى علومهم وأفكارهم ومدنيّتهم أهل الزمان.

فالمسألة إذاً إنّما ترجع إلى هذا التفرّق والتقاطع، إلى هذا الفقر الطارئ على النفوس والهمم والعزائم، وقد تنبّه إلى ذلك كثير من أهل العلم والفكر من المسلمين في عهود مختلفة، وكانت صيحاتهم تنبعث في الحين بعد الحين، عالية طوراً، وطوراً خافتة، ينادون أمتهم أن تنبّهي إلى هذا المرض الخطير، وإلّا قضي عليك القضاء الأخير.

ولكن هذا كلّه ـ مع شديد الأسف ـ لم يتجاوز حدود الأمل الذي يساور النفوس، أو القول الذي تجري به الألسنة والشفاه، ولم تتّخذ خطوات عملية مثمرة لتنفيذه حتّىٰ كاد الناس ييأسون من شفاء هذه الأمة، ويتوجّسون أن يدركها بسبب هذا الداء الوبيل موت نهائي بعد أن ألحّت عليها العلّة حتّىٰ أضعفتها وبرتها.

ولكنّ الله ـ جلّت حكمته ـ أرحم من أن يترك الأمة المحمدية لهذا المصير الفاجع، وهي خير أمة أُخرجت للناس، نعم إنّها أساءت إلى نفسها وخرجت عن دائرة دينها، وغيّرت وبدّلت وأعرضت، إلّا أنّها لاتزال أمة القرآن، وأمة خير الأنبياء ﷺ، وأنّ القرآن الذي أنقذ المسلمين وأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربّهم، وجمع بينهم، وألّف بين قلوبهم وقد كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم

---

١. كان ذلك وقت صدور البيان.

منها، وجعلهم سادة العالم وقادته، لهو جدير بأن ينقذهم مرةً أخرى، وبأن يرفعهم من وهدة خلافهم وتطاحنهم، وقد أنبأنا الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام بأنّه ما تزال طائفة أو طوائف من أمته على الحقّ، لا يضرّهم من خرج عنه إلى يوم القيامة، وأنّ الله يبعث في الحين بعد الحين إلى هذه الأمة من يجدّدها ويسدّدها ويهديها بفضله إلى سواء السبيل.

لعلّنا نلمح نور هذا الفجر المنتظر يشعّ على العالم الإسلامي، لعلّنا ننتظر هذا التجديد الموعد به في هذا العصر الذي تنبّه فيه الغافلون، واستيقظ النائمون، لعلّنا نلتمس أن تبزغ هذه الشمس في مصر والعالم الإسلامي بعد أن طال احتجابها عن المسلمين.

نقول ذلك ونحن نقدّم جماعتنا هذه (جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية) إلى العالم الإسلامي الذي رزح تحت أثقال التفرّق أجيالاً بعد أجيال، وقروناً تطاول عليها الأمد، فنبشّر المسلمين بعهدٍ جديدٍ نرجو أن يكون بدءاً لانقشاع سحب الخلاف من جوّهم، ونرجو أن تكون الخطوات فيه إلى هذا الغرض الشريف سريعة موفّقة إن شاء الله.

وقد ألّفت هذه الجماعة في مصر حاضرة الإسلام، وملتقىٰ أفكار المسلمين ونهضاتهم، ومشرق شمس الأزهر الشريف، تلك الجامعة العلمية الإسلامية التي تهوي إليها أفئدة من الناس في مشارق الأرض ومغاربها، على أن تكون لها فيما بعد فروع في شتّى البلاد، ومختلف البقاع، تسير على نهجها، وتخدم فكرتها، وتعاون على جمع كلمة المسلمين بكل ما تستطيع من أنواع المعاونة.

وإنّنا ـ حين نعلن في العالم الإسلامي نبأ تأليف هذه الجماعة ذات الغرض الأسمىٰ ـ لنرجو من كلّ مسلم أن يتقبّلها بقبول حسن، وأن يضمّ جهده إلى جهود أعضائها، وأن يبثّ فكرتها ويعمل على تحقيق غايتها، نرجو ذلك من كلّ أمة وطائفة وجماعة وفرد، ونرجوه من كلّ من يؤمن بالقرآن، ويعتقد برسالة محمد

عليه الصلاة والسلام، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه.

على بركة الله إذاً تتقدّم هذه الجماعة إلى العالم الإسلامي، وتعلن بادئ الأمر أنّها ذات أغراض دينية اجتماعية فقط، كما جاء في قانونها الأساسي، ذلك القانون الذي اتّفق عليه أعضاؤها المؤسّسون، وهو العهد بيننا وبين المسلمين، في ظلّ الإسلام، وتحت راية القرآن، نستعين الله على الوفاء به والنهوض بتبعاته ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1] ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[2].

* * *

---

١. الممتحنة: ٤.

٢. الأعراف: ٨٩.

الفصل الخامس

الزمن في جانبنا

كلّ فكرة إصلاحية يتوقّف نجاحها على عوامل كثيرة، في مقدّمتها: سلامة الفكرة، وحاجة المجتمع إليها، وإخلاص دعاتها، وصبرهم، كفاحهم.

وهناك عامل آخر من عوامل النجاح له أهميته وله وزنه، تقرّه سنّة الدعوات، وتفرضه الأناة التي يجب أن تصاحب كلّ جديد، ذلكم عامل الزمن.

صحيح أنّ كلّ فكرة سليمة يمكن أن تجمع حولها فريقاً من ذوي النظر الثاقب، والبصيرة النافذة، وأن تجد دعاةً يدافعون عنها في دائرة ضيقة، لكنّ الشبه والظنون التي تخالج الأذهان حيال كلّ طريف يحتاج استلالها إلى زمن، كذلك تثبيت أيّ فكرة في النفوس، وترسيخها في العقول يحتاج إلى زمن. فالدعوات لابدّ لها من أن تتسلّح بسلاح الزمن، وخاصةً تلك التي ترتبط بالعواطف وتتّصل بالإحساس، وكم من مشاكل معقّدة حلّها الزمن، وأفكار مستغربة ألفها الناس بعد أن ذهب بغرابتها الزمن.

وكما أنّ الزمن يساعد كلّ دعوة سليمة على النمو الازدهار، فإنّه كذلك يكشف كلّ زائف بما يُظهر من الخبايا، ويبرز من الانحرافات بل أنّ ما يقذف به من العراقيل ومن المغريات يكون خير محكٍّ للدعاة، وأصدق امتحانٍ لنفوسهم، فمن استطاع أن

يحتفظ باعتداله ويلتزم مبادئه فهو الصالح المستحقّ للبقاء، وهو القادر على شقّ طريقه وبلوغ غايته رغم ما يعترضه من صعاب.

أقول هذا بمناسبة مرور عشر سنوات كامة على فكرة التقريب، أقوله وأنا أذكر كيف ولدت الفكرة، وكيف احتضنها رجال مخلصون من العلماء والمفكّرين، لأنّها جاءت على أساس تقريب الذين باعدت بينهم آراء لا تمسّ العقائد التي يجب الإيمان بها، وتعريف كلّ طائفة بالأخرى، والاتّفاق على النقط الوفاقية، وأن يعذر المسلمون بعضهم بعضاً في كلّ ما له دليل من مسائل فيها مجال للنظر والبحث، وازالة الافتراءات التي أدخلت على كلّ طائفة، ودعوة كلّ طائفة إلى النظر في كتب غيرها والأخذ بما فيها لا بما يقوله عنها المخالفون، جاءت لترفع العداوة والبغضاء من بين إخوةٍ كتابهم واحد، ونبيّهم واحد، وقبلتهم واحدة، يحجّون إلى بيت الله الحرام. ولا يختلفون في صلواتهم، لا في عددها ولا في ركعاتها وسجداتها، ويصومون رمضان، ويؤدّون الزكاة، ويؤمنون بكل ما يؤمن به المسلم من عقائد، جاءت تدعو إلى ذلك كلّه بعد أن مزّقت الخلافات الأخوّة الإسلامية، وجرحت الأقلام المفرِّقة عواطف المسلمين وقلوبهم.

ولم يكن بمستغرب أن تجد هذه الدعوة رجالاً من ذوي الفكر، يمثّلون المذاهب الأربعة المعروفة والإمامية والزيدية، يلتفّون حولها ويعتنقونها، ويعلنون على العالم الإسلامي نبأ تكوين جماعة التقريب. ولم يكن بمستغرب كذلك أن يجدوا في كلّ بلدٍ إسلامي من يمدّ يده إليهم ويبايعهم، وأن يجدوا أقلاماً تخدم فكرتهم، ومؤتمرات تتبنّاها، ومعاهد وجامعات تأخذ في دراستها.

لكن هذا كلّه لم يكن يكفي، ورجال التقريب أنفسهم لم يتوقّعوا أنّ مثل هذه الدعوة الخطيرة يتقبّلها الجميع بيسر، فهم أول من أدرك أنّ سوء التفاهم ليس وليد أعوام عشرة أو عشرين، بل وليد قرون وقرون، وقد غذّته السياسة المختلفة، وشجّعه أولو الأغراض من الحكّام الذين حكموا باسم الطائفية، فوق أنّ دعايات

السوء مسخت كثيراً من الحقائق، وأنّ سياسة «فرّق تسد» لا تزال تسيطر وتعمل عملها، وأنّ الإنسان عبد لما يألف، وليس من الهيّن أن يتقبّل ما يخالف مألوفه، وأنّ الشكّ في كلّ شيء أصبح أمراً متوقّعاً بسبب ما رآه المسلمون، وما نزل بساحتهم من نكبات.

من أجل ذلك كلّه كثر التساؤل عن الفكرة، وانحصر نشاطنا أول الأمر في توضيحها.

قالوا: ما دعوة التقريب هذه؟ وكيف يمكن التقريب بين المذاهب؟ أتريدون من كلّ طائفة أن تنزل عن بعض ما تراه لتقرب من الأخرى؟

فقلنا: ما إلى هذا قصدنا، وإنّما دعوتنا أن يتّحد أهل الإسلام على أصول الإسلام التي لا يكون المسلم مسلماً إلّا بها، وأن ينظروا فيما وراء ذلك نظرة من لا يبتغي الفلج والغلب، ولكن من يبتغي الحقّ والمعرفة الصحيحة، فإذا استطاعوا أن يصلوا بالإنصاف والحجّة البيّنة إلى الاتّفاق في شيء ممّا اختلفوا فيه فذاك، وإلّا فليحتفظ كلٌّ بما يراه، وليعذر الآخرين ويحسن الظنّ بهم، فإنّ الخلاف على غير أصول الدين لا يضرّ بالإيمان، ولا يخرج المخلصين عن دائرة الإسلام.

قالوا: كيف السبيل إلى التقريب وهناك الإمامة والخلافة؟

قلنا: لكلّ وجهة هو مولّيها، ومادام ذلك لم يفض بأحد الفريقين إلى أن ينكر إسلام صاحبه فلن يضير المسلمين أن يحتفظ كلٌّ برأيه، وإذا كان هناك ما نقوله فهو حول كيفية عرض وجهات النظر، بأن يكون في صورة غير مثيرة، وذلك لصالح الأخوّة الإسلامية، وبدوره يساعد على الإقناع إذا كان القصد ذلك.

قال قائل: لعلّ جماعة التقريب تريد أن تقرب بين المذاهب الفقهية؟

فقلنا: إنّنا لم نجعل من أهدافنا إدماج المذاهب الفقهية بعضها في بعض، فإنّ الخلاف أمر طبيعي، وهو في الفقه مبني على أصول ومدارك كلّها في الدائرة التي أباح الله الاجتهاد فيها، فلا ضرر فيه، بل فيه خير وسعة وتيسير ورحمة.

قال قائل: لقد سمعنا أنّ من غايات التقريب أن يُدرَّس مذهب الشيعة في الأزهر.

قلنا: إنّ من غايات التقريب أن يعرف المسلمون بعضهم بعضاً، وإنّ أول من يجب عليهم التعارف هم العلماء وأهل الفكر من كلّ طائفة، والعلم لا يُصادر ولا يُكتم، ولا بأس على الشيعة أن يعلموا علم السنّة وهم يدرسونه فعلاً، ولا بأس على الأزهريّين أن يعلموا علم الشيعة، بل ذلك واجبهم الذي يدعو إليه الاخلاص العلمي.

وأمثال هذه الأسئلة كثير، تولّت الإجابة عليها مجلّة رسالة الإسلام التي تدخل اليوم عامها التاسع، والتي اضطلعت بتوضيح الفكرة لا لكلّ سائل وحده، بل للمسلمين جميعاً، وعلى صفحات هذه المجلّة نقول اليوم ما قلناه منذ عشر سنين عن فكرة التقريب رغم أنّ الفكرة ذاع صيتها، وكثر أنصارها، وأصبح كلّ مصلح وكلّ مفكّر يقف بجانبها. نعم نقول اليوم عن هذه الفكرة ما قلناه عنها منذ عشر سنين، نقول نفس المبادئ، ونفس الأسس، ونفس الطرق للعلاج، لأنّ الدعوات السليمة لا تنحرف ولا تميل ولا تخفي وراءها شيئاً.

قلنا في أولى خطواتنا: لسنا نبغي من التقريب سوى جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية الذين باعدت بينهم آراء لا تمسّ العقائد التي يجب الإيمان بها، ولمّا لمسنا أنّ الطائفتين الكبيرتين في الإسلام هما: السنّة بمذاهبها الأربعة المعروفة، والشيعة الإمامية والزيدية، تكوّنت جماعة التقريب من هؤلاء وأولئك.

قلنا: إنّ المسلمين بحاجة إلى أن يعرف بعضهم بعضاً، وإنّ الأغراض قد أدخلت على كلّ فريق بالنسبة للآخر تُهماً ومطاعن، وليس من المعقول أن تتعرّف على طائفة بما كتبه عنها أولو الغرض، أو أشاعه عنها ذوو الحقد. قلنا هذا ولا نزال نقوله كأصل من أصول التقريب.

قلنا ولا نزال نقول: إنّنا لا نريد أن ندمج المذاهب الفقهية، لأنّ المذاهب ثقافة

إسلامية يجب أن نحافظ عليها، وإنّما نريد أن يقول أرباب كلّ مذهب ماكان يقوله أئمتهم: «هذا ما رأيته، فمن جاء بخير منه فالحقّ أحقّ أن يتّبع».

قلنا وما زلنا نقول: لسنا بصدد تغليب مذهب على آخر، وإذا كان إظهار مذهب على حقيقته بياناً لبطلان ما قيل عنه فليس هذا دعاية لهذا المذهب بذاته، وإنّما هو إظهار لحقّ يجب أن يُعرف ويُجْلى. وإذاكان يروق لأحدٍ أن يخلط بين عقائد الفرق البائدة؛ كالمخطئة والخطابية والغرابية وغيرهم من الغلاة، ومالهم من أوهام لا يقبلها أيّ عقل، ولا وجود لها الآن إلّا في خيالات بعض المستشرقين ـ لأغراض لا تخفىٰ ـ أو في بعض كتب الملل والنحل المعروفة بالتحيّز... إذا كان يروق لأحدٍ هذا الخلط العلمي بين أمثال تلك الأوهام الباطلة، وما عليه الشيعة الإمامية أو الزيدية الذين يمثّلون نسبةً كبيرةً بين المسلمين، ولهم آراؤهم واضحة، وكتبهم مطبوعة ومتداولة، وعلماؤهم في الفقه والتفسير والكلام والفلسفة كثيرون امتلأت بهم أسفار التراجم... إذاكان يروق لأحدٍ أن يخلط بين هؤلاء وأولئك ليجعل من الأمة الواحدة أمتين أو أمماً مختلفة، ولا يعجبه مبدأ التعريف بالمذاهب الإسلامية، ويرىٰ في هذا هدماً للمبادئ المفرِّقة، والمعاول الهدّامة، وإذا كان التقريب يعطي فكرةً عن هذا المذهب على حقيقه، فليس هذا ممّا يؤخذ على التقريب.

إنّ المسلمين إذا عرف بعضهم بعضاً، وزالت الشكوك من بينهم واطمأنّوا لأنفسهم؛ أصبحوا قوةً لها قيمتها. ولا يمكن بلوغ هذه الغاية بالمجاملات، بل لابد من عملٍ يقوم على أساسٍ من الواقع والفهم الصحيح، تزدهر به شجرة الأخوّة الإسلامية، وتؤتي ثمرتها المرجوّة، وهذا ما نسعى إليه جاهدين.

وإذا كان الباحثون من المستشرقين ـ الذين تحرص بلادهم على فرقتنا ـ يكبّرون الخلاف بين مذاهبنا باسم البحث تارةً وباسم الاستشراق أخرى، فإنّ من واجبنا أن نظهر الحقائق لنفوّت عليهم أغراضهم، فإنّ في الفرقة ضعفاً لنا، وتمكيناً لغيرنا من رقابنا، وإنّ في الوحدة قوةً لنا وسيادةً لأمتنا.

إنّ فكرة التقريب ليست فكرة جماعة بذاتها مركزها دار التقريب، وإنّما هي فكرة كلّ مناصر لها في أيّ بلد من البلاد، وإنّ أيّة دار تلقى فيها محاضرة أو يجتمع فيها مؤتمر أو غير ذلك، لتعريف المسلمين بعضهم إلى بعض، لهي دار للتقريب.

وهاهي ذي عشر سنين قد مضت على فكرة التقريب، وهي وإن حسبت في أعمار الأفراد إلّا أنّها قصيرةً جداً في حياة الدعوات، ولا سيّما دعوة تعالج رواسب القرون.

وإذا كانت الدعوة قد سارت في هذه الفترة اليسيرة ونمت رغم أنّ الطريق لم تكن أمامها معبَّدة ولا مفروشة بالرياحين، والتزمت نهجاً سويّاً بعيداً عن كلّ نزعة تعصّبية، ولم تخرج عن خطّة الرزانة والريث، ولم تخضع لغير الحقّ، فإنّا لنرجو أن يتمخّض المستقبل عن نتائج أعظم وأجلّ إن شاء الله، والحمد لله على ما هدانا وأولانا، وهو سبحانه ربّنا ومولانا.

الفصل السادس

دور الأزهر الشريف في التقريب

(كلمة بمناسبة العيد الألفي للأزهر الشريف)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الحفل الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كان بودّي أن اشترك معكم في هذه المناسبة المباركة وأتمتّع برؤياكم، ولأُبادل رأياً برأي، لولا أنّ العوارض الطارئة حالت دون ذلك. ولا يمنعني هذا من أن أرى نفسي معكم وبينكم، مقدّراً آرائكم وشخصياتكم داعياً الله تعالى أن يوفّقكم في تقبيم الوضع المؤسف الحاضر للعالم الإسلامي واتّخاذ قرارات جماعية مناسبة إن شاء الله.

أمّا بعد، فإنّ دار التقريب بجماعتها ـ جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ـ هي التي تحدّثكم في هذه المناسبة الكريمة ـ العيد الألفي للأزهر الشريف ـ من دور الأزهر برجاله المصلحين، وعلمائه الأتقياء البارزين في رسالةٍ هي من أنبل الرسالات الإصلاحية الإسلامية، لجمع كلمة المسلمين، وإزالة القطيعة بين أبناء الدين الواحد: ربهم (الله) واحد، نبيّهم واحد، كتابهم واحد، لايختلفون في أيّة منه،

قبلتهم واحدة، صلواتهم المفروضة واحدة، لا اختلاف في عددها، ولا في الركعات والسجدات، ولا في وجوب قراءة الحمد فيها، وحجّهم واحد، وصومهم واحد... إلى غير ذلك.

بعد ما يقرب من أربعة عشر قرن من الخلافات، كان لأول مرة في التاريخ الإسلامي اجتمع عدد من المصلحين من مختلف المذاهب الإسلامية خصّيصاً لمعالجة هذا الداء الوبيل: التفرّق الطائفي لا على أساس تغليب مذهب على مذهب، أو حذف المذهبية أو دمجها في بعض، بل على أساس أنّ الرأي مادام على أساسٍ عن الفهم والمنطق لابد أن يُحترم، ولابد للدليل أن يتّبع من أيّ أفقٍ طلع.

نعم، كانت هناك محاولات ودعوات لهذا الغرض طوال التاريخ، إلّا أنّها كانت دعوات فردية، ولسببٍ ما قضي عليها أو ماتت بموت أصحابها، ولكن دعوة التقريب جاءت على أكتف جماعة وقفوا كالبنيان المرصوص صفّاً واحداً، أقوياء بإيمانهم وشخصياتهم البارزة، متضامنين، وإذا مات منهم واحد قام واحد. فُوجدت كدعوة جماعية. وإذا كان لي ما يذكر في هذا الميدان فهو أنّني اخترت مصر بالذات كمركز لهذه الدعوة، لما فيها الأزهر الشريف، ورأيت بأنّ خير من يحمل هذه الرسالة هم علماء هذا الأزهر.

واليوم أرى من الواجب عليَّ أمام الله والتاريخ أن أسجّل دور الأزهر برجاله المصلحين البارزين، هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، كما أنّ كلّاً من واجب الوفاء وتقدير الجهاد يحتّم عليّ أن أُبرز دورهم، وأعطيهم حقّهم، مع الاعتراف بأنّه لا يسعني أن أشرح في هذه الكلمة إلّا قدراً يسيراً ممّا يستحقّوه، مستبشراً بأنّ آثار أعمالهم سوف تتكلّم عنهم إلى الأبد.

وإنّني إذ أتكلّم عنهم أتكلّم في الحقيقة في دور الأزهر الشريف في مقاومته للتفرقة المذهبية التي هي دائماً كانت السلاح الفعّال بأيدي المستعمرين الذين كانوا يحسنون استعماله في أيّ وقت يناسبهم.

وإذا كانت دار التقريب أُسّست رسمياً في يناير ١٩٤٧، إلّا أنّ الدعوة مرّت بثلاث مراحل: مرحلة التمهيد، مرحلة التكوين، ومرحلة التنفيذ. وكان تأسيس الدار هو مرحلة التنفيذ.

مرحلة التمهيد قادها الإمام العظيم الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر في وقته، التقيت به عام ١٩٣٨، وعرضت الفكرة عليه، ووجدته متفاهماً خبيراً ذكياً، ذكر لي المصائب التي سبّبتها هذه التفرقة بأيدي الاستعمار، وشجّعني وجمع بيني وبين العلماء البارزين (منهم الشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ عبد المجيد سليم وكان مفتي الديار المصرية في ذات الوقت، وأراد الله أن يكون لهما دور كبير فعّال في هذه الدعوة، وكلاهما صار شيخاً للأزهر فيما بعد) واتّفقنا على النقط، وبحثنا كيفية سير الدعوة حتّىٰ لا تثير العصبيات. وكانت بداية مشجّعة وطيّبة، وكان عهداً بيني وبين هؤلاء العلماء الكبار، وكانت هذه هي مرحلة التمهيد.

واتّسعت دائرة الحرب العالمية، فسافرت إلى بلدي، وعدت إلى مصر بعد الحرب ١٩٤٩، وكان الشيخ عبد الرزاق شيخاً للأزهر، اجتمعنا به مراراً، ووجدته على العهد، وبدأنا معه والشيخ العظيم الشيخ عبد المجيد سليم مرحلة التكوين وشاركا عليهما رحمة الله في تكوين الجماعة، وتأسيس الدار، واختيار رجال بارزين في العلم والتقوى للاشتراك في هذه الدعوة التي يعتبرونها جهاداً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، فكوّنت جماعة للتقريب من الشيخ عبد المجيد سليم وشلتوت والعلماء سادة المذاهب الأربعة في الأزهر، كما اشترك فيها ممثّلون من مذهبي الشيعة الإمامية والزيدية، ورجال من غير الأزهر كمحمد علي علوية وحلمي عيسى باشا، وهما معروفان بميولهما الإصلاحية ومراكزهم الاجتماعية الرفيعة، والشيخ حسن البنا المرشد العام والمؤسّس الأوّل للإخوان المسلمين، والحاج محمد ابن الحسيني، وغيرهم من كبار الباحثين والكتّاب، وكتبوا القانون الأساسي للجماعة.

وجاءت دار التقريب وجماعتها إلى الوجود، واختارت ﴿إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ شعاراً لها، وكانت هذه نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى، وهي مرحلة التنفيذ: قامت الجماعة بجهودها، وفي هذه المرحلة الخطيرة كانت سهام المتعصّبين من كلا الفرقتين: أهل السنّة والشيعة، موجّهة إليها، والاستعمار المستفيد دائماً من التفرّق بدأ يحسّ بها، والعراقيل من كل جانب كانت تسدّ طريقها، والاتّهامات من كل الأشكال والألوان كانت تنهال وتصبّ عليها، ومن شيعي يقول: إنّهم يريدون أن يجعلوننا سنّيين! ومن أهل السنّة من يقول بأننا نريد أن نجعل منهم شيعيين! وبجانب تلك المشاكل كلّها هناك من يدخل في روع البلاط الملكي بأنّ لي مهمة، وهي أن أمّهد السبيل لإعادة حكومة الباطنية ممثّلة في زعيمها إلى مصر! وذلك بإدخال الشيعة في مصر، وما اجتماع هذا العدد من العلماء البارزين وعهدهم معي إلّا لهذا الغرض الهام...! وكلّنا نعرف ماذا كان من الممكن أن يترتّب على هذا الاتهام الخطير في ذاك الوقت.

وكان الإمام الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر هو الذي أدرك الموقف، ودافع عني وعن الجماعة، ووضّح لهم زيف وسخف هذا الاتّهام الذي كان أشبه بوهم الحشّاشين، ولولاه ولولا كلامهم معه لكانت دار التقريب في خبر كان في أولى خطواتها، عرفنا وعرف كل من كان معنا بأنّ الله حفظنا، وأنّه يريد للدعوة البقاء.

رغم كل الصعوبات والافتراءات والتُهم، هؤلاء الرجال وقفوا صامدين، لم يخافوا في الله لومة لائم، دافعوا عن الدعوة بكلّ قوة، وكان الجو مليئاً بالكره، كره كل فريق بالنسبة للفريق الآخر، وكانت القطيعة مستحكمة، وكان أصحاب التعصّب التقليديين لا يطيقون أن يسمعوا عن الفريق الآخر إلّا كل سوء، والمكامن تؤخذ كالحقيقة الواقعة، وهناك تلك الكتب المفرّقة، بل الكتب التي أُلِّفت للتفرقة ـ وأُعيد طبع بعضها لإثارة النعرات الطائفية، خصيصاً لمقابلة فترة

التقريب ـ كانت تلك الكتب مليئة بالشتائم وشتّى التهم، وكانت يؤخذ بهما كأنّها حقيقة واقعة! ولقد رفعنا أمام كل ذلك شعاراً: «أيها المسلم أعرف أخاك» كبداية للتغلّب على هذه العقبة.

ولهذا الغرض، ولنشر الدعوة في العالم الإسلامي، أُسّست مجلة رسالة الإسلام المعروفة، التي نالت أعجاب العلماء والباحثين، وقدّمت للعالم الإسلامي أقلام فذّة، وأبحاث فقهية وتاريخية واجتماعية، وانّ اثنين من علماء الأزهر هما المشرفان على هذه المجلّة، هما المغفور له العالم العبقري الشيخ محمد محمد المدني، الأستاذ وعميد كلية الشريعة بالأزهر كرئيس للتحرير، وفضيلة العالم الجليل الشيخ عبد العزيز عيسى الأستاذ بالأزهر كمدير عام لها، بارك الله لنا في حياته.

واليوم وأنّ الدعوة انتشرت، وأنّ الجو السائد الذي كان مليئاً بالطعون والكره قد ولّى، وأنّ التفرقة التي كانت بين الفريقين قد خفّت في بعض البلاد ـ وحتّىٰ في بلد شيعي يُقام فيه أسبوع الوحدة (من السنّة والشيعة) بمناسبة الاحتفال بمولد الرسول الكريم ـ وزالت بالكلّية في كثير من الأوساط، واليوم ينظر إلى الفقه بأنّه حصيلة رجال من الفقهاء العظام واستنباطهم من الكتاب والسنّة، وما كان منه مع الدليل المقنع من فقيه سنّي أو فقيه شيعي لابد أن يحترم، ولذلك ترون فقه أهل السنّة يدرَّس في الجامعات الشيعية، وبالعكس فقه الشيعة يدرَّس في الجامعات عند أهل السنّة، وأخذ من هذا الفقه في قوانينهم في الأحوال الشخصية.

ولست هنا بصدد ماتمّ من إنجازات تعتبر نقطة عطف في التاريخ الإسلامي، وخير مرجع موجز لهذا الغرض، مع الإشارة إلى الشخصيات الكبيرة ممّن التحقوا بدار التقريب في العالم الإسلامي، هو ما كتبه الإمام الراحل محمود شلتوت، وهو على إيجازه تاريخ الدعوة وفتواه، أنا أترك هذا لما كتبه عليه رحمة الله تقديراً لجهاده وتأدّباً معه.

ومادمنا بصدد الكلام عن الوحدة الإسلامية والتغلّب على التفرّق، لابد لنا أن

نشير بأنّ ذلك الاستعمار الذي خفّت قبضته أو اختفت مقدرته لبعض الوقت بمناسبة الدمار والخراب والفقر الاقتصادي، والنكبات الأخرى التي سبّبت له الحرب العالمية الثانية، وأُجبر على إعطاء الاستقلال لبلاد كالقارة الهندية التي كانت تستحكم قبضته عليها بالسلاح المؤثّر: التفرّق الديني والطائفي، وكانت هذه هي الفرصة الذهبية التي سنحت لتأسيس دار التقريب، ونشر فكرتها، وإذاعة أخبارها ونشاطها، وحتّىٰ أخذ برأيها في لجنة الدستور بباكستان ليكون متمشّياً مع فكرة التقريب، ولا يكون مثيراً للتعصّبات ومجحفاً بحقّ الاقلّيات الإسلامية، كان المستعمرون مشغولين بأنفسهم، وتمّ ماتمّ، وكانت فرصة ذهبية لنا.

ولكن في الحقيقة ذلك الاستعمار لم يتب إلى الله لاغتصابه بلاد الغير، ولم يستغفر لما اقترفه من آثام، بل الاستعمار هو الاستعمار، إذا إنّه في بعض الوقت خرج من الباب إنّه يدخل علينا هذه المرة من النافذة! وإنّه في هذه المرة يدخل علينا مقنّعاً تحت ستار الايديولوجيات الجذّابة، والتي لا تحمل في طياتها إلّا النكبات للمسلمين، وإيجاد التفرّق والأنقسام في البلاد، بل بين العائلات في بلد واحد، وحتّىٰ بين الوالد وولده، ومن هو المكتسب وراء سوق الشباب إلى العنف مثلاً بدل الإقبال على الجامعات والبحث الهادئ إلّا المستعمر.

وأنا أشرت إلى هذا الخطر الذي يهدّد المسلمين بل الإسلام في صميمه في التقرير الذي قدّمته في مجمع السنوي العام لدار التقريب بمناسبة بدء السنّة الثالثة لها في يناير ١٩٤٩، وقلت: إنّ الحرب انتهت، المغلوب انتهى كلّ شيء بالنسبة له، وأنّ الغالب خرج منهوك القوى، ولابد له من زمان حتّىٰ يعود إلى الوضع العادي، ولكنّه هو المستعمر، إلّا أنّه هذه المرّة يتوسّل بالايديولوجيات، وتلك مدلولات السلاح المدمّر الجديد له، ونعرف مدى خطورة هذا السلاح إذا عرفنا بأنّ هذه المرّة شباب هذه الأمة هم الذين يأخذون هذه الايديولوجيات، وأضرّ تلك الايديولوجيات ما كان منها يتقنّع بالقناع الديني، أو يصطبغ بالصبغة الدينية،

وربّما أضرّ الآراء وأخسّها وهي الماركسية السافرة أو اللاقيدية الإلحادية إذ المتديّن لاينخدع بهما، ولا ينخرط فيها، ولا يقع في شراك أمثالهما... . قلت هذا في ذاك الوقت.

ولنا أن نفكّر: لماذا شبابنا يقع في شراك الايديولوجيات بهذه السهولة؟ السبب الأهمّ في نظري أنّهم كثيراً ما أخطأوا في فهم معنى الدين وحدود رسالته، وحمّلوا الدين مالا يستحمله، وما من جديد يعجبهم إلّا يريدون أن يجدوه في الدين، أو يحوّلوا الدين أو يفسّروه على نحوٍ يجدوا هذا الجديد فيه

وربّما خاب ظنّهم في علماء الدين، وحيث لايجدوا متطلّباتهم لديهم، أو الرحابة المتوقّعة من الدعاة عندهم، يلتجئوا إلى غيرهم. فكيفما كان أوصيكم بالشباب، والاهتمام بهم وبمشاكلهم، هم ليسوا أقلّ من السيول المتدفّقة في المقدرة، إن أحسنت تلك المقدرة فكم من البركات يترتّب عليها، وإن تركت فكلّنا نعرف ما يترك من الدمار والخراب.

وختاماً نعود إلى دعوة التقريب، ونقول: إنّني لا أدّعي بأنّ التفرّق المذهبي أو الطائفي قضي عليه تماماً، أمامكم ما حدث في شهر فبراير الماضي من الشيعة وأهل السنّة بباكستان المسلمة، ومادام في عالمنا الإسلامي المتعصّب الناشئ عن الجهل، ومادام هناك من يستفيد وينتفع من جهل الجاهلين، لا يستبعد عن أن يقع أمثال ماوقع بباكستان، بل أعنف منه، مع مانطلب من العلماء وزعماء الفريقين في ذلك البلد أن يبتعدوا عن التعصّب الطائفي وينظروا إلى مصلحة الإسلام العليا لإرشاد أتباعهم.

ونطلب منكم ـ أيها السادة الزعماء والعلماء ـ أن تجعلوا دعوة التقريب ـ التي هي دعوة إصلاحية إسلامية ـ دعوتكم، ومن المفهوم أنّ هذه الدعوة ليست ملكاً لأحد، من يدعو له فهو من رجال التقريب، وأيّ محلّ أو مسجد يدعى فيه لفكرة نبذ التعصّب هو دار التقريب.

بارك الله لنا فيكم، ووفّقكم الله وأيّدكم، والسلام عليكم ورحمة الله.

وقد جاء في ذيل كلمته ما يلي:

ملحوظة

إذا كان هناك مناقشة أو ما يتطلّب بعض التوضيح فرجائي من الرجلين الكريمين الفاضلين فضيلة العالم الشيخ عبد العزيز عيسى من رجال التقريب البارزين، وسيادة الأخ المربّي الجليل الدكتور ابراهيم الطحاوي المدني ـ له دور مشكور وهام في هذه الدعوة ـ أن يقوما بالتوضيح، وكذلك بإمكان الصحف والمجلات إن أرادوا أن يكتبوا عن التقريب أن يرجعوا إليهم، جزاهما الله خير الجزاء.

الفصل السابع

رجال صدقوا

تتميّز حقبة من الزمن عن سواها بما يقع فيها من أحداث، وكلّما ازدادت أهمية تلك الأحداث، ازداد الاهتمام بزمن وقوعها.

ويتميّز رجال عن غيرهم بما يصدر عنهم من أفكار وأعمال، وكلما كانوا أبعد أثراً، كانوا أبقى ذكراً؛ حتّىٰ ليسجّلهم التاريخ في الخالدين.

وتتميّز فكرة عمّا عداها بما يترتّب عليها من آثار قد تصل بها إلى مرتبة المبادئ الضرورية التي تفرض وجودها ويكتب لها البقاء.

وقد أراد الله أن يكون ربع القرن الأخير من الزمان ظرفاً لحدث تاريخي في الإسلام يميّزه عن غيره من الأحقاب.

كما أراد سبحانه أن يجتمع في هذه الحقبة القصيرة نفر من المصلحين، قلما يجتمع نصف عددهم في قرن من الزمان، وأن يحملوا فكرة إصلاحية كانت أمل كثير من المصلحين منذ قرون، وأن يكونوا أقوياء لايخافون في الله لومة لائم.

وأراد الله لفكرة أصيلة مدروسة ممحَّصة أن تطلع على العالم الإسلامي في صورة دعوة إصلاحية دينية تعالج أعظم داء ابتلي به المسلمون، وهو التفرّق المذهبي، وأن تصبح هذه الدعوة نقطة انطلاق ومبدأ تحوّل فكري لعالمنا

الإسلامي، في وقتٍ يحتاج فيه إلى اجتماع كلمة أبنائه كي يتمكّنوا من نشر رسالتهم على هذا العالم المضطرب.

صحيح أنّ ربع القرن الذي انقضىٰ من عمر دعوة التقريب ـ وفيه سنوات التمهيد ـ ليس شيئاً يذكر في عمر الدعوات، فإنّ خمسة وعشرين عاماً في عمر الدعوات ليست إلّا كساعات أو أيام في عمر الإنسان، إلّا أنّ ما تمّ فيها من أعمال، وما أنجز فيها من أمور خلّدت هذه الحقبة من الزمن.

فما السرّ في ذلك؟

السرّ هو إيمان القائمين على هذه الدعوة، وملاءمتها للفطرة السليمة. والإيمان يصنع ما يشبه المعجزات، إنّه يمنح صاحبه من القوة ما يتخطّى به كلّ عقبة، ويتغلّب به على كلّ صعوبة.

ففي هذه الحقبة من الزمن اجتمع نفر من المصلحين من مختلف المذاهب، ومن شتّى البلاد، وتفاهموا رغم اختلاف مذاهبهم وديارهم، ولم يكن للتعصّبات المذهبية عليهم تأثير، ولا كان في أعماق تفكيرهم رواسب، واتّفقوا على العمل، وأفرغوا فيه جهدهم، فأخذت الدعوة لون المدرسة الفكرية العلمية التي تقوم بذاتها وبدراساتها، ولا ترتبط بذوات الأشخاص أو بمراكزهم، ولا تتأثّر ببقاء الأشخاص أو زوالهم، وبمعرفة الناس بهم أو جهلهم إياهم، حتّىٰ أنّ بعض من تفانى في خدمة هذه الفكرة ثم اختاره الله إلى جواره، لم يعرف الناس إلى الآن عنهم شيئاً.

لم يكن الحال يوم بدأت فكرة التقريب كما نحن عليه الآن، كان سلطان التعصّب قوياً يتحدّى أيّ إنسان يروّج لمثل هذه الفكرة، وكان عامة الناس لا يطيقون أن يسمعوا عن التقريب بين الشيعة والسنّة، إذ الشيعة في زعم بعض السنّيين هم الغلاة وأصحاب مصحفٍ خاص، والسنّة في زعم بعض الشيعة هم النواصب والمجسِّمة، وإذا كان الخاصة وهم أئمة الفكر والدين قد عرفوا الحقائق، فإنّ أحداً منهم لم يقدم على عمل إيجابي، خوفاً من الشائعات التي كانت تُلصق بكل فريق وتصدَّق عند

الفريق الآخر، وخوفاً من أنصاف العلماء أو أشباه المثقفين الذين لا يعرفون غير كتب مذهبهم، ولا يقرؤون سواها، ولهم تأثيرهم المباشر في عامة الناس.

فلم يكن بد إذاً من تهيئة الجوّ قبل الإقدام على أيّ عمل إيجابي، والتمهيد للفكرة قبل الخروج بها على الناس. وهكذا مرّت فكرة التقريب بمراحل ثلاث: مرحلة التمهيد، ومرحلة التكوين، ومرحلة التنفيذ.

وهناك رجال عاشوا في التقريب منذ المرحلة الأولى، وآخرون بدأوا مع المرحلة الثانية، والأحياء من هؤلاء وأولئك لايزالون يجاهدون في هذه الدعوة وأعمالهم تتحدّث عنهم، أمّا الذين سبقونا إلى رحمة ربّنا فإن علينا نحوهم واجباً يقتضينا أن نشير إلى بعض ما قاموا به ونقدّمه للتاريخ.

وما دام فقيدنا الأخير، فقيد الإسلام شلتوت، بجانب عضويته الدائمة في التقريب منذ سبعة عشر عاماً، قد تولّى مشيخة الأزهر في السنوات الخمس الأخيرة، فإنّنا سنذكر في هذه العجالة شيوخ الأزهر الشريف الذين خدموا فكرة التقريب، سواء من كان في جماعتنا وتولّى مشيخة الأزهر، أو من لم يكن رسمياً من أعضاء الجماعة.

إنّ الذين أسهموا من شيوخ الأزهر بطريق مباشر أو غير مباشر في دعوة التقريب أربعة، هم المغفور لهم: محمد مصطفى المراغي، ومصطفى عبد الرازق، وعبدالمجيد سليم، ومحمود شلتوت. والأولان لم يكونا رسمياً من أعضاء الجماعة، لكنّهما كانا يؤمنان بالفكرة إيماناً عميقاً، وقد وقف أحدهما بجانبها وهي في مرحلة التمهيد، ووقف الثاني بجانبها وهي في مرحلة التكوين.

أمّا الشيخ المراغي فكان على رأس الأزهر حين جئنا إلى مصر أول مرة سنة ١٩٣٨ داعين لفكرة التقريب، وكان ﷺ شيخاً وقوراً، قويّ الشخصية، متّزن الفكر، واسع الأفق، لمست فيه أول ما لقيته إيماناً بالفكرة، إلّا أنّه كان بحكم مركزه لا يستطيع أن يدعو إليها بنفسه، بل أنّه وهو إمام أهل السنّة لم يكن يستطيع أن يظهر

بمظهر المؤيّد لفكرةٍ كهذه أمام الجو الذي كان يسود الأزهر، وبالتالي يسود هذا البلد العزيز.

لكنّه ﷺ عرف كيف يخدم الفكرة، ففتح أمامنا المجال لإلقاء محاضرات في الأزهر وخارجه، وسهّل لنا الاتّصالات الشخصية برجال الأزهر للتفاهم، وكان يجمعنا بمن يعرف فيهم الميل إلى التقريب من العلماء الذين يعترف بعلمهم، وحسن استعدادهم لدراسة الفكرة، وكنّا على اتّفاق في أنّ المسألة دقيقة، وأنّ أيّة فكرة لايمهّد لها يقضىٰ عليها في مهدها، ثم استقرّ الرأي فيما بيننا على أن يقوم الأزهر بعمل شيء في مناسبة عيده الألفي الذي أزمع عقده بعد ثلاث سنوات من ذلك الحين، إلّا أنّ اتّساع الحرب العالمية الثانية حال دون عمل شيء وإن لم يقض على ما وصلنا إليه من تفاهم.

وانتقل الشيخ المراغي إلى رحمة ربّه بعد أن أسهم بصورة فعّالة في إيجاد التعارف الشخصي، والاتّفاق على النقط الأساسية، وتهيئة الجو عند بعض القادة من علماء الدين، وفي مقدّمتهم الشيخان: مصطفى عبد الرازق، وعبد المجيد سليم.

وإذا كانت الحرب قد أطاحت بكثير من المثل، وهدّمت بيوتاً وبلاداً ونفوساً وأرواحاً، إلّا أنّها لم تعصف بما ثبّته الله في قلوب علماء مؤمنين من تفاهم وتعاطف، فظلّت عامرة بهذه المعاني إلى أن عدنا لمصر سنة ١٩٤٦، وقد أكسبتنا مرحلة التمهيد تجارب خرجنا منها بأنّ الاتصالات الشخصية التمهيدية لابد أن تسبق كلّ دعوة، وأنّ أيّة فكرةٍ يراد لها البقاء يجب أن تخرج من النطاق الشخصي، وتوضع على أكتاف جماعة من المؤمنين العاملين بحيث إذا غاب فرد حلّ مكانه سواه.

وفي تلك الفترة بدأت مرحلة التكوين، وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخاً للأزهر، واستقرّ الرأي على أن يكون هو بجانب الدعوة في خارج الجماعة يساندها إذا توتّر الجو، وأن يكون للشيخ عبد المجيد سليم في الجماعة، وكان يرى أنّ عبد المجيد سليم هو شيخ العلماء وأفقههم بلا منازع.

وقد وقع ماكان يخشاه، فإنّ المتعصّبين ما إن سمعوا بتكوين الجماعة حتّىٰ هاجوا وماجوا، وشوّهوا الفكرة عند المسؤولين، وأدخلوا في روع السلطات كثيراً من الظنون والأوهام، وهنا يقف مصطفى عبد الرازق حين استفحل الأمر، يقف أمام المسؤولين مدافعاً عن سلامة الفكرة، وسلامة العاملين لها، وقيمهم وشخصياتهم، ومراكزهم في مصر وفي البلاد الأخرى، ولولا هذا الموقف الصريح من هذا الرجل المؤمن الصادق لقضي على الفكرة في بدء مرحلة التكوين.

كذلك كان له ﷺ فضل اختيار بعض الأعضاء من علماء الأزهر، وذكر بعض النقط في القانون الأساسي للجماعة. ووقف معنا يومئذٍ داخل الجماعة شيخنا الإمام عبد المجيد سليم بجهده وجهاده، وعلمه وإيمانه.

وبعد مدة وجيزة ذهب الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى ربه، وكأنّما كان عليه رسالة أدّاها ومضىٰ.

وظنّ بعض المتعصّبين المتربّصين أنّ وفاة الشيخ مصطفى عبد الرازق فرصة للهجوم، لكن أعضاء الجماعة، وفي مقدّمتهم عبد المجيد سليم، صمدوا للهجوم وصدّوه، ومن ذلك الحين لازم عبد المجيد سليم التقريب ورسالته، فلمّا اختير بعد سنوات شيخاً للأزهر، احتفظ بعضويته في الجماعة، وكثيراً ما كان يوقّع خطاباته بصفته «شيخ الأزهر» و«وكيل جماعة التقريب». وفي عهده فتحت صفحة جديدة في علاقات السنّة والشيعة، فهو الذي افتتح الكتابة إلى علماء الشيعة، وتلقّى ردودهم، وهو الذي بدأ تحويل الأزهر إلى جامعة إسلامية عامة بدل كونها قاصرة على المذاهب الأربعة الخاصة، ليحقّق الوارد في القانون الأساسي لجماعة التقريب بالنسبة للجامعات الإسلامية، وهو الذي أدخل ـ لأول مرة ـ في قانون الأحوال الشخصية المصرية بعض ما كان يرجّح في نظره من فقه الإمامية، وهو الذي اقترح على دار التقريب طبع تفسير مجمع البيان.

ثم ترك ﷺ مشيخة الأزهر ولم يترك جماعة التقريب ولا دارها حتّىٰ فارق

الحياة، فعمّ الحزن كلّ من عرف مكانة الرجل العلمية والدينية، وبقي التقريب برجاله يشقّ طريق دعوته، متوكّلاً على الله، ومحتسباً عنده فقد هذا الإمام الجليل.

وكان الأستاذ الأكبر محمود شلتوت، من أعضاء جماعة كبار العلماء. وأستاذاً بالجامعة الأزهرية يوم اشترك في تكوين هذه الجماعة، وظلّ مع زملائه في الفكرة يقوم بواجبه نحو التقريب، وهو الذي اقترح في أحد جلساتنا أن يعتبر السنّة والشيعة المشتركون في الجماعة مذاهب إسلامية لا طوائف أو فرقاً، ثم أُسندت إليه وكالة الأزهر، فلم تشغله عن الإسهام في التقريب، وهو الذي كتب المقدّمة العلمية المعروفة لتفسير مجمع البيان، كما كان يكتب تباعاً تفسيره في رسالة الإسلام ثم أُسندت إلى الفقيد مشيخة الأزهر، وإذا كانت فتواه المشهورة بشأن المذاهب الإسلامية، وجواز اتّباع مذهب الإمامية قد صدرت حين تولّيه مشيخة الأزهر، فإنّ هذا كان مجرّد ميقات زمني لصدورها، على سنّة التدرّج في التنفيذ، لا في الفكرة والمبدأ، ذلك بأنّ هذه الفتوى كانت منبثقة عن مبدأ علمي ثابت مدروس من أول الأمر، هو أساس من أُسس التقريب، فهي في المعنى ليست فتوى رجلٍ واحدٍ، وإنّما هي فتوى كلّ أولئك الرجال الذين حملوا أمانة التقريب، وفي مقدّمتهم الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم.

وذهب شلتوت إلى ربه، واهتزّ العالم الإسلامي لوفاته، ولأول مرة في التاريخ الإسلامي يظهر جليّاً اشتراك السنّة والشيعة في الأسىٰ على شيخ للأزهر، ذلك لأنّه كان يعمل لفكرة التقريب، وتوحيد كلمة المسلمين، ونحن نؤمن ببقاء الله وحتمية الموت، إلّا أنّ هذا لا يعفينا من الحزن الشديد لفقد زميل عزيز، وعالم جليل، ومجاهد من الطراز الأوّل.

ولقد لفت نظرنا معنىً تردّد في كثيرٍ من البرقيات والرسائل والمقالات التي كُتبت حول فقيدنا شلتوت، فإنّ كثيرين ظنّوا أنّ التقريب مؤسسة أزهرية، وأنّ من يتولّى أمر الأزهر يتصدّر التقريب، وكثرت أسئلة المنزعجين: ماذا بعد وفاة الشيخ؟ وماذا

يكون الأمر إذا لم يكن الخلف على سيرة السلف؟

ونحن مع شكرنا لهؤلاء المهتمّين نريد أن نقول: إنّ التقريب فكرة إصلاحية إسلامية مستقلّة، قائمة على البحث الصحيح والعلم، وإنّ الأزهر جامعة إسلامية رسمية، لها رسالتها العلمية، ويعتبر مناراً للدين، وهذه الجامعة العتيقة خدمت الإسلام كثيراً، وتخرّج فيها كثير من العلماء ودعاة الإسلام، فمن الطبيعي أن تلتقي أفكار التقريب والأزهر، مثل ذلك كمثل الأفكار الحسابية تصل دائماً إلى نتيجة واحدة، وكمثل الخطوط المستقيمة إذا وضعتها فوق بعض انطبقت تماماً، وهذا هو شأن الأفكار السليمة المنبثقة من مبادئ دينية، لاسيّما إذا كان الدين دين توحيد.

والدليل على ذلك أنّ دار التقريب أُنشئت في القاهرة بلد الأزهر الشريف، ومن أول من لبّىٰ هذه الدعوة عدد من أئمة العلم والدين من علماء الأزهر، فموقف الأزهر الرسمي لا يؤثّر في التقريب، بل أنّ بعض الرسميين لم يحسنوا إدراك رسالة التقريب في كثيرٍ من الأحيان، ولم يؤثّر هذا في سير التقريب، ولم يمنعنا من احترام الأزهر ورجاله. فإنّ موقف الأزهر الرسمي شيء، وموقف علمائه شيء آخر.

إنّ التقريب يسير اليوم في طريقه، وبين جماعته رجال مؤمنون سيقدّمون بإذن الله لأمتهم مثل ما قدّم أسلافهم الصالحون.

وإنّ جهاد ربع قرن قد بدّل الحال غير الحال، ولعلّ المتّصلين بالتقريب لا يحسّون بمدى التحوّل إلّا إذا نظرنا إلى الأيام الأولى، ونظرنا إلى ما نحن عليه الآن، وسنجد أنّ بعض من كانوا في مقدمة المهاجمين لفكرة التقريب يسرّهم اليوم أن يسلكوا في أصحاب هذه الفكرة، ونرى أنّ ما كان يعتبر من قبل وسيلة للهجوم، يعتبر اليوم دليل تقدّمية وإصلاح.

وإذاكانت دعوة التقريب قد نجحت، فليس معنى هذا أنّ أصحابها والمشتغلين بها قد استراحوا، وزالت من طريقهم العصبيات،كلّا، فما زالت النفوس المريضة، والكتب المشحونة بالدسّ والقطيعة كثيرة قوية التأثير، وأرباب التبشير والمتأثّرون بهم لا يزالون

يكتبون، وتجّار المذهبية لا يزالون منبثّين، والسياسات المفرّقة لنا بالمرصاد.

هذه هي بعض مشاكلنا رغم المغالاة في التفاؤل عند بعض المتفائلين، ومع ذلك نحن نرحّب بالمعارضة، فإنّ الدعوة لم نخسر منها شيئاً، بل كسبت من ورائها الكثير، وفي نفس الوقت نقول لمن تخالجهم بعض الشكوك: إنّ الخطوات التي تمّت لا رجوع فيها، ونحن إلى الأمام ـ إن شاء الله ـ سائرون، وأنّ الذين تحرّروا من سجن الضيق الفكري لن يعودوا إلى سجنهم أبداً بعد أن أصبحوا قادة التحرّر الفكري في محيط المسلمين.

الباب الثالث

ثقافة التقريب

آراء وتجارب

ويشتمل على ثمانية فصول:

* الأوّل: القافلة تسير
* الثاني: جولة بين الآراء
* الثالث: خلاف نرضَاهُ، وخلاف نأباهُ
* الرابع: في سبيل الوحدة: هدية من تجاربنا
* الخامس: رحم الله امْرأً عَرَف قدرَ نفسه
* السادس: أُمة واحدة وثقافة واحدة
* السابع: وحدة المسلمين حول الثقافة الإسلامية
* الثامن: فرصة سانحة

الفصل الأوّل

القافلة تسير

التطوّر سنّة من سنن الخليقة يقول به كلّ مفكّر، فالموحّدون في توحيدهم، والمتصوّفة في تعبيراتهم، وأرباب السلوك فيما يرون من التدرّج في المنازل، والطبيعيون في فلسفتهم الطبيعية؛ كلّ أولئك يقرّون التطوّر، وهل ما دار في مسألة قدم العالم وحدوثه، وما قام بين المعتزلة والأشاعرة من خلاف معروف، إلّا ألوان من التفكير القديم يرجع كثير منها إلى نظرية التطوّر؟!

على أنّ هؤلاء وأولئك رغم اختلافهم في آرائهم تبعاً لآفاقهم الفكرية، يجمعون على أن التطوّر سير إلى الكمال... فبعضهم يقول: إنّه السير إلى الخير، وبعضهم يقول: إنّه السير إلى الإنسان الكامل، وبعضهم يقول: إنّه السير إلى الله.

والديانات السماوية كلّها كانت أخذاً بيد الإنسانية نحو الكمال، وسموا بها من كامل إلى أكمل، وتلك سنّة الله في خلقه، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

والأمم كالأفراد لابد أن تخضع لسنّة التطوّر، وإذا كان الأصل في الإنسان أن يتطوّر نحو الكمال، فإنّ الأمم كذلك تتحرك بطبيعتها في مدارج الرقي، وتسعى بفطرتها نحو الكمال المنشود.

وإذا قيل: إنّ الفرد يتطوّر من طفولة إلى صبا فشباب ورجولة، ثم إلى شيخوخة

وهرم، أي ضعف ووهن؛ قلنا: إنّ تطوّر الأمم يكون في المعنويات لا في الماديات، لأنّ ما يربط الأفراد بعضهم إلى بعض بحيث يكوّنون أمةً، إنّما هي روابط معنوية. فما يقال إذاً من أنّ للأمم شباب وشيخوخة غير صحيح، لأنّ المعنويات لا تضعف في الإنسان إذا تنفّس به العمر، بل أنّها تبلغ أقصى درجات الرقي في الفرد حين يشيخ، إلّا أنّ العوائق قد تعترض الأمم فتحوّلها عن السير في طريق الكمال، وتنحرف بها إلى السير نحو الانحلال، وهذه حركة قسرية تكره فيها الأمم على غير طبيعتها.

والأمة الإسلامية سارت في طريق التطوّر سيراً طبيعياً، فامتصّت الثقافات القديمة التي أوشكت أن تزول، وحملت علم الحضارة، وقدّمت للعالم زاد العلم والمعرفة، وغزت بمبادئها الامبراطوريات القديمة، ورفعت علم التوحيد في البلاد الوثنية والثنائية، وأوجدت للإسلام عصراً ذهبياً كانت السماحة أكبر عون على ازدهاره، ولا ندري إلى أيّ درجة من الرقي كانت تصل بالبشرية لو تركت في طريقها تسير.

لكنّها ابتليت بأدواء وعوائق لم تعطّلها عن السير فحسب، بل حوّلتها عن مجرى التطوّر، ودفعت بها إلى طريق الضعف والتفكّك. وحين فقدت كثيراً من مقوّماتها الشخصية، لم تقو على صدّ أهواء حكّامها، فحطّموا وحدتها، وفرّقوا كلمتها، ثم جاء الاستعمار فزادها فرقةً، وعجّل بها إلى الانحلال، فأصبحت هزيلة ضعيفة يجتاحها التعصّب الأعمى بعد أن كان يسيطر عليها التفكير الحرّ السليم، وأصبحت بمرور الزمن تقدّس الآراء وتعتبرها من المعتقدات، وويل لأمة تتحوّل فيها الآراء إلى معتقدات.

وهكذا توقّفت الأمة عن السير في طريق الكمال، وغشيها سبات عميق، وتركت معاول الهدم تعمل عملها في بنائها الشامخ، رغم أنّ دينها هو بطبيعته دين الكمال، جاء ليأخذ بيد الإنسانية نحو الوحدة والقوة والخير للبشر أجمعين.

وعوامل الهدم في الأمم كمثل المخدّر لا يمكن أن يدوم مفعوله، ولابد من

تجديده، والطريقة التي اتّبعت في تجديد تخدير أمتنا الإسلامية هي تقوية الخرافات والاهتمام بالقشور لصرف الناس عن الدين الصحيح. قلنا: إنّ المخدر لا يمكن أن يدوم أثره، ولابد من فترة تنبّه تعقب كلّ تخدير، ومن هنا بدأت الشعوب تحسّ أنّ بها أمراضاً، وتدرك أنّها تخلّفت عن الركب، وتلمس أنّ في العالم أقوياء وضعفاء، وأنّ الضعيف لا وزن له، وأنّ القوي يتحكّم في مصير الضعيف ويرسم له خطّته، وأنّ التقاطع بين الشعوب الإسلامية حرّمها الانتفاع بما في أخوّة أربعمائة مليون من قوة.

والتنبّه للمرض أول خطوة نحو العلاج. ومن هنا بدأ المفكّرون يحاولون إيقاظ الأمة من سباتها، ويكافحون للرجوع بها إلى التطوّر الطبيعي، وكثرت المحاولات، وظهر الوعي، ثم جاءت فكرة التقريب، وهي تتّفق مع طبيعة التطوّر والعقل السليم، وأُسس دين الأخوّة والتوحيد.

التقريب بين أرباب المذاهب الإسلامية الذين باعدت بينهم آراء لاتمسّ العقائد التي يجب الإيمان بها، وحمل لواءها علماء من مذاهب أهل السنّة الأربعة، ومذهبي الإمامية والزيدية من الشيعة، وبدأت تعالج التفرّق بين أخوة في الدين، كتابهم واحد، وقبلتهم واحدة، وصلواتهم واحدة، وحجّهم واحد، يؤمنون بمحمد ﷺ رسولاً، وبأنّه أشرف المرسلين وخاتم النبيين، وبأنّ ما جاء به لابد أن يؤخذ به، وبأنّ سننه من المصادر الحتمية للأحكام.

وسارت فكرة التقريب هادئة مطمئنّة، يؤيّدها الفاهمون في كلّ شعب، وحملة الأقلام الذين يعتقدون أنّ لأقلامهم رسالة، ويترفّعون عن الدجل فيما يكتبون.

وكان طبيعياً ـ وقد تركت الفكرة أثرها في النفوس ـ أن يقف فريق من الناس يسألون أنفسهم: ماذا كسبنا من الماضي بما فيه من تخاصم وتطاحن، وماذا جرت علينا النعرات الطائفية، وأن يرغب المثقفون عمّا يقال لهم عن الطوائف، ويميلوا إلى الاطّلاع بأنفسهم على ما عند كلّ طائفة.

أمّا فريق المتزمّتين فشأنهم ألّا يعجبوا بمثل هذه الفكرة، لأنّهم لايودّون الرجوع إلى النهج السوي، ويفضّلون البقاء على ما هم فيه. وهؤلاء هم دعائم التفرّق في كلّ عصر، لأنّهم يصوّرون كلّ مذهب بالصورة التي يرونها لا بصورته الحقيقية، وما الشقاق بين المذاهب الإسلامية بنتيجة اختلاف على عقائد وآراء فيها، بل من نتيجة مفتريات تقال عن أربابها.

ألم ينسب المتزمّتون إلى خمس المسلمين عقائد هم براء منها؟ ألم يقولوا: إنّ الشيعة تعتقد بالحلول؟ ألم يقولوا: إنّ الشيعة تعتقد بأنّ الرسالة كانت لعلي وأنّ محمداً أخذها؟ ألم يقولوا: أنّ للشيعة قرآناً غير هذا القرآن؟

ومثل هذه المفتريات كانت تقال عن الشيعة بينما أسانيد الشيعة في متناول اليد، وكان بالإمكان الاطّلاع على أيّ كتاب شيعي، أو السفر إلى أيّ بلد شيعي للتأكّد من أنّ هذا كذب وبهتان.

وها قد جاء دور الإصلاح، ووقف رجال باسم التقريب يتحدّون أيّ إنسان أن يأتي بسند واحد يثبت أنّ مذهباً واحداً من المذاهب الإسلامية المعروفة يقرّ أمثال تلك الخزعبلات.

نحن لانتكلّم عن القرامطة والباطنية، ولا عن غيرهم من الفرق البائدة التي يقال أنّهم كانوا كذا وكيت، ولا نقف منهم موقف الدفاع، وإنّما نتكلّم عن الشيعة الذين يبلغون خمس المسلمين عدداً، ويسكنون بالعراق وسوريا وإيران والهند واليمن وغيرها من البلاد، ولهم فقهاؤهم وآراؤهم واجتهادهم، ولهم مراكزهم الدينية وجامعاتهم العلمية، وكتبهم تملأ المكتبات.

لقد جاء التقريب على أساس فكرة التعارف العلمي، وأوجد مركزاً لمن يريد أن يعرف كثيراً أو قليلاً عن المذاهب الإسلامية المعروفة، ولكن المتزمّتين يحكمون على أيّ مذهب دون أن يتعبوا أنفسهم بالاطّلاع على كتبه، ويجحدون كلّ ترابط ثقافي، ويلعنون كلّ اتّصال يؤدّي إلى التعارف، ويحرصون على البقاء في أبراجهم العاجية

وسط أوهامهم وظنونهم، ويتناسون أنّهم في عصر أبرز مظاهره سرعة المواصلات واتّصال أجزاء العالم بعضها ببعض، ويتجاهلون أنّ البشرية لم تعد تكتفي بالتعرّف على ما في كرتنا الأرضية، بل إنّها تتطلّع إلى اكتشاف مافي الأقمار والنجوم.

فهل يصحّ في مثل هذا العصر أن يقف جامد في وجه التطوّر، ويأخذ علمه عن الطوائف من قصص أشبه ما تكون بالأوهام والخرافات؟

إنّ المتزمّتين ـ ومن حسن الحظ أنّهم قلّة في كلّ شعب ـ من دأبهم أن ينفروا ممّا لم يألفوا، وأن يقفوا في وجه مالم يعرفوا، وأن يحتفظوا بقديمهم لأنّه تغلغل في نفوسهم، فهم لا يرضون به بديلاً، ولا يطيقون له تحويلاً. كما أنّ من دأبهم أن يتلمّسوا الأوهام في المعارضة إذا لم تسعفهم الحقائق.

أليسوا يصرّون إصراراً عجيباً على أنّ التقريب محاولة لإدماج مذهب في مذهب، أو تغليب مذهب على مذهب، على الرغم من أنّ كلّ صوت من أصوات التقريب، وكلّ نشاط يصدر عن التقريب ينادي بغير ذلك؟

إنّ التقريب لأسمىٰ من هذا وأجلّ شأناً، إنّه ـ على العكس ممّا يتخيّلون أو يريدون أن يخيّلوا للناس ـ ينادي بوجوب أن تبقى المذاهب، وأن يحتفظ المسلمون بها، فهي ثروة علمية وفكرية وفقهية، لا مصلحة في إهمالها ولا في إدماجها، لكن شتّان بين هذا وبين إيجاد جوّ من الهدوء والثقة والصفاء بين المسلمين، يرتفعون به عن الضغائن والجدل العقيم، ويتفرّغون بسببه إلى ما هو أولى بهم من مشاركة الركب العالمي، بل من قيادة هذا الركب وتوجيهه لو استطاعوا.

ذلك ما يريده التقريب، وأنّ القافلة تسير، تسير مع ركب الحضارة والعلم الصحيح، تسير مع التطوّر إلى الحقّ ونحو الحقّ، إنّها في الواقع تسير إلى الله، وإنّ الله معنا ﴿قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللّٰهِ عَلىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّٰهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

---

١. يوسف: ١٠٨.

الفصل الثاني

جولة بين الآراء

تختلف الآراء في أمر رسالة التقريب، فمن قائل: إنّها أمر ليس يصعب تحقيقه فقط، بل يكاد يكون مستحيلاً، أليست الخلافات قد استحكمت منذ قرون؟ أليست كتب كلّ طائفة مشحونة بالطعن في غيرها؟ أليست الخلافات موجودة في الأحكام الفقهية وأدلّتها، وإلى جانبها خلافات في الأصول الكلامية مشهور أمرها؟ أمن المعقول أن يتشيّع السنّي أو يتسنّن الشيعي؟

ومن قائل: إنّ التقريب حقيقة واقعة، فالأفكار تهذّبت، والعقول تبصّرت، والأجناس المختلفة تتجمّع، والأديان تتكتّل، وروح التسامح تسود المسلمين وغير المسلمين، فكيف بأبناء دين واحد! هل نرى اليوم حرباً بين السنّة والشيعة؟ هل نسمع عن معارك بينهم؟ هل يخاصم الشيعي، أو يجافي السنّي الشيعي؟ هل يختلف هؤلاء وأولئك في هذا العصر ـ عصر الذرّة ـ في أمور لا ترتبط بالحياة في شيء، أو في مسائل انقضى زمانها؟ هل هناك مشكلة لنعالجها؟

هذا ما يقول به الفريقان المتناقضان، فريق يحسب أنّ الجهود التي تبذل للتقريب سعي وراء المحال، وآخر يراها تحصيل حاصل.

والفريق الأوّل يتكوّن في الغالب ممّن لايعرف مهمة التقريب على حقيقتها، ولم يدرس برامجها، بل غاب عنه مدلول الإسلام، فحسب التقريب توحيداً، أو من

ضاق تفكيره وانحصرت ثروته الفكرية والدينية في محيط مذهب خاصّ، لاينظر في غيره، أو تأثّر بعالمٍ أو كاتبٍ لا يستمع أو يقرأ لسواه، وما دام لا يرى الحقّ إلّا ما هو عليه، فهو يعرض عن كلّ المذاهب، بل يهاجمها إن اختلفت مع ما حصّله أدنى اختلاف.

وليس بغريب على أمثال هؤلاء أن يؤمنوا باستحالة التقريب، حتّىٰ لو علموا أنّ التقريب لا يطلب إليهم أن يعتنقوا مذهب غيرهم، أو يتنازلوا عمّا ثبت عندهم، لأنّ المحذور لا ينحصر في ذلك فقط، بل المحذور عندهم التقرّب إلى غيرهم، والنظر فيما عندهم، والاطّلاع على كتبهم وأقوالهم، وهل رسالة التقريب إلّا الدعوة إلى هذا ليحصل التعارف بين الطوائف، وتقف كلّ طائفة على ما عند الأُخرى؟ وما فائدة تعارف ـ هم في غنىً عنه ـ مع من هم عن الطريق مبعدون، وعن الحقّ معرضون؟

وأمّا الفريق الثاني، فهم الذين لايختلطون بالحياة الدينية، ولا يعرفون حقيقة أحوال البلاد الإسلامية، ويظنّون أنّ الفكرة التي تسيطر عليهم هي نفسها التي تسيطر على غيرهم، ولا يسمعون من هذا وذاك، ويحسبون أنّه لم يبق ثمّة خلاف، أو يغفلون دور الدين في الحياة، وبالتالي خلافاتنا المذهبية، ورجال السياسة والاقتصاد ـ مع الأسف ـ أكثرهم من هذا الفريق.

وفي الناس فريق ثالث يتمسّك بمذهبه ويتشبّث به، ولكنّه يحترم المذاهب التي تتّفق في الأصول معه، بل ينظر فيها بروح الإنصاف، ويتعمّق في تفهّمها، ويقتبس منها ما يصحّ، ولا مانع من أن يردّ على بعض ما يرد فيها في أدبٍ واتّزان، رغبةً في إظهار ما هو أفضل، لا حرصاً على تسفيه آراء الغير.

ومن هذا الفريق تكوّنت جماعة التقريب في القاهرة وأنصار فكرتها في العالم الإسلامي، وعلى هذه الأُسس تقوم، وبهذه الروح تسير في الناس، وكلّما فُهمت الفكرة ازداد الالتفاف حولها، والدعوة إليها، حتّىٰ أنّنا لنعتقد أنّه سيأتي يوم تشمل كافة المسلمين.

* * *

لسنا نرى ما يراه الفريق الأوّل، ولسنا ننكر الخلاف، ولسنا نرى للخلافات آثاراً تستحيل معها مهمة التقريب.

لاننكر أنّ الخلاف وقع بعد رسول الله ﷺ، ولو زعمنا أنّ الأوائل لم يكن بينهم أيّ خلاف لجانبنا الحقّ، ومن له أقلّ إلمام بالتاريخ لا يمكنه أن يزعم ذلك. بيد أنّهم حصروا الخلاف في دائرته المعقولة، ولم يجعلوا له أثراً يضرّ بالوحدة الإسلامية، ولا أعطوا به فرصةً لأعداء الإسلام. كان خلافاً في الرأي لا تشاجراً، والخلاف في الرأي من طبيعة الإنسان، وتحتّمه البيئات وتطوّر الزمن، وليس لأيّة قوة أن تمنعه، ولا ضرر منه بوصفه خلافاً، إنّما الضرر في أن يتطوّر إلى تشاتم وتخاصم.

ولنأخذ دليل ذلك من التاريخ، تاريخ الإسلام نفسه، في قصة حدوث الخلاف بين السنّة والشيعة بالذات. إنّ اختلاف الرأي لم يخلق بين المسلمين معركة الخصام، حتّىٰ إذا استباح بعضهم الإسفاف والمسبّة ظهرت المقاومة العنيفة، واضطرب الأمر، ولم يستقرّ بعد ذلك بل انتهى إلى خصومة مريرة، فقامت الحروب، واشتدّت المعارك بين أبناء دين واحد، وسلّت على المسلمين الآمنين سيوف كان أولىٰ بها أن تسلّ على الأعداء.

ليست جماعة التقريب تريد القضاء على كلّ خلاف، ولا تفكّر في ذلك ولا تبتغي أن يتشيّع السنّي، أو يتسنّن الشيعي، حتّىٰ توصف رسالتها بأنّها مستحيلة، إنّها مع النظر إلى الخلافات تسعىٰ للتقريب، وتنادي بلزوم التعارف.

نعم، إنّ الجماعة ترىٰ أنّ كثيراً من الخلافات تحلّ في ظلّ التعارف، إمّا لأنّها نشأت عن اعتقاد إحدىٰ الطائفتين خطأً أنّ الأخرى تعتقد أموراً يتّضح بعد التعارف خطأ نسبتها إليها، أو لأنّها جاءت نتيجة دليل معقول أو أصل مقبول، فتقبلها الأولى، أو لأنّها تستند إلى أساس وأدلّة إن لم تكن مقبولة عند الأولى، فقد ثبت عندها اعتبارها، وعندئذ تلتمس عذراً لمن يعمل بها.

فإذا أضفنا إلى هذا أنّ الطوائف المشتركة في الجماعة متّفقة على الأصول التي

يجب على المسلم أن يدين بها ليكون مسلماً، ظهرت سخافة الاعتقاد باستحالة التقريب بين تلك الطوائف.

وأمّا الفريق الثاني فلو أنعم النظر لأدرك أنّ الخلاف واقع فعلاً، وأنّه لا يقوم بين الشيعة والسنّة فحسب، بل لا يزال رجال من أهل السنّة أنفسهم يفضّلون مذهبهم، وينتقصون غيره من مذاهب أهل السنّة المعروفة، ويسجّلون ذلك في كتبهم، بل أنّ أندونيسيا ـ البلد الإسلامي العظيم الذي يسود فيه المذهب الشافعي وحده ـ يقوم فيها الخلاف بين الشافعية أنفسهم، فبعضهم يتّبع أفكار القدماء، وبعضهم يأخذ بالجديد من الآراء، وكلٌّ يعتمد في آرائه على المذهب ذاته، وقد أخذ الخلاف بينهما يستفحل وتتّسع شقّته، بل إنّا لنعرف بلاداً ليس للدين فيها وزن، ولكن التعصّب المذهبي يتحكّم في أهلها، ومع أنّهم لم يهاجموا من صادر حرّيتهم الدينية، وعبث بمعتقداتهم، فهم يثورون على إخوانهم لخلافات طائفية. ولا يتركون مناسبةً تمرّ دون أن يطعنوا فيهم.

لنا أن نعترف مع الأسف بأنّ القطيعة موجودة بين أبناء الدين الواحد أكثر ممّا هي بينهم وبين من ليسوا على دينهم، ومع هذا فنحن نتّفق مع الفريق القائل: إن تهذّب الأفكار، وتبصّر العقول لهما أحسن الأثر في تسهيل مهمة التقريب.

بقي لنا أن نتكلّم عن فريق ثالث يتّخذ سبيلاً وسطاً، ويرىٰ ما تراه جماعة التقريب، وإنّي لواثق أنّ التقريب ـ كما وضعوا منهاجه ـ سيحصل إن شاء الله، أقول هذا لا استناداً إلى كثرة عدد هذا الفريق، وهو الغالبية العظمى، ولا اعتماداً على منهاج الجماعة المستقيم، وقوة إيمانها وصبرها ـ وكلّ هذا له أهميته ـ بل أقوله ذلك لأنّ الفكرة قائمة على إيجاد التعارف، والدعوة إلى التثبّت قبل الحكم، وهذا منطق جبّار يشقّ طريقه، ويسحق كلّ من يقف في سبيله؛ وهذا التعارف سيكون أساسه التحكّم في العواطف، وعدم إثارة الشعور بالطعن والتجريح، فإنّ هذا سبّب في الماضي اتّساع شقّة الخلاف والتنافر والتباغض التي انتهت بالمسلمين إلى التقاطع

والتدابر، وبمراعاة ذلك تتمكّن كلّ طائفة أن تسمع الآخرين صوتها. ولو قصدت طائفة إثبات مذهبها أو الرّد على غيرها، فإنّ التزام الحسنى أشدّ تأثيراً. والنقد النزيه أقوى نفوداً.

ولعلّ الوعي الذي وجد عند أصحاب الفكر في كلّ طائفة، يجعل كلّ كاتب يسلك في تآليفه مستقبلاً، طريقةً لا تحصر تداول مؤلّفاته في محيط طائفته، وتصرف عنها بقية الطوائف لما تشتمل عليه من طعون وافتراءات.

إنّ مشكلة الحكم والحكّام التي كانت علّة العلل في إثارة العواطف والصراع الطائفي، ليست ـ ولله الحمد ـ مشكلة اليوم، لو استثنينا بقعة من البقاع الإسلامية لايزال حكّامها يهتمّون بدعايات من شأنها بثّ روح الفرقة، نسأل الله أن يكلّل بالنجاح جهودنا معهم.

وإنّ حبّ الاستطلاع وتثقيف الشعوب يخدمان جماعة التقريب في مهمّتها، وإنّ تردّد كثير من الكتّاب والأساتذة على مكتبة دار التقريب للاطّلاع على ما فيها من كتب الطوائف المختلفة، وتلهّف المسلمين لتلقّي فكرة التقريب واهتمامهم بنشراتها... كلّ ذلك يبشّر بالخير، ويدلّ على الاتّجاه القوي نحو التقريب.

وإنّ الجماعة في تحقيق رسالتها لا تقرّب بين الشيعة والسنّة فحسب، بل تقدّم خدمةً علميةً جليلةً، إذ تكشف عن ثقافة إسلامية مستمدّة من أفكار موزّعة وكتب محجوبة، وشخصيات محتكرة على طوائف معيّنة، فتظهر للعالم الإسلامي، بل للإنسانية كلّها أعظم ثقافة فكرية ناضجة تأملها البشرية، والله المستعان.

الفصل الثالث

خلاف نرضَاهُ، وخلاف نأباهُ

هناك فرق بين خلاف وخلاف.

هناك خلاف تمليه طبيعة التفكير وتقتضيه سنن الاجتماع، ونحن نقبله ونرضاه، وهناك خلاف يصطنع اصطناعاً، ونحن نرفضه ونأباه.

إنّنا نقبل الخلاف الفكري ما دام في دائرة معقولة، ونرحّب بالخلاف المذهبي لأنّه وليد آراء اجتهادية مرجعها الكتاب والسنّة، أو ما أعطاه الكتاب أو السنّة قوة الحجّية. ونرحّب بما عند الشيعة وأهل السنّة، لأنّهما تؤمنان بما يجب على المسلم أن يؤمن به وإن اختلفتا في مسائل فقهية، وتميّزتا في مسألة الولاية والخلافة. ونرحّب كذلك بالمعارف الكلامية، لأنّها ميدان من ميادين التفكير للمسلم أن يجول فيه.

نحن نرحّب بهذه الخلافات كلّها، بل نعتزّ كمسلمين بالكثير منها، لأنّها إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على الحرية الفكرية. ولأنّها إن أحسن النظر إليها، تسعد الأمة، وتكفل رقيّها، وتبقي على سلامتها.

إنّ هذه الخلافات في جوهرها تنبئ عن معنى الوفاق، فهي ترتبط بأصل واحد هو الكتاب والسنّة.

وليس معنى هذا أنّ في الكتاب خلافاً. فالمسلمون بحمد الله متّفقون في كتابهم،

مجمعون على ما بين الدفّتين، وهذا فخر ليس فوقه فخر، تنفرد به هذه الأمة دون غيرها من سائر الشعوب.

وكذلك ليس معناه أنّ في السنّة خلافاً، بمعنى أنّ البعض يقبل ما صدر عن الرسول ﷺ والبعض لا يقبله، معاذ الله. فالمسلمون يتّفقون في وجوب الأخذ بسنّة رسول الله ﷺ، ولكنّهم قد يختلفون في الفهم أو التفسير، أو في أنّ هذا صدر عن الرسول الأعظم أو لم يصدر. أمّا من لا يأخذ بما أمر به الرسول فليس بمسلم.

فالآراء الاجتهادية إذاً، يجمعها الكتاب والسنّة، وليس بعد هذا من وفاق.

على أنّ الاجتهاد نفسه مقيّد بشروط، منها: أنّه لا يقوم إلّا على الكتاب والسنّة والأصول المستوحاة منهما أو من أحدهما، وأنّه لا يباح إلّا لمن استوفى شروط العدالة، وأنّه لا يكون إلّا فيما يجوز الاجتهاد فيه. فإذا حاولنا أن نحمّله وزر بعض الأخطاء التاريخية، أخطانا فهم معناه. وإذا أجزناه في غير محلّه، جانبنا الصواب، فحيث يكون ظالم ومظلوم مثلاً، لايجوز أن يبرّر الظلم بإعطائه اسم الاجتهاد، وإلّا كان للظالم أجر على ظلمه، كما للمجتهد أجر على اجتهاده، وفي هذا مغالطة وانحراف.

وليس يجوز الجدال في قيمة الاجتهاد مهما يكن من تعدّد الآراء بين المجتهدين، فهذا ممّا يشرّف التشريع الإسلامي، ويجعله صالحاً لعلاج ما يجدّ وما يحدث في كلّ زمان ومكان.

أمّا كيف تنشأ الخلافات بين مذهب ومذهب، سنّي وسنّي أو سنّي وشيعي، فإن ذلك يرجع تارة إلى تفسير آية أو فهم معنى منها، أو فهم رواية على معنىً يفهم الغير منها معنىً سواه، أو أنّ هناك ماثبت صدوره عن الرسول الكريم عند فريق ولم يثبت عند فريق آخر. ولا يختلف الجميع على أنّ ما جاء به الكتاب وما جاء به النبي فأصل لا رادّ له.

وأمّا الخلافات حول أوائل المقولات، أو المعارف الكلامية، أو ما يسمّى بعلم

الكلام، فإنّها حول معارف إسلامية تبلور كثيراً من الحقائق وتصقل العقول والأفهام، وتحدث باحتكاكها وميضاً يكشف سبل البحث وطرائق الاستدلال.

تلك هي خلافات المسلمين، وهي في باطنها تشير إلى الوحدة لا إلى الفرقة، وتنبئ عن الاجتماع لا عن التشتّت. وما دام الحقّ هو المبتغىٰ فالوصول إليه ليس بعسير إذا نظر كلّ فريق نظرةً هادئةً إلى ما عند سواه، فإن اقتنع بوجهة نظره فبها ونعمت، وإلّا عذره فيما ثبت عنده واحترم رأيه فيه.

ومثل هذا المسلك الطبيعي يحقّق للأمة الخير، ويقابل بكل تقدير، وأكبر دليل على ذلك: ما قوبل به كتاب فقه الإمامية الذي طبع في مصر أخيراً. فقد قوبل بترحيب حارّ، رغم أنّه كتاب مذهب لم يكن معروفاً عند الكثيرين، ورغم أنّ فيه خلافات في بعض مسائل فقهية اقتضتها طبيعة الفقه وطبيعة الاستنباط، والترحيب بهذا الكتاب يدلّ على أنّ المسلمين بطبيعتهم يحسنون التقدير.

أمّا الخلاف الذي لا نرحّب به ولا نقبله، بل نرفضه ونقاومه، فهو الخلاف الذي تمليه الكراهية والبغضاء، وتغذّيه الشبه والأوهام، ويوجد البلبلة في صفوف الأمة، ويؤدّي إلى تفريق كلمة المسلمين.

ذلك خلاف لا يتّفق والخلق الإسلامي، ولا يستند إلى المعارف الإسلامية، حمل لواءه مؤلّفون كتبوا قبل التثبّت تارةً، وبداعي الغرض والهوى تارات، فسوّدوا صحيفة الشيعة في نظر أهل السنّة، وسوّدوا صحيفة أهل السنّة في نظر المتشيّعين، بعضهم خلط بين أهل السنّة والنواصب، وأكثرهم خلطوا بين الشيعة والغلاة، وبينها وبين الفرق البائدة، وألصقوا بها آراء لا تمت إليها بصلة، بل الشيعة منها براء.

وكم من كتب وضعت لتأجيج الخصومة بين طوائف المسلمين، وكم من أقلام أسفت في التجريح خدمةً لحكّام طغاة أقاموا عروشهم على أساس الخصومة بين المسلمين. وكان لهذه التآليف أسوأ الأثر في تصدّع وحدة الأمة، فقد غرست البغضاء في القلوب، والظنّة في العقول، وأبعدت طائفةً كبيرةً عن أخوانهم في الدين.

ثم جاء التقريب، فلم يدع إلى توحيد المذاهب، ولم يقصد إلى إلغاء الخلاف، وإنّما نبّه الوعي، وأوضح بأدقّ بيان وأوفاه أنّ الهجوم والتشنيع وجرح العواطف لا تخدم أيّ مذهب، وأنّ الإسفاف في السبّ والشتم لا يفيد أيّ طائفة، بل على العكس يجلب الضرّ لكل فريق.

وتأثّر بدعوتنا كثير من حملة الاقلام، فجنحوا إلى سلوك سبيل المنطق والبرهان، وأسرع هذا الأثر أكثر ممّا كنا ننتظر، إلّا أنّ بعض الأقلام لا تزال تسفّ، ولكنّها ـ والحمد لله ـ ليست بذات وزن، وعمّا قليل ينتهي أمرها إلى زوال.

وإذا كان المتزمّتون هنا، والجامدون هناك حاولوا عرقلتنا، وبذلوا جهدهم ليعوقوا سيرنا، فقد نجحنا في إسكات أكثرهم، وكان أسلامهم أكبر عون لنا عليهم؛ لأنّ العواطف الدينية تصدّ المسلم عن خدمة أغراض أعداء الإسلام.

وليت الأمر يقف عند المتزمّتين والجامدين من المسلمين، بل أنّ هناك من أقحموا أنفسهم في الدراسات الإسلامية وهم ليسوا بمسلمين، أولئك هم المستشرقون. لقد ألّف بعضهم في التاريخ الإسلامي وعلم الكلام! وكتب بعضهم في الطائفية في الإسلام! وأضفوا على بحوثهم ـ تحت اسم الاستشراق ـ مظهراً علمياً يجعل المسلم يكاد لا يشكّ فيما يكتبون.

ونحن وإن كنّا نعترف بأنّهم خدموا بعض العلوم الشرقية، إلّا أنّنا نتّهمهم في ناحية البحوث الإسلامية، فليس فيهم من لم يبثّ السموم في بحوثه، وليس فيهم من لم يكن وراء ما يكتب أغراض تسيء إلى المسلمين تارةً، وإلى سمعة الإسلام تارةً، وتؤجّج الخصومة بين أبناء هذا الدين.

إنّهم يحمّلون الإسلام وزر كل التصرّفات السيئة التي ارتكبها الظالمون، ويخلقون أبطالاً خياليين كعبد الله بن سبأ وأمثاله، ويصوّرونهم على أنّهم أصحاب كل حول وطول في تاريخ الإسلام. ويناصرون بكل قوتهم أيّ عمل يفرق كلمة المسلمين. وأكبر دليل على ذلك موقفهم من النحل الجديدة التي ظهرت منذ قرن،

والتي تدّعي الإسلام، كالبابية والبهائية وأضرابهما، فهم يطبّلون لها ويزمّرون، وهم يعتبرونها من الفرق الإسلامية رغم أنّ المسلمين أنفسهم لايعترفون بإسلامها قط، بل يبلغ الأمر ببعضهم أن يخصّص جزءاً من بحوثه في أدب البابيين، ثم هم بعد ذلك ينسبون لأنفسهم الأفكار الإصلاحية في الإسلام!

إنّ الأمر قد يكون مفهوماً بالنسبة للمتزمّتين أو المتعصّبين من المسلمين، أمّا بالنسبة لهؤلاء ـ وهم غير مسلمين ـ فليس مفهوماً على الإطلاق ما دخل هؤلاء بالطائفية، وهم ليسوا بشيعة ولا بسنّة، وما اهتمامهم بالفرق الإسلامية وهم ليسوا بمسلمين؟!

إنّهم دخلوا المعركة بكل قوتهم، وكأنهم قوّام على أبناء هذا الدين، دخلوا بدعاياتهم الجبّارة للدسّ وبثّ السموم باسم البحوث، وحرصوا جد الحرص على إظهار المسلمين دائماً بمظهر المتفرّقين المتطاحنين. يتصيّدون الحوادث من هنا وهناك ليبرزوا النقط الخلافية ويرجعوها إلى منابع قديمة تسبق الإسلام، غير مبالين بمعنى التوحيد عند المسلمين، ولا بإيمان أهل القبلة بالقرآن الكريم، وبالملائكة والنبيّين، وبالبعث والحساب، ولا آبهين لوحدة الصلاة والزكاة والصوم والحجّ وغير ذلك من أصول الإسلام الحنيف.

وإذا دُعوا لإلقاء محاضرات في الجامعات، جعلوا همّهم توكيد معنى الفرقة بين المسلمين، وإذا ألقوا بحوثاً في مؤتمر علمي انصبّت بحوثهم على إظهار الطائفتين الكبيرتين في الإسلام بمظهر أصحاب دينين مختلفين، لا دين واحد!

وإذا عثروا على كتاب قديم في التجريح والسباب، لا يهدأ بالهم إلّا أن يعيدوا طبعه، وإذا وجدوا نسخةً خطّيةً فيها التشنيع والتشهير حرصوا على طبعها ونشرها في العالمين.

ويااليتهم يكتفون بهذا، بل أنّهم بدأوا يؤلّفون كتباً، يسرف فيها بعضهم في التشيّع إلى حدّ الغلو. ويسرف فيها البعض الآخر في التسنّن إلى أقصى الحدود حتّىٰ لكأنّه من الخوارج! ذلك لكي يكسب كلٌّ منهما عطف فريق من المسلمين، فتتاح لهما فرصة الدسّ والإيقاع، وتسميم الأفكار في أوسع الحدود.

وأخطر من ذلك كله أنّ نفراً من المؤلّفين المسلمين يعتمدون في بحوثهم على أقوال المستشرقين كأصول مسلّمة، نظراً لحسن ظنّهم بهؤلاء، وفي هذا من السذاجة والبساطة ما يضحك نفس المستشرقين.

إنّ دعاة الاستشراق الذين يتظاهرون بالتعصّب للشيعة تارةً، وللسنّة أخرى، هم في الغالب من أشدّ الناس تعصّباً لدياناتهم، وهم في الحقيقة أحرص الناس على تحطيم المسلمين كمجتمع، والقضاء على الإسلام كفكرة، ومحو العقيدة الإسلامية من الوجود.

أذكر أنّنا حين كنّا نحاول إقناع أصحاب دار نشر ليصرفوا النظر عن طبع كتاب قديم، فيه من الخرافات ما يضحك غيرنا علينا، وفيه من السخافات ما يثير سخرية شبابنا نحن بعد أن تفتّحت عقولهم بالثقافة، وفيه من تجريح العواطف ما كانت تمليه سياسة الحكّام في عهد المؤلّف، إذا مستشرق يهاجمنا في مجلّةٍ فرنسية، ويجزم أنّ هذا النوع من الكتب ضروري لفهم عقلية المسلمين قبل قرون، ومعنى هذا أنّ الكتاب سند، وأيّ سند يخدم أغراضهم، ويساعد على تحقيق مآربهم!

فماذا علينا نحن المسلمين؟

أليس علينا أن نعني بدراساتنا عنايةً تغنينا عن هؤلاء المصحّحين للألفاظ، الذين لا همّ لهم إلّا نبش الماضي، وبعث ما يثير الأحقاد بين المسلمين، كي تتفرّق كلمتهم، وتتفتّت وحدتهم؟

أليس علينا أن ندفن إلى الأبد كل ما يظهرنا بمظهر المنحرفين المتفرّقين؟

أليس من واجبنا أن نثبت أنّ أهل البيت أدرىٰ بما فيه، وأن نتعب أنفسنا ونظهر حقائق خلافاتنا التي نعتزّ بها كأصحاب فكرةٍ حرّةٍ سليمة؟

أليس من واجبنا أن نخرج كنوزنا، ونبرز ما في التراث الإسلامي من روعةٍ وجلال؟

إنّنا بين أحد أمرين: إمّا أن ندخل الميدان بكل قوتنا فننجو من أحابيل دعاة الفرقة، وإمّا أن نتخاذل ونتواكل فيجهز علينا أعداء الإسلام.

الفصل الرابع

في سبيل الوحدة: هدية من تجاربنا

كل خطوة نحو التكتّل تثير منّا الاهتمام، وكلّ فكرة ترمي إلى الوحدة تحرّك فينا الأمل، وكل محاولة لضمّ صفوف المسلمين تقع من نفوسنا أحسن موقع، فطبيعي وهذه حالنا أن نستبشر خيراً حين نلحظ اتّجاهاً إلى تحقيق التعارف بين إخوة تخاصموا في الميراث، وتقاطعوا على الزمن، وتنكّر بعضهم لبعض دهراً طويلاً، وصارع بعضهم بعضاً صراعاً رهيباً ضعضع قوتهم، وحطّم كيانهم، وجرّ المذلّة والضعة عليهم جميعاً.

إنّ أربعمائة مليون من المسلمين قوة لايستهان بها، وجمع كلمتهم أمر لايكرهه إلّا عدو، ولا يخافه إلّا طامع، ولكن تحقيق ذلك بصورة كاملة يحتاج إلى تفكير جدّي عميق، وبحث مستفيض دقيق، ودراسة شاملة لخريطة العالم الإسلامي، وإلمام كامل بالأحوال القائمة في كل جزء، والآراء السائدة في كل صقع، والنزعات المتباينة في كل قطر، فإذا أحطنا بكل ذلك علماً، أمكن أن نجمع المسلمين على منهاج لا تنفر منه طائفة، ولا تجحده فرقة.

وليس ذلك بعسير إن صحّت العزائم وتهيأت النفوس، لأنّ المسلمين متّفقون في الأصول، والخلاف بين طوائفهم ومذاهبهم إنّما هو في آراء لا تمسّ العقائد التي تحتّم على المسلم ليكون مسلماً أن يؤمن بها.

ونحن حينما نتكلّم عن الطوائف، إنّما نعني تلك التي تتّفق في الأصول من أهل السنّة والشيعة، ولا دخل لنا بالطوائف التي لا وجود لها إلّا في كتب الملل والنحل، أو التي تختلف في الأصول، فأتباعها في نظرنا ليسوا بمسلمين، وإذا كان هناك غلاة فنحن أول من نحكم بكفرهم.

إنّ إله المسلمين واحد، ونبيّهم ﷺ واحد، وكتابهم ـ ولله الحمد ـ لا يختلف على حرف منه مسلم شيعي ولو في أقصى الصين، مع مسلم سنّي ولو في أقصى المغرب، وهم جميعاً يتّجهون في صلواتهم إلى قبلة واحدة، ويحجّون إلى بيت واحد، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بالغيب والملائكة والنبيّين واليوم الآخر، وغير ذلك من العقائد التي لسنا بصدد حصرها، ورغم ذلك كلّه فإنّ التباعد بينهم ـ وهم أبناء الدين الواحد، وأصحاب العقيدة الواحدة ـ يزيد أحياناً على التباعد بين أبناء دينين مختلفين، بل يزيد على التباعد بين المؤمنين والملاحدة في بعض الأحيان!

إنّها لمأساة عجيبة أن يعيش ٤٠٠ مليون من المسلمين في قطيعة وتدابر وهم أبناء ملّة واحدة، وسكّان بقاع من الأرض متجاورة! إنّها لمأساة عجيبة حقّاً تدعو كل غيور إلى التفكير الجدّي، وتدفع كلّ قادر إلى السعي الحثيث والعمل الدائب لتخليص هذه الأمة المسلمة من التقاطع والتدابر، ومن الذلّ والهوان.

من هنا جاءت فكرة التقريب، وظهرت جماعة التقريب، لا لتوحّد المذاهب، ولا لتصرف أيّ مسلم عن مذهبه، ولا لتحجر على التفكير، وإنّما جاءت لتذكّر المسلمين جميعاً بالنقط الوفاقية عندهم، وهي كثيرة، وهي الأصول لحسن الحظ، ولتوجد التعارف بين الطوائف بإطلاع كل طائفة على ما عند سواها، فإن رأت الحقّ بجانب أختها احترمته، وإن لم تقتنع بما ثبت عند سواها عذرتها فيه.

وكانت هذه الجماعة واقعية، لا تتجاهل الخلافات، ولا تتغافل عمّا يصعب علاجه، ولا تخشى مواجهة الحقائق، ولا تجامل طائفة على حساب أخرى، فهذا سبيل من لا يثق بنفسه أو من يشكّ في صحة دعوته، ولسنا كذلك ولله الحمد.

كنّا ولانزال صرحاء صادقين في علاج المشاكل، وكم من مشاكل يحتاج علاجها إلى الصدق والصراحة، وكان شعارنا التمهّل والتروّي والتدقيق، وضرب المثل في الاعتدال في القول والهدوء في النقاش، ولم يفتنا أنّ المهمة أدقّ من إجراء جراحة في القلب، ولم ننس قط أنّ هناك من يثير الخواطر ويؤجّج العواطف، وأنّ هناك معوقين يعرقلون السير، وأنّ بقية من الاستعمار لا تزال جاثمة في أرضنا تعاكسنا بطرقها الخاصة، وتغري بنا نفراً من دعاة الفرقة كُشف أمرهم وعُرفت حقيقتهم.

كنّا ندرك تماماً أنّ المهمة شاقّة، وأنّ الطريق طويلة، وليست مفروشة بالورود والرياحين، بيد أنّنا توكّلنا على الله وحده، واعتمدنا على عونه سبحانه، وتجنّبنا السياسة حتّىٰ لا تجرفنا تياراتها الهوجاء.

وكان من العوامل التي ساعدتنا على النجاح: أنّ الفكرة جاءت في وقتٍ ضعف فيه شأن الاستعمار، وخفّت وطأة سياسته التي تقوم على قاعدة «فرّق تسد»، وظهرت فيه موجة من الإلحاد تهدّد الكثير من البلاد الإسلامية، فبدأ عقلاء المسلمين يفكّرون في التكتّل. وكان من حسن الحظّ أن شمل هذا عقلاء المسلمين من مختلف المذاهب والشعوب المسلمة ممّا تجلّت صورته بصفة واضحة من تأليف جماعة التقريب من أعضاء يمثّلون تلك المذاهب، وتلك العقليات النيّرة، أضف إلى ذلك أنّ انتشار الثقافة يخدم هذا الغرض وييسّر فهم الفكرة، ويساعد الفرد على الاطّلاع والبحث بدل الاعتماد على الشائعات والأخذ بأقوال المغرضين.

وهكذا بدأت جماعة التقريب منذ نشأتها تشقّ طريقها، وتلتزم سبيلها، وتمدّ يدها لمن يضمر للأخوّة الإسلامية خيراً وللمسلمين وحدةً، وتستجيب إذا دُعيت إلى مؤتمر أو تبعث برأيها إن فاتها الحضور.

واتّفق أن انعقدت في السنين الأخيرة عدّة مؤتمرات متفاوتة في القوى، وفي الإمكانيات، ونظرنا إليها نظرة التأييد لأنّها لا تخلو من كونها محاولات لخير المسلمين.

وكان لزاماً علينا أن نفكّر ونستقصي، ونستمع إلى تعليل غيرنا، لعدم نجاح

مؤتمراتنا الماضية في الوقت التي كانت تنجح فيه المؤتمرات في غير بلادنا؟

كان ذلك لزاماً علينا لنفيد منه، ولا نقع في مستقبل أمرنا فيما وقع فيه من قبلنا.

قالوا: ما السبب؟ أهو كثرتها؟ أهو قلّة عدد المؤتمرين فيها؟ أهو عدم الدقّة في انتخاب الأشخاص، فغالباً ما يكون المؤتمرون غير منسجمين؛ لما بينهم من اختلاف في التفكير، وتفاوت في المركز، وتباين في التمثيل.

أهو أنّ تلك المؤتمرات تعوّدت إصدار قرارات جزافية لم يسبقها البحث والتنظيم، أو غير عملية لم يراع وقت صدورها إمكان التنفيذ؟

وقلنا بدورنا: هذه كلّها أسباب صحيحة، ولكن وراءها جميعاً سبب آخر له تأثيره وله خطره، هو الطائفية، وقىٰ الله الدعاة إلى الوحدة الإسلامية العالمية شرّها.

فهناك اختلاف في الرأي نشأ عنه مذهبان رئيسيان قديمان: مذهب أهل السنّة، ومذهب الشيعة. وهما رغم اتّفاقهم في الأصول، ورجوع كليهما في الأحكام إلى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، إلّا أنّ الاختلاف حول الخلافة والإمامة وكونها بالنصّ أو بالانتخاب، وأنّ في الكتاب والسنّة ما يثبت هذا أو لا، أوجد تلك الطائفتين.

وكان بالإمكان أن يبقى الخلاف في دائرته المحدودة، لولا حكّام السوء وجور الظالمين الذين ابتدعوا العنف: العنف في الكتابة، والعنف في الجدل، والعنف في التعصّب، ثم التوسّل بالاتّهام والطعن، فضلاً عن الحروب الدامية، والفتن العمياء، هذا مضافاً إلى النعرة المفرّقة التي جدّت أخيراً ـ وكم كنّا في غنىً عنها ـ تفرّق بين مسلم ومسلم فيما كانوا فيه على وفاق من قبل، كأنّ رصيدنا من الخلافات لم يكن يكفينا!

وهذه كلّها تركت في مجتمعنا رواسب أفقدتنا الثقة فيما بيننا، وأدّت بنا إلى التقاطع في كلّ شيء حتّىٰ في الثقافة.

ولو أنّك سألت جامعة تدّعي أنّها للمسلمين جميعاً: ماذا يعرفون عن مذاهب المسلمين من غير أهل السنّة المعروفة، لأجابوك بالشائعات، ذلك لأنّها في الوقت

الذي تهتم فيه بدراسة أحوال الإغريق القدامى، والمذاهب البائدة كاللاأدرية، تغفل دراسة أحوال فريق كبير من المسلمين، وتحجم عن دراسة فقهٍ كفقه الإمام جعفر بن محمد الصادق، والإمام زيد بن علي بن الحسين، وهما من هما، وأتباعهما يقربون من ربع عدد المسلمين!

هل من الرأي أن يجهل المسلم حال إخوإنه ويهتم بغيرهم؟

هل يصحّ أن يعني بالمذاهب غير الإسلامية وهو يهمل بعض المذاهب الإسلامية الصحيحة التي هي جزء من التراث الإسلامي المجيد؟ وهل الفقه شيء يُحارب؟

وإلى متى تظلّ الثقافة الإسلامية مجزَّأة، وهي خير كفيل لوحدتنا؟ وكيف يمكن أن تجتمع كلمتنا وفي قلوبنا رواسب، وفي صدورنا حرج، وفي عقولنا ظنون وأوهام؟

وكيف يرجى النجاح لمثل هذه المؤتمرات التي كانوا غالباً ما يجتمعون فيها بأجسامهم، ويتباعدون بأفكارهم، وتنعدم الثقة فيما بينهم؟

وكيف نصل إلى تفاهم صحيح، وكثيراً ما كنّا نكتفي بالكلام العام المعسول، ولا نتصارح خيفة أن نظهر ما يضمره بعضنا لبعض من نفور؟

لقد حدث في «مؤتمر العلماء الإسلامي» الذي انعقد في كراتشي حين أريد الأخذ بلونٍ من الصراحة أن ظهرت بوضوح النزعات المختلفة، ولولا حنكة رئيس المؤتمر لتكهرب الجو أكثر وساءت العاقبة!!

ثم ماذا؟

ثم أحالوا بالإجماع المسائل الخلافية المعروضة عليه إلى جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة لعلاجها، وهي مطروحة أمامنا، داخلة في منهاجنا.

هذه هي تجاربنا أملتها علينا ـ مع الأسف ـ الوقائع الماضية، ودعانا حبّنا لأمتنا، وإخلاصنا لوحدتنا، أن نهديها لإخواننا الذين يحاولون مخلصين أن يصلوا إلى الوحدة الإسلامية، ولنا أن نقول بعد ذلك في صراحة وقوة: إنّ أيّة دعوة للتكتّل لابد لها من تمهيد، وأيّ مؤتمر يراد له النجاح لابد له من أن يهتم في نفس الوقت

بدراسة البلاد الإسلامية والآراء السائدة في أجزائها، وإعطاء فكرة صحيحة لكل عضو عن مذاهب الآخرين، والتنبيه على حملة الأقلام أن يقفوا عند حدودهم، فلا مهاجمة ولا نبش للماضي، ولا إثارة لمسائل خلافية من جديد من شأنها أن تهدم ما يبنيه المصلحون.

ولعلّ من اليسير بعد ما قدّمنا أن ندرك أنّ الذين يتبنّون فكرة المؤتمرات الإسلامية، والذين تنعقد في بلادهم هذه المؤتمرات عليهم تبعات جسام، في مقدّمتها أن يعملوا على فتح آفاق جديدة للتفكير الإسلامي، تكون ثمراته أجدى على المسلمين من نبش الماضي، وإثارة الأحقاد، وأن يكونوا في ذلك كله جرآء أقوياء ذوي أُفق أوسع من التعصّب للطائفية البغيضة التي تتّخذ أحياناً في بعض البلاد مقياساً للفصل بين الكفر والإيمان، وهي لم تكن كذلك في سالف الزمان.

إنّ الطائفية التي لا تحسّ بها بلاد لا طوائف فيها، تلعب دوراً هاماً في كثيرٍ من بلاد المسلمين، وكلّ محاولات لجمع الكلمة ينبغي أن تتفادى هذا الداء الوبيل، وجماعة التقريب حين اتّجهت إلى هذه الغاية، إنّما وضعت يدها على النقطة الحسّاسة، فلو نجحت في علاجها لنجح المسلمون.

الفصل الخامس

رحم الله امْرأً عَرَف قدرَ نفسه

من الحِكَم النبوية المأثورة عن رسول الله ﷺ قوله: «رحم الله امرأ عرف قدر نفسه».

وكثير من الناس حين يسمعون هذا القول النبوي المأثور يفهمونه على معنىً أنّه نهيٌ عن الغرور بالنفس يردي النفوس ويهلكها، ويحول بين المرء وما ينبغي أن يتعرّض له من نفحات الرحمة الإلهية التي لا يستحقّها إلّا المتواضعون، ولا ينالها أهل الكبر والغطرسة والاستعلاء بغير الحقّ.

ويؤيّدون ذلك بمعان وآثار كثيرة:

منها: غرور «إبليس» بنفسه، إذ قال مخاطباً ربّ العزّة حين أمره بالسجود لآدم: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[1]. فكان هذا الغرور سبباً في حلول غضب الله على هذا المخلوق، وسبباً في احتماله أعباء الإضلال والإفساد على عاتقه إلى يوم يبعثون.

ومنها: غرور فرعون الذي أرداه وجعله مثلاً في الأولين والآخرين، إذ أرسل الله إليه نبياً هادياً ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرىٰ فَكَذَّبَ وَعَصىٰ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعىٰ فَحَشَرَ فَنَادىٰ فَقَالَ أَنَا

---

١. الأعراف: ١٢.

رَبُّكُمُ الأَعْلىٰ فَأَخَذَهُ اللّٰهُ نَكالَ الآخِرَةِ وَالأُولىٰ﴾[١].

بل دعاه الغرور بنفسه إلى ما هو أبعد من ادّعاه الألوهية، حيث أراد أن يصل إلى إله موسى ليحاربه فقال: ﴿يا هٰامٰانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبٰابَ أَسْبٰابَ السَّمٰاوٰاتِ فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كٰاذِباً وَ كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمٰا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاّٰ فِي تَبٰابٍ﴾[٢].

إلى هذا الحدّ يفعل الغرور بالنفس!

وإذا كانت هذه المثل قد وردت في كتاب الله الذي يتلى على الناس بكرةً وعشياً، فإنّ هناك مثلاً كثيرة تفيض بها صفحات التاريخ في هذا الكون.

فكم من ملك طغى، وذي سلطان اغترّ بنفسه، فأساء تقدير أمره، فأفلت منه الزمام، وانحسر عنه ظلّ الأمان، وجانبته رحمة الله، فصار من المهلكين.

هذا معنى يفهم به الحديث الشريف كثير من الناس.

وهو فهم صحيح مقبول، ولكنّه ليس هو المعنى الوحيد الذي يمكن أن يؤخذ من هذا الحديث، فنحن نستطيع أن نفهم من هذا التوجيه النبوي الحكيم معنىً آخر.

ذلك أنّ الإنسان عليه أن يدرك قيمة نفسه، وأن يعلم أنّه مخلوق له رسالة يجب عليه أن يحتمل أعباءها ويقوم بحقّها، فإنّ كثيراً من الناس ربّما هربوا من معنى الغرور بالنفس إلى معنى احتقار النفس، والاستهانة بها، والشعور بأنّهم ليسوا شيئاً مذكوراً، فنراهم ينزوون عن كل عمل صالح، ولايشاركون الناس في أمرٍ من أمورهم، شعوراً منهم بالنقص في أنفسهم، والقصور عن ملابسة كرائم الأعمال، وبذل كرائم الجهود، فيعيش الواحد منهم ما عاش كمّاً مهملاً، لايحسّ بنفسه ولايحس به أحد، يعيش عالةً على غيره، يحمله مجتمعه الخاص ومجتمعه العام كما تُحمل الأثقال التي تنوء بها الكواهل دون أن يكون لها نفع، أو يرجىٰ منها خير.

---

١. النازعات: ٢٠ـ٢٥.

٢. غافر: ٣٦ و ٣٧.

إنّ هؤلاء لم يعرفوا قدر أنفسهم، ولم يدركوا أنّ الله حين وهبهم الوجود، وهيّأهم لخوض غمرات الحياة بأسلحة من العقل المفكّر، والجسم المجهّز بكل ما يصلحه، قد خلقهم ليعملوا، كلٌّ على شاكلته، وكلٌّ بنصيبه وجهده، كي يحقّقوا خلافة الإنسان في الأرض، فيعمروها ويستكشفوها، ويعرفوا الله الذي خلق ورزق ووهب، وأمات وأحيا، وأغنى وأقنى، فيعبدوه ويمتثلوا أمره، ويكونوا رحمةً مهداةً إلى إخوانهم الأقربين والأبعدين.

إنّ هؤلاء لم يدركوا قيمة ابن آدم كما ينبغي لها أن تدرك.

إنّ ابن آدم لا ينبغي أن يكون نسخةً واحدةً متكرّرةً في الشرق والغرب، والشمال والجنوب، وفي القرن الأوّل والقرن الأخير، وفيما بينهما، بل يجب على كل إنسان أن يحاول بجدٍّ وصدقٍ أن يكون له وجود كريم.

وما وجوده الكريم إلّا بأنّ يكون له «وحديّة» أو امتياز، وتفرّد في ناحية ما، حتّىٰ يكون ـ ما عاش ـ محتاجاً إليه من الناس احتياجاً خاصاً، منظوراً إليه نظراً خاصاً، وحتّىٰ يحسّ المجتمع إذا ذهب أنّه فقد شيئاً كان له كيان، وكان له وجود.

وكما يقال هذا في الأفراد؛ يقال في الجماعات والشعوب والأمم. فلكلّ جماعة هدف، ولكلّ شعب طابع وغاية، ولكلّ أمة رسالة.

فإذا تكرّرت النسخ رخصت القيم، وخفّت الأوزان، وهان وجود الهيئات والشعوب والأمم.

ونحن هنا في التقريب لنا وجود خاص ورسالة خاصة والحمد لله ربّ العالمين.

إنّنا نعلم قيمة أنفسنا، وأهمية دعوتنا، نعلم ذلك في غير غرور ولا خيلاء، ونعرف أنّ المسلمين أمة واحدة، إلهها واحد، ورسولها واحد، وكتابها واحد، وأصولها واحدة. وأنّه لم يعد يصلح أمرهم على اختزان الحزازات، واجترار العداوات، ولم يعد العالم يطيق خلافاً يتيح للأخ أن يقطع أخاه وقد ربط الله بينهما برباط الإيمان، وأنّ ما كان يجد رحابةً في الصدور، وتقبّلاً من العقول بالأمس

البعيد، حيث كان الناس يتناظرون ويتخالفون، ويتعارضون ويتقارضون، ويقضون في ذلك أوقاتاً ثمينةً، ويبذلون في سبيله جهوداً مضنية؛ لم يعد هو ذلك الغذاء الفكري أو الديني الذي تصلح عليه أمور المسلمين في عصر العلم والذّرة والفضاء والكواكب.

فمن واجب المسلمين أن ينسوا ما كان من جدل، وأن ينزعوا عمّا ألفوا من خلاف ونضال، وأن يأخذوا الحياة أخذاً جديداً على أساس أنّهم إخوة، وأصحاب رسالة هادفة، وقيادة بصيرة عارفة.

هذه هي دعوة التقريب، ليست نسخة تشبه غيرها، أو يغني عنها سواها، فلها وجود حقيقي «وحدي» ذاتي، ولو لم توجد لكان على المسلمين أن يوجدوها.

وإنّ في بقائها وجهادها، وارتفاع لوائها، وانبعاث دويّها، واشتغال العقول بها للخير كلّ الخير للمسلمين.

الفصل السادس

أُمة واحدة وثقافة واحدة

جرى الحديث بيني وبين العلّامة الشهير المغفور له الإمام الشيخ المراغي شيخ الجامع الأزهر[1]، وكأنّي أرى هذا الحديث أمامي كما لو كـان بـالأمس القـريب، والحال أنّه قد مرّ عليه زمان لا يقلّ عن عشرة أعوام.

كان موضوع الحديث هو المشكل الخطير الذي على المسلمين أن يعالجوه إذا أرادوا نهضةً موحّدةً تشمل جميع شعوبهم وبلادهم: وهو توحيد المسلمين ثقافياً.

كان الكلام بيننا في أنّ المسلمين لايعرف بعضهم بـعضاً، وأنّ الصـلة مـنقطعة بينهم، ولابد من تقريبهم ثقافياً، ليعرف كلٌّ ما عند الآخر، وبذلك يحصل التوحيد المنشود، وترتفع المنازعات والخلافات في كل المسائل أو في أكثرها، أو تقف ـ على الأقلّ ـ عند حدودها الحقيقية.

ذكّرني هذا الكلام يومئذٍ بقصة ذكرها في أحد كتبه عارف إلهي عظيم[2] في سياقٍ أراد به استنتاج بعض المعاني العرفانية السامية، فذكرت لفضيلته هذه القصة، ولا

---

١. وكان ثالثنا في هذه الجلسة هـو حـضرة صـاحب السـعادة مـحمد خـالد حسـنين بك (بـاشا) كـبير مـفتشي الأزهر حينذاك.

٢. هو مولانا جلال الدين البلخي الشهير بالرومي في كتابه العرفاني الجليل «المثنوي».

أرى بأساً من أن أعيد ذكرها للقرّاء، لأنّها تعبّر عمّا نحن فيه أصدق تعبير، وتوحي بمعالجته من أقرب سبيل.

كان أربعة من الفقراء جالسين في طريق، وكلٌّ منهم من بلد: أحدهم رومي، والثاني فارسي، والثالث عربي، والرابع تركي، ومرّ عليهم محسن فأعطاهم قطعةً من النقد غير قابلة للتجزئة، ومن هنا بدأ الخلاف بينهم، يريد كلٌّ منهم أن يحمل الآخرين على اتباع رأيه في التصرّف في هذا النقد، أمّا الرومي فقال: نشتري به (رستافيل)، وأمّا الفارسي فقال: أنا لا أرى من (أنگور) بديلاً، وقال العربي: لا والله لا نشتري به إلّا (عنباً)، وقال التركي متشدّداً في لهجة صارمة: إنّ الشيء الوحيد الذي أرضىٰ به هو (أوزوم)، أمّا ما سواه فإنّي لا أوافق عليه أبداً، وجرّ الكلام بين الأربعة إلى الخصام، وكاد يستفحل الأمر لولا أن مرّ عليهم رجل يعرف لغاتهم جميعاً، وتدخّل للحكم بينهم، فبعد أن سمع كلامهم جميعاً، وشاهد ما أبداه كلٌّ منهم من تشدّدٍ في موقفه، أخذ منهم النقد واشترى به شيئاً، وما إن عرضه عليهم حتّىٰ رأى كلٌّ منهم فيه طلبته، قال الرومي: هذا هو (رستافيل) الذي طلبته، وقال الفارسي: هذا هو (الأنگور)، وقال العربي: الحمد لله الذي آتاني ما طلبت! وقال التركي: هذا هو (أوزوم) الذي طلبته، وقد ظهر أنّ كلّاً منهم كان يطلب «العنب» من غير أن يعرف كلّ واحد منهم أنّه هو بعينه ما يطلبه أصحابه.

لسنا في هذا المقام بصدد بيان ما دار في هذه الجلسة أو في الجلسات الأخرى الممتعة التي كنت اجتمع فيها بفضيلة الإمام المراغي، ولسنا أيضاً بصدد بيان ما وصلنا إليه في نفس تلك الجلسة من إقرار تدريس بعض اللغات الإسلامية كوسيلة للتفاهم بين البلاد الإسلامية المختلفة، كما أنّنا لسنا بصدد أن نقول: هل واصلنا السير إلى الأمام منذ ذلك الوقت أو رجعنا القهقرى، ومهما يكن من شيء فإنّ أمامنا في اللجنة الثقافية لجماعة التقريب مشروعاً يرمي إلى توحيد المسلمين ثقافياً، أو إن شئت فقل: توحيد الثقافة الإسلامية بين المسلمين: فكرة ضخمة، ومشروع

جليل، ينظر إلى المسلمين كأمة واحدة، لغاتها محترمة عند الجميع، آدابها للجميع، رجالها للمسلمين عامة.

ليس أحد ينكر على المسلم أن يعرف الأدب الغربي، لكن عليه في الوقت نفسه أن يعرف شيئاً عن أدب رجال نشأوا في الإسلام، ونبغوا في البلاد الإسلامية. لا مانع يمنع المسلم أن يعرف اللغة الغربية، ولكن ممّا ينكر عليه ألّا يعطي قسطاً من اهتمامه للغات الإسلامية ـ ولعلّ منها ما يتكلّم به أكثر من مائة مليون من المسلمين ـ فتكون لغة التخاطب بين كثير من المسلمين بعضهم وبعض إحدىٰ اللغات الغربية، لأنّ كلا الطرفين المسلمين لايعرف من لغة الآخر شيئاً.

ليس بمنكر على المسلم ـ بل من المستحسن ـ أن يعرف كثيراً عن القارة الأوربية أو الأمريكية أو غيرهما، غير أنّه بوصفه مسلماً عليه أن يعرف أكثر ممّا يعرفه الآن عن البلاد الإسلامية وأقطارها.

إنّ توحيد المسلمين ثقافياً لا ينافي أن تعمل كلّ طائفة من الطوائف الإسلامية، بما ثبت عندها واعتقدته، ما دام هذا لايمسّ العقائد الأساسية، التي يجب الإيمان بها، ولكن من الواجب أن تعرف كلّ طائفة من المسلمين حقيقة عقائد الآخرين، لعلّها تجد فيها ما تستفيد منه، أو ـ على الأقلّ ـ إذا أراد أحد باحثيها أن يكتب عنهم شيئاً، أو ينقل بعض فتاواهم، فلا يكتب «وأمّا ما سمعنا عنهم أنّهم يقولون كذا وكذا، أو أنّه يقال عنهم كذا وكذا» ولعمري إنّ هذا لسبّة في جبين العلم، أن لا يتعب رجاله أنفسهم بالبحث عن كتابٍ يجدون فيه كل ما يبحثون عنه، من غير أن يسندوا أقوالهم إلى السماع، وكثيراً ما يجيء هذا القول المسموع من ذوي الأغراض الخبيثة.

وممّا هو واضح أنّه ليس معنى توحيد الثقافة توحيد اللغة، وليس هذا أمراً ممكناً، ولعلّه لايفكّر في هذا ولا يتفوّه به إلّا من يريد أن يبعث التعصّب للغات أيضاً، أو يريد أن يستعمر الآخرين، ولكنّ المهم هنا أن يفهم بعضنا بعضاً، وهذا

ممكن جداً إذا وجد في البلاد العربية مثلاً رجال يعرفون لغات الآخرين، وعند الآخرين من يعرف العربية ويتحدّث بها، وهذا ما كان في العصر الذهبي للإسلام، شعوب لم يصطبغوا بالصبغة العربية، واحتفظوا بلغتهم القومية، إلّا أنّ رجالاً منهم ـ وهم علماؤهم عامة ـ كتبوا ودوّنوا العلوم بالعربية، وخدموا اللغة العربية نفسها أيّة خدمة، من دون أيّ تعصّب، أو أقلّ تحيّز.

ألا وإنّ الترجمة ممّا لابد أن يهتم بها، وكثيراً ما نترجم آثاراً من الغربيين بأنواعها، فنجد فيها ما يفيد ولا ننكره، ونجد فيها ما يفسد الأخلاق وينشر الخلاعة حيناً، والإلحاد والمادية حيناً آخر، ولا يشكّ مسلم في خطر هذا النوع على الدين والآداب الإسلامية.

وما دام عندنا هذا الاستعداد للترجمة، وليس لدينا مانع من أن نعطي لفكرةٍ نشأت في بيئة مغايرة لبيئتنا، وصيغت في جو تقاليد غير تقاليدنا الدينية والقومية؛ صورة مناسبة أو أقلّ بعداً، نقول: ما دام عندنا هذا الاستعداد أليس من الخير أن نوجّهه إلى الصحيح من الأدب الغربي، وأفكار أهله، وإلى الآثار الإسلامية بما في ذلك ترجمة الكتب والدواوين، والحكم والقصص، وأخبار التاريخ السائرة بين الشعوب الإسلامية، وإنّ منها لكتباً لو كان أحدها هو الكتاب الوحيد في لغته، ولم يكن سبيل لترجمته، إلّا بتعلّم اللغة، لكان على الإنسان أن يتعلّم تلك اللغة ليعرف ذاك الكتاب ويلتذّ بما فيه!

إنّ في البلاد الإسلامية معادن وكنوزاً، وإنّ للمسلمين رجالاً نابغين، وعلماء أكفّاء عاملين، وأدباء قديرين، فهل يعرفهم العالم الإسلامي؟! وهل يعرف عنهم عُشر ما يعرف عن بعض علماء المادة وكتّاب السوء؟! وهل سمع عن آثارهم؟ وهل عرف أنّ منهم مؤلّفين خلّفوا مجلّدات من الكتب، يعدّ كل واحد منها مرجعاً من المراجع، ودليلاً قائماً بذاته، لفكرة ناضجة عند المسلمين؟

إنّ للمسلمين جامعات علمية كبرى في مختلف البلدان، وإنّ فيها لما يجتمع به

أكثر من ألفين من طلاب علوم الدين، وإنّ النظام الدراسي فيها لنظام حرّ، فهل عرفت الأغلبية من المسلمين عنهم شيئاً؟

لو أنّ التعارف بين المسلمين تمّ على أساس توحيد الثقافة، بما في ذلك التبادل الثقافي، وتأليف كتب عن كلّ طائفة، لإعطاء صورة صحيحة عنها، وتعليم اللغات الإسلامية في جامعاتهم، وترجمة آثارهم ورجالهم؛ لعرف المسلمون أنفسهم، وعلموا قوتهم ومقدرتهم، وأنّهم مسلمون قبل كل شيء، مسلمون في كتابتهم وتآليفهم، مسلمون في قصصهم وأشعارهم، وأنّهم أُمناء فيما يكتبون.

لابد أن يلتقي المسلمون بعضهم ببعض، وهل من منكر أنّ خير اللقاء هو اللقاء عند الثقافة، الثقافة الصالحة لأن تكون ثقافة إسلامية، بعيدة عن كل تعصّب أعمىٰ، ثقافة تحت ظلّ الدين، ثقافة يجتمع المسلمون في ظلّها، مثلاً «بالحافظ الشيرازي» المتوفّىٰ في القرن الثامن، و«حافظ ابراهيم» المصري، المتوفّىٰ في القرن الحاضر، ومحمد إقبال المسلم الهندي المتوفّىٰ أخيراً، مع اختلاف لغاتهم وتفاوت درجاتهم.

وإذا كان هذا شأن الآداب لدى المسلمين، فأسهل منه شأن الفقه وعلوم الدين، والعلماء كلّهم من أيّ مذهبٍ من المذاهب الإسلامية، قد استمدّوا علومهم من الكتاب والسنّة، واللغة العربية هي لغة الدين، وبما أنّ المصدر واحد واللغة واحدة، فإنّ أقلّ تبادل ثقافي يكفي لأن تحترم كل طائفة ما عند الأخرى، ولأن يقمع كثير من الخلاف الذي نحن في غنىً عنه.

هذا ما نبغيه، وهذا ما نسعىٰ إليه، وإنّ لنا في توحيد الثقافة الإسلامية الذي يجعل كلّاً منّا يعرف ما عند الآخرين لأملاً كبيراً في أن يرجع للمسلمين مجدهم، ويجعل الأجانب والمستعمرين، يحسبون لهم ألف حساب، وترجع للعلم الإسلامي قدرته على إنتاج أطيب الثمار، وبالله التوفيق وهو وليّنا ونعم النصير.

الفصل السابع

وحدة المسلمين حول الثقافة الإسلامية

لا يهمّني إن كانت هذه القصة حقيقة واقعية أو خرافة من نسج الخيال، وإنّما يهمّني أن تكون مقدّمة لنتائج نتعرّض لها في هذا المقال.

ولا يهمّني إن كان بطلها من حكماء الفرس، أو من أبطال الرومان، أو من غزاة العرب، من الموحّدين أو من غيرهم، بقدر ما تهمّني فكرته السامية.

كان حكيماً نافذ الكلمة في عشيرته، شديد الغيرة على مصالحهم، تقدّمت به السنّ، فأراد أن يزفّ وحيده ويتنازل له عن رياسة قومه، فقدّم إليه أتباعه ـ على عادة القبائل والعشائر ـ هدايا ثمينة، فأراد أن يستغلّ شعورهم هذا في توطيد الإمارة لولده، ولأحفاده من بعده، فخطب فيهم شاكراً، ورجاهم أن يستردّوا هداياهم، فألحّوا عليه في قبول شيء، فقال لهم: «إن كان لابد من تقديم شيء، فأقيموا لولدي بيتاً يسكنه، بشرط أن تشتركوا في بنائه، وتساهموا في إقامته، وأحبّ أن أراكم تحملون لبناته بأنفسكم، وتضعونها في البناء بأيديكم. فأقدموا على هذا العمل الذي يرضي شيخهم الكبير، ولمّا تمّ البناء، أوصى ولده أن يقيم فيه، ولا يتحوّل عنه، لأنّ مقامه في بناء مشترك ربط للقلوب والنفوس جميعاً، ولأنّ الناس يتمسّكون به، ويتعلّقون بإمارته ما أقام في هذا البيت الذي صنعوه بأنفسهم، ويقولون: إنّ نبوءة الشيخ تحقّقت، وكان نزيل هذه الدار من أحفاده أميراً مر موقاً وحاكماً مطاعاً.

إذا كانت هذه قصة خيالية، فهناك قصة من صميم الواقع، عن قصر فخم لم تر عين الزمان مثله، أُقيم على أساس متين، وشيّد من حجر صلد بأيدي أمهر البناة المخلصين من الأبيض والأسود، ساهم في إقامته رجال من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، من بلخ وبخارى وسمرقند وطوس وطبرستان والري والعراق والشام والحجاز ومصر والأندلس وما بينها، وتعبت فيه عقولهم ـ إن صحّ هذا التعبير ـ واستعملت فيه لبنات نورانية بدل اللبنات الظلمانية المعروفة.

وإذا كانت مرضاة ذلك الشيخ هي الدافع إلى بناء ذلك البيت الصغير، فإنّ الدافع إلى بناء هذا القصر المنيف، هي مرضاة الله في الدارين، وإرضاء الضمير والإيمان والعقيدة، بني باسم الإسلام، وقدّمه بناته إلى الإسلام، ليكون في خدمة الإسلام والمسلمين، ولم يكن لحدائقه أسوار تمنع الناس من الدخول فيه، ولا بين أقسامه حواجز تحجب عن الروّاد بعض نواحيه، فتوجّهت إليه عقول الملايين، وتعلّقت به قلوب مئات الملايين، وعبق عطره في أركان العالم الإسلامي، وفاح شذاه في أركان الكون كلّه، وأطلّت عظمته على الشرق والغرب.

ذلك قصر الثقافة الإسلامية التي أراد الله أن تكون أعظم مفخرةٍ للمسلمين، وأعظم ثمرةٍ للإسلام، تلك الثقافة التي لم يوح بها أحد، وإنّما أوحى بها الشعور والإيمان والرغبة في أن يكون للإسلام ثقافة خاصة ينهل منها المسلمون، واندفع لتحقيق ذلك بنّاؤون من كل شعب مسلم، ومن كل طائفة إسلامية، وتخلّوا جميعاً عن كل قومية ولغة، إلّا قومية الإسلام ولغة القرآن، فالبلخي نسي بلخيته، والفارسي نسي فارسيته، والبخاري نسي أنّه من بخارى، والعربي نسي عروبته، وجعلوا أنفسهم في خدمة الإسلام ولغة الإسلام، وخلقوا ثقافة إسلامية، استنبطوا قسماً كبيراً منها من الإسلام نفسه، وأخذوا قسماً آخر من الثقافات اليونانية والفارسية والهندية، التزموا فيه نهجاً لم يلتزمه البُناة قبلهم، هو أن يصبغوه بصبغة الإسلام، ويسخّروه في خدمة فكرة الإسلام، ليكون ثقافة إسلامية قبل كل شيء،

ووفقوا في هذا توفيقاً عجيباً، حتّىٰ أنّهم أخذوا الفلسفة اليونانية ـ التي كانت تثبّت العقائد الوثنية، والتي استغلّتها الكنيسة فيما بعد لخدمة التثليث ـ وصبغوها بالصبغة الإسلامية، وأثبتوا بها التوحيد والمعاد... ولست بصدد شرح هذا، وسأفرد له بحثاً خاصاً.

ولم ينشط في إقامة هذا القصر البنّاؤون فحسب، بل نشط كذلك النجّارون والبستانيون، واهتم كلٌّ بناحيته، وتقدّم كل فنّ يشجّعه الإسلام، من تفسير إلى أدب، ومن طبّ إلى كيمياء، ومن علوم إسلامية إلى نبوغ في الفقه بنوع خاص، وهكذا أوجدوا كنزاً ثميناً، يليق أن يسمّى بحقٍّ أغنىٰ كنز في العلوم الإسلامية، ازدهرت كل هذه العلوم دون أن يؤخذ عهد من القائمين عليها، ودون أن تشرف على تنسيقها منظمة كاليونسكو، ودون أن يمنع أحد من الدخول في أيّ بحث، أو يحرم من الرجوع إلى أيّ مرجع، أو الاغتراف من أيّ منهل.

كانت ثقافة إسلامية، تقدّم لكلّ المسلمين، لا لشعب دون شعب، ولا لطائفة دون طائفة، وكان لكلّ عالم حقّ الدخول في كل بحث، ومراجعة أيّ كتاب، والأخذ بأيّ رأي، ولا ينظر أحد إلى من يخالفه في الرأي إلّا نظرة التقدير والأخوّة.

فالخليفة يقدّم إلى الإمامي كرسي الدراسة ببغداد، والسنّي يستمع إلى دروسه كثير من غير أهل السنّة، ومرجع الفتوى إلى كل مذهب، والباحث يقف على رأي كل مفكّر.

كانت ثقافة عامة مشتركة، تعلّق بها كل قطر لأنّه يساهم فيها، وغار عليها كل صقع لأنّ له قسطاً منها، وحفظ حرمتها وكرامتها كل مسلم، واحترم رجالها ونظر إليهم كمجموعة يكمل بعضها بعضاً ولا تقبل التجزئة.

لعلّك تتساءل: أين هذا القصر؟ هل عدا عليه الدهر فخربه، أم غصبه أحد الطغاة ودمّره؟ كلّا: لا هذا ولا ذاك، إنّما تنازع فيه ورثته، وقسّموه فيما بينهم، وأقاموا الحواجز بين أقسامه، واستقلّ كل فريق بحصّته، وامتنع الآخرون من الدخول إليها.

وهكذا تحوّلت الثقافة الإسلامية من عامة جامعة إلى مذهبية ضيّقة، ومن قومية شائعة إلى طائفية محدودة، وعكف كل عالم على مراجع مذهبه، وأغضى عن ما في المذاهب الأخرى، وتعصّب لما درس، واستراب في كل ما جهل. وتأثّرت كل طائفة بعلمائها، وتمسّكت بنهجهم، ونفرت من كل من يخالفهم في الرأي، بل ذهبت إلى الشكّ في عقائد الطوائف الأخرى.

وانتهز كثير من غير المسلمين هذه الظلمة، وتسلّلوا إلى الصفوف، وتسمّوا باسم المسلمين، واستغلّوا جهل الطوائف بعضها ببعض، يزعمون لكل طائفة أنّهم من الأخرى، يقولون للشيعة: نحن من أهل السنّة، ويقولون لهؤلاء: نحن من أولئك، واستطاعوا في غفلة المسلمين وجهلهم أن يسيئوا إلى الإسلام قروناً عديدة.

كل هذا حصل بسبب التعصّب المذهبي الذي تريد جماعة التقريب القضاء عليه، وبتأثير النزعات الشعوبية التي ترمي إلى تقسيم هذا التراث باعتبار العنصرية.

فلوا أنّنا فتحنا صدورنا من جديد، واعتبرنا الثقافة الإسلامية مجموعة يكمل بعضها بعضاً، وتفاهمنا فيما بيننا على هذا الأساس، وأدركنا أنّ هذه الثقافة إسلامية، بنيت على أن تكون للإسلام قبل كل شيء، وليست ملكاً لفرد ولا لمذهب أو طائفة، كما أنّها ما أوجدت لتكون عنصرية؛ لجدّدنا بناء هذا القصر المنيف، ولمحونا عن كلّ طائفة باطل الاتّهامات الموجّهة إليها، ولأخرجنا من بيننا من ليسوا بمسلمين؛ كأولئك الأدعياء الذين انتسبوا كذباً إلى الإسلام وهم معاول هدم في الكيان الإسلامي.

وفي رأيي أنّ ثقافة إسلامية موحّدة ـ إذا التفّ حولها المسلمون ـ كفيلة بتوحيد صفوفهم، ولا يخفى ما تؤدي إليه الوحدة من عزٍّ ومجدٍ وسؤدد.

وما دامت هذه الثقافة موجودة، فإنّ من الميسور بلوغ هذا الهدف، وهو ما نعمل له ونسعى إلى تحقيقه، والله وليّ التوفيق.

الفصل الثامن

فرصة سانحة

تسنح الفرص نادراً، وتمضي سراعاً، والسعيد من ينتهزها ويفيد منها، وما الفتوحات إلّا فرص اغتنمتها الأمم، وما أبطال التاريخ إلّا رجال لم تفلت منهم الفرص.

واليوم تسوق العوامل الكثيرة والمؤثّرات العظيمة القوية فرصةً لا مثيل لها، يمكن بانتهازها توطيد القوة الهائلة الكامنة في الإسلام، وإبرازها إلى حيّز الوجود.

فأمام العالم الإسلامي الآن فرصة في ميدانين: ميداني السياسة والأخلاق.

أمّا في ميدان السياسة، فالعالم ينقسم إلى معسكرين، كلٌّ يريد أن يضمّ إليه أكبر عدد من الأمم، وكلٌّ يريد أن يجرّ إلى صفّه في الجامعات الدولية أكبر عدد من الأصوات، ببذل الوعود، وتخفيف الضغط، ومنح الاستقلال، وهما يتصارعان في معركةٍ يعتبرانها حيوية، يبذلان في سبيلها كل ما في الطوق، وهذا ما دفع بكليهما إلى مصانعة الشعوب الصغيرة وملاينتها، مع أنّ البطش بها والتعسّف معها كانا سنّة الجميع إلى الأمس القريب.

ثم إنّ تسابق المعسكرين في التسلّح وما ينفقان في هذه السبيل، وما تتطلّبه حاجات شعوبهما الجائعة، ومحاولة إصلاح ما دمّرته الحرب، ومعالجة الضعف المالي، وانعدام الأسواق لمنتجاتهما، والأزمة الاقتصادية السائدة، كل هذا هبط

بدخل دول المعسكرين، وزلزل مراكزها، وطوّح بهيبتها، وجعلها تخطب ودّنا وتشتري صداقتنا، وتمنحنا استقلالنا وتحترمه، وهي التي تسلّطت علينا تسلّط الشياطين على النفس الضعيفة، وعشنا طويلاً على الخوف منها، والحاجة إلى أرضائها في كل صغيرة وكبيرة.

إنّ إحدى الكتلتين تشجّع اليوم ـ ولو لأغراض سياسية ـ الحركة الدينية، وهو ما لم يكن من قبل، فلماذا لا نسارع إلى إدخال الدين في كل معهد، وفرضه على كل فرد، وجعله أساس الحكم في كل بلد إسلامي، لنتحصّن به ضد كل عدوّ، ونقوىٰ به على كل مشكلة، ونتخلّص بفضله من دعاة الإلحاد والتفرقة إلى الأبد، ونخلق به جيلاً سليماً قوياً؟ ولماذا لا نركّز ـ في هذه الفرصة ـ روح الإسلام في النفوس والبلاد، حتّىٰ لا تزلزله الحوادث، ولا تعطّله يد قوية ودكتاتور ظالم لو أرادت السياسة ذلك فيما بعد؟

إنّ المسلم إذا رضي أن يكون نصيبه في الحياة ألّا يعترضه القوي في إقامة صلواته وشعائره، أو يكون غاية مرامه بناء مسجدٍ في حيّه، أو التمتّع بالحرية في لباسه أو ترضيه المجاملات، ومثل هذا اللون من الاستقلال الموهوب، دون أن يهيّئ نفسه لاحتمال تكاليف الحرية والاستقال، أقول بصراحة ـ ولنا أن نكون صرحاء مع الإخوة ـ: إنّه لم يحصل على شيء، وليس هذا فحسب، بل أنّ هذه الحريات الوقتية الممنوحة ـ التي لا يد له فيها ـ يمكن أن تسلب بسهولة حين تصفّي الكتلتان المشاكل بينهما، أو تقضي الحرب المقبلة على أحداهما وتبقىٰ الأخرى بغير منافس.

هذه ـ لا شكّ ـ فرصة أُتيحت لنا بغير جهد، لو ننتهزها لأمكن أن نستغلّ لمصلحتنا اضطراب الكتلتين أكبر استغلال.

أمّا في الميدان الأخلاقي، فعلىٰ أثر الحربين العالميتين الماضيتين ـ ولا سيما الأخيرة ـ انهارت المبادئ الأخلاقية، وانتشر الفقر وعمّت الفوضى، وبسبب كثرة

القتل، ودمار البلاد، وهدم البيوت، واختلاط الغالب بالمغلوب، وإجلاء الملايين عن بيوتهم، وتشرّد الكثيرين في الآفاق، وانفصام روابط الأسر بل انعدامها، حتّىٰ أصبح ربّ الأسرة لا يأمن على نفسه ولا يطمئنّ على أهله، ثم التعذيب والنفي، ومعاملة الناس كالرقيق، وإعدام آلاف الاسرى بشكل جماعي في معسكرات الاعتقال، حتّىٰ أنّ هيئة الأمم اقترحت عقد اتفاقية تحرّم «القتل الجماعي»... كل هذا قضى على الأخلاق، ومسخ في أعين الناس معاني الفضيلة، فأصبحنا نرى العلماء أنفسهم ـ وهم أصحاب العقول الناضجة والفكر المستنير ـ يتفاخرون بصنع ما يدمّر ويخرّب ويفني البشر! فهذا يتيه بصنع قنبلة تقضي على مليون في أقلّ من ثانية، وذاك يفخر بتوفيقه إلى صنع قنبلة أخرى أشدّ وأقوى، يبقي أثرها في الأرض ألف سنة.. وسواء أصدّقنا هذا أم لم نصدّقه، فإنّ إعلان الفريقين لهذه الأخبار يدلّ على مدى الأنهيار الخلقي، واشتغال العلماء بما ينزل بالعالم الدمار والهلاك، ويهدّد البشرية بالفناء، أكبر دليل على انعدام المبادئ الإنسانية.

على أثر هذا، بدأ المفكّرون يبحثون عن طريق للنجاة من هذا الوضع الوحشي، ويفتّشون عن نظام ـ لا ينبعث عن الميول السياسية والنزوات الحزبية ـ بل يقوم على قواعد سليمة يضمن للبشرية العيش في راحة وسلام، ولا يمنعها من التقدّم في كل نواحي الحياة، والتقى أكثرهم عند فكرة الأخذ بدعوة روحية، وهي فكرة نرىٰ لها أنصاراً وأعواناً في كل بلد وصقع يزدادون يوماً بعد يوم.

وعندنا نحن المسلمين قانون إلهي، يضمن السعادة للبشرية، ويقضي على الوحشية والبربرية، ويقيم موازين الاجتماع بالعدل، ويحرّم قتل النفوس، ويحضّ على التواصي بالخير والفضل، ويؤمن الفرد على نفسه وعرضه وماله، ويشبع الفقير الجائع، ويشفي الغني المتخوم، ويضع للحرب قوانين إنسانية إذا احتيج إليها.

فلماذا لا نخرج بنور شريعة الإسلام على هذا العالم المضطرب، كما خرج المسلمون الأوائل على العالم المحيط بهم من الفرس والروم أثر حروبهما واختلال

أوضاعهما، وضعف العقيدة الدينية في أبنائهما، فتقبل الناس دعوتهم، واطمأنّت القلوب إلى دينهم ونظامهم، واستقرّت بهم أمور الدنيا بعد اضطراب عاصف، وقلق شديد؟

لو انتهز المسلمون هذه الفرصة الذهبية، لأمكن أن يكونوا هداة العالم المضطرب، وأطباء النفوس المريضة، ورسل النجاة والخلاص، ولأمكن أن يغزوا الدنيا غزواً روحياً خلقياً تشريعياً، يبقي على البشرية ويسعدها قبل أن يقضي عليها دعاة الدمار ودعاة التخريب.

لكنّنا مع الأسف الشديد، لا نستطيع بحالتنا الراهنة أن نستفيد من الفرصة السانحة فنقوّي بناءنا، وننشر دعوتنا، لأنّ ذلك يتطلّب التكتّل والتآخي، وأن يفهم بعضنا بعضاً، كما يتطلّب الأخذ بتعاليم الإسلام الصحيحة، والعمل بأحكامه واتّباع آدابه، حتّىٰ لا تكون ـ على الأقلّ ـ حرب بيننا، وحتّىٰ نظهر أمام العالم بالمظهر الذي يليق بمن يريد حفظ حقّه، وبثّ دعوته، وإنقاذ الآخرين.

ولست أعني بالتكتّل الإسلامي، ما اصطلح عليه الساسة، أو ما يفرضه علينا غيرنا، أو ما يبرمه رؤساء الحكومات على الموائد ويشربون (نخب) توقيعه، فهذا تكتّل لا وجود له إلّا على الورق، لأنّ الشعوب لا تؤمن به، بل ترتاب فيه، وهل يحتاج الأخ إلى توقيع ميثاق صداقة مع أخيه؟

وإنّما أعني التكتّل الطبيعي الذي أوجده الله في أمةٍ بعث فيها نبيّه، وبثّ فيها دعوته، وهداها إلى كتابه، وجمع أبناءها على قبلة واحدة، ووّحد صلاتهم وصيامهم وحجّهم، فاجتمعت قلوبهم، وتلاقت أرواحهم، وصفت ضمائرهم، واتّحدت مصالحهم.

هذا التكتّل هو أمر طبيعي للمسلمين، لولا أن عصفت به النزعة العنصرية، والتعصّب المذهبي، وهما مشكلتان خطيرتان على التكتّل يجب أن نقف أمامهما قليلاً.

فالأولى: مشكلة العنصرية، أثبت التاريخ منذ القدم، وأثبت الغرب أخيراً أنّها

سبب كثيرٍ من الويلات، وما كانت الحرب العالمية الأخيرة إلّا مظهراً من مظاهرها، ومن أجل ذلك دعا المخلصون للإنسانية إلى نبذها ظهرياً، وأخذ العالم الغربي يحاربها بطرق عملية، فيرفع الحواجز بين الشعوب المختلفة العنصر «كالانجلوسكسون» و«اللاتين»، ويدمج الشعوب المختلفة الأصول بعضها في بعض.

أمّا نحن في الشرق الإسلامي فلا نزال نصغي إلى دعاة العنصرية، ونسكت على ألاعيب الأيدي الأجنبية التي تحبّذ العنصرية، وتخترع الوسائل لتمكينها في النفوس، مع أنّ الإسلام مال بنا عنها، ووجّهنا إلى الطريق القويم، وقرّر أن لا فضل لأبيض على أسود إلّا بالتقوى، ولا ميزة للعرب ـ وهم قوم الرسول ـ على غيرهم من المسلمين إلّا بحسن العمل.

والثانية: التعصّب المذهبي أو الاختلاف الطائفي، ولولا شهوات الحكم لم يتعدّ حدوده المعقولة ولم يصبح مشكلة، لقد استغلّته السياسة أشنع استغلال، فجعلت المسلم يفرّ من أخيه أكثر ممّا يفرّ من عدوّه، ويضمر لأخيه عداوةً أشدّ ممّا يضمر لخصمه، وكم من مآسٍ جرّها على المسلمين هذا التعصّب! وكم أُريق بسببه من دماء؛ وكم من سيوف شهرت على الاخوة بدل أن تشهر على الأعداء! وكم من قوي بذلت في محاربة أبناء التوحيد بدل أن تبذل في محاربة المشركين!

مع أنّنا لو دقّقنا النظر، وأنصفنا في الحكم، لوجدنا الخلافات المذهبية لاتمسّ أصول العقائد التي يجب الإيمان بها، ولو أنّ أهل السنّة تعرّفوا على إخوانهم الإمامية والزيدية من الشيعة، وتعرّف الشيعة على إخوانهم أهل السنّة، لتبيّن لهم جميعاً أنّ الخلاف بينهم ليس على الأصول، وأنّ كثيراً من الشبه التي وجدت في أفكار كل طائفة عن الطائفة الأخرى، ليست إلّا من صنع المفترين، وأنّ الخلاف بينهم غالباً شبيه بخلاف الفقهاء في أنّ واحداً يجهر بالبسملة في صلاته والآخر يسرّها، أو أنّ واحداً يمسح على القدمين والآخر يغسلهما، ونحو ذلك من خلافات

يمكن أن يحتفظ كل فريق برأيه فيها وأن يحترم رأي غيره، فإذا كان المسلمون قد استطاعوا أن يقفوا أمام خلافاتهم الفقهية في العصر الأخير موقف التسامح، ولم يعد بينهم من يعتدي على مخالفه في الرأي ـ كما فعل الذي كسر أصبع صاحبه لأنّـه يرفعها في التشهّد ـ فإنّهم قادرون على مثل ذلك في آرائهم الفكرية ومعارفهم التي لا تتصل بالعقائد، ولا تشترط في الإيمان.

وها نحن أُولاء نرى الأزهر الشريف يدرّس الفقه المقارن بين جميع المذاهب ـ بصورة إجمالية نرجو أن تكون فيما بعد تفصيلية ـ دون تمييز بينها، ولا اقتصار على بعضها، ونرى كبار شيوخه يشتركون في لجان القوانين ويفتّشون عن أقـوال الائمة الموافقة لمصلحة الأمة، فيعدلون أحياناً عن مذهب أبي حنيفة إلى مـذهب غيره، بل يعدلون عن الراجح في مذهب أبي حنيفة إلى المرجوح، وقد يخرجون عن دائرة مذاهب السنّة الأربعة إلى مذهب أخر، كما فـعلوا فـي قـانون الطـلاق والوصية وغيرهما، إذ أخذوا برأي ابن تيمية وابن القيّم والشيعة الإمامية، وكل ذلك قد تمّ بهدوء ورضىً وإقبال دون تحرّج ولا تذمّر، وأدرك الناس ما فيه من مصلحة وراحة وتيسير، فماذا عليهم لو استقبلوا ما وراء الفقه كما استقبلوا الفقه، وما الفرق بين الفروع العملية والفروع العلمية، وكلّها ليست خلافات جوهرية تـنهض سـبباً للقطيعة والخصومة ؟!

هنا نقف قليلاً لنقول: إنّ هذه المشكلة الأخيرة، قد وجد اليوم ـ ولله الحمد ـ من يعالجها، فهاهي ذي جماعة التقريب تسير فيها باتّزان وتعقّل وحزم، وقد تمكّنت في مدة وجيزة من أن تلفت العالم الإسلامي إلى دعوتها، وإنّا لنرجو الله أن يوفّقها في إنجاز مهمتها.

إنّه لجدير بالمسلمين أن يدركوا أنّهم بتخلّصهم من هاتين المشكلتين، يمكنهم أن يفيدوا من هذه الفرصة السانحة، وينهضوا بأمتهم نهضةً مباركةً، ويصدّوا عن بلادهم كلّ عدوان.

إنّ المسلم إذا احتفظ بتعاليمه كان أمةً، وإنّ المسلم إذا صحّ إسلامه كان حصناً، وإنّ الأمة الإسلامية إذا حكمت بكتابها، برزت قوة الإسلام الكامنة فيها، ويومئذٍ تكون أمة موجّهة تحفظ التوازن في العالم، وتتحكّم في الكتلتين المتناحرتين، وتوقف كلّاً منهما عند حدّه، يساعدها في ذلك ثراؤها العريض، وموقعها الجغرافي الممتاز، وكثرة أبنائها، وعميق الإخلاص الذي يغرسه في قلوب أبنائها دينهم الإسلامي الحنيف.

القسم الثاني

التراث والتقريب

أصالة وتجديد

ويشتمل على فصلين:

* **الأوّل:** محنة التراث الخالد على أيدي أهل الجديد
* **الثاني:** ابن سينا: بين الفرس والعرب

الفصل الأوّل

محنة التراث الخالد على أيدي أهل الجديد

لا أدري بالضبط، هل هي فكرة الأخذ بالجديد تشقّ طريقها إلى علم الحديث، أم يد النقد والتحليل الذي يتشدّق به الأدباء المستغربون أو الغربيون المستشرقون، تمتدّ إلى عيون كتب الحديث التي بقيت سليمة طوال القرون الماضية، لا يمسّها الكتّاب والأدباء التحليليون؟

ولا أحسب القارئ يطالبني بمزيد من الإيضاح حول الموضوع وصيحات النقّاد تصكّ سمعه بمناسبة وبغير مناسبة ـ ومن ورائها مصالح بعض الكتّاب أو الناشرين ـ ينادون بتصفية الكتب التي سمّوها من قبل بالصحاح، بدعوى تصفيتها من الإسرائيليات، وإسقاط ما لا يقبله العقل، واستبعاد ما يتنافىٰ ودعوة التوحيد.

فكاتب يأخذ علىٰ الأحاديث أنّ فيها ما يخالف قواعد الصحة، وثانٍ يزعم أنّ الإكثار من أكل ما حثّت الأحاديث علىٰ تناوله يسبّب مرض كذا، وثالث يجزم أنّ ما ورد في الصحاح لا يوافق ما وصل إليه العلم الحديث، ورابع يحسب نفسه تخلّص من الأرض والأرضيات، فيحلّق في أقطار السماوات، ويؤكّد أنّ ما جاء في الأحاديث لا يتّفق وما ثبت في علم الفلك والنجوم، وربّما يتجاوز الأمر هذه الحدود، فيّدعي كاتب دعاوى مضحكة لا وجود لها في صحيح من كتب الحديث، ولا تدلّ إلّا علىٰ قوة في الاختلاق، وإغراق في الخيال السقيم!

أذكر أنّ محدِّثاً تكلّم معي في جلسةٍ خاصةٍ وبحماس شديد في وجوب التخلّص من الإسرائيليات، وضرب مثلاً لذلك خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وبعد أن فرغ من محاضرته الطويلة، وظنّ أنّه أقنعني، قلت: ولكن هذا في القرآن يا أخي، وليس من الإسرائيليات في الحديث كما تعتقد. فبهت واستولىٰ عليه الوجوم.

ولا يحسب القارئ أنّي أريد الدفاع عمّا بين أيدينا من كتب الحديث، وما أختلفنا أو اتّفقنا في تسميته صحاحاً، وأزعم أنّها خلو من الإسرائيليات أو ممّا يخالف الحقّ، أو أجزم بأنّ كل ما في الصحاح صحيح ـ أخذاً بكلمة صحيح فلان ـ كلا، بل يحتمل ـ في رأيي ـ أنّ كثيراً من الدوافع لعبت دورها في خلق ما ليس بواقع، وأنّ جبروت الحكم والسلطان جعل الرواة لا يظهرون كلّ ما عندهم، وأنّ بعض ذوي الأهواء قالوا عن الرسول ﷺ مالم يقله.

ومن ينكر ما للطغاة وحكّام السوء من أثرٍ علىٰ تراثٍ له القداسة بعد القرآن؟

لست أنكر أنّ هناك دسّاً وخلقاً، ولكنّني مع ذلك أعارض أشدّ المعارضة في أن نمسّ كتب الحديث، ونستبيح لأنفسنا حقّ التصرّف فيما نراه نحن من دسّ الدسّاسين.

كان لدى القدماء مقاييس وموازين للحكم علىٰ الأحاديث، استعملوها فيما سجّلوه لنا، وربّما كانوا علىٰ شيءٍ من حسن الظنّ ببعض الرواة؛ لمكانتهم وحسن القبول عنهم لما خفي من أحوالهم. وكيفما كان الأمر، فممّا لا شكّ فيه أنّ الذين جمعوا هذا التراث الضخم، وكانوا أقرب منّا إلى زمن مصدر الأحاديث، وأعرف منّا برجاله، قد بذلوا غاية جهدهم وأرهقوا أنفسهم في التحرّي، والتزموا الأمانة والدقّة، ولا اعتراض عليهم، وإنّما الكلام ينصبّ علىٰ أنّ ما جمعوه فيه اسرائيليات، وفيه ما ينافي الدعوة والعقل أو العلم الحديث.

وهذه نقطة استميح القارئ أن أقف عندما لأقول: إنّ هذا التراث تراث إسلامي خالد، وملك للمسلمين عامةً، لا لطائفةٍ دون طائفة، وإنّه ـ بما له وعليه ـ مصدر

كثير من الحركات الفكرية، وحجّة للآراء المذهبية، ومبعث للعقائد الكلامية، وما ليس ملكاً لفردٍ لا يتصرّف فيه فرد، ثم إنّ الأفكار تتغيّر بتغيّر الزمن، تختلف في زمن واحد حول موضوع واحد، ربّما يظنّ من البديهيات، فإذا أردنا أن نعالج النقص بحذف ما نراه نحن أنّه من الإسرائيليات، ورأي غيرنا أنّه من صميم الإسلام أو العكس، فأيّنا يكون على الحقّ؟ وما هو المقياس الصحيح؟

إنّ الذين أوصلوا إلينا هذا التراث بذلوا غاية جهدهم في تسجيله وتحقيقه وتصحيحه، فلا يجوز أن نقطع بتخطئتهم، فإنّ ما يخالف عقولنا اليوم كان يوافق عقلية أبناء العصور السابقة، ومن واجبنا أن نحمل هذا التراث إلى من بعدنا، وقد يصل رجال الغد في أمره إلى ما لم نصل إليه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

أمّا مسألة معالجة ما ينافي التوحيد، فإنّ المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام بفضل دعوته الصريحة لا شكّ أنّهم موحّدون وليسوا بمشركين.

والقرآن الكريم الذين هو عصب الدعوة الإسلامية، والذي لايختلف اثنان في قداسته والأخذ به، والذي هو نسخة واحدة لا تختلف في حرف ولا رسم في العالم الإسلامي كلّه، هذا القرآن وحده كفيل بتربية الموحّد ومن يجرؤ أن ينكر هذا؟ ومع ذلك هناك مسائل تراها طائفة أنّها شرك كالتوسّل بأصحاب القبور أو الشفاعة مثلاً، فهل نعالج هذه المسائل على أساس التوحيد الخاص بتلك الطائفة، أو نعالجها بما يتّفق ورأي كثير من المسلمين الذين لايرون في هذا ما يمسّ فكرة التوحيد؟

وهناك مسائل كلامية ليست وليدة اليوم، وإنّما ورثناها عن أقطاب الفكر والبحث وغواصي المعرفة في كل طائفة ممّن كوّنوا لنا مدارس فكرية نعتزّ بها إلى اليوم. فعلى أيّ أساس نعالج هذه المسائل وماذا يكون المقياس؟

وهناك مسائل ترتبط بالعصبيات إلى حدٍّ بعيد، كتفضيل صحابي على صحابي، فربّما رأى باحث غير هذا، أو رأى أن يسجّل بعض المآخذ على بعض الأصحاب ممّا ينافي رأي الآخرين في الصحابة، الذين يرون كل ذلك من دسّ الدسّاسين

ووضع الواضعين، فإذا جرى البحث فيما يحذف وفيما يبقى بين هؤلاء وهـؤلاء، فعلى أيّ أساس يكون ذلك، ومن الذي يؤخذ برأيه، ومن الذي يهمل؟ أم نحذف هذا وذاك مضافاً إليه ما لا يتمشّى ومذاهب أصحاب المعارف الكلامية، وما لايقرّه الطبّ الحديث بشأن الصوم، أو ما وصـل إلى خـلافه عـلماء الفـلك، أو لا يـتّفق مع الذوق!! ولو اقتحم هذا الميدان اثنان أو ثلاثة فلن يبقى لنا بـفضلهم مـن هـذا التراث شيء.

ونحن إذا نظرنا إلى الحديث من ناحية القداسة الدينية، وأنّه كلام فـوق كـلام البشر، فليس لنا أن نقيسه بالمقاييس العادية، أو نـحكم عـليه بـعقولنا البشـرية المحدودة، وإذا نظرنا إليه نظرة عادية فليس لنا حقّ التصرّف فيه، فالكلام المادي قد يتّفق مع بعض الأمزجة ويختلف مع بعضها الآخر.

فواجبنا إذاً أن نبقي عليه، مع ملاحظة أنّ من سبقونا غربلوا ما وصـل إليـهم، وسجّلوا ماثبت عندهم وإن كان يخالف مذهبهم، حـفظاً لهـذا التـراث واحـتراماً لقداسته، وبلغ الحرص ببعضهم أن جمعوا ما نقله رواة اشتهر عنهم الكذب في كتب خاصة، وذكروا أنّهم لم يأخذوا بها، ورغم ذلك جمعوها لئلّا تضيع، فقد يـصدق الكاذب أحياناً في حديثه ويكون هذا الذي رواه صادقاً فيه.

وقد يكون للأحاديث المكذوبة أو المعلولة فوائـد أخـرى فـي غـير الأحكـام الشرعية، كأن يستدلّ بها بعض الباحثين على شيوع فكرة معيّنة في وقت الراوي الذي رويت عنه، أو على تأثّر هذا الراوي بثقافة خاصة، أو على غير ذلك، فليس الاستدلال بالأحاديث مقصوراً على استنباط الأحكام الشرعية منها، ولذلك يرى بعض اللغويين أن يستشهد بنصوص الأحاديث الموضوعة في اللـغة إذا عـلم أنّ تاريخ وضعها يرجع إلى العهد الذي يجوز الاستشهاد بكلام أهله، لأنّها وإن كانت كذباً على الرسول في حكم شرعي، فإنّها نصّ عربي.

إنّ الباب ليس مقفلاً أمام الباحث، وله إن أراد التحرّي الدقيق أن يمحّص تلك

الكتب ويبحث حال الرواة، ويستعمل أساليب البحث العلمي الحرّ، ويأخذ بما في تلك الكتب أو لا يأخذ به، ويحكم على ما صحّحوه بأنّه لايعتمد عليه لكذا، وعلى ما نبذوه بالصحة بدليل كذا، وأمامه كتاب الله وهو الحكم المحكم بطرح ما يعارضه. أمّا أن يتصرّف في كتاب أو أثر على هواه فلا يجوز. نعم لكلّ امرئ أن يؤلّف كتاباً من عنده، ولكن ليس له أن يتصرّف فيما ليس ملكاً له، بل هو لصاحبه أولاً، وبالتالي للمسلمين عامة، والأمانة العلمية تحتّم علينا أن نوصله إلى أسلافنا كما تسلّمناه.

ثم ماذا يكون الحال لو جاءت طبقة أخرى من المولعين بالنقد والتحليل والغربلة فزعمت أنّ في القرآن ما لا يوافق العلم، أو أنّ فيه ما يجافي الذوق أو يخالف الطبّ، أو ما لا يعرفه علماء الهيئة ؟! أتراهم أيضاً يحاولون غربلة القرآن وقصره على ما يوافق عقولهم ؟!

وأكرّر ما قلته، وهو أنّ من المحتمل أن يكون فيما نتداوله وننقل عنه ونستند إليه من كتب الصحاح شيء من الإسرائيليات، أو ما أملته شهوات الحكّام وميولهم، أو ما حكمت فيه بعض الاتجاهات، ولكنّي أعارض أشدّ المعارضة في حذف كلمة ممّا وصل إلينا، وأكرّر ما سبق أن ناديت به، وهو أنّ الثقافة الإسلامية والتراث الإسلامي على اختلاف الطوائف والمذاهب ملك للمسلمين جميعاً.

الفصل الثاني

ابن سينا: بين الفرس والعرب

رغم تقدّم العلوم واتّساع دائرة البحوث في العصر الحديث، تلاحظ أنّ السماحة العلمية في عصر ابن سينا كانت أكثر جدّاً ممّا هي عليه الآن، وأعني بـالسماحة العلمية: تجرّد العلماء من التعصّب لبلد أو لغة، وإقبال طلّاب العلم على مـؤلّفات العلماء، دون نظر إلى مذهب المؤلّف أو عنصره.

نعم، لم يتعصّب العلماء القدامى للغاتهم الأصلية، وإنّما التمسوا اللغة التي رأوها أصلح لإبراز أفكارهم، وأنسب لتبليغ آرائهم، فاعتبروها لغتهم والتزموها.

وهذا التسامح بالنسبة للغة لم يقتصر على محيط العلماء، بل تعدّاه إلى كل بيئة ومكان حتّىٰ شمل بعض الملوك المتنافسين والبلاد المتناحرة، وخـير مـثل لذلك ملوك آل عثمان وملوك الدولة الصفوية. فالسلطان سليم والشاه إسماعيل كلاهما كان يتذوّق الشعر ويقرضه، إلّا أن الأوّل وهو السلطان سليم التركي كـانت جـلّ أشعاره بالفارسية، وله ديوان في الشعر الفارسي، والثاني وهـو الشـاه إسـماعيل الصفوي كان يقرض أشعاره بالتركية. هذا رغم الخصوصية واللدد بين الصـفويين وآل عثمان، وبين السلطان سليم والشاه إسماعيل بالذات، ورغم الحروب الدامية بين فارس وتركيا، ورغم الاخـتلاف المـذهبي الشـديد بـين الدولتـين، إذ كـان العثمانيون يحكمون باسم السنّة، والصفويون تقوم حكومتهم على الدعوة للتشيع،

ومن هذا يتّضح أنّ السياسة التي تقضي على كل رطب ويابس لم تكن ترى في اللغة شيئاً يحارب.

وفي ظلّ هذه السماحة المطلقة تمكّنت اللغة العربية من الانتشار والتوسّع، وانفسح أمامها الطريق وتعبّد، وأصبحت لغة العلم والعلماء بين المسلمين من ساحل الأطلنطي إلى الشرق الأقصى.

فهذا هو الفارابي وموطنه «ماوراء النهر» ولغته التركية، ألّف كتبه الفلسفية بالعربية، وعلي بن الطبري وهو من مازندران بطبرستان وضع بالعربية كتبه الطبية؛ كفردوس الحكمة، والرازي محمد بن زكريا من أهل الري قرب طهران، كتب مؤلّفاته: الحاوي الصغير، والحاوي الكبير، ورسائله الطبية وغيرها باللغة العربية، وأبو نصر سرّاج الطوسي وضع بالعربية كتاب اللمع في التصوّف، والغزالي الطوسي، وهو من خراسان ألّف كتبه المعتبرة بالعربية، وأكثر من هذا أنّ عمر الخيام النيسابوري وضع كتبه العلمية في الرياضيات باللغة العربية، وعلي بن عباس الأهوازي ألّف كتابه كامل الصناعة الطبية في الطب باللغة العربية، مع أنّه قدّم كتابه هذا إلى عضد الدولة الديلمي من حكّام إيران.

وللغة العربية عند علماء الشرق في البلاد الإسلامية نظير عند الغربيين في اللغة اللاتينية، فهذا فرانسيس باكون العالم المعروف والفيلسوف الانجليزي الشهير وضع كتبه باللاتينية، وديكارت فرنسي الأصل ألّف بنفس اللغة، والقدّيس توما داكن كتب كتبه باللاتينية، بل أنّ بيرو الجرّاح الفرنسي حين وضع كتابه باللغة الفرنسية أثار اعتراض الخاصة وتهكّم العامة، لأنّه تحوّل عن طريقة العلماء ولم يكتب كتابه باللاتينية التي ظلّت لغة العلم والعلماء في أوربا إلى نهاية القرن السابع عشر.

بقي أن نورد أهم الأسباب التي مكّنت للغة العربية، وساعدت على جعلها اللغة العلمية في البلاد الإسلامية، ذلك لأنّها كانت لغة الطبقة الحاكمة، فوق أنّها لغة الدين، وبها نزل القرآن الكريم حتّىٰ أصبحت كلمة العربية مرادفة للإسلام، كما نرى

ذلك فيما يرد في تعابير المستشرقين، ولأنّها تنفرد بمزايا جعلتها تصلح للتعبير عن المسائل العلمية، فوجود الصيغ والأوزان والاشتقاق، جعلها مرنة يسهل بواسطتها التعبير عن أيّ معنىً غامض، أضف إلى ذلك أنّ كثيرين من مترجمي صدر الإسلام كانوا من السريانيين، كحنين بن إسحاق وولده إسحاق بن حنين وأمثالهما، وقد نقلوا التآليف إلى السريانية، فسهل نقلها إلى العربية، لما بين اللغتين الساميتين من تشابه، وحسب العربية فخراً أنّها كانت تنتشر دون ضغط أو دعاية، بل بطبيعتها وقيمتها.

وابن سينا أحد الذين وضعوا جلّ مؤلّفاتهم بالعربية؛ ومؤلّفاته بالفارسية وإن كانت قليلة بالنسبة لما ألّفه بالعربية، إلّا أنّها فوق قيمتها العلمية تعدّ خدمةً للمكتبة الفارسية، لما وضع من المصطلحات الفلسفية في تلك اللغة.

فما موقف ابن سينا بين الفرس والعرب؟

لقد سئلت مرة في حفلٍ عن رأيي في ابن سينا، فقلت: ليس بفارسي. قال السائل مندهشاً: أترون أنّه عربي؟ قلت: وليس بعربي. قال: إذن فتركي؟ قلت: ولا بهذا أيضاً. قال: فماذا يكون؟

قلت: مثل ابن سينا كمثل الشمس، إنّه للعالم كله، وليس لبلدٍ دون آخر، وإذا كان من حسن حظّ إيران أنّه ولد فيها، وخدم ملوكها وحكّامها، ومات بها ودفن في أرضها. فإن قيمته بعلمه لا بجسده، وقيمته العلمية للإسلام، ومن الإسلام بل للعالم أجمع.

واليوم تقدر العروبة هذا الرجل الذي قدّم للمكتبة العربية مجموعةً قيّمةً من التآليف العربية، ومن ثم كان احتفال البلاد العربية بعيده الألفي، وكان احتفال إيران بهذا العيد أيضاً، كلا الاحتفالين يشترك فيه العرب والفرس، ويساهم فيه المهتمّون بالثقافة من العالم المتمدّن، فمرحى بهذا التقدير الجليل، ورحم الله ابن سينا الذي خدم العالم بعلمه، ونبذ التعصّب للعنصر أو اللغة، واليوم تنبذ التعصّبات في سبيل الاحتفال بذكره، فتطلب إليّ اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية لتخليد ذكرى ابن

سينا التي أتشرّف بعضويتها، أن أكتب عن ابن سينا بين الفرس والعرب ـ وإن كنت أرىٰ أنّ ابن سينا ليس بين الفرس والعرب، وأنّه للفرس والعرب كليهما، بل وللعالم المثقّف كله ـ وهي إذ تطلب هذا، تضرب مثلاً في البعد عن كل نواحي التعصّب، وهو ما لمسته فعلاً في جلساتها المتكرّرة، ممّا يجعلني أتطلّع إلى مستقبل الثقافة في البلاد الإسلامية بعين المتفائل المستبشر.

وممّا هو جدير بالذكر، ولابد من تسجيله هنا: أنّ الترابط الثقافي، وبالتالي التعارف بين أبناء الشرق ـ والبلاد الإسلامية بوجه خاص ـ كان عند آبائنا رغم صعوبة الأسفار، وانعدام المواصلات السلكية منها أو اللاسلكية أو البريدية المنظمة، وعدم اختراع الطبع (المطبعة)، كان أكثر بكثير ممّا نحن عليه في عصرنا هذا، وذلك لعوامل تتحكّم ـ مع الأسف ـ فينا لسنا بصدد ذكرها الآن.

وكيفما كان نرى هذا الاحتفال خطوةً مباركةً في سبيل التقريب بين المسلمين والتعارف بينهم، نرجو أن تتبعها خطوات أخرى من هذا القبيل، وبهذا الروح النبيل إن شاء الله.

القسم الثالث

مشاريع التقريب

للعقل لا للعاطفة

للعقول وليس للعواطف

بين أيدينا مشروع علمي جديد لدار التقريب[1]، هو: «جمع الأحاديث التي اتّفق عليها الفريقان ـ أهل السنّة والشيعة ـ في مختلف أبواب الإيمان والعمل والأخبار والأخلاق، وغير ذلك من أبواب السنّة المطهّرة».

وهو مشروع جليل، عنوانه يدلّ على جسامته، وشموله يجعله الأوّل من نوعه، وتعدّد أبوابه يوضّح مدى تأثيره في سير التقريب، وفي اتّجاه الدراسة والبحث مستقبلاً، وفي تقوية الروابط العلمية والفقهية بين مذاهب المسلمين.

ونحن الآن لسنا بصدد شرح المشروع وتوضيح آثاره، وإنّما نحن بصدد الإجابة على سؤالين:

الأوّل: هل نحن إذ رسمنا هذا المشروع، قدّرنا ما يحتاج إليه من الرجال والوقت والجهود؟

والثاني: ألم يكن نجاح دعوة التقريب في هذه المدّة الوجيزة ـ التي تعتبر في عمر الدعوات كأيام ـ يغنينا عن هذا المشروع الذي يستغرق السنين الطوال، ويتطلّب الجهود الجبارة؟

إنّ التفكير في الرجال هو الشرط الأوّل لنجاح أيّ مشروع، بل أنّ التفكير في

---

١. نشرت رسالة الإسلام في العدد ٥٠ مقالاً حول هذا المشروع تحت عنوان: «مشروع علمي جليل بين شلتوت والقمي» سنأتي عليه في الفصل التالي.

الرجال يجب أن يسبق دوره أيّ إعداد لأيّ مشروع. ولعلّ الله أراد لهذا السبب أن يكون التفكير في هذا المشروع بعد انقضاء سنوات من عمر التقريب، انتشرت فيها دعوته، واجتذبت حولها خيرة العلماء والفضلاء في كل بلد من بلاد الإسلام، وأظهرت كفاءات لم يكن أصحابها يجدون مجالاً للعمل فجنحوا إلى الصمت والانزواء، وكشفت عن شخصيات لها في العالم مكانة، وفي البيان قوة، وفي التفكير رشد وسداد، هذا فضلاً عن أعلام من ذوي الزعامة الدينية يشار إليهم بالبنان، انضمّوا إلى هذه الدعوة، وجعلوها رسالتهم الأساسية، يؤدّونها ابتغاء مرضاة الله، ويخدمونها تثبيتاً لدين الله.

هؤلاء وأولئك هم رجال التقريب المنتشرون في كلّ بقعة من بقاع العالم الإسلامي، وعليهم ـ بعد توكّلنا على الله ـ نعتمد في تنفيذ هذا المشروع، والنتيجة بعون الله وتأييده مضمونة، فإنّ الله الذي هيّأ الجو لدعوة التقريب، فنجحت بفضل إخلاص هؤلاء الرجال وتفانيهم، سيهيّئ الجو ويعين على تنفيذ هذا المشروع، وسينفذ بإذن الله على مراحل، وستوزّع الأعمال على علماء الفريقين في مختلف البلاد.

فلنا إذاً أن نطمئنّ السائل الكريم.

أمّا عن سبب حاجة التقريب إلى مشروع ضخم كهذا، رغم نجاح دعوتنا، فإنّ نظرةً واحدةً إلى سير الدعوة يكشف عن سرّ نجاحها، إنّها نجحت لأنّها جاءت على أساس علمي، وجعلت البحث العلمي وسيلةً لعلاج ما أرادت إصلاحه، ولهذا السبب كانت محدّدة الأهداف، بعيدةً عن الارتجال، بعيدةً عن مسايرة العواطف، فإنّ السير على أساسٍ من العلم والدراسة هو في نظرنا سبب النجاح.

إنّ التقريب الذي كان يوماً أملاً وحلماً في صدور المصلحين، أصبح فكرةً مدروسةً، ودعوةً عالميةً عالية، وهو اليوم حقيقة واقعة ملموسة.

فملخّص القول: أنّ دعوة التقريب جاءت لتكون ـ في الإسلام ـ مدرسةً فكريةً علميةً، لها قواعدها وأسسها، جاءت لعلاج التفكّك والاضطراب اللذين سببهما

سوء فهم الخلاف المذهبي على حقيقته، جاءت لتضع الأمور في نصابها بالنسبة لأيّ خلاف، فلم تحاول إجراء علاج مؤقّت، أو تخدير موضع المرض، أو تهدئة الخواطر بكلمات معسولة، وإنّما جاءت لتكون مدرسةً لها منهاج واضح، وهدف محدود، وشتّان بين مدرسة فكرية تقوم على أسس مدروسة، وقواعد محدودة، وبين خطب رنّانة ومقالات عابرة.

وليس معنى هذا أنّنا نقلّل من قيمة أيّ مجهود بذل، فكلّ مجهود فردي سبقنا كان له تأثيره، ولكن في محيط محدود، ولزمنٍ محدود، وسيجزي الله كل مجاهد عن الإسلام بمقدار ما قدم، ولعلّنا انتفعنا كثيراً من تلك المحاولات الفردية، بل أنّنا على ضوء تلك الجهود أدركنا أنّ وضع الدعوة على أساس علمي مدروس، وعلى أكتاف رجال لهم قيمة ومكانة يضمن لها النجاح الشامل، كما يكتب لها الخلود، لأنّ كل علاج على أساس عاطفي سرعان ما يزول.

إنّ إثارة العواطف أمر سهل ميسور، وإنّ كلمةً تلقى في ظروف مناسبة كفيلة بأن تحرّك العواطف وتهزّ القلوب، لكن هذا التأثير بقدر ما يكون سهلاً سريعاً تزول آثاره بنفس السرعة والسهولة بزوال الظروف المؤاتية، أو بطروء طارئ جديد، والعواطف كما يمكن إثارتها لفكرةٍ ما، يمكن أن تثار على نفس الفكرة إذا هيّجت ضدّها، وإذا فرض وأثّرنا اليوم على فرد من الأفراد أو مجموعة من الناس، فكيف نضمن غداً أنّ هذا الفرد أو هذه المجموعة لا تقع تحت تأثير من يخالفنا.

إنّ الرجل قد يكون من القوة الروحية والمنطقية بحيث يؤثّر في من يستمع إليه، إلّا أنّ ذلك التأثير محدود طبعاً بزمانه وبسامعيه، ومثل هذا لايناسب دعوةً تريد أن تبقىٰ كأساس حي يرجع إليه في أيّ زمان ومكان، فلابد لها إذاً من قواعد محدّدة، وآثار ثابتة، لتبقىٰ كمرجع ثابت قوي، ولعلّ هذا يفسّر لنا سرّ الإيحاء إلى كلّ نبي من المرسلين بكتاب سماوي، ليكون المرجع الثابت والأثر الباقي الذي يحكم الناس بقواعده، ويرجعون إلى تعاليمه.

وكيف يمكن أن تعالج على أساس عاطفي مشكلة عمرت قروناً، وملأت صحائف التاريخ، وتحصّنت وراء الأقلام المفرّقة أحياناً، والمأجورة في أكثر الأحايين، مشكلة رسّخت في النفوس أوهاماً أصبح الناس يعتبرونها حقائق ثابتة ؟!

تلك هي مشكلة تشكّك كل فريق في كل ما يصدر عن الفريق الآخر، بل في كل ما يعتقد به، مشكلة بغض كل فرقة للأخرى، واتّخاذ البغض شعاراً يدفع إلى تصديق كل ما يقال في الخصوم، بل توهّم كل ما ليس بحسن وإلصاقه بالخصوم.

ونحن لسنا بصدد حالة الفريقين حين بدأت فكرة التقريب، وكيف كان أهل السنّة يعتقدون أنّ القرآن عند الشيعة يختلف عمّا هو عندهم، وكيف كانوا يؤوّلون معاني العبادات، حتّىٰ لكأنّ الصلاة عندهم لم تكن لله، وكأنّ السجود لم يكن إلّا للتراب، وكأنّ الحج لم يكن يقصد به إلّا ما يخجل الإنسان من ذكره، بل كانوا يرون أنّ الشيعة إن لم يكونوا يؤلّهون علياً فإنّهم على الأقلّ يرونه أحقّ بالنبوّة من سواه ؟!

وأمّا مطاعن الشيعة، فأقلّ ما كانوا يقولون في أهل السنّة أنّهم مجسِّمة، وأنّهم نواصب، وأنّهم يكرهون أهل البيت عليهم السلام !

أمّا عن كتب هؤلاء وهؤلاء، فقد انعدمت سنّة الاطّلاع فيها، اللّهم إلّا لتصيّد بعض الشواذّ التي تستغل في التجريح وتوسيع شقّة الخلاف بين الفريقين.

فهل كان للتقريب أن يرسم خططه على أساس ترك الرواسب كما هي، وترك المسلمين كلّاً على رأيه، واتّخاذ طريق الخطب العاطفية، والتودّد المؤقّت، أم نفتح طريقاً للبحث والدراسة، ونجعل شعاره القراءة والاطّلاع لنعالج المشكلة على أساس مدروس يبقىٰ على الزمن ؟

ولو أنّنا أخذنا المسألة من الجانب الأكثر يسراً، وجعلنا العلاج على أساسٍ من العاطفة، لكان الطريق أمامنا سهلاً، لكنّنا نكون مخدوعين إن حسبنا أنّ هذا علاج ناجع للمشكلة، إنّنا بهذا ربّما نخفيها حيناً، لكنّها بغير شكّ تبرز مرةً أخرى حين تريد السياسات المفرّقة أو الأغراض الذاتية.

ومع يقيننا من أنّ الدعوات العاطفية تمشي سريعة في الناس إن أمكن إثارة عواطفهم، والدعوات المنهجية تسير وئيدة بطيئة، فقد اخترنا هذه دون تلك، لأنّ الأولى تزول بزوال المؤثّر، والثانية تدوم بداوم الفكرة، وفرق كبير بين جهدٍ يبذل لإثارة العواطف، وبين جهودٍ كبيرةٍ تُبذل للإغراء بالدراسة والبحث.

ولذلك جعلت الفكرة على أكتاف مجموعة ممتازة من الرجال العاملين، الذين بذلوا جهودهم، وجعلوا الفكرة سمتهم، فكان لهم تأثيرهم، وانضمّ إليهم كل عالم ومفكّر، واشتركوا جميعاً في حمل هذه الدعوة، لأنّها جاءت كمدرسة فكرية تقوم على أساس علمي مدروس.

إنّ مدرسة التقريب ما جاءت لإزالة الخلاف، بل جاءت للدراسة فقط، والدراسة أظهرت أنّ هناك خلافات أوجدتها الكراهية، وأقبل عليها المقبلون حبّاً في الخلاف، وهذا النوع كان مصدر البلاء، وسبب التقاطع والتدابر، وهذا خلاف نأباه. وهناك خلاف في الرأي وخلاف حول الرواية؛ يقوم لثبوت رواية أو عدم ثبوتها، فلا بأس على الباحث المسلم أن يختلف مع غيره فيه، ما دام الخلاف يجول في ميدان لايضرّ الخلاف فيه بالإيمان، وهذا الخلاف هو الذي ترضىٰ به وترحّب به مدرسة التقريب، بل وتظهره حين ترى أنّ إبرازه يفتح آفاقاً علميةً جديدةً، والخطوات المستمرّة في التقريب جاءت واحدة تلو أخرى، على هذا الأساس تواجه الحقائق ولا تتهرب منها، لا تتستّر على خلاف، ولا ننكر على المسلمين حقّهم في أن يبحثوا وأن يختلفوا مادام هذا مستمدّاً من دليل ثبتت دليليته شرعاً.

فالدليل لابدّ أن يُحترم، من أيّ أفق طلع.

ومن المعروف أنّ دعوة التقريب لم تقم على أساس تنازل أيّ فريقٍ عن جزء ممّا عنده إرضاءً للفريق الآخر، ولا اجتذاب العواطف على حساب أيّ حقيقة من الحقائق، أو على حساب تشويه التاريخ، بل كانت دعوة صريحة تهتم بموارد الخلاف، وكنّا كلّما تقدّمنا في هذا الميدان ازداد إيماننا بأنّ الأكثرية الساحقة تلتقي في كثير من نقط الوفاق.

فالمسلمون يتّفقون في كتابهم، وهو الأصل الأوّل، وهو الذي بقي سليماً، فلايختلف مسلم مع مسلم على سورة أو آية أو كلمة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾ وإذا كان هناك خلاف في تفسير آية، فإن هذا يرجع إلى الاختلاف في ثبوت وعدم ثبوت ما روي من السنّة.

وأمّا السنّة فكما ذكرنا في مقالاتنا مراراً، وكما ذكر في رسالة الإسلام أخيراً ص ٢١٨، ٢٢٠ من العدد ٥٠: «إنّ جميع المذاهب الإسلامية تؤمن بالسنّة النبوية المطهّرة كمصدر مقدّس من مصادر الشريعة، مثلها في ذلك كمثل القرآن الكريم، فليس لمسلم أن ينكر حجّية السنّة، شيعياً كان أو سنّياً، وليس في هؤلاء وهؤلاء من يقول: هذا الحديث صحّ وروده عن رسول الله ﷺ ومع ذلك فلا أعمل به، ولست ملزماً شرعاً بالعمل به، ولكن ربّما يقول قائل من هؤلاء أو هؤلاء: هذه الرواية لم تصحّ عندي فأنا لا أعمل بها، وإنّنا لنرى هذا بين علماء أهل السنّة أنفسهم في مختلف مذاهبهم، كما تراه بين علماء الشيعة في نطاق المذهب، ومع المذاهب الأخرى، فكم من أحاديث صحّت عند فقيه ولم تصحّ عند آخر، وكم من أحكام فقهية خلافية انبنى الخلاف فيها على موقف كلٍّ من قبول حديث معيّن أو عدم قبوله».

والواقع أنّه لا غضاضة في ذلك ما دام الإخلاص هو رائد الجميع، وما داموا كلّهم مؤمنين بالسنّة كأصل من أصول التشريع، وبأنّه لايجوز لمسلم أن يرفض ما صحّ عن رسول الله ﷺ.

ويتلخّص هذا المبدأ المسلَّم به عند الفريقين في أنّ الاختلاف ليس واقعاً في كبرى القياس، وإنّما يقع أحياناً في صغراه، فإذا قلنا في قياس من الشكل الأوّل عند المناطقة: هذا الأمر قد ثبت عن رسول الله ﷺ، وكل ما ثبت عن رسول الله ﷺ يجب العمل به، كان معنا مقدّمتان، الأولى منهما: هي المعروفة عند المناطقة بالمقدّمة الصغرى، والثانية: هي المقدّمة الكبرى، فإذا سلمت المقدّمتان صحّت

النتيجة، وهي هذا الأمر يجب العمل به.

فالمسلمون لايختلفون في المقدّمة الكبرى التي تقول: كل ما ثبت عن رسول الله يجب العمل به، بل كلّهم يؤمن بها إيماناً لايعتريه الشكّ، وكلّهم يعتبر هذا الإيمان ركناً أصلياً من أركان الإسلام، من شذّ عنه خرج من ربقة الإيمان.

لكن الخلاف حين يوجد إنّما هو في المقدّمة الصغرى التي تقول: هذا الأمر ثبت ورووه، فيقول بعضهم: نعم ثبت فأقبله، ويقول بعضهم: لم يثبت فأنا لا أقبله.

ولذلك اشتهر بين علماء المناظرة قولهم في بعض الأحيان: هذا الخلاف صغروي لا كبروي، أو خلاف في الصغرى دون الكبرى، هذه حقيقة، وهناك حقيقة أخرى نؤمن بها ونعمل على تجليتها، وندعو الناس إلى الإيمان بها: تلك هي أنّ العدد الأكبر ممّا ورد عن رسول الله ﷺ في شؤون العقيدة والشريعة والأخلاق وسائر الجوانب التي جالت في ميادينها السنّة المطهّرة قد اتّفق عليه كلا الفريقين، فهو وارد عن طريق صحيح يرتضيه كلٌّ منهما، أو وارد من طريقين لهؤلاء وهؤلاء، تطابقا عليه لفظاً أو معنى، وأنّه لا يوجد خلاف إلّا في العدد الأقلّ من أحاديث الأحكام أو الأخبار، وليس هذا العدد الأقلّ من حسن الحظ في الأصول التي لا يكون المسلم مسلماً إلّا بها.

ورغم هذا الذي يعني أنّ المسلمين متّفقون كبروياً على السنّة، ويعتبرونها الأصل الثاني للأحكام من غير منازع، وصغروياً على إثبات كثير ممّا يروىٰ باعتباره من السنّة على اختلاف الرواة، إلّا أنّ الشكل الذي أخذه يعطي صورةً للخلاف.

كل فريق له صحاحه ـ أيّ كتبه التي تعتبر صحاحاً في نظره ـ وصحاح هذا الفريق غير صحاح ذاك الفريق، وبهذا يأخذ مظهر الصنفين المتخالفين، وأيّ مظهر من مظاهر الخلاف أكثر من هذا؟ لو كان ما في الصنفين من الصحاح مختلفاً كل الاختلاف، لقلنا: نحن على اختلاف، واسترحنا، ولكن الدارس لصحاح كلا الجانبين يرى أنّ الروايات الوفاقية هي التي كبّرت في الغالب أحجام تلك الصحاح

وكم هو مؤسف أن مظهراً يمكن أن يستفاد من وفاقه، يعطي صورة الخلاف المطلق، كل صنف منعزل عن الآخر، ودارس هذا غير دارس ذاك، اللّهم إلّا أن يقصد الدارس اصطياد شاذّ ليهاجم به الآخر كسندٍ يمكن أن يعتبر نقطة ضعف، وعلى سبيل المثال في الأحكام، هذه الصلاة، وهذا الصوم، وهذا الحج، وغير ذلك من العبادات التي نحمد الله تعالى على أنّ المسلمين اليوم يعرفون أنّهم متّفقون فيها، وإذا كان هناك خلاف مثلاً في الصلاة فلا يتجاوز مسألة الجهر والإخفات بالبسملة، أو وضع اليدين أو إرسالهما الذي هو موجود بين مذاهب أهل السنّة نفسها، مع أنّ مجموعة الأحكام في الصلاة تبلغ المئات.

هل ورد في الكتاب الكريم بشأن هذه العبادات أكثر من آية أو آيات معدودة كـ﴿أقم الصلاة﴾، أو ﴿كتب عليكم الصيام﴾، أو ﴿ولله على الناس حج البيت﴾، مع ترك الشرح والتفسير وبيان الأركان والشروط والواجبات وما يستحبّ للسنّة، وإذا لم تكن السنّة بطريقها في الروايات متفقة، هل كانت هذه الشعائر تؤدي بالصورة الوفاقية؟

فالروايات إذاً مع اختلافها من حيث الطرق، متفقة على إثبات ما هو المهم في الأحكام، وإذا بدأ التقريب يجمع ما هو متفق عليه، فهذا ـ فضلاً على أنّه يتمشّى مع مبدئه ـ فإنّه لا يمسّ التراث الإسلامي بحذف أو تعديل أو تحريف، فهو يرىٰ أنّه مع بقاء صحاح كلّ فرقة على ما هي عليه إذا جمع ما هو متفق عليه بين الصحاح تظهر النتيجة، بحيث يجد المسلمون فيها عجباً عجاباً، فيصبح ما يتصوّرونه السند القوي للخلاف خير برهان للوفاق، ونتخلّص بذلك من كثير من محاولات التبعيد والتقطيع، وفي نفس الوقت، فإنّ الروايات الخلافية تبقىٰ في دائرتها الخاصة، وهي محدودة طبعاً، ويسهل على الدارس أن يتعمّق في في الروايات التي ينفرد بها فريق دون آخر، هذا وإنّ الروايات الشاذّة عند فريق يوجد في الغالب مثلها عند الفريق الآخر، وتعتبر شاذّة في نظر مخالفيه.

إنّنا لا ننكر أنّ التعصّبات عملت عملها، والأغراض دخلت بأشكالها، والمذهبية لعبت دورها في رواية الأحاديث، وأنّه أدخلت أقوال رجال كان من الأفضل التدقيق فيهم، وأبعد رجال بداعي طعن أو استناداً إلى طعن هو عند المحقّق يعتبر ممّا يثبت جدارته للأخذ عنه.

ونحن في التقريب على مبدئنا، نهتمّ بحفظ التراث، وعدم إدماج بعضه في بعض، ونهتمّ بإطلاع المسلمين على الوفاقيات بينهم، وتخريج ما اتفق عليه الفريقان، والدراسة ستحكم، وسيترتّب عليها من الخير للمسلمين، والربط بين قلوبهم، والتقريب بين مذاهبهم ما سوف يسجّله التاريخ.

إنّ التعصّبات احتجزت كثيراً ممّا في هذه الكتب، بحيث إنّ بعض أصحاب المذاهب حينما يسمعون شيئاً ـ وهو عندهم ـ يبدو وكأنّه غريب لم يسمعوا به من قبل، ولعلّ القارئ اقتنع معنا أنّ للتقريب كمدرسة فكرية إسلامية أن يطرق هذا الباب رغم ما يتطلّب من جهود ووقت ورجال، وذلك بعون الله.

القسم الرابع

كتب في ميزان التقريب

انتماء وأصالة

ويشتمل على ثلاثة فصول:

* الأوّل: مقدّمة كتاب مجمع البيان لعلوم القرآن
* الثاني: مقدّمة كتاب المختصر النافع في فقه الإمامية
* الثالث: مقدّمة كتاب شرح اللمعة الدمشقية في فقه الإمامية

الفصل الأوّل

مقدّمة كتاب

مجمع البيان لعلوم القرآن[1]

كل ما أثمره الفكر الإسلامي ـ وفي مقدّمته ما يتّصل بالقرآن الكريم ـ هو ملك للمسلمين جميعاً، فلقد اتّجه إليه مفكّروهم من كلّ جنس وصقع، وأسهم فيه أفذادهم بما أبدعته قرائحهم المتّقدة، ومحصته عقولهم الكبيرة، وفاضت به قلوبهم المؤمنة، وخلّفوه لهذه الأمة تراثاً عزيزاً هو ما نسمّيه بالثقافة الإسلامية، وهي من أعظم الثقافات التي عرفها التاريخ، بل أنّها في عصرها الذهبي كانت أعظم ثقافة في العالمين.

لقد نشأت هذه الثقافة ونمت وأثمرت في سرعةٍ حيّرت الكثيرين ممّن بحثوا سرّ قوتها، وحاولوا تعليل سرعة تكوّنها وانتشارها، وفاتهم أنّها تدين بوجودها ونمائها وانتشارها قبل كل شيء لذلك الكتاب الكريم، الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

أجل! إنّ شعوباً وأُمماً أسلموا وصدّقوا بكتاب الله، واعتقدوا أنّه الحقّ، وأنّه المبين النور، وأنّه حبل الله المتين، وأنّه الأصل الأوّل للتشريع، وأنّه موجّه إليهم

---

١. وكان قد تمّ طبعه ونشر من قبل دار التقريب عام ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٢م.

جميعاً، لا فرق بين أبيضهم وأسودهم، فاستمسكوا به، وتـوجّهوا بـقلوبهم إليـه، وبذلوا جهدهم ليجيدوا قراءته، وليفهموا معانيه، وليدركوا أسراره. وهكـذا التـقت العقول في صعيده، وتركّزت الأفكار حوله، وامتلأت القلوب بما فيه مـن مـبادئ إنسانية سامية، ومن مثالية رفيعة، فذابت العصبيات في الأفراد، وبطلت العنصريات في المجتمع، وتكوّن من شتّى الشعوب المسلمة أمـة واحـدة، لا تـؤمن بـجنسية إلّا جنسية العقيدة، ولا تتعصّب لفكرة سوى فكـرة التـوحيد، ولا تـعتزّ بـمبدأ إلّا بمبادئ الإسلام.

ولولا ما وقع من الأحداث في هذه الأمة، وما اقترفه الحكّام من جور وعسف، وإحياء للنعرات العنصرية، وإثارة للعصبيات المذهبية، لولا هـذا وأمـثاله لكـانت حالنا اليوم غير هذه الحال، ولكانت ثقافتنا في الطليعة، تطّرد في النمو، وتأخـذ دائماً بيد البشرية إلى المعاني السامية، وتصونها من التردّي في حمأة المادية الجافّة التي تجرّ إلى الدمار؛ لبعدها عن المعاني الروحية.

إنّ ما فعله الحكّام كان يكفي للقضاء على أيّة فكرة جديدة ـ لا سيّما والذيـن اعتنقوا الإسلام لم يعتنقوه إلّا متأثّرين بما فيه من مثالية رفيعة ـ فما الذي أبقىٰ على الفكرة الإسلامية؟ وما الذي أقرّ الطمأنينة في نفوس المسلمين؟ وما الذي ضاعف ثقتهم بهذا الدين رغم ما رأوه من انحراف وما تعرّضوا له من عنت، ورغـم الفـتن العظمىٰ، وما أصاب كثيراً من الحقائق من مسخ وتشويه؟

إنّه القرآن وحده! لقد بقي سليماً، ووقف في الميدان يبدّد من القـلوب اليأس، ويمحو من النفوس رواسب الضعف، ويشرق على العقول بما فيه من مبادئ ومثل لا يضيرها أن تعطل حيناً، ولا تنال منها كثرة الفتن، بل يستعان بها على الخروج من كل فتنة، مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ الذي رواه علي أمير المؤمنين عليه السلام والذي يقول فيه:

«سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّها ستكون فتن، قلت: فما المـخرج مـنها يـا

رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة ردّ، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغىٰ الهدى في غيره أضلّه الله، هو حبل الله المتين، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي من عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه دعا إلى صراط مستقيم».

وكتاب هذه صفته لابد أن يجد من المؤمنين به أشدّ الاهتمام، وأول مظهر من مظاهر اهتمامهم به شدّة حرصهم على قراءته، فلقد تعلّم الأميون من العرب القراءة والكتابة ليقرؤوه ويكتبوه، وتعلّم المسلمون من غير العرب لغة الضاد ليقرؤوه ويتدارسوه، فكان أعظم مؤثّر في تثقيف الأمة، والله أعلم حيث سمّاه قرآناً وكتاباً، وهما الوصفان البارزان للقراءة والكتابة.

وحين لمسوا الحاجة إلى ضبط إعرابه وكلماته لتوقّف فهم المعنى الصحيح على ذلك؛ زادت عنايتهم بالنحو والصرف، واهتمّوا بمعاني مفرداته وغريب كلماته، فتعمّقوا في اللغة، وتضلّعوا فيها، ودرسوا ما ورد من أشعار الأقدمين، واستتبع هذا وضع المعاجم والقواميس، وبحث المغازي والأيام.

ثم اهتمّوا بفصاحته وإعجازه، فوضعوا علوم البلاغة من المعاني والبيان. ومن الطريف أنّ فريقاً درس «العروض» لا ليقرض الشعر، ولكن ليثبت أنّ القرآن ليس بشعر!

ولقد شارك في كل هذا بأوفى نصيب مسلمون لم تكن لغتهم العربية، ولم تكن بلادهم في أرض الجزيرة: كالزمخشري وسيبويه والفيروزآبادي وأبي علي الفارسي والجرجاني وغيرهم من مختلف بلاد المسلمين؛ كسمرقند وبخارى وغرناطة وقرطبة.

فلماذا كرّس هؤلاء حياتهم وسخّروا نبوغهم لخدمة لغةٍ ليست لغتهم؟

إنّهم فعلوا ذلك لأنّ العربية هي لغة القرآن، والقرآن هو كل شيء في حياة

المؤمنين، ولو أنّ هذا الكتاب الكريم نزل بلغةٍ غير العربية لكرّس هؤلاء حياتهم لها، ولقدّموا من الخدمات لها مثل ماقدّموه للعربية.

وكان من نتيجة الاهتمام البالغ بالعربية أنّها أصبحت لغة العلم والعلماء عند المسلمين، كمثل اللغة اللاتينية التي كانت لغة العلم عند الغربيين قروناً عديدة، بل أصبحت كلمة العربية مرادفة لكلمة الإسلام، والمستشرقون إلى الآن في تعبيراتهم يأخذون بهذا المعنى الأخير.

وكما أدّى اهتمام المسلمين بألفاظ القرآن إلى وضع علوم اللغة، كذلك أدّى اهتمامهم بمعانيه إلى فتح أبواب علوم كثيرة جعلت من هذه الأمة رائداً للفكر البشري، وموطناً للمعارف والعلوم قروناً وقروناً.

فما في القرآن من المباحث الروحية أوحىٰ بكثير من المعارف الكلامية والسلوك الروحي.

وما فيه من الأمر بالتدبّر والنظر فيما خلق الله فتح آفاقاً جديدةً للفكر حول الأرض والأرضيات والسماء والسماوات، وحول قدرة الله الخالق المبدع المصوّر.

وما فيه عن القبلة ومواقيت الصلاة والأهلّة كان له أكبر الأثر في العناية بالحساب والفلك وتقويم البلدان.

وما فيه من قصص السابقين وأخبار الأنبياء والمرسلين أغرىٰ بالتطلّع في التاريخ من أقدم العصور.

وما فيه من ذكر للتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية دفع إلى البحث في كتب الأقدمين، والعناية بدراسة لغاتها بتدقيق.

بل أنّ المعارف الكلامية وما انبثق عنها من معارف فكرية بين المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، إنّما كان أساسها الفهم من القرآن، وقد تمخّض الخلاف بين هؤلاء وأولئك مع ما لازمه من العنف والشدّة في بعض الأحايين عن صقل في الفكر، وتقدّم في أساليب النظر.

ذلك بأنّ المسلمين حين اتّسعت دائرة تفكيرهم واحتاجوا إلى مناقشة ما جدّ من مسائل فكرية توسّلوا بالمنطق في الاستدلال والمناظرة، وهو علم لم يكن له عندهم وجود، وإنّما نقلوه ليخدموا به عقيدتهم، وهم لم يستعيروا من غيرهم المنطق فحسب، وإنّما استعاروا كل سلاح فكري يمكن أن يخدموا به دينهم، وأخذوا من كل حضارة علمية أو عقلية ما يستطيعون به تدعيم فكرتهم.

مثل ذلك ما حدث بالنسبة للفلسفة، فحين أحسّ بعض العلماء أنّ الفلسفة بجانب الدين من شأنها أن تقوّيه، استعاروا فلسفة اليونان، وصبغوها بلون تفكيرهم، فإذا بهذه الفلسفة التي خدمت الوثنية في نشأتها، واستعانت بها الكنيسة في خدمة التثليث من بعد، توجّه عند المسلمين إلى خدمة المعاني القرآنية؛ كإثبات الوحدانية، والقدم، والبقاء، والرسالة، والمعاد وغيرها.

وأمّا الاهتمام بالحديث فأساسه اهتمام المسلمين بأحكام القرآن، فإنّ روح الإجمال الذي يسيطر على أسلوب الكتاب في كثير من الأحكام اقتضى البحث عن الحديث، لأنّ الرسول صلوات الله عليه وآله هو الذي كان يتولّى الإبانة والإيضاح ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1].

ومن هنا اشتدّت العناية بجمع ما روي عن رسول الله، فتكوّنت ثروة حديثية ضخمة لا مثيل لها في الشرائع، وأدّى ذلك إلى تكوّن الحديث روايةً ودرايةً، والعناية بمسائل علم الجرح والتعديل.

وقد برز في استنباط الأحكام من الكتاب والسنّة فقهاء نوابغ، استطاعوا بفضل اجتهادهم أن يجعلوا الفقه يساير الزمن، واستحقّوا بسبب تفانيهم في خدمة الشريعة أن يكونوا قادةً للفكر، وأصحاب مدارس للرأي، وأئمة لمذاهب فقهية مختلفة تزداد نموّاً وازدهاراً بفضل الاجتهاد الذي لولاه ما وجد أئمة الفقه، أربعة كانوا أو

---

١. النحل: ٤٤.

ستة أو اكثر، ولا كانت تلك المذاهب التي يتعصّب لها أتباعها، ولا وجدت الآراء المختلفة التي انتفع بها المجتمع الإسلامي في كل ما جدّ من شؤون.

وطبيعي أن يتولّد بين المذاهب خلافات، بيد أنّها ترجع في أساسها إلى فهم آية أو عدم صحّة رواية، يستوي في ذلك ما بين مذاهب أهل السنّة بعضها وبعض، وما بينها وبين مذاهب الشيعة. فهؤلاء وهؤلاء يجمعهم كتاب واحد، لا يختلفون في آيةٍ من آياته، ويعتبرونه الأصل الأوّل للأحكام، كذلك يأخذون بالسنّة ولا يختلفون في حجّيتها، وكيف يختلفون فيها والكتاب الكريم يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[1]، وهم جميعاً أحرص الناس على الأخذ بما في كتاب الله.

وليس معنى تسمية فريق بأهل السنّة أنّ الآخر لا يعمل بها، فإنّ السنّة هي الأصل الثاني للأحكام عند الشيعة كما هي عند أهل السنّة.

ففيم الخلاف إذاً؟ وما الذي ميّز بين الطائفتين وجعلهما مدرستين في الإسلام؟

أساس الخلاف بينهما هو: من يكون أحقّ بولاية أمر المسلمين وتولّي السلطة العامة الدينية والدنيوية؟ وهل النبي ﷺ ذهب إلى الرفيق الأعلى دون أن يشير إلى الإمام بعده، وترك الأمر للمسلمين ولم يبتّ فيه أصلاً؟ وما هو رأي القرآن فيه؟ وماذا ورد عن الرسول؟

لذلك حرصت المدرستان على مضاعفة الاهتمام بالكتاب والحديث، ومضاعفة العناية بالتفسير وموارد التنزيل، فورثنا من وراء ذلك ثروة طائلة في علوم الكتاب وفي المباحث العقلية، ومزيداً من الدقّة والمهارة في النقد والتمحيص.

وإذا كانت سياسة الحكم والحكّام قد استغلّت هذا الخلاف وكبرّته، وجعلت من نفسها أحياناً دعاةً للشيعة أو سياجاً للسنّة، وأثارت حروباً، واستخدمت أقلاماً، وأوجدت بغضاء وكراهية بين أبناء الدين الواحد، فإنّ أساس الفكرة كان دينياً،

---

١. الحشر: ٧.

وممّا يدلّ على ذلك أنّ عدداً كبيراً من رجال الدين والعلماء والفقهاء والمتكلّمين والمفسّرين وأرباب العقول الجبارة في الطائفتين كانوا يعتنقون هذه الفكرة ويخلصون لها، وهذا يجعل أيّ باحث يتردّد كثيراً في الحكم بأنّ الخلاف كان أصلاً وليد السياسة وإن كانت السياسة استغلّته وكبّرته، أو وليد مؤثّرات خاصة أو نزعة عنصرية من بلاد معيّنة، فإنّ الإمام الطبرسي والطوسي وأبا الفتوح الرازي وأمثالهم من أئمة المفسّرين من الشيعة من نفس البلاد التي ينتمي إليها الزمخشري والفخر الرازي والنيسابوري والبيضاوي وأمثالهم، وهم من أئمة التفسير عند أهل السنّة، والبلد الذي أخرج حجة الإسلام الغزالي هو نفس البلد الذي أخرج شيخ الطائفة الطوسي.

على أنّ الخلاف بين العلماء كان في أكثر الأحيان رفيقاً إلى حدٍّ أنّ الإنسان لايدرك في بعض المواطن بسهولة إلى أيّ الفريقين ينتمي صاحب هذا الرأي أو ذاك.

ولعلّ من يقرأ تفسير الإمام الرازي، أو تفسير الإمام الزمخشري، يجد فيهما كثيراً ممّا يؤيّد ما يعتنقه الشيعة وإن كانا إمامين جليلين من أئمة السنّة.

بل أنّ هناك نفراً من العلماء ـ منهم بعض أئمة التفسير ـ كانوا في بحوثهم غاية في الاعتدال، حتّىٰ أنّ كل فريق عدّهم من رجاله، ووجد من كلامهم ما يرجّح به رأيه.

وهذا ولاشكّ دليل على ما عرفوا به من إنصاف مستمدّ من أدب القرآن الذي يلتزمه الصالحون.

أمّا بعد فهذا هو إيمان المسلمين جميعاً بعظمة القرآن، وهذه هي عنايتهم في مختلف أجيالهم وبلادهم ومذاهبهم بعلوم القرآن.

فإذا كانت جماعة التقريب قد اختارت ميدان التفسير ليلتقي فيه المشرقي بالمغربي، والشيعي بالسنّي، فإنّما اختارت ميداناً ألف المسلمون أن يلتقوا فيه إخواناً متفاهمين متعارفين.

وإذا كانت قد اختارت هذا الكتاب بالذات فانّما اختارت كتاباً وقف مؤلّفه موقف

الإنصاف، والتزم جادّة الأدب القرآني، فلم يعنّف في جدال، ولم يسفّه في مقال، بل أعطىٰ مخالفيه ما أعطىٰ موافقيه من حسن العرض، وبيان الحجّة، ورواية السند، فمكّن القارئ بذلك من الحكم السديد، وجعل من كتابه موضعاً للقدوة الحسنة في الجدال بالتي هي أحسن.

إنّ جماعة التقريب لتحرص أشدّ الحرص على أن تهدي العالم الإسلامي مثل هذا الغذاء الفكري الذي يحتوي على جميع العناصر المعترف بمصادرها السليمة، لأنّها تعلم أنّ مثل هذا الغذاء هو الذي يستقيم به، وعليه كيان المسلمين.

نسأل الله جلّت قدرته أن ينفعنا بكتابه الكريم، وأن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يجعل قلوبنا على كلمة الحقّ، إنّ الله هو الحقّ المبين.

الفصل الثاني

مقدّمة كتاب

المختصر النافع في فقه الإمامية

بسم الله، نقدّم كتاب المختصر النافع وهو على إيجازه يعطي صورةً واضحةً لمذهب فقهي لا يقلّ أتباعه أتباع عن أيّ مذهب من المذاهب المعروفة، ذلك هو مذهب الإمامية.

ولعلّ القارئ حين يطّلع على الكتاب، يعجب من أنّ هذا الفقه لم يكن في متناول يد الجمهور إلى اليوم، ولكن لا غرابة، فإنّ الماضي قد شحن بكثير من الأغراض التي دفعت إلى محاربة من يسند إليهم هذا الفقه، فانسحب ذلك على الفقه ذاته وإن لم يكن فيه ما يحارب.

إنّ مبدأ الخلافة والإمامة معروف، وهو الذي ميّز بين الطائفتين: السنّة والشيعة، وإنّ اتّجاه الأنظار في الإمامة إلى آل علي عليهم السلام جعل الفقه المسند إليهم يناله ما نالهم من إيذاء وإرجاف، يرجع أكثره إلى أسباب سياسية تتعلّق بالحكم، ولولا هذا لم يكن مذهب الإمام جعفر بن محمد الصادق ـ وتقديره عند أئمة المذاهب معروف ـ يُقاطع، ولا يدخل في دائرة المذاهب المعروفة عند الجمهور، وكذلك يقال في مذهب إمامٍ، كزيد بن علي، وليس يتّسع المقام لسرد ما ترتّب على هذه القطيعة من

حرمان وفراغ، ومن مصادرة لجانب عظيم من الفكر الإسلامي، ثم ما انتهت إليه هذه القطيعة من سوء ظنّ أدّى إلى التشتّت، والأخذ بالأوهام، وتقطيع أواصر الأخوّة في الدين.

إنّ ثروتنا الفقهية ـ معشر المسلمين ـ ثروة ضخمة، لا مثيل لها في أيّ تشريع من التشريعات، وليس يغضّ من قيمة هذه الثروة أنّ فيها نقط خلاف إلى جانب الآلاف من نقط الوفاق، فإنّ هذا وذاك له دلالته: أمّا الوفاق فيدلّ على أنّ الأصول تتحكّم ولا يهملها أحد، وأمّا الخلاف فيدلّ على أنّ مجال النظر فيما يصحّ فيه الاجتهاد يُحترم ويقدّر. والفقه الذي بين أيديكم قلّما يوجد فيه رأي لا يكون له مثيل في مذاهب آخر.

* * *

وهذا الكتاب على إيجازه، يتحدّث عن العبادات، وعليها تقوم الصلة بين العبد وربّه، وعن المعاملات، وعليها تقوم صلة الإنسان بالإنسان.

فهو يحدّثنا عن الطهارة المائية والترابية، وعن الوضوء والأغسال، وعن النيّة والقربة، وعن المسح على القدمين المأخوذ من قراءة ثابتة معتدّ بها عند الجميع، وعن منع مسّ المصحف لمن ليس على طهارة، ولا يغفل حتّىٰ آداب الخلوة، ومنها حرمة استقبال القبلة أو استدبارها عند قضاء الحاجة، ولو في الأبنية.

ثم هو يجعل للطهارة قداسة، ويحتاط فيها أشدّ الاحتياط، لأنّها مقدّمة لعبادةٍ أهم، هي الصلاة.

وأمّا في الصلاة فنرى كثيراً جداً من وجوه الوفاق مع بقية المذاهب: فلا صلاة إلّا بتكبيرة الإحرام، ولا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب، ولاخلاف في عدد الفرائض ولا في الركعات والسجدات، وهم يولّون وجوههم شطر المسجد الحرام، ويشترطون القراءة بالعربية ولا يجيزون الترجمة، ومن لا يعرف العربية فعليه أن يتعلّم منها ما يؤدّي به الصلاة، وهم لا يجيزون ترك الصلاة بحال حتّىٰ أنّ الموحل والغريق يوميان

ويصلّيان، فإن وجد خلاف ففي مثل أنّهم يشترطون بعد الحمد سورة كاملة ولا يجتزئون ببعض السورة، ويشترطون الجهر بالبسملة، وإرسال اليدين، والعدالة في الإمام، والخروج من الصلاة بالتسليم، وتلك خلافات لا تزيد عمّا بين المذاهب الأخرى بعضها وبعض.

وأمّا القبلة فهي الكعبة مع الإمكان، وإلّا فجهتها وإن بعُد المصلّي.

وفي الصوم يذكر المؤلّف أنّه يبدأ بالرؤية وينتهي بالرؤية، ويعدّد المفطّرات، ولكن الذي يلفت النظر أنّ الإمامية يرون أنّ الكذب على النبي ﷺ مفطر يجب فيه القضاء والكفّارة. فإن وجد بعد ذلك خلاف فلا يعدو أن يكون مثل اشتراطهم التثبّت من العدالة في شهود الرؤية، أو اشتراطهم زوال الحمرة المشرقية للإفطار لا مجرّد مغيب الشمس، أيّ أنّهم يتأخّرون بعض الوقت بالإفطار.

أمّا النوافل في رمضان فتجد من الإمامية اهتماماً كبيراً، وهم يطبّقون فيها الحديث الصحيح: «أفضل الصلاة: صلاة الرجل في بيته، إلّا المكتوبة».

وأمّا الحجّ فيأخذ في كتب هذا الفقه حيزاً أكبر ممّا يأخذه غيره؛ نظراً للدقّة في تحديد شعائره، وهو عندهم من أعظم دعائم الإسلام، ويعتبرونه جهاداً بالمال والبدن، ويرون تاركه على حدّ الكفر بالله. وإذا مات المكلّف دون أن يحجّ اعتبر الحجّ ديناً ويُحجّ عنه، وبلغ من ثبوت هذا الحقّ أنّه يؤدّىٰ بغير إذن فيما لو حصل بيد إنسان مال لميت عليه الحجّ، وعلم أنّ الورثة لا يؤدّون، فإنّه يجوز له أن يقتطع قدر أجرة الحجّ ويبذلها لمن يحجّ عنه، لأنّ هذا دين الله، وهو خارج عن ملك الورثة، والديون تقضىٰ قبل التوريث، ودين الله أحقّ بالقضاء. ودرجة الوفاق في الأركان والمناسك والشعائر بين هذا الفقه وغيره كبيرة إلى حدٍّ يجعل الحجّ أعظم مظهر لوحدة المسلمين، ولعلّ هذا من بركات بيت الله العتيق.

أمّا الاعتكاف والزكاة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أفرد لكلّ منها كتاب خاص.

هذا شأن الإمامية في علاقاتهم بربّهم: يعبدونه لا يشركون به شيئاً، ويحتاطون لعبادتهم أعظم احتياط، فما هو شأنهم مع الناس؟

إنّ أبواب المعاملات في فقه الإمامية تحدّد كل جانب، وتلتزم الكتاب والسنّة والقواعد المستقاة منهما، فهم يكثرون من الشروط التي تربط معاملاتهم بالروح الإسلامي؛ ويستحبّون البدء بالبسملة في كلّ معاملة، ويشترطون الصيغة العربية في العقود، ويكرهون التعامل مع تارك الصلاة والمستهتر، ويحرّمون الاتّجار بالمحرّمات، وما يترتّب عليه فساد في المجتمع.

والإمامية في النكاح والطلاق يتّفقون مع بقية المذاهب، فإن يكن خلاف ففي مثل أنّهم يشترطون في الطلاق شاهدين عدلين لا يقع بدونهما، لقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾[١]، ولا يوقعون طلاق الثلاث بلفظ واحد، أو متتابعاً في مجلس واحد، ولا ينعقد عندهم الطلاق بالحلف؛ وبعض هذا أخذ به أخيراً في الأحوال الشخصية في مصر ممّا يدلّ على فائدة الاطّلاع والتعرّف على كلّ مذهب.

زواج المتعة، ليس أساس الخلاف فيه التردّد في أنّ الرسول ﷺ شرّعه، ولا أنّ من الصحابة من عمل به على عهده، ولا أنّ بعضهم استمرّ يرىٰ بقاء هذه المشروعية بعد وفاة الرسول، إنّما الخلاف في أنّ هذا الحكم نُسخ أو لم يُنسخ، فثبت النسخ عند فريق، ولم يثبت عند الفريق الآخر. وسوف يدرك القارئ البون الشاسع بين ما أُشيع عن هذا الزواج، وبين ماهو حقيقة يجيزها المذهب. فهو زواج امرأة خالية من الموانع الشرعية، يلزم فيه عقد ومهر، ويترتّب عليه ميراث الولد وعدّة الزوجة بانقضاء المدّة أو الانفصال.

وكما انتفع في الأحوال الشخصية ببعض ما عند الإمامية من أحكام في الطلاق؛ انتفع ببعض ما عندهم في الوصايا والوقف.

---

١. الطلاق: ٢.

أمّا عن الحدود والتعزيرات، فإنّ هذا الفقه يشدّد فيها درءاً للمفاسد، وضرباً على يد كلّ من يقدم على منكر. فحدّ الزنا الجلد أو الجرم، وحدّ اللواط القتل، وحدّ السرقة القطع، وجزاء من يدّعي النبوة القتل، ومن قال: لا أدري أمحمد صادق أم كاذب وهو على ظاهر الإسلام، فجزاؤه القتل. ومن سبّ النبي ﷺ فجزاؤه القتل.

هذا عرض سريع لبعض ما في هذا الجزء من الكتاب.

كلمة عن المؤلّف

أمّا المؤلف فهو جعفر بن الحسن بن يحيىٰ بن الحسن بن سعيد الحلّي، المعروف بالمحقّق، أو المحقّق الحلّي، المتوفّى سنة ٦٧٦ هـ، إمام من الفقهاء الأفذاذ الذين لم يخلقوا لعصرهم فحسب، والذين يستحقّون خلود الاسم وبقاء الذكر.

كان أستاذ مجتهدي عصره، وصاحب متون من أكبر المتون التي تدرّس إلى الآن، لم يقتصر في مطالعاته على كتبه المذهبية الخاصة، وإنّما اطّلع على ما عند غيره، وهو في مؤلّفاته المفصّلة يذكر آراء فقهاء المذاهب الأخرى باحترام يليق برجال العلم، ويناقش ما يخالف رأيه منها بهدوء، ويبرز حجّته في غير تحامل ولا تعسّف.

ولم يكن في بحوثه يقنع بالنظر اليسير، أو يقول برأيٍ ثم يتصيّد له ما يسنده، بل كان موسوعة علمية، يقول بالرأي ويدعمه بالمتخيّر من الأسانيد، يدلّ على هذا ما ذكره في إحدىٰ وصاياه حين يقول: «وأكثر من التطلّع على الأقوال لتظفر بمزايا الاحتمال، واستنفض البحث عن مستند المسائل لتكون على بصيرة فيما تتخيّره»[1].

ويقول في وصية أخرى: «ليكن تعلّمك للنجاة، لتسلم من الرياء والمراء، وبحثك لإصابة الحقّ لتخلص من قواطع الاهوية ومآلف الغشاء...»[2].

---

١. من وصاياه التي دوّنها في مقدمة كتابه المعتبر.

٢. من وصاياه التي دوّنها في مقدمة كتابه المعتبر.

ثم هو من التقى والورع بحيث يرىٰ نفسه بين يدي الله حين يصدر الفتوى، فيقول في وصية من وصاياه: «إنّك في حال فتواك، مخبر عن ربك، وناطق بلسان شرعه، فما أسعدك إن أخذت بالجزم، وما أخيبك إن بنيت على الوهم، فاجعل فهمك تلقاء قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللّٰهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾[1]، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللّٰهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً قُلْ آللّٰهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّٰهِ تَفْتَرُونَ﴾[2]...»

ثم يقول: «وتفطّن كيف قسم ـ الله ـ مستند الحكم إلى القسمين، فما لم يتحقّق الإذن فأنت مفتر»[3].

ومعنى هذا أنّ الأمر عنده دقيق، وأنّ من يفتي يكون بين مأذون من الله أو مفترٍ عليه. وليس وراء ذلك في التحرّز والاحتياط غاية، وهو يعطي صورة لما عليه فقهاء الإمامية حين يفتون.

هذا هو المحقّق الحلّي كما عرفناه من أقواله، فماذا قيل عنه في تراجم العلماء؟

يقول تلميذه الشيخ الجليل ابن داود الحلّي[4] حين يتحدّث عنه في كتاب الرجال: «جعفر بن الحسن بن يحيى بن سعيد الحلّي شيخنا نجم الدين أبو القاسم المحقّق المدقّق الإمام العلّامة، واحد عصره. كان ألسن أهل زمانه، وأقومهم بالحجّة، وأسرعهم استحضاراً... توفّي في شهر ربيع الآخر سنة ست وسبعين وستمائة، وله تصانيف حسنة محقّقة محرّرة عذبة. فمنها: كتاب شرائع الإسلام مجلّدان، كتاب النافع في مختصرها (المختصر النافع وهو مختصر الشرائع) مجلّد، كتاب المعتبر في شرح المختصر لم يتمّ، مجلّدان، كتاب نكت النهاية مجلّدان، كتاب المسائل الغرية

---

١. البقرة: ١٦٩.

٢. يونس: ٥٩.

٣. من وصاياه في مقدمة كتابه «المعتبر».

٤. ابن داود تقي الدين الحسن بن علي بن داود الحلي ولد سنة ٦٤٧.

مجلّد، كتاب المسائل المصرية مجلّد، كتاب المسلك في أصول الدين مجلّد، كتاب المعارج في أصول الفقه مجلّد، كتاب الكهنة[١] في المنطق مجلّد، وله كتب غير ذلك ليس هذا موضع استيفائها، فأمرها ظاهر، وله تلاميذ فقهاء فضلاء ﷺ ...».

وجاء في إجازات بعض المشايخ ذكر كتباً أخرى للمحقّق، منها كتاب في اختصار مراسم سلّار الديلمي[٢]، وكتاب سمّاه نهج الوصول إلى معرفة الأصول.

وهناك رسالة في القبلة ذكرها جمال الدين بن فهد الحلّي في كتابه (المهذّب في شرح المختصر) بتمامها، ويذكر سبب تأليف تلك الرسالة، وهو أنّ نصير الدين الطوسي[٣] حضر ذات يوم حلقة درس المحقّق بالحلّة، فقطع المحقّق الدرس تعظيماً له وإجلالاً لمنزلته، فالتمس منه الطوسي إتمام الدرس، فجرى البحث في مسألة استحباب التياسر للمصلّي بالعراق، فقال نصير الدين: إنّه لا وجه لهذا الاستحباب، لأنّ التياسر إن كان من القبلة إلى غير القبلة فهو حرام، وإن كان من غيرها إليها فهو واجب، فقال المحقّق في الحال: إنّه منها إليها. فسكت نصير الدين، ثم إنّ المحقّق ألّف رسالةً بهذا المعنى وأرسلها إليه، فاستحسنها.

أمّا بعد، فإنّ رجلاً هذا شأنه، ليس بغريب أن يربّي نخبةً من العلماء الأجلّاء الذين صاروا من أئمة الفقهاء والمتكلّمين، فمن تلامذته: ابن أُخته جمال الدين

---

١. من الكهانة بالفتح بمعنى الصناعة.

٢. أبو يعلى سلّار بن عبد العزيز الديلمي، صاحب كتاب المقنع في المذهب، والتقريب في أصولي الفقه، والمراسم في الفقه المتوفّى سنة ٤٦٣ هـ.

٣. نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي الجهرودي، من كبار الحكماء المتكلّمين، صاحب تجريد الكلام، وهو من كتب الإمامية في الكلام، يحقّ لمن يريد الاطّلاع على العقائد الكلامية أن يطّلع عليه، وعليه شروح من علماء السنّة والشيعة، ويقول علاء الدين علي بن محمد المشتهر بقوشجي من علماء الكلام عند الجمهور في شرحه لهذا الكتاب: «إنّه كتاب كثير العلم، جليل الشأن، حسن الانتظام، مقبول عند الائمة العظام، لم يظفر بمثله علماء الأمصار..»، وله تلخيص المحصّل للفخر الرازي، وكذلك شرح قسم الإلهيات من الإشارات لابن سينا، وغيرها من الكتب، توفّي سنة ٦٧٢ هـ.

العلّامة الحلّي صاحب كتاب تذكرة الفقهاء التي تعدّ مرجعاً لمذهبه وللمذاهب الأخرى، ومنهم الشيخ رضي الدين علي بن يوسف، وابن داود الحلّي، والسيد عبدالكريم بن أحمد بن طاوس، وحسن بن أبي طالب اليوسفي الآبي، والوزير شرف الدين أبو القاسم، والشيخ شمس الدين محفظ بن وشاح، وكثير غير هؤلاء ممّن لهم آثار وتآليف عدّة.

* * *

أمّا هذا الكتاب ـ وهو المختصر النافع ـ فقد لخّصه المؤلّف من كتاب شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام الذي يعتبر متناً من المتون الحيّة إلى الآن.

وهو مرتّب على أربعة أقسام[1]: العبادات والعقود والإيقاعات والأحكام.

فقسم العبادات يبدأ بكتاب الطهارة وينتهي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقسم العقود يبدأ بكتاب التجارة وينتهي بكتاب النكاح.

وقسم الإيقاعات يبدأ بكتاب الطلاق وينتهي بكتاب النذر.

وقسم الأحكام يبدأ بالصيد والذباحة وينتهي بالديات

واشتمال كلّ قسم على الكتب المشار إليها بهذه الصورة هو المتعارف عليه في مؤلّفات الإمامية، منذ عصر المؤلّف إلى الآن، أمّا قبل عصره فلم يكن الحال على هذا النمط تماماً، فمثلاً في أبواب العبادات يقول يحيى بن سعيد الهذلي الحلّي[2] في

---

١. جرت العادة عند المؤلّفين من فقهاء الإمامية أن يقسّموا الموضوعات الفقهية إلى أربعة أقسام: العبادات ـ العقود ـ الإيقاعات ـ الأحكام. ولعلّ وجه الحصر أنّ المبحوث عنه في الفقه إمّا أن يتعلّق بالأمور الأُخروية ـ أيّ معاملة العبد ربّه ـ أو الدنيوية. فإن كان الأوّل فهو عبادات، وأمّا الثاني: فإمّا أن يحتاج إلى صيغة أو لا، فغير المحتاج إلى صيغة هو الأحكام كالديات والميراث والقصاص والأطعمة، وما يحتاج إلى صيغة فقد يكون من الطرفين أو من طرف واحد، فمن طرف واحد يسمّى الإيقاعات كالطلاق والعتق، ومن الطرفين يسمّى العقود، ويدخل فيها المعاملات والنكاح. وتبدأ العبادات بكتاب الطهارة كمقدّمة للعبادات.

٢. هو من كبار علماء الإمامية، صاحب كتاب الجامع في الفقه، والمدخل في الأصول، ونزهة الناظر في الجمع بين الأشباه والنظائر المتوفّى سنة ٦٨٩هـ.

مقدّمة كتابه نزهة الناظر في الجمع بين الأشباه والنظائر: «قال شيخنا السعيد أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي قدّس الله روحه؛ عبادات الشرع خمس: الصلاة والزكاة والصوم والحجّ والجهاد. وقال الشيخ أبو جعفر محمد بن علي الطوسي المتأخّر رحمه الله[١] في الوسيلة: عبادات الشرع عشر، أضاف إلى هذه الخمس: غسل الجنابة والاعتكاف والعمرة والرباط. وقال الشيخ أبو يعلى سلّار: العبادات ستّ، أسقط الجهاد من الخمس الأولى، وأضاف إليها الطهارة والاعتكاف. وقال الشيخ أبو الصلاح[٢]: العبادات عشر، أسقط الجهاد أيضاً من الخمس الأولى، وأضاف إليها الوفاء بالنذر والعهود والوعود وبراهين الإيمان وتأدية الأمانة والخروج عن الحقوق والوصايا».

ولأنّ الكتاب من المتون المختصرة، فقد اهتموا كثيراً بشرحه، وله شروح متداولة تدرّس إلى الآن، وبقدر ما يحضرنا نذكر بعض تلك الشروح:

١ ـ للمحقّق الحلّي نفسه شرح للمختصر سمّاه المعتبر في شرح المختصر.

٢ ـ شرح عزّ الدين حسن بن أبي طالب اليوسفي الآبي، ذكره بحر العلوم وقال في حقّه: إنّه أول من شرح النافع، محقّق فقيه قوي الفقاهة، وكان فراغه من تأليف الكتاب سنة ٦٧٢ هـ، أيّ في زمن المحقّق.

٣ ـ شرح الشيخ جمال الدين أحمد بن فهد الحلّي، ويسمّى المهذّب البارع في شرح المختصر النافع.

---

١. عالم إمامي، من فقهاء القرن الخامس، يطلق عليه «ابن حمزة»، له تصانيف في الفقه منها: الوسيلة إلى نيل الفضيلة والواسطة ويشتمل على جميع أبواب الفقه، وهما من المتون الفقهية المشهورة، وكتاب الرائع في الشرائع ومسائل الفقه.

٢. هو من مشاهير علماء «حلب» ومن كبار علماء الإمامية، يعاصر شيخ الطائفة «الطوسي»، وله تصانيف منها: كتاب تقريب المعارف والكافي في الفقه والبدائع في الفقه وشرح الذخيرة للسيد المرتضى علم الهدى وكتاب البرهان على ثبوت الإيمان.

٤ ـ شرح العلّامة الحلّي[1] على المختصر.

٥ ـ شرح السيد محمد بن علي بن الحسين الموسوي الجبعي[2] وهو من كتاب النكاح إلى آخر كتاب النذر.

٦ ـ شرح السيد نور الدين العاملي[3]. وقد أطال في البحث والاستدلال إلّا أنّه لم يتم.

٧ ـ الشرح الكبير وهو رياض المسائل في بيان أحكام الشرع بالدلائل وهو أكبر شرح للمختصر، ألّفه المير سيّد علي بن السيد محمد علي بن السيد أبي المعالي الطباطبائي، المتوفّى سنة ١٢٣١هـ، ويعدّ من أحسن الكتب الاستدلالية في الفقه. ولصاحب الرياض شرح آخر للمختصر يسمّى الشرح الصغير.

وقد علّق بعض العلماء بحواشٍ على الرياض منهم الوالد ﷺ[4] في كتابه تعليقات على الرياض؛ وكذلك السيد محمد بن عبد الصمد الشهشهاني علّق بحاشية سمّاها أنوار الرياض على الشرح الكبير. وغير ذلك من الشروح والتعليقات على الشروح التي لو جمعت كلّها لكوّنت مكتبةً فقهيةً حول هذا الكتاب.

إنّ الكتاب على اختصاره، واضح العبارة، وافٍ بالغرض، وما رأينا توضيحه ـ وهو قليل ـ فسّرناه بكلام المؤلّف نفسه من كتبه الأخرى، لا سيّما شرائع الإسلام

---

١. الحسن بن يوسف بن علي بن المطهّر الحلّي، المعروف بالعلّامة، المتوفّى سنة ٧٢٦ هـ، من كبار الإمامية، يقرأ على المحقّق الحلّي وجماعة من العلماء بعضهم من السنّة، وقرأ عليه كثير من أفاضل علماء الفريقين. وهو صاحب المؤلّفات الكثيرة في الفقه والأصول والحكمة والتفسير والحديث، منها: تذكرة الفقهاء، في الفقه الاستدلالي المقارن، ومنتهى المطلب الذي قال في حقّه: «لم يعمل مثله، ذكرنا فيه جميع مذاهب المسلمين في الفقه»، وتلخيص المرام في معرفة الأحكام، وتحرير الأحكام الشرعية، ومختلف الشيعة في أحكام الشريعة، يذكر فيه الآراء المختلفة عند فقهاء الإمامية، وكشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ونهاية المرام في علم الكلام، وتهذيب الوصول إلى علم الأصول، وقواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام، ونهج المسترشدين في أصول الدين، وغير ذلك من كتبه النافعة.

٢. هو صاحب كتاب مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام خرج منه العبادات في ثلاثة مجلّدات، وهو من أحسن الكتب الاستدلالية في فقه الإمامية، فرغ منه سنة ٩٩٨هـ.

٣. هو أخو كل من صاحبي المدارك والمعالم، والمتوفّى ١٠٦٨هـ.

٤. هو العلّامة المجتهد الآقا أحمد القمي المتوفّى سنة ١٣٤٩هـ بطهران.

والمعتبر أو بكلام بعض شرّاح كتبه، أو كلام تلميذه العلّامة الحلّي في تذكرة الفقهاء.

ونحن لم نرد بهذا الكتاب تقديم فقه استدلالي، بل اخترناه لإعطاء صورة عن فقة آل البيت. ومن يريد استقصاء الأدلّة فعليه بالكتب المفصّلة ـ وقد ذكرنا بعضها ـ فليرجع إليها الباحث إذا شاء.

مصادر الأحكام عند الإمامية

مصادر الأحكام عند الإمامية أربعة: الكتاب، والسنّة، والإجماع، والعقل أو الأدلّة العقلية.

الأوّل: الكتاب

من أكبر نعم الله على المسلمين، أنّهم لايختلفون في كتابهم، فالمسلم في أقصى المغرب لايختلف كتابه عن المسلم في أقصى المشرق، والمصاحف في بلاد العرب هي نفسها في كلّ بلد، لايختلف في آية، ولاخطّ، ولا رسم حرف، فإن كتبت كلمة «رحمت» بتاء مفتوحة، ألفيت ذلك في كلّ مصحفٍ بأيّ أرضٍ من بلاد المسلمين، لا فرق بين عربي وعجمي، أو سنّي وشيعي.

وفوق هذا الاتّفاق الكامل الشامل في كتاب الله، يجمع المسلمون على أنّ كتابهم هو حبل الله المتين، وأحد الثقلين، والأصل الأوّل للشريعة.

ولا بأس من أن نعطي فكرةً عمّا يرويه الإمامية عن علي أمير المؤمنين عن رسول الله ﷺ بشأن القرآن الكريم، قال:

«سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّها ستكون فتن، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه خبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة ردّ، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، هو حبل الله المتين، وهو الصراط المستقيم،

وهو الذي من عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه دعا إلى صراط مستقيم».

هذا هو القرآن، وهذا هو الأصل الأوّل في التشريع عند الإمامية كما هو عند غيرهم.

الثاني: السنّة

لا يختلف الشيعي عن السنّي في الأخذ بسنّة رسول الله ﷺ، بل يتّفق المسلمون جميعاً على أنّها المصدر الثاني للشريعة، ولا خلاف بين مسلم وآخر في أنّ قول الرسول وفعله وتقريره سنّة لابد من الأخذ بها، إلّا أنّ هناك فرقاً بين من كان في عصر الرسالة يسمع عن الرسول ﷺ، وبين من يصل إليه الحديث الشريف بواسطة أو وسائط. ومن هنا جاءت مسألة الاستيثاق من صحة الرواية.

واختلفت الأنظار، أي أنّ الاختلاف في الطريق وليس في السنّة، وهذا ما حدث بين السنّة والشيعة في بعض الأحايين. فالنزاع صغروي لا في الكبرى، فإن ما جاء به النبي لاخلاف في الأخذ به، وإنّما الكلام في مواضع الخلاف ينصبّ على أنّ الفرد المروي: هل صدر عن الرسول أو لا؟

وإذا كان ينقل عن أئمة المذاهب في بعض المسائل روايتان، أو روايات مع قرب عهدهم بنا نسبياً، وإذا كان الإمام علي ـ وهو عند الشيعة الإمام المنصوص، وعند أهل السنّة إمام يقتدى به ـ ينقل عنه في المسائل الخلافية روايتان مختلفتان، إحداهما أخذت بها السنّة والأخرى أخذت بها الشيعة، وإذا كنّا نطلب الاستيثاق في أقوال الأئمة وما يروىٰ عنهم، فطبيعي أنّ الأمر بالنسبة للسنّة النبوية يحتاج إلى دقّة واستيثاق أكثر.

إنّ كلامه ﷺ تشريع، وهو المشرّع الوحيد للمسلمين، حلاله حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة. والوصول إلى نصّ عبارته بحيث يعرف إن كان حديثه مطلقاً أو مقيّداً، عاماً أو خاصاً، يتطلّب إلمام الراوي بفنون التعبير حتّىٰ لايترك قرينة أو خصوصية لها تأثير في بيان الحكم.

فلا خلاف في أنّ السنّة هي الأصل الثاني من أصول التشريع، إنّما الخلاف في ثبوت مروي أو عدم ثبوته، وهذا ليس خاصّاً بالسنّة والشيعة، وإنّما يوجد بين مذاهب السنّة بعضها وبعض، فكم من مروي ثبت عند الشافعي ولم يثبت عند غيره.

ومع أنّ الجمهور يأخذون برواية أيّ صحابي، والشيعة تشترط أن تكون الرواية عن طريق أئمة أهل البيت لأسباب عدّة، منها: اعتقادهم أنّهم أعرف الناس بالسنّة، فإنّ النتيجة في أكثر الأحيان لاتختلف، فهذه هي الصلاة لم يرد عنها في القرآن تفصيلات، وكلّ ماجاء من ذلك كان عن طريق السنّة، ونقل ما فعله الرسول في صلاته، ومع هذا فإنّا نرى الخلاف فيها بين الفريقين يسيراً على كثرة ما فيها من الأركان والفروع. وكذلك الحجّ وغيره.

وإذا كانت الشيعة تتّبع أهل البيت وتقتدي بهم كأئمة، فليس هذا إلّا لما ثبت من فضلهم حسب ما هو مذكور في كتب الفريقين.

وإذا سمّت طائفة بالسنّة وطائفة بالشيعة، فليس هذا إلّا اصطلاحاً، فإنّ الشيعة يعملون بالسنّة، وأهل السنّة يحبّون آل البيت ويجلّونهم أعظم الإجلال حسب مافي كتبهم عنهم، مع فارق واحد هو أنّ الشيعة يعتقدون فيهم النصّ بالإمامة، ولذلك سمّوا «الإمامية»، وهذا أنسب لهم لاعتقادهم في إمامة أهل البيت.

الثالث: الإجماع

أمّا الإجماع فهو أصل من أصول التشريع عند الإمامية كما هو عند غيرهم، ويذكر بعد الكتاب والسنّة كأصل ثالث.

وإنّ إجماع العلماء على حكمٍ يكشف في الحقيقة عن حجّة قائمة هي النصّ من المعصوم، ويورث عادةً القطع بأنّ هذا العدد مع ورعهم في الفتوى، لولا الحجّة لما أجمعوا على رأي واحد.

فإذن هناك حجّة، وحجّية الإجماع ترجع إليها، والإجماع يكشف عنها.

الرابع: العقل أو الدلائل العقلية

المعروف عن دليل العقل أنّه البراءة الأصلية والاستصحاب، ويرى البعض أنّ الاستصحاب ثبت بالسنّة، كما أنّ البعض الآخر يجعلون مع البراءة الأصلية والاستصحاب التلازم بين الحكمين، وهو يشمل مقدّمة الواجب، وأنّ الأمر بالشيء يستلزم النهي من ضدّه الخاص، والدلالة الالتزامية، وفسّره البعض بلحن الخطاب، وفحوى الخطاب، ودليل الخطاب، وما ينفرد العقل بالدلالة عليه، وهذا هو رأي مؤلّف هذا الكتاب في دليل العقل والاستصحاب، نورده هنا من مقدّمة كتابه المعتبر:

وأمّا دليل العقل فقسمان:

أحدهما: ما يتوقّف فيه على الخطاب، وهو ثلاثة:

الأوّل: لحن الخطاب، كقوله تعالى: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ﴾[١] أراد فضرب.

الثاني: فحوى الخطاب، وهو ما دلّ عليه بالتنبيه، كقوله تعالى: ﴿فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾[٢].

الثالث: دليل الخطاب، وهو تعليق الحكم على أحد وصفي الحقيقة كقوله: «في سائمة الغنم الزكاة» فالشيخ يقول: هو حجّة، وعلم الهدى ينكره، وهو الحقّ. أمّا تعليق الحكم على الشرط كقوله: «إذا بلغ الماء قدر كرٍّ؛ لم ينجسه شيء» وكقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[٣] فهو حجة، تحقيقاً لمعنى الشرط، ولا كذا لو علّقه على الاسم كقوله: اضرب زيداً، خلافاً للدقّاق.

والقسم الثاني: ماينفرد العقل بالدلالة عليه، وهو إمّا وجوب كردّ الوديعة أو قبح كالظلم والكذب، أو حسن كالإنصاف والصدق، ثم كلّ واحد من هذه كما يكون ضرورياً فقد يكون كسبياً: كردّ الوديعة مع الضرورة، وقبح الكذب مع النفع.

---

١. البقرة: ٦٠.

٢. الإسراء: ٢٣.

٣. الطلاق: ٦.

وأمّا الاستصحاب، فأقسامه ثلاثة:

استصحاب حال الفعل: وهو التمسّك بالبراءة الأصلية... ومنه أن يختلف الفقهاء في حكم بالأقلّ والأكثر فيقتصر على الأقلّ...

الثاني: أن يقال: عدم الدليل على كذا فيجب انتفاؤه، وهذا يصحّ فيما يعلم أنّه لو كان هناك دليل لظفر به، أمّا لا مع ذلك فإنّه يجب التوقّف، ولا يكون ذلك الاستدلال حجّة. ومنه: القول بالإباحة، لعدم دليل الوجوب والحظر.

الثالث: استصحاب حال الشرع، كالمتيمّم يجد الماء في أثناء الصلاة، فيقول المستدلّ على الاستمرار: صلاة كانت مشروعة قبل وجود الماء، فتكون كذلك بعده. وليس هذا حجّة، لأنّ شرعيتها بشرط عدم الماء لا يستلزم الشرعية معه.

ثم مثل هذا لا يسلم عن المعارضة بمثله، لأنّك تقول: الذمّة مشغولة قبل الإتمام، فتكون مشغولة بعده[1].

* * *

من البديهي أنّه ليس في إمكان من يكتب مقدّمةً وجيزةً كهذه، إعطاء فكرة كاملة عن مذهب إسلامي يعدّ فقهه ثروة عظمى، إلى جانب ما لعلمائه من ثمرات إنتاجية في شتّى علوم الدين من تفسير وحديث وأصول ورجال وغير ذلك، وإنّ ثمراتهم العلمية في هذه العلوم لا تقلّ عن ثمراتهم في علم الفقه، وإنّ هذا وذاك ليكوّن مكتبةً إسلاميةً عظمى، تعدّ مجلّداتها الضخمة بعشرات الألوف.

ولعلّ ممّا يمهّد لنا سبيل العذر في عدم اضطلاعنا بهذا، وجود هذا العدد الضخم من الكتب في شتى النواحي الدينية، وكثير منها مطبوع، وهي خير مرجع لمن يريد

---

١. وأمّا القياس فلا يؤخذ به عند الإمامية، ويقول صاحب الكتاب في ذلك: «أمّا القياس فلا يعتمد عليه عندنا، لعدم اليقين بثمرته، فيكون العمل به عملاً بالظنّ المنهي عنه، ودعوى الإجماع من الصحابة على العمل به لم تثبت، بل أنكره جماعة منهم».

على أنّ من مذاهب أهل السنّة من لا يرى العمل بالقياس، ومن علمائهم من بيّن أنّ كل حكم قيل: إنّه مقيس، قد أخذ عن دليل نص أو إشارة أو نحوهما.

الاطّلاع على ما في هذا المذهب، وإنّه لجدير بالباحثين في علوم الشريعة أن يعطوا مزيداً من العناية لهذه الكتب، فإنّ الفكرة الإسلامية في أيّ مذهبٍ، هي ملك للمسلمين جميعاً، لا لأصحاب هذا المذهب فحسب.

ثم إنّ هناك مبدأ علمياً هاماً متّفقاً عليه بين الباحثين الراسخين، ذلك هو أنّ الإنصاف والأمانة العلمية تحتّمان على الباحث أن يستقي ما يريده من المعلومات من مصادره الصحيحة، وأنّه مادامت المراجع المعتمدة لمذهبٍ ما ميّسرة، فلايسوغ الرجوع إلى غيرها، ولا سيّما إذا كانت تستند إلى الشائعات، أو تصدر عن عصبيات، وأنّه لمن الخير أن يطبّق أهل العلم في كلّ مذهب هذا المبدأ، وعندئذٍ سيتجلّى لمن يدرس مذهب الإمامية ويعرف آراءهم من الواقع الماثل أمامه أيّ خير وأيّ علم في هذا المذهب، ثم يتجلّى له مدى التجنّي الذي ناله من المتحيّزين أو المتعصّبين عليه، حتّى خلطوا بين الغلاة الذين ينتحلون وصف الشيعة، وبين الشيعة أنفسهم الذين يبرؤون إلى الله منهم، ويحكمون بكفرهم.

وكم من كتب خلطت بين الشيعة والفرق البائدة التي لا وجود لها إلّا في زوايا التاريخ، أو في تفكير المتحيّزين.

إنّنا معشر المسلمين إذا تمسّكنا بهذا المبدأ في كتاباتنا وبحوثنا، فإنّما نخلص للحقيقة، ونساعد على أن يزدهر هذا الميراث الثقافي الإسلامي ازدهاراً يجعله موضع أنظار العالم الحديث، كما كان موضع أنظار العالم القديم، وإنّنا بهذا لنخطو خطوات كبرى في سبيل تحقيق الخير الكثير لأمتنا، وفي سبيل إقامة وحدتنا في الدين، وأخوّتنا في الايمان.

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[1]، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[2].

---

١. الأعراف: ٨٩.

٢. الحشر: ١٠.

الفصل الثالث

مقدّمة كتاب

شرح اللمعة الدمشقية في فقه الإمامية

هذا كتاب شرح اللمعة الدمشقية في فقه الإمامية؛ مصنّفه وشارحه ـ وهما الشهيدان ـ فقيهان من كبار الفقهاء، وعلمان من أعلام الإسلام.

ونحن إذ نقدّم كتابهما هذا، نرىٰ فيه تحفةً فقهيةً ممتازة، ونرىٰ فيما أصاب مؤلّفيه صفحة من تاريخ التعصّب المذهبي، ومأساة من مآسي الطائفية.

وكان يكفي أن نقدّم الكتاب على أنّه فقه الإسلام وحسب، إلّا أنّ العادة جرت أن يوزّع الفقه على حسب المذاهب، كأنّما هو ملك لمذاهب خاصة، بينما هو في واقعه ملك للمسلمين جميعاً.

وما كان يصحّ أن يبتلى الفقه بالتعصّب، وأن يخصّص لفريقٍ دون فريق؛لأنّه نتاج حكم كتاب الله الكريم والسنّة النبوية الشريفة، والكتاب لايختلف فيه اثنان من المسلمين، ولاتختصّ به طائفة دون طائفة، والنبي الكريم بيّن بسنّته للناس دينهم، والمسلمون لايشكّون في كتابهم، ولا يتردّدون في الأخذ بما ثبت من سنّة

نبيّهم، لا فرق في ذلك بين سنّيهم وشيعيّهم[١]، وهم إن اختلفوا فإنّما يختلفون نتيجةً لطبيعة الاجتهاد والاستنباط، وطبيعة الأدلّة والقرائن والظروف.

فالخلاف الفقهي في أصله ليس صادراً عن الهوىٰ والتعصّب، ولكنّه صادر عن أصول الشريعة وأدلّتها التي يجب على المسلمين أن يعوّلوا عليها في معرفة دينهم، والتعبّد بما شرّعه الله لهم.

فالقرآن الكريم الذي هو المصدر الأوّل والأعظم للمسلمين، نزل بأسلوبٍ جاء قاطعاً في أصول العقائد، وما لا يتغيّر بتغيّر الأزمان والأحوال، محتملاً في كثير من وراء ذلك من الأمور والأحكام. فكان هذا من أول أسباب الخلاف؛ تبعاً لاختلاف الأفهام، وقواعد النظر، وتقدير العلل والمصالح.

والسنّة المطهّرة التي نُقلت بطرق مختلفة جاءت نصوصها تارةً مطلقة، وتارةً مقيّدة بقرائن وظروف تساعد على فهمها، وقد تبلغ الرواية عالماً ولا تبلغ آخر، وقد يعتمد عالم على راوٍ وآخر لا يثق به، وقد يثبت حديث عند مجتهد ولا يثبت عند غيره، وقد تتعارض الروايات في بعض الأحايين. كلّ هذا كان ذا أثر ظاهر في الخلاف.

كذلك اختلفت القواعد التي استنبطها العلماء لفهم الكتاب والسنّة، والأدلّة التي رأىٰ بعضهم أنّها تفيد حكم الله، ورأى آخرون أنّ كتاب الله وسنّة رسوله تغنيان عنها.

هذا على وجه الإجمال هو ما دعا إلى اختلاف العلماء، وهذا هو ما قضت به الحكمة الالهية، ولو شاء الله لجاءت أحكام الشريعة ومسائلها جميعاً على نمط واحد؛ ولكن الله جلّ جلاله علم أنّ أمر الناس لايصلح على ذلك؛ فلا يصلح في أمور العقائد وأصول الدين التي يدخل بها المرء في ربقة الإيمان، ويخرج من هذه الربقة حين يخرج عنها؛ لايصلح في هذه أن يترك الناس لعقولهم وأفكارهم

---

١. التسمية بالشيعة وأهل السنّة قد توحي بأنّ الفارق بين الطائفتين هو العمل بالسنّة. والحقيقة أنّها تسمية اصطلاحية، فكما أنّ الأصل الأوّل عند الشيعة هو القرآن فإنّ الأصل الثاني عندهم هو السنّة، كما هو كذلك عند أهل السنّة.

وظنونهم، فلذلك بيّنها بياناً واضحاً، وجعلها من أمور الدين وأحكامه حرماً مقدّساً لايجوز أن تختلف فيه الأنظار، ولا أن تكون مجالاً لتعدّد الآراء، ولا لجدال المتجادلين، ذلك بأنّها حقائق أخبرنا الله تعالى بها، وأوجب علينا أن نعتقدها، وليس من شأنها أن تتغيّر بتغيّر الزمان، أو تختلف باختلاف المصالح، أو تتأثّر باجتهاد المجتهدين. وقد أُلحق بهذه الأصول ما شابهها في عدم التأثّر بالأزمان أو الأفهام من حقائق العبادات وصورها ـ في الجملة ـ وأصول المعاملات، ونحو ذلك.

فكان هذا كلّه رحمةً من الله وحكمة، لأنّه وقى الناس شرّ التفرّق في الأسس والأصول، ورسم لهم دائرة محدودة واضحة المعالم، يعرف من دخلها ومن خرج منها؛ وألحق بها ما هو في حكمها من رسوم العبادة التي لايرجع فيها إلّا إلى ما يريده المعبود، ومن دعائم المعاملة التي يجب في كلّ زمان ومكان أن تكون مرتكزة على أساس سليم من العدل والخلق الكريم.

أمّا الفروع التي لايضرّ الاختلاف فيها، سواء أكانت في الشؤون العملية أم في المسائل النظرية، فلم يكن يصلح أمر الناس على توحيدها والإلزام بصورة معيّنة منها، ذلك بأنّ الله خلق العقول، وجعل لها مجال النظر والتفكير، والموازنة والترجيح، والاستقراء والتتبّع، ولذلك جاءت أكثر أحكام الفقه ظنّية، وكثر فيها الاختلاف والترجيح، وأصبحنا نرى في كثير من المسائل الخلافية آراء الفقهاء التي تمثّل جميع الصور المحتملة عقلاً.

وأمر آخر هو أنّ التصرّفات التي تقع من الناس والقضايا التي تحدث فيها لاتنتهي ولا تقف عند حدّ، فكلّما جاء جيل من الناس جاءت معه أحداثه وتصرّفاته وألوان نشاطه. وإذا كان من قصد الشريعة أن تنصّ على حكم من لدنٍ جاء به محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة، لما وسع الناس أن يحفظوها، لاسيّما وقد نزلت على قوم أُميّين، في جزيرةٍ صغيرةٍ محدودة الأحداث، وفي زمانٍ أقرب إلى البدائية

الأولىٰ، لم يكن العلم فيه قد تقدّم كعهدنا به اليوم، ولم تكن المذاهب الاجتماعية والاقتصادية قد ظهرت وتعدّدت صورها؛ فلم يبق إلّا أن تضمن الأدلّة والمصادر المحدودة للشريعة ما يمكن العقول من الاستنباط منها كلّما دعا إلى ذلك داعٍ، ولذلك وجدت فيها المبادئ العامة والأصول التي يرجع إليها، وكان منها ما هو قطعي دائم، ككون الشريعة يسراً لا عسراً، وكون المعاملات مبنية على رعاية المصالح ومجانبة الضرر، ووجوب حفظ المال والنفس والعرض والعقل والدين... وغير ذلك من الكلّيات التي ترجع إليها الفروع والأحكام.

هذا هو الوضع الحكيم الرحيم الذي جاءت عليه الشريعة الإسلامية، ولم يكن من الحكمة ولا من الرحمة أن تجيء على وضعٍ سواه.

وتبعاً لذلك ظهر من بين الصحابة والتابعين وتابعيهم والمتأخّرين فقهاء ومجتهدون يشار إليهم، فمن بين الصحابة نفر عُرفوا بفقههم وعلمهم بالكتاب والسنّة، كان يرجع إليهم ويؤخذ برأيهم، ومن التابعين لمعت أسماء عدد كبير، كان أشهرهم وأعظمهم مكانة الفقهاء السبعة[1]، عاشوا في المدينة في عصر واحد، وكانوا مصادر الفتوىٰ لمن بعدهم.

ثم اتّسعت الدائرة في منتصف القرن الثاني والثالث، واشتهر أعلام في الفقه، منهم أصحاب المذاهب الأربعة، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والأوزاعي، وإسحاق بن راهويه، وداود الظاهري، والليث بن سعد، وسعيد بن جبير.

وإلى جانب هؤلاء من الصحابة والتابعين أئمة أهل البيت، وهم علي أمير المؤمنين والحسن والحسين وزين العابدين علي بن الحسين وأولادهم عليهم السلام. وهؤلاء وإن كانوا في نظر الشيعة أئمة منصوصين فإنّهم عند الجمهور أئمة في العلم والدين،

---

١. وهم: خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري، سعيد بن المسيّب، أبو أيوب سليمان بن يسار، أبو بكر بن عبد الرحمان بن الحارث القرشي، القاسم بن محمد بن أبي بكر، عروة بن الزبير بن العوّام، عبيد الله بن عبدالله بن عتبة.

وسادة لهم فضلهم في الأمة، ومكانتهم في الإسلام.

ثم جاء عصر التقليد وحصر المذاهب المتّبعة في الأربعة، وبالتالي إقفال باب الاجتهاد، وما كان هذا رأي أئمة المذاهب أنفسهم، فقد كانوا يقدّرون العلم ولا يحطّون من شأن غيرهم، حتّىٰ أنّ الخلاف السياسي بين خلفاء بني العباس وآل علي عليهم السلام، والذي كان أساسه اتّجاه الأنظار في الخلافة إلى هؤلاء ممّا جعل العباسيين يطاردونهم ويضطهدونهم ويحاربون ما يسند إليهم من فقه، هذا الخلاف لم يترك في الأئمة أيّ أثر.

فأبو حنيفة يقول: «ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق»[1].

وحين يصف سعة علمه وإحاطته بالخلافات الفقهية يقول في حقّه: «وأعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس».

كذلك كان رحمه الله عظيم التقدير لأستاذه الإمام زيد بن علي بن الحسين، ومؤازرته له في دعوته معروفة.

والإمام مالك يقول: «ما رأت عين ولا سمعت أُذن أفضل من جعفر الصادق فضلاً وعلماً وعبادةً وورعاً». كذلك يقول: «اختلفت إلى جعفر بن محمد زماناً، فما كنت أراه إلّا على إحدىٰ ثلاث خصال: إمّا مصلّياً، وإمّا يقرأ القرآن... وكان من العلماء الزهّاد الذين يخشون الله».

وقوله: «اختلفت إلى جعفر بن محمد زماناً» يستفاد منه أنّه كان يحضر عليه ويتلقّى عنه.

وكان الإمامان مالك وأبو حنيفة يرويان عن الإمامين جعفر الصادق وأبيه عليهما السلام.

ويقول الشافعي في علي بن الحسين في الرسالة: «وجدت علي بن الحسين أفقه أهل المدينة».

---

١. وجاء في كتاب عمدة التحقيق والتلفيق ما هذا نصّه: «وأمّا جعفر الصادق فقد ملأ الدنيا علمه وفقهه، ويقال: إنّ أبا حنيفة وسفيان الثوري من تلامذته، وحسبك بهما».

ولو أنّ الأئمة استشيروا في حصر المذاهب وإقفال باب الاجتهاد لما وافقوا على الإطلاق.

فالإمام مالك أبى أن يقبل ما عرضه عليه صاحب السلطان، وفي هذا يروى: لمّا حجّ المنصور قال لمالك: قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي صنّفتها فتنسخ، ثم أبعث في كلّ مصر من أمصار المسلمين منها نسخة، وآمرهم بأنّ يعملوا بما فيها، ولا يتعدّوه إلى غيره، فقال: يا أمير المؤمنين، لا تفعل هذا، فإنّ الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كلّ قوم بما سبق إليهم، وأتوا به من اختلاف الناس، فدع الناس وما اختار أهل كلّ بلد منهم لأنفسهم[١].

فالمنصور شهد اختلاف العلماء في عصره، وهو حاكم نظامي، يهمّه كما يهمّ سائر الحكّام النظاميين أن يتوحّد الناس في مملكته تحت قانون واحد، يؤخذ به قاصيّهم ودانيّهم، ويعمل به في كلّ ناحية من نواحي هذه المملكة المترامية الأطراف.

ولعلّه من جهة أخرى لم يكن يحبّ هذا الضجيج الذي أثاره العلماء بجدالهم ونقاشهم، وذهاب كلّ فريق منهم مذهباً يخالف صاحبه وتمسّكه بهذا المذهب حتّىٰ يراه وحده هو الجدير بأنّ يتّبع، ويرى غيره فاسداً أو باطلاً، كما أنّه من الممكن أنّه من جهة ثالثة أراد أن يرضي أهل الحجاز ويصطنعهم ويتقرّب إلى هذا الإمام العظيم، إمام دار الهجرة، وقد بهره ما في كتابه من العلم المستمدّ من الرواية عن الرسول ﷺ، وعن الثقات أصحابه، ليخالف بذلك عن سنّة الأمويين الذين كانوا لا ينظرون إلى أهل الحجاز نظرة المطمئنّ إلى ولائهم لسطانهم ودولتهم.

كما أنّ المتتبّع لتاريخ العباسيين ومواقفهم من العلويين يجد سبباً آخر، هو رغبة المنصور في الحدّ من نفوذ آل علي المذهبي بصرف الناس عن فقههم، إلّا أنّ مالكاً ينهى المنصور عن تنفيذ فكرته، فيعدل عنها عدول من تبيّن له وجه الخطأ فيها، فقد

---

١. القصة موجودة في كثير من الكتب المطبوعة المتداولة، وقد نقلتها بنصّها عن ص ٤٥ ج ١ من كتاب حجة الله البالغة للدهلوي.

جاء في بعض ما روي في هذا الشأن: أنّ المنصور حين سمع مقالة مالك أكبره وشكره، ودعا له بالتوفيق.

إنّ مالكاً لم تستهوه هذه الفكرة وإن كان فيها كل التأييد لمذهبه، ولم ينتهز الفرصة لقبول هذا الاقتراح ممّن يملك تنفيذه وحمل الناس عليه بما له من قوة السلطان والحكم، فلقد كان أجلّ من أن يخدعه هذا الإغراء عن الحقّ، وأجلّ من أن يتعصّب لنفسه أو لمذهبه في هذه القضية الأساسية، وأجلّ من أن يكتم السلطان ما يجب عليه من النصح له وللمسلمين وإن فوّت عليه هذا النصح ما قد يحرص عليه كثير من الناس.

إنّ مالكاً قد أرجع المسألة إلى أصلها، ولم ينظر إلى أواخر الأمر في هذا الخلاف بين علماء الشريعة، وإنّما نظر إلى أوائله.

إنّه يعلم أنّ كتابه الذي ألّفه وجمعه ليس هو كلّ شيء في هذه الشريعة، وليس هو الكلمة الفاصلة في كلّ أمرٍ من أمورها، أو مسألةٍ من مسائلها، فلغيره نظر كنظره، وبحث كبحثه، وجمع كجمعه، وقد يكون عند غيره من العلم ما ليس عنده، ولعلّه لو اطّلع عليه لأخذ به، ورجع عمّا كان قد اختاره، وقد يحمل علمه إلى قوم في بلد من بلاد المسلمين سبق إليهم من قبله علم عن غيره أخذوا به وعرفوا أنّه الحقّ، فكيف يحملون على غير ما يعلمون، كلّ هذا دعا مالكاً إلى أن يقول للمنصور وهو يعلّل إباءه قبول ما عرضه عليه: إنّ الناس قد سبقت إليهم أقاويل... فدع الناس وما اختار أهل كلّ بلد منهم لأنفسهم.

إنّ مالكاً حين أشار على صاحبه أن يدع الناس وما اختاروا لأنفسهم لم يشر عليه بذلك لأنّه لا يعتدّ بأمر المسلمين، أو لا يعبأ بهم، ولكنّه أشار عليه بذلك لأنّه هو الخير كلّ الخير، وهو الموافق لما أراده الله عزّ شأنه حين وضع شريعته هذا الوضع الحكيم الرحيم، ولا يعقل أن يكون مالك قد أراد مع ترك الناس وما اختاروا أن يتعصّبوا لما عندهم، وأن يحتربوا عليه فيما بينهم، وأن يقطعوا في سبيل التعصّب

له ما أمر الله به أن يوصل من أخوّة الإيمان وتعاون الإسلام.

❊ ❊ ❊

ولم ينفرد مالك بالنهي عن اتّباعه في كلّ ما قال به وإلغاء ماسواه، فقد حدّثنا التاريخ عن سائر الأئمة بمثل ما حدّثنا به عن مالك.

فأبو حنيفة كان يقول: «لا ينبغي لمن لا يعرف دليلي أن يفتي بكلامي».

وكان إذا أفتى يقول: «هذا رأي النعمان بن ثابت ـ يعني نفسه ـ وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب».

والإمام الشافعي كان يقول: «إذا صحّ الحديث فهو مذهبي». وقال يوماً للمزني: «يا إبراهيم، لا تقلّدني في كلّ ما أقول، وانظر في ذلك لنفسك فإنّه دين».

وكان الإمام أحمد يقول: «ليس لأحد مع الله ورسوله كلام». وقال يوماً لرجل: «لا تقلّدني ولا تقلّد مالكاً ولا الأوزاعي ولا النخعي ولا غيرهم، وخذ الأحكام من حيث أخذوا من الكتاب والسنّة».

ولقد كانت سيرة سلفنا هؤلاء في ثقة بعضهم ببعض، وعذر بعضهم لبعض في كثير من الأحيان آيةً من آيات الله في الإخلاص وحسن النيّة، والاحتفاظ بما ينبغي أن يكون بين أهل العلم والدين من أخوّة. رحم الله سعيد بن المسيّب، كان المستفتي إذا أتاه يقول له: «اذهب إلى سليمان بن يسار فإنّه أعلم من بقي اليوم». كان بعضهم يصلّي خلف بعض مثل ما كان أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وغيرهم رضي الله عنهم يصلّون خلف أئمة المدينة وإن كانوا لا يقرؤون البسملة، لا سرّاً ولا جهراً.

وصلّى الرشيد إماماً وقد احتجم، فصلّى الإمام أبو يوسف خلفه ولم يعد، وكان إفتاء الإمام مالك بأنّه لا وضوء عليه.

وكان الإمام أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الرعاف والحجامة، فقيل له: فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضّأ، هل تصلّي خلفه؟ فقال: كيف لا أصلّي

خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيب؟ وصلّى الشافعي ﷺ قريباً من مقبرة أبي حنيفة ﷺ ، ولم يقنت تأدّباً معه.

على أنّ الفكرة التي أرادها المنصور في أواخر القرن الثاني وصرفه عنها الإمام مالك، قد نفّذها خليفة عباسي آخر قبل منتصف القرن الرابع، فحصر المذاهب في أربع، وبذلك ميّز مذاهب، وترك مذاهب، ولم يأخذ عن أئمة أهل البيت مذهباً، ولعلّ هذا يرجع إلى ما بين العباسيين وآل علي من خلاف معروف.

بيد أنّ حصر المذاهب في الأربعة أدّىٰ ببقية المذاهب إلى الانعزال أو الاندثار.

أمّا الانعزال فيتمثّل في الشيعة التي تتمسّك بآراء أئمة أهل البيت عليهم السلام ، عملاً بالأحاديث النبوية الكثيرة التي وردت بشأنهم، والتي ذُكرت في كتب الشيعة والسنّة على السواء، فهؤلاء الشيعة من إمامية وزيدية عكفوا على مذهب أئمتهم، «أئمة أهل البيت عليهم السلام» ولم يقفلوا باب الاجتهاد عندهم، ومن هنا كانت المقاطعة التي عزلت هذا الفريق الكبير من المسلمين عن بقية إخوانهم، وإن لم تقض عليه.

أمّا الاندثار فيتمثّل في مذاهب عدّة لفقهاء من أعلام أهل السنّة قضى عليها حصر المذاهب، فلم يعد لها وجود كمذاهب لها أتباعها ومراجعها. أين مذهب الليث ابن سعد؟ أين مذهب الثوري؟ أين مذهب الظاهري؟ أين مذهب الزهري؟ أين مذهب الأوزاعي؟ اين مذهب إسحاق بن راهويه؟ هؤلاء كان لهم مذاهبهم واستنباطهم وأتباعهم، وخلّفوا في الفقه ثروة نحن في أشدّ الحاجة إلى الانتفاع بها، فأين الآن مذاهبهم؟ ألأنّهم لم يكونوا من المذاهب الأربعة يقضىٰ على تراثهم؟ إنّ الفكرة الإسلامية سلسلة متّصلة الحلقات منذ عصر النبوة، فلا ينبغي أن يكون فيها قديم وجديد، أو مأخوذ ومتروك.

إنّ مسألة إقفال باب الاجتهاد قد يرجع في أصلها إلى غيرة على الإسلام مشكورة، فلعلّ الذين قالوا بها إنّما أرادوا ألّا تقع في الدين فوضىٰ، وألّا يقع استنباط الأحكام بأيدي رجال غير أُمناء يفتحون على المسلمين ثغرات،

ويتجاوزون حدود ما يصحّ فيه الاجتهاد، فيحلّلون الحرام، ويحرّمون الحلال. ولعلّهم رأوا كيف استغلّ الاجتهاد في بعض العهود أسوأ استغلال، وكيف صار سلاح بطش وظلم وجور، وكيف حاول البعض أن يلبس الأخطاء المقصودة ثوب الاجتهاد ويجعل لها أجراً من الأجرين، ولعلّهم كذلك رأوا بعض أهل الفتيا يفتون بما يرضي الحاكمين، ولعلّهم خافوا ازدياد الخلافات عمّا كانت عليه.

لعلّ هذه العوامل كلّها هي التي أوجدت فكرة إقفال باب الاجتهاد عند قائليها، لكنّنا حين ننادي بفتح باب الاجتهاد إنّما ننادي بمبدأ حقّ التفكير والاستنباط من الأدلّة والأصول الثابتة، وهو مبدأ ثابت في الإسلام، على أن يكون الاجتهاد فيما يصحّ فيه الاجتهاد، وأن يكون في حدود أدلّته الشرعية، والخلاف فيما يصحّ الخلاف فيه لا يضرّ، بل هو سعة ورحمة، وهو موجود رغم إقفال باب الاجتهاد، لا بين المذاهب المتعدّدة، بل بين أتباع الإمام الواحد.

ولا يصحّ أن يغيب عن القائلين بإقفال باب الاجتهاد أنّنا أصحاب رسالة وعلينا واجبات لابد أن نؤدّيها، فنحن المسلمون نكوّن خمس سكّان العالم، والمواصلات ورسائل النقل تربطنا بكل أطرافه شئنا أم أبينا، وليس في استطاعتنا أن ننكمش ونغلق بابنا على أنفسنا، ونتجاهل ما يدور حولنا، وليس في مكنتنا أن نحيا حياةً نستغني فيها عن كلّ ما جدّ ويجدّ، إنّ هناك مشاكل جديدة تطالعنا، ومذاهب اجتماعية واقتصادية تحاول غزونا، ونظماً خاصة تقبل على عالمنا، وهناك شبابنا الذين يبهرهم كلّ جديد، فماذا يكون موقفنا تجاه هذه الأمور؟

إنّ هناك قوانين تنظّم روابط الأفراد بالهيئات، وتجعل لهذه شخصيات معنوية أو اعتبارية، وترتّب لها حقوقاً، وتفرض عليها واجبات، وتنظّم ملكية الفضاء وطبقات الأبنية، وملكية الاختراعات، وتحدّد أنظمة المعاملات، فماذا نضع في كلّ ما يحدث من شؤون؟

إنّنا أمام أحد أمرين: إمّا أن نستسلم للقوانين الوضعية على اعتبار أنّ فقهنا

عاجز عن معالجة ما جدّ ويجدّ من أمور، وإمّا أن نقرّ بأنّ هناك اجتهاداً، وأنّ مجاله هو هذا المجال.

ولا أظنّ أنّ مسلماً يرضىٰ بأنّ نأخذ بالقوانين الوضعية التي لاتمت إلى ديننا بصلة، بدلاً من أن نستنبط حكم الله من شريعتنا الحيّة الخالدة.

على أنّ الاجتهاد نفسه له قيود، فليس المجتهد من يحفظ قواعد الاستنباط كما يحفظ التلميذ كتبه الدراسية، بل لابد من أن تكون له ملكة الاستنباط، وليس كلّ من حصل على ملكة الاستنباط يؤخذ بقوله، بل لابد بجانبها من ملكة العدالة، وأيّ رجل يتّسع علمه إلى درجة تمكّنه من الاستنباط، ويكون له من الاستقامة والتقى والورع ما يحقّق له ملكة العدالة، يغلب ألّا يقع في خطأ أو يتورّط في متابعة الهوى.

وإذا كان بيان حكم الإسلام في ما جدّ ويجدّ من مسائل ـ سواء أكان الحكم بالسلب أو الإيجاب ـ يحتاج إلى دراية بها، ودراسة لنظمها، وإلمام بما يدور حولها من آراء، فإنّ الفقه يتقبّل هذا، وفقهاؤنا يرحّبون به كما رحّب أسلافنا بمثله، فألمّوا بعلم الهيئة (الفلك) ليعرفوا القبلة ومواقيت الصلاة، واهتمّوا بدراسة الرياضيات لينتفعوا بها في تحديد أنصبة المواريث، ونبغ منهم كثيرون في هذين العلمين. هذا هو تاريخ الفقه الإسلامي مجملاً، ولكنّه واضح كلّ الوضوح، وللمسلمين في عصرنا الحاضر أن يأخذوا منه العبرة التي تجعلهم حرّاصاً على شريعة الله كما حرص أسلافهم الصالحون، والتي تجعلهم يفتحون آفاقاً جديدة أمام الناظرين في هذه الشريعة، والتي تحتّم عليهم أن ينظروا في فقه كلّ مذهب، لأنّ العلم لا يقاطع ولا يكتم، وفقه كلّ مذهب ملك المسلمين جميعاً.

ونحن إذ نقدّم هذا الكتاب، إنّما نقدّم فقه مذهب يعمل به ما يقرب من خمس المسلمين، حُجب عن الجمهور قروناً، لا لمأخذ عليه، بل لقطيعةٍ سببها التعصّب الطائفي، وغذّتها السياسات المفرّقة.

ومع أنّ الكتاب هو في فقه مذهب لم يقفل باب الاجتهاد، فإنّ القارئ يرىٰ فيه من الوفاقيات مع بقية المذاهب كثرة غالبة، ومن الخلافيات قلّة محدودة، والوفاق في الوفاقيات يثبت أنّ الأصول تتحكّم ولا يهملها أحد، كما أنّ الخلاف يدلّ على أنّ مجال النظر فيما يصحّ فيه الاجتهاد يحترم ويقدّر.

أمّا تاريخ الشهيدين المصنّف والشارح فإنّ صاحب الفضيلة العلّامة الجليل الشيخ عبدالله السبيتي ـ جزاه الله عنّا وعن المسلمين خير الجزاء ـ قد قام بالترجمة لهما في دقّة تليق بقلمه، وعبارة مؤثّرة تصوّر حياتهما وتعرض ما أصابهما، وذلك إلى جانب قيامه مشكوراً بطبع الكتاب، وإخراجه على هذه الصورة، وبذل الجهد في تحقيقه.

أمّا بعد. فإنّ خير مانختم به هذه التقدمة أن نتوجّه إلى الله جلّ وعلا سائلين إيّاه أن يكثر بين عباده المؤمنين من ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدٰاهُمُ اللّٰهُ وَأُولٰئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبابِ﴾[١].

---

١. الزمر: ١٨.

القسم الخامس

رسائله الموجّهة

إخلاص ووفاء

ويشتمل على فصلين:

* الأوّل: رسالة موجّهة إلى الشيخ محمد متولّي الشعراوي وزير الأوقاف وشؤون الأزهر
* الثاني: رسالة موجّهة إلى العالم الاسلامي

الفصل الأوّل

رسالة موجّهة إلى الشيخ محمد متولّي الشعراوي
وزير الأوقاف وشؤون الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد متولّي الشعراوي،

وزير الأوقاف وشؤون الأزهر

تحية طيّبة مباركة، وبعد، فقد كنت في الفترات التي أقضيها بمصر ـ في السنوات الماضية ـ شديد الحرص على الاستماع إلى أحاديثكم في الإذاعة حول آياتٍ من كتاب الله الكريم، وكم كان يخطر ببالي أنّكم لو كنتم تقيمون بمصر لاستفدنا وانتفعنا بكم، ببيانكم الاجتماعي المؤثّر في جمع كلمة المسلمين، وإبعاد النفور والوحشة بين أرباب المذاهب الإسلامية المختلفة، ولطلبنا إليكم الانضمام إلى جماعتنا ـ جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ـ التي شجّع فكرتها المغفور له الإمام المراغي، وشارك في تأسيسها رجال من أئمة أهل السنّة، أمثال الشيخ الإمام عبدالمجيد سليم وشيخنا شلتوت والمدني وغيرهم ﷺ، وأمدّ الله في أعمار من بقي منهم، إلى أن رأيت بين المستقبلين لي في المطار مندوبكم المحترم، وعرفت فيما بعد رغبتكم في الاجتماع بنا، فتفاءلت وهيّأت نفسي لأن أضع أمامكم مشاكل

المسلمين، وأن أضع بين يديكم تجاربي، واستمدّ من شخصكم كعالم فقيه مفسّر، وكوزير للشؤون الدينية، استمدّ العون على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية الذين باعدت بينهم آراء لا تمسّ العقائد التي على المسلم أن يؤمن بها.

وكنت على يقين أنّكم بما كسبتم في أسفاركم الكثيرة من تجارب ستقبلون الإسهام معنا في العمل لجمع كلمة المسلمين.

لكنّني فوجئت ـ مع الأسف ـ بخطبة الجمعة، التي ألقيتموها في التاسع من صفر ١٣٩٧ من فوق منبر الأزهر الشريف، الأزهر الذي يجب أن يكون للمسلمين جميعاً، والذي يجب أن يحترمه المسلمون جميعاً، وبحضور السيد رئيس الجمهورية، وعلية القوم، وعامة الناس، ففي هذه الخطبة بعد ذكر مقدّمة بأنّ كلّ ما يقال على هذا المنبر يكون كلاماً مدروساً في أروقة الأزهر، استهللتم بالهجوم على الشيعة الفاطميين، وأنّ الله بحكمته وقدرته أنقذ الأزهر من أيدي مؤسّسيه، لأنّهم شيعيون! والذي حزّ في نفسي قولكم: ولكن شاء الله أن يخلّصه ـ أي الأزهر ـ ويقصره على المذهب النقي الصافي، مذهب أهل السنّة والجماعة. ومعناه الصريح نفي النقاوة والصفاء عن أيّ مذهب آخر.

وأرجو يا فضيلة الوزير أن تقدّر موقعي كرجل رسالته التقريب بين المذاهب الإسلامية، وإنّي لست في موقف دفاع عن المذهب الشيعي الفاطمي، وفي أخذي مذهب الشيعة الإمامية والزيدية فقط إلى جانب مذاهب أهل السنّة في جماعة التقريب أمرٌ له معناه، وإنّما أريد أن أدافع عن مبدأ جاءت به دعوة التقريب، وهو العيش في سلام وأخوّة للمسلمين، وعدم توسيع الشقّة بينهم، وعدم الهجوم عليهم، والعمل على جمع كلمتهم.

والموقف الذي أقفه حيالكم هو موقعي من كلٍّ من الشيعة والسنّة على السواء. ولو أنّ خطيباً شيعياً ذكر عن أهل السنّة مثل ما ذكرتم بالنسبة للشيعة، ونفى النقاء عن مذهبهم لوقفت منه موقفي منكم الآن.

أليس قصر المذاهب على أربعة جاء لأنّ خليفةً من العباسيين أراد تجاهل مذهب أهل البيت؟ ولولا الخصومة بين العباسيين وبين آل البيت لما تجاهلوا مذهب أئمة أهل البيت. وهل لو أخذ الخليفة العباسي بمذهب إمام جليلٍ كالإمام جعفر بن محمد الصادق، هل كان يوصف مذهبه بعدم النقاء وخلوّه من الصفاء؟

ولا بد أنّكم تعلمون من هو جعفر الصادق، وتعلمون قطعاً من تتلمذ عليه من أئمة المذاهب، وكم أودّ أن تدرسوا مذهبه الفقهي، وأن تطّلعوا على بعض ما أُلِّف حول فقهه، وستعلمون أنّه مذهب نقي صافٍ يضارع المذاهب التي وصفتموها بالنقاوة والصفاء، وكذلك الأمر بالنسبة للشيعة الزيدية، وأنتم تعلمون من هو الإمام زيد، ومن من أئمة المذاهب تتلمذ عليه.

وأنت أدرىٰ منّي بأنّه ما من فقيه يمكن أن يقول في مسألةٍ من المسائل الاجتهادية: هذا علمي ومن لم يأخذ بعلمي فهو خارج عن ديني، بل يقولون: هذا ما وصل إليه علمي أو هذا هو دليلي، فمن وجد دليلاً أقوىٰ فله أن يأخذ به ويضرب بقولي عرض الحائط.

هذا هو شأن اختلاف المذاهب الإسلامية في المسائل الاجتهادية، سنّيهم وشيعيّهم، فلا يصحّ أن يتّصف جزء منهم بالصفاء وجزء آخر بعدم النقاء بعد اتّفاقهم على الأصول، وهم لله الحمد متّفقون عليها.

ولعلّكم تتّفقون معي على أنّ مثل هذا الكلام في هذا الوقت بالذات فوق أنّه لم يكن هناك داعٍ لذكره، فإنّه تجريح لعواطف الشيعة، مع أنّ هناك مسألة لابد أن نعمل لها كلّ الحساب، وهي الصداقة القائمة بين امبراطور إيران وبين السيد رئيس الجمهورية. كذلك فإنّه ـ بغير شكّ ـ يتعارض مع الاحتفاء بي وأنا ضيف القاهرة الآن، يجتمع بي رجال الدين ورجال العلم والصحافة تقديراً لدعوتي التي هي الدواء للأمة الإسلامية التي شتّتتها التفرقة، ومزّقها التعصّب للمذهبية. وفضيلتكم بلا شكّ تقدّرون ما قامت به إيران شعباً وحكومةً نحو هذا البلد الطيّب في محنته

القاسية. أليس ما صنعوه منبعثاً عن عصبيتهم للإسلام وعواطف إخوة الإيمان؟

وإنّي لأرجو ألّا تتأثّر روابط الأُخوّة بين الشيعة في إيران وغيرها مع أهل السنّة بعد طول ما قمنا به، فقد يظنّ أنّ الحديث فيه إزراء على مذاهب الشيعة، لأنّ ما جاء من عدم النقاء والصفاء جاء عامّاً دون تخصيص.

يا فضيلة الأخ: لا تنس أنّنا أمام قوة إلحادية جارفة مارقة، وأنّنا مهدّدون في عقائدنا وكياننا، ولا تنس أنّ عصر تكفير المسلم لأخيه المسلم قد ولّى من غير رجعة، ولا تنس أنّه لا قيام ولا قوة للمسلمين إلّا بوحدة الكلمة، ووحدة الكلمة لا تأتي إلّا بنبذ التعصّب واحترام المسلم لأخيه المسلم.

هذا، وإنّي لا أزال أقدّركم، وأرىٰ فيكم الخير، وبانتظار ما يتطلّب الموقف منكم، خاصةً وأنّ الخطبة أُذيعت في الآفاق.

أدعو لكم بالتوفيق والسداد. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد تقي القمي / القاهرة

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

١٢ صفر ١٣٩٧هـ ـ ٣١ يناير /كانون الثاني ١٩٧٧م

الفصل الثاني

رسالة موجّهة إلى العالم الاسلامي[1]

تواصلت ردود الفعل بشكل قوي على النداء الذي كان وجّهه الزعيم اللبناني الكبير الرئيس صائب سلام من أجل تحرّك عربي لإنقاذ لبنان. وكان النداء قد وجّه عبر الشرق الأوسط، وامتدح فيه الدور الإيجابي الملحوظ لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز الذي أكّد في الأوان الأخير أنّ إنقاذ لبنان مسؤولية عربية.

وتلقّت الشرق الاوسط أمس ردّ فعل الشيخ محمد تقي القمي مؤسّس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية وسكرتير عام جماعتها، وأيّد فيه نداء الرئيس سلام، وفيه قال:

استمعت إلى نداء الزعيم اللبناني الرئيس صائب سلام بشأن محنة لبنان. وكان نداءً قوياً، صريحاً متّصفاً بالواقعية، ولا أشكّ في تأثّره على كلّ من سمعه، لا سيّما وإنّه صدر عن شخصية، عرفت بكونها من أصحاب المبادئ.

كنت استمع إلى النداء، وتمرّ أمامي ذكريات عن هذا البلد الذي أحبّه وليس غريباً عنّي، وكان يعجبني فيه ويلفت نظري جوّ التآلف والسماح بين أتباع الأديان السماوية فيه بعضهم بالبعض الآخر، وكذلك الفرق الكثيرة التي يعيش

---

١. نشرته صحيفة الشرق الأوسط الصادرة في ١٢ تشرين الاول سنّة ١٩٨٨م العدد ٣٦٠٦.

فيه أفرادها معاً في أُلفة ووداد. وقد كتبت في مذكراتي ذات يوم: «إنّ هذا البلد الجميل ـ رغم صغره ـ عرف كيف يختار لنفسه هذا الجوّ الممتاز المليء بالحبّ والسماح».

أمّا النداء، فكان إنذاراً بما كان لبنان معرّضاً له وهو التفتيت. هذا الخطر العظيم الذي يهدّد كيان لبنان، وهو بذلك لو تحقّق تغني خطورته عن البيان، ولو لم يكن في هذا النداء إلّا هذا فقط فهو يكفي لبعث أعظم الاهتمام في الذين وجِّه إليهم... غير أنّه أُشير فيه إلى ما هو أشدّ من التفتيت وأنكى، وهو تطاير شرر ما قد يحدث في لبنان إلى الدول العربية الأخرى، فيحدث هناك ما حدث في لبنان... ويا للمصيبة الكبرى!

وهنا أقف لأقول بوصفي رجلاً من رجال الدين، يحمل في نفسه المسؤولية، وكمسلم صرف حياته في سبيل وحدة كلمة المسلمين والتقريب بين مذاهبهم، بأنّ الخطر الذي خصّه صاحب النداء بالبلدان العربية لا يخصّها وحدها، بل يهدّد البلاد الإسلامية سواء بسواء.

إنّ الفواصل لا دور لها في عالمنا الحديث وفي وسائل إعلامنا المتقدّمة، فما يقع في المشرق تظهر آثاره في المغرب في ساعات، وما من بلد من البلدان الإسلامية ـ عربية كانت أم غير عربية ـ إلّا وفيه الأكثرية والأقلية الدينية، أو الطائفية أو الجماعات التي أوجدتها الايديولوجيات المستوردة المتطرّفة.

فإذا نجح هذا المبدأ ـ التفتيت ـ في بلد ما، لا سيّما لبنان ـ بلد السماح ـ فكيف يمكن أن تنجو منه دول إسلامية أخرى فيها طوائف وأقلّيات؟ إنّه عدوى إذا سرت لن يسهل وقفها.

ومع اهتمامي بعلاج محنة لبنان ليخرج موحّداً مستقلّاً، وتموت فتنة التفتيت في مهدها، اسمح لنفسي أن أوجّه كلمةً إلى زعماء الدين من الطائفتين معاً: الأعلام علماء الإسلام العظام، والسادة الزعماء الروحيين المسيحيين، ليبثّوا بين الناس

روح السماح، ويقوموا بما يجب عليهم القيام به في هذه الظروف كرسل للسلام، فيسجّلون بذلك أمام العالم قيمة الدين وتأثيره في إصلاح ما عجزت عنه المنظّمات الدولية، وما أوجدته السياسات العالمية لضمان الأمن والسلام.

وأُخاطب القادة ورؤساء البلاد الإسلامية العظام، لأُطالبهم بأنّ يساهموا ويهتمّوا بإعادة الهدوء والأمن والسلام إلى لبنان، حفظاً لأمن البلاد ومصالح المنطقة بأكملها، وأنّ التاريخ سيسجّل مواقفكم الحميدة من أجل البلد الجميل.

القسم السادس

بعض مقابلاته ولقاءاته الصحفية

إيمان وصلابة

ويشتمل على خمسة فصول:

* الأوّل: لقاؤه مع مجلّة روز اليوسف
* الثاني: لقاؤه مع صحيفة الأهرام
* الثالث: لقاؤه مع صحيفة الأخبار
* الرابع: لقاؤه مع صحيفة الأخبار
* الخامس: لقاؤه مع صحيفة الإهرام

الفصل الأوّل

لقاؤه مع مجلّة روز اليوسف[1]

كتب المحرّر يقول:

على امتداد الحوار معه كان يملأ عقلي وقلبي اقتناع وإحساس بالصدق والنقاء أنّني في حضرة واحد من الثوّار المجاهدين الذين تنبّأ رسول الله عليه الصلاة والسلام يظهورهم من بعده: «إنّ الله يبعث كلّ مائة عام من يجدّد أمر دينه».

نعم، إنّ دعوته للتقريب بين المذاهب الإسلامية ثورة على السائد والمألوف، وجهاد متّصل لتأصيل روح الدين الحنيف، وأول مبادئه في توحيد الكلمة، ونبذ التعصّب، وسدّ أبواب الفرقة والخلاف.

صاحب الدعوة والداعية هو الإمام محمد تقي الدين القمي، وسماحته لم يعد غريباً على سمع أحد من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، كما لم تعد دعوته للتقريب المذهبي بالمستوحشة بين دعوات الإصلاح والتجديد التي حفل بها التاريخ الإسلامي زهاء أربعة عشر قرناً من الزمان.

لعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه قولة حقّ ليست ببعيدة عن حال الإسلام وأحوال المسلمين اليوم: «أول الحرب الكلام». ولقد مضى من عمر الدعوة

---

[1]. الصادرة في ٧ مارس / آذار سنة ١٩٧٧م.

والداعية ما يقرب من أربعين عاماً في جهد جهيد لا يعرف الكلل، وارتحال ومشاقّ من أجل أن تتوحّد كلمة المسلمين، نهجاً وتأسيّاً بقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلّا بما صلح به أولها».

وأقول الحقّ: إنني دخلت مجلس الإمام «صحفياً» يبحث عن ثغرات في دعوة التقريب، ورغم القضايا المتشابكة التي حوّمنا حولها، وحاولت قدر فهمي أن أتوقّف عندها، إلّا أنّ دراية الرجل وحنكته وجلاء بصيرته سلبتني كلّ ملكات المناورة والبحث عن القصور. وهكذا ودّعت مجلسه وأنا أشدّ إيماناً بدعوته إلى سدّ الثغرات، ودعم أواصر الفهم والاتّفاق، واستشراف آفاق الإسلام الرحبة التي ترى في الاختلاف بين المذاهب رحمةً بالناس ويسراً!

ولم يكن من الصعب أن أتفرّغ لتسجيل نصّ حديثه وعباراته ومفرداته، لكن فيض الله على الإمام وإشراقاته أنستني مهمتي... وكأنّني مبهور ومسحور أمام ذلك الرجل المتجدّد الفكر الوافر الهمة، وهو يسكب في حديثه روحاً وإشعاعاً وإيماناً وتجرّداً للدعوة التي نذر لها حياته وجهده وماله... حتّىٰ تعود الأمة الإسلامية خير أُمة أُخرجت للناس!

ولست أدري كيف بدأنا الحديث، ولكنّي أذكر الآن بعض آرائه وأفكاره التي ردّدها وسط مجلسه الذي ضمّ بعضاً من المتشيّعين لدعوته، والعارفين لفضله، ومريديه وتلاميذه الذين سمعوا عن زيارته لمصر، فجاءوا ينهلون من مناهل علمه وروحه المتّقدة بالغيرة على الإسلام:

● عندما تسود الدنيا بحالك الظلم والمظالم، وعندما يتوه الناس بين دوائر الشرك والتخلّف والفرقة، فذلك مناخ وزمان ظهور الأنبياء والرسالات، والدعوة الجديدة دائماً وأبداً تحمل في طيّاتها روحاً جديدةً وتياراً متدفّقاً للإنقاذ والإغاثة، وقلباً لكل الأوضاع البالية والمهترئة، وإرساءً لنظام وقواعد بديلة يلتفّ حولها الناس، ويعبّرون فوقها إلى ضياء الحقّ والخير والعدل والتقدم.

● رجل الدين في الإسلام من تمثّل أخلاق الرسول، والتزم أصول العقيدة، هو رجل ثائر لايتوقّف جهاده ضد الظلم والجور، ظلم الشرك، وظلم الإله والواقع والحقيقة. ولأنّ الدين الإسلامي رسالة الثائرين، من هنا كان ارتداء رجال الدين زي الزهّاد والمجاهدين إبّان صحوة الدعوة وفتوحاتها وانتشارها.

● هل فقد المسجد دوره وتأثيره؟ معظم الذين يؤمّونه في زماننا هذا من العجزة وكبار السنّ، أين الشباب؟ ولماذا انصرفوا عن المساجد؟ هل يفتقدون حاجتهم عند خطباء المساجد؟ رجل الدين الذي يتصدّى للإرشاد والتوجيه من فوق المنبر مبشّراً بالجديد في الغالب، ليس فقط في أمور الدين، ولكن أيضاً في أمور الدنيا، عليه أن يتابع نمو الشرّ واستفحال الرذيلة والظلم في نفس الوقت الذي يتابع فيه أوجه الخير والفضيلة والعدل. الطبيب شاغله علاج البدن، ورجل الدين مسؤوليته علاج الروح التي تتحكّم في البدن. إنّ ٦٠٪ من حالات المرض في هذا العصر هي أمراض الروح أو الحالة النفسية كما يقولون.

● الأمة المتخلّفة في نظر الإسلام من ضربت عليها الذلّة والمسكنة، وهو وصف القرآن لبني اسرائيل، لكن حال بني اسرائيل اليوم تغيّر وتبدّل، لأنّهم أخذوا بأسباب الحضارة والقوة والعلم، بينما تخلّفنا في حلبة الحضارة والعلم والإيمان أمداً طويلاً رغم ثرواتنا واتّساع أراضينا وشواطئنا، ورغم زيادة عدد المسلمين إلى ٧٠٠ أو ٨٥٠ مليوناً، ثم كانت المحصلة أنّ اسرائيل التي لايزيد سكانها عن مليونين تذيقنا ألواناً من التعصّب والاغتصاب والقهر!.

❊ ❊ ❊

تلك بعض الآراء والأفكار التي كان يطرحها الإمام القمي عندما دخلت عليه مجلسه، وهكذا كان مدخلي إليه، إلى الداعية والدعوة.

ولقد كانت ولادة أو نشاة فكرة التقريب في إيران على يد الإمام محمد تقي

الدين القمي في وسطٍ يدين بالمذهب الشيعي، وكأي أصحاب الدعوات تحمّل الداعية ألواناً من المعاناة وحملات التشكيك، إلّا أنّ الدعوة كسبت عوامل الاستمرار والثبات، من صدق قصدها، ووضوح حجّتها، الأمر الذي كسب إلى صفّها كبار علماء الإمامية، وفي مقدّمتهم مولانا البروجردي إمام الشيعة قاطبةً، ثم كان لشخص الداعية فضل كبير في انتشارها والانتصار لها في العالم الإسلامي، فالرجل واحد من القمم الشوامخ الذين يتصدّرون علماء الشيعة، وهو من جهة أخرى ليس في حاجة إلى مال، وفوق كلّ إغراء، وما تدرّه عليه الزراعة وكدّ يده يكفيه، ويفيض الكثير الذي يصرفه في وجوه الدعوة.

رقيق البدن في غير نحافة، بسيط الثياب، ودود العبارة، تحسبه في الأربعين أو الخمسين وهو يمارس نضاله اليومي، وهو يتكلّم ويناقش في همّة الشباب وصحوتهم رغم اقترابه نحو سبعينيات العمر التي تفصح عنها لحيته التي ودّعت السواد، واحتفظت بالهيبة ووقار المشيب.

ومرّت دقائق كنت أتأهّب خلالها للحوار، بينما الإمام يرحّب بضيفه، ويطلب لي فنجاناً من القهوة ثم فتح الله عليّ و قلت وأنا أتحسّس كلماتي: كنت أودّ ألّا تفوتني جلستك مع أبنائك ومريديك، ولكنّها مشكلة المواصلات وحركة المرور في القاهرة حالت دون الوصول في الموعد؟

قال الإمام: يا أخي، لقد عرفنا في مصر والمصريين العزم والسبق دائماً لكلّ خير، وشتّان بين أحوال المصريين بعد نكسة ١٩٦٧ وحالهم بعد حرب رمضان! كان حديثهم مبتئساً يفقد الأمل في المستقبل، أمّا اليوم فقد تبدّل كلّ شيء رغم تراكمات المشاكل والمعاناة... وأشعر أنّ المصريين استعادوا قوتهم الروحية وإيمانهم بالمستقبل، وإصرارهم على حتمية النصر على مشاكلهم وعلى أعدائهم.

نبرات الإمام الهادئة تعدل مسار الحديث. وأساله:

◘*في تقدير سماحتكم، ما هي الدلالات وراء هذا التغيير الذي طرأ على المسار الروحي للشعب المصري بعد حرب رمضان؟*

● الله قوي، يحبّ للمسلم أن يتمثّله في قوته، ويحبّ أن يسعى إليه العبد بالصلوات والعبادة والدعاء وهو قوي، فالرجل المتزلزل المهزوز لا يتوسّل إلى الله بقوة، والدين الإسلامي يسعى للتكامل بين القوة والروح، ليس قوةً للطغاة والجبابرة، ولكن قوة الحدث والتأثير والفعل، ولم يكسب الإسلام رغم حجّته وبيانه مزيداً من الأنصار إلّا عندما ساندته القوة.

ويداعب الإمام مسبحته ثم يتابع أجابته على السؤال: من خلال ملاحظاتي واستقرائي للأوضاع في مصر، أستطيع القول: إنّ حالة الإقبال على الدين بعد نكسة ١٩٦٧ كانت مشوبة بالإحساس بالذنب. بعد حرب رمضان نجد أنّ العودة إلى رحاب الإيمان والعقيدة وعمران المساجد ورواج الفكر الديني بين الشباب ظاهرة تستلفت النظر، لأنّ الشباب رمز لقوة المجتمع، وجواد السباق إلى المستقبل، حرب رمضان كانت انتصاراً لإرادة الأمة وقوتها المادية وقوتها الروحية. ومن هنا كان شعار «الله أكبر» الذي تردّد في سيناء معنىً له وزنه ومغزاه على كلّ مؤمن أن يتوقّف عنده كثيراً، ويستخلص منه العبر والدروس.

◘*هل ترىٰ سماحتكم أنّ حرب رمضان عكست آثارها الايجابية على دعوتكم للتقريب بين المذاهب؟*

● مصر على مدى تاريخها الاسلامي كانت دوماً مصدر قوة ودعم لكل حركات التجديد في الفكر الإسلامي. ومنذ الشباب وأنا جوّال الفكر والبصر في أحوال المسلمين، وجدت أنّ اختلاف كلمتهم سبب كلّ ضعفهم، واستهانة أعدائهم، لأنّ

أعداءهم لايواجهون أمة موحّدة الفكر والكلمة، ولكنّها أمة ممزّقة شيعاً ومذاهب متناحرة، وهو ما أتاح للمستعمر أن يرتع في أرض الخلافات الخصبة، ويضرم فيها النار لتزداد اشتعالاً وفقاً لشعار: فرّق تسد. إنّ أحد الدروس المستفادة من حرب رمضان يأتي من جدوى وفاعلية التضامن والترابط بين الشعوب والدول الإسلامية مع مصر، ودعم موقفها وصمودها، وممّا لا شكّ فيه أنّ دعوة التقريب نالت حظاً وفيراً من إيجابيات حرب رمضان، لأنّها دعوة إلى وحدة الكلمة ووحدة الصف، وسبيل إلى قوة الإسلام والمسلمين، الأمر الذي هيّأ للدعوة أفضل مناخ للاقتناع بها ومناصرتها، ليس فقط بين العلماء ورجال الدين في مصر. ولكن أيضاً بين الشباب وعامة الناس.

◻ *حدّثني عن استقبال علماء السنّة في مصر لدعوة التقريب؟*

● أتيت إلى مصر الكنانة عام ١٩٣٧ استمدّ من علمائها الدعم والفهم المشترك لدعوة التقريب، ولم أكن في حاجة إلى بذل جهد كبير، فقد وجدت العقول والقلوب معي، ووجدت علماء أهل السنّة يدور بخاطرهم ما دار بخاطري، وأنّ ما بين الشيعة والسنّة من اتّفاق على أصول العقيدة يجب ما بين تلك المذاهب من أسباب الخلاف والاختلاف.

كلانا متّفق على أنّ إلهنا واحد، ونبيّنا واحد، وكتابنا واحد، لا يختلف السنّي عن الشيعي ـ ولله الحمد ـ في كلمة من كلمات القرآن، وهذا فخر، وأيّ فخر، للدعوة الإسلامية!

◻ *وفيم الاختلاف إذاً ما دامت أركان الإسلام الخمسة شرط من شروط الإسلام الصحيح لدى مختلف المذاهب؟*

● هذا هو السؤال، لقد عملت مراحل سياسية وأنظمة متعاقبة هنا وهناك على منع المسلم في هذا المذهب أو ذاك من أن يمدّ بصيرته ويتعرّف على ما لدى أخيه

من حجّة أو اجتهاد رغم أنّ قبلة المسلمين على اختلاف مذاهبهم واحدة، وهي الكعبة المشرّفة، وصلواتهم المفروضة خمس صلوات من ركعاتها وسجداتها وقراءاتها وإن كان هناك خلاف في: هل يكفي جزء من السورة بعد الحمد أم السورة كاملة. ثم إنّ صوم المسلمين واحد وإن كان هناك اختلاف بين صوم السنّة والشيعة، فإنّ أهل السنّة يفطرون بمغيب الشمس، بينما الشيعة يشترطون ذهاب الضوء تماماً، أي بعد المغيب بربع ساعة زيادةً في الحيطة.

تكسو ملامح وجهه ابتسامة بالرضى، ويقول: وكما ترى هذه أمثلة من الاختلافات بين مذاهب أهل السنّة ومذهبي الشيعة: الإمامية والزيدية وهي خلافات من الظلم للإسلام الذي جاء من أجل إعلاء كلمة المسلمين ووحدتهم وقوتهم. إنّ بين الشيعة والسنّة في مسألة الإمامة أو الخلافة فأمره معروف وأدلّة كلٍّ فريق يرجع إليها في كتب كلٍّ منهما!

◙ *وماذا قدّمت الدعوة من أساليب ومناهج للتقريب بين المذاهب السنّية والشيعية؟*

● بداية الدعوة كانت بمثابة إشعال الضوء على طبيعة الخلافات الثانوية بين المذاهب، والتي لا تمسّ جوهر العقيدة وأصولها الثابتة. ذلك أنّ كثيراً من الأفكار والأوهام المتبادلة بين المذاهب نمت وترعرعت في الظلام، كان شعارنا «أعرف أخاك تعرف على أفكاره، إذا لم تقتنع اعذره واحترم رأيه».

* * *

الإمام المراغي وفكر الشيعة

كنت استعدّ لمواصلة طرح أسئلتي على الإمام، وإذا بشريط من ذكريات الدعوة الأولى تمرّ بخاطري.

إنّ العشر سنوات الأولى من عمر الدعوة في مصر ليست بالزمن الطويل في عمر

الدعوات والثورات، لأنّ الدعوات والرسالات تستهدف قلب أوضاع راسخات، عاشت وعشئشت في العقول أجيالاً وحقباً من الزمان.

وعندما أرسل الإمام القمي بدعوته إلى مصر عام ١٩٣٧ التقى بالإمام الأكبر مصطفى المراغي شيخ الأزهر الذي تفهّم دعوته وحسن قصده، وكان سنداً ونصيراً قوياً للدعوة، حيث جمع ما بين الإمام القمي وكبار علماء مذاهب السنّة، من أمثال: الشيخ عبدالمجيد سليم، ومصطفى عبدالرازق، واللبّان، والفحّام، ودار النقاش طويلاً ومثمراً بينهم حول فكرة التقريب بين المذاهب، وأثرها في وحدة كلمة الإسلام والمسلمين و... سقطت الكثير من المحاذير، وانفتحت القلوب والعقول تحتضن الفكرة وتناصر صاحبها.

ومنذ ذلك التاريخ حدثت تحوّلات غاية في الاهمية في مناهج وفكر أهل السنّة، وكان الفضل يرجع إلى الإمام المراغي الذي تفجّرت على يديه ينابيع ظلّت محبوسه في العقول والكتب وحلقات التدريس في الأزهر سنوات وقروناً، وكان يرحمه الله قد بدأ يعتمد في تدريسه للتفسير بالأزهر ـ معقل فكر السنّة ـ بعدد من مؤلّفات ومراجع «الإمامية»، مثل كتاب مجمع البيان، وكان لهذا الحدث وقعه وصداه في العالم الإسلامي كلّه.

وفي عام ١٩٤٨، أيّ بعد عشر سنوات من التبشير بالفكرة في مصر، عاد الإمام القمي ليكتشف أنّ فكرته قد أصبحت دعوة يتبنّاها عشرات العلماء وأقطاب المذاهب السنّية، وكثيرون من أصحاب القلم وقادة الفكر والاجتماع والقانون في مصر، وأدرك الداعية أنّ البذرة قد أنبتت وأثمرت وحان قطافها، وكان أن أسّس جماعة التقريب، وتتوالى الاجتماعات بين كبار علماء أهل السنّة والفكر والقانون والاجتماع وبين علماء الشيعة، وتتّفق الآراء على أنّ المذاهب المشاركة في «جماعة التقريب» مذاهب متّفقة في أصول العقيدة، وأنّ خلافاتهم اجتهادية في الدائرة المقبولة.

وسقطت كثير من الأفكار الجامدة التي سادت طويلاً لدى كلّ مذهب عن

الآخر، وكانت هناك شائعات تكاد ترقى إلى مرتبة الجزم واليقين: أنّ بعض نسخ القرآن التي يتداولها الشيعة محرّمة، وثبت لدى المذاهب السنّية بشكل قاطع أنّه لا يوجد بين ملايين النسخ المتداولة بين الشيعة تحريف واحد، لا في الكلمة ولا حتّىٰ في التشكيل. وكان بعض الشيعة على قناعة أنّ أهل السنّة في مصر لا يحبّون أهل البيت، فاذا بهم يكتشفونهم متشيّعين لأهل البيت أكثر من الشيعة.

▣ *وأسأل الإمام القمي: ماذا قطعت الدعوة من أشواط منذ تأسيس جماعة التقريب؟*

● يداعب مسبحته في هدوء ويقول: إنّ أول الغيث قطرة، وهذه القطرات كانت مستعصية على النزول وسط الضباب والغبار الكثيف الذي اكتنف مسيرة الدعوة. كانت قطرة الندى التي بلّلت جبين الدعوة، عندما أصدر الإمام الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر فتواه الشهيرة في يناير عام ١٩٥٩ في جواز التعبّد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول والمعروفة المصادر، ومنها مذهب الشيعة الإمامية. وفي الحقيقة أنّ تلك الفتوى صدرت في اجتماعات دار التقريب عند تأسيسها عام ١٩٤٧، وكان الشيخ محمود شلتوت آنذاك أحد المشاركين فيها، ثم أعاد تأكيدها ودعمها سواء بتوزيع صور الفتوى «الزنكغرافية» في مختلف بلاد الأمة الإسلامية، وسواء في ردوده على أسئلة السائلين واستفتاءات المستفتين التي كانت تأتي إليه من الشخصيات والمحافل الإسلامية.

ويحلّق الإمام القمي بعيداً كمن يبحث عن شيء أو يتذكّر أمراً، ثم يقول: الإنسان في العادة لا يدرك كيف تغيّرت أحواله من الطفولة إلى الشباب، ولا من الشباب إلى الرجولة. كذلك دعوة التقريب، لم تعد أسيرة مرحلة التعريف بها والردّ على حملات التشكيك والافتراءات التي وجّهت إليها. نحن الآن في مرحلة العمل المنظّم الذي يتحكّم في المستقبل المرتجى للدعوة: أن يسري تيارها ليس فقط بين رجال الدين والمحافل الإسلامية فحسب. ولكن أيضاً بين قادة الفكر والرأي وعامة

الناس، حتّىٰ تؤتى ثمارها في وحدة كلمة الأمة الإسلامية في مختلف مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع.

▣ *ماذا عن الجديد في مناهج وفكر جماعة التقريب؟*

● إنّ دعوة التقريب في حقيقتها حرب شعواء بالقلم والفكر وكلّ أدوات الاتصال ضد تنابلة المسلمين، الذين يصدّون عن قراءة ما لدى إخوتهم من المسلمين الذين يجاورونهم أو يعيشون بينهم، هؤلاء الذين تجمّدوا عند حدٍّ ما سمعوا من أسلافهم دون مراجعة وتفكير وتمحيص!

أمثال هؤلاء وهؤلاء، نسعى إلى أن نصل إليهم في عقر دارهم، في عقر عقولهم، وهم في النهاية يتناقصون ويعزلون أنفسهم عن دعوة التقريب التي تكسب إليها كلّ يوم مزيداً من المتفهّمين والمؤيّدين والدعاة.

وفي مصر على سبيل المثال حركة تأليف وتحقيق نشطة لدار التقريب، شعارها «أعرف أخاك»، وهناك عشرات العلماء الأجلّاء يضعون الآن كتاب الفقه الجامع الذي يقنّن فقه علماء السنّة وعلماء الشيعة في العبادات والمعاملات، وعشرات من العلماء آخرون يعكفون على تحقيق كتاب تفسير مجمع البيان في عشرة مجلّدات. وهو في رأي الكثيرين أدقّ وأشمل تفسيرٍ للقرآن.

▣ *قلت: أذكر قول رسول الله عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن» فهل تحجم دعوة التقريب عن كسب الأنظمة والحكومات الإسلامية بما لديها من قوة التأثير في نشر الدعوة؟*

● كان حذرنا في بداية الدعوة أن نتجنّب الولوج إلى ميادين السياسة أو نستدرج إليها، وكان الجو ملبّداً بغيوم التشكيك والافتراءات ومحاولات الاستقطاب. والآن بعد أن رسخت أقدام الدعوة، وعرفها القاصي والداني لوجه الله

وخير المسلمين قاطبة، يسعدنا بالطبع كلّ عمل من شأنه أن يدعم الدعوة، ويفسح لها مجال الانتشار والازدهار. ويسعدنا أكثر أن يتوقّف كلّ عملٍ من شأنه وضع العقبات والمعوّقات أمام توجّهات الدعوة لجمع كلمة المسلمين وقوتهم.

إنّ دولة اسلامية واحدة ـ مهما صغرت رقعتها وعدد سكانها ـ تسعى لأن تكون مثالاً حيّاً لمبادئ الإسلام في الحكم والعدل والمساواة، يمكن أن تقدّم للإسلام والمسلمين القدوة الحسنة لبقية الدول والشعوب الإسلامية إذا ما نجحت في التطبيق والممارسة السليمة.

* * *

وتمضي ساعتان وأكثر، والإمام القمي ما زال متدفّق الروح واسع الصدر، وكان عليّ أن انسحب بلطف.

◻ *هل أسألك عن أُمنياتك لدعوة التقريب؟*

● قال وهو يشدّ على يديَّ مودّعاً: دعنا من الأحلام، وعلينا أن نتمنّى ما هو ممكن التحقيق، إنّني أطمع في جيل جديد من المسلمين تربّىٰ على المعرفة والاستكشاف ورحابة الفكر.

ماذا لو وضعت مناهج لتدريس الدين الإسلامي بمختلف مذاهبه واجتهاداته في المعاهد والجامعات الإسلامية، وأن تدرَّس نفس المناهج بشكل مبسّط في مختلف مراحل التعليم المدني، بذلك نكسب مستقبلاً للأمة الإسلامية، دعائمه الفهم والوفاق، وليس التعصّب والاختلاف.

◻ *سؤال في الصميم يا سماحة الإمام، لكنّي ـ للأسف ـ لا أملك إجابته!*

يوسف الشريف

الفصل الثاني

لقاؤه مع صحيفة الأهرام[1]

□ *قلت لسماحة الإمام محمد تقي القمي، العالم الإيراني الشيعي، صاحب دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية: بصراحة، ماذا تريد؟ هل تريد أن تجعل السنّي شيعياً، أو أن تجعل الشيعي سنّياً، أم تريد من كلٍّ منهما أن يتنازل عن بعض معتقداته؟*

● أنا لا أطلب أن يتحوّل أصحاب المذاهب عن مذاهبهم، كلّ ما أدعو إليه هو أن يتعرّف أصحاب كلّ مذهب على أفكار المذاهب الأخرى، فأمّا أنّ يقتنع ويلتقي معه، وأمّا أن يحترم مالدى الآخر لأنّ لديه دليله. وأعتقد أنّ بناء الأمة الإسلامية وثقافتها سوف يصبح أقوى وأكبر إذا أضفنا الثروة الفقهية للشيعة إلى ثروة أهل السنّة، الشيعة عددهم الآن ١٠٠ مليون مسلم، ولهم حوالي ٢٥ ألف كتاب في الفقه، كلّها باللغة العربية، فلماذا لا يتعرّف أهل السنّة عليها؟

□ *بصراحة أيضاً، لماذا جئت بدعوتك إلى القاهرة بالذات؟*

● لأنّها قلب العالم الإسلامي، وفيها الأزهر وهو أكبر جامعة تحمي الإسلام،

---

١. الصادرة في ٣٠ يناير /كانون الثاني سنة ١٩٧٦ ـ ٢٩ محرم ١٣٩٦هـ.

لهذا أردت أن أبدأ بحلّ المشكلة مع الأزهر، وفيه أكبر رجال السنّة.

◻*وهل في طهران فرع لدار التقريب كما في القاهرة؟*

● داري في طهران هي مركز الدعوة إلى التقريب، وقد زارني فيها عدد من رجال القاهرة، ورأوا آثار الدعوة هناك.

◻*أهل السنّة والشيعة يلتقون على الإيمان بإله واحد، وقرآن واحد، ورسول واحد، ولكن أريد أن أعرف نقاط الخلاف الإساسية بين المذهبين؟*

● الخلاف الأساسي حول الإمامة والخلافة، هي عند أهل السنّة تقوم على الانتخاب أو الاختيار، والشيعة يعتقدون أنّ الرسول ﷺ قد نصّ على إمامة علي وأولاده من بعده.

◻*والخلافات حول أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام؟*

● عند أهل السنّة والشيعة: سنّة الرسول هي المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن، ولكن هناك رواة لا يثق الشيعة فيهم، فالجمهور يأخذون برواية أيّ صحابي، والشيعة يشترطون أن تكون الرواية عن طريق أئمة أهل البيت، لاعتقادهم أنّهم أكثر معرفةً بالسنّة من غيرهم.

◻*من أين إذاً جاءت القطيعة والتخوف بين أهل المذهبين؟*

● من أعداء الإسلام، وبينهم عدد من المستشرقين، صوّروا لكلّ فريق أنّ الآخر يقول كفراً، مثلاً لقد وصل الأمر إلى التشكيك في وحدة المصحف، وقيل: إنّ مصحف الشيعة مختلف عن المصحف في أيدي سائر المسلمين! ومع ذلك لم يكلّف أحدهم نفسه مشقّة تقليب نسخة من ملايين النسخ التي يتداولها الشيعة، ولو فعل لذهب الشكّ، وحلّت المشكلة.

◘*أعرف أنّ جهودكم انتهت إلى صدور فتوىً في مصر بجواز التعبّد بمذهب الشيعة الإمامية، ما قصة هذه الفتوى؟*

● عندما بدأت دعوة التقريب عام ١٩٣٨ جئت إلى القاهرة، وقمت بعدّة اتّصالات مع علمائها، ولم يمض وقت طويل حتّىٰ انضمّ إلى الدعوة رجال لهم وزنهم، مثل: الشيخ مصطفى عبد الرزاق، والشيخ عبد المجيد سليم، والعلّامة محمد فريد وجدي، والشيخ حسن البنّا، والدكتور أحمد أمين، والشيخ محمد المدني، وانضمّ إلينا الشيخ شلتوت، وحين أصبح شيخاً للأزهر سئل فأصدر فتواه التاريخية، وقال فيها: «أنّ مذهب للشيعة الإمامية كسائر المذاهب الإسلامية الأخرى». وقال: «فينبغي أن يعرف المسلمون ذلك، وأن يتخلّصوا من العصبية بغير الحقّ لمذاهب معيّنة، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب، فالكلّ مجتهدون عند الله».

◘*أريد أن أعرف الخلافات بين فقه السنّة والشيعة، ولنبدأ بالصلاة.*

● الشيعة لايجيزون ترك الصلاة بحال، حتّىٰ أنّ الموحل والغريق عليهما الصلاة بالإشارة، ويشترطون بعد الفاتحة قراءة سورة كاملة وإن تكن قصيرة، ولا يجيزون قراءة جزء من سورة، وعندهم قعدة بعد السجدتين، وبعد ذلك فكلّ أركان الصلاة واحدة.

◘*وفي الصيام؟*

● الشيعة الإمامية يرون أنّ الكذب على النبي ﷺ مفطر، ويجب فيه القضاء والكفّارة، وهم يفطرون بعد أهل السنّة بحوالي ربع ساعة؛ لأنّهم يشترطون زوال الحمرة المشرقية لا مجرّد مغيب الشمس، ولاخلافات أخرى.

◻ *وفي الحجّ؟*

● الحجّ يأخذ في كتب فقه الشيعة حيّزاً أكبر، ويعتبرونه جهاداً بالمال والبدن، ويرون تاركه على حدّ الكفر بالله، وإذا مات المكلّف دون أن يحجّ اعتبر الحجّ ديناً ويحجّ عنه، ويؤدّى بغير إذن. ولو كان بيد إنسان مال لميّت عليه الحجّ، وعلم أنّ الورثة لا يزكّون، يجوز له أن يقتطع قدر أجرة الحجّ ويبذلها لمن يحجّ عنه، لأنّ هذا دين الله أحقّ بالقضاء.

◻ *وفي الزواج والطلاق؟*

● هم كبقية المذاهب، لكنّهم يشترطون للطلاق شاهدين، لقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾[1]، ولا يوقعون طلاق الثلاث بلفظ واحد أو متتابعاً في مجلس واحد، ولا ينعقد الطلاق عندهم بالحلف.

◻ *وفي الاجتهاد؟*

● عند أهل السنّة باب الاجتهاد أُقفل، وعند الشيعة باب الاجتهاد مفتوح دائماً وحتّى الآن.

◻ *ولكن للشيعة مذاهب كثيرة وليسوا مذهباً واحداً؟*

● في إيران والعراق الشيعة الإمامية التي أحدّثك عنها، وفي اليمن الشيعة الزيدية، وفقههم لا يختلف عن فقه أبي حنيفة، ثم هناك الشيعة الإسماعيلية وهما طائفتان: البهرة في الهند، والآغاخانية المعروفة، وقد رفضنا دخولها معنا في دار التقريب. وسوف تجد في كتب الملل والنحل فرقاً للشيعة لم يعد لها وجود في العالم الآن.

---

١. الطلاق: ٢.

◘ *ولكن ما يزال هناك بعض المتطرّفين من الشيعة الذين نسمّيهم غلاة الشيعة.*

● هؤلاء نبرأ منهم، ونحكم بكفرهم.

◘ *معروف أنّ في بعض كتب الشيعة هجوماً على أصحاب مذهب أهل السنّة؟*

● لقد شكّلنا لجنةً في إيران لمراجعة الكتب الدينية، وإزالة الهجوم المذهبي منها.

◘ *لقد بدأت دعوتك في القاهرة عام ٣٨، والآن بعد حوالي ٤٠ سنّة، هل تشعر أنّ دعوتك أثمرت؟*

● أشعر أنّني حقّقت تقدّماً، الدعوات تحتاج إلى عمر طويل، لقد أصبح هناك عدد من علماء السنّة والشيعة يتفهّمون بعضهم بعضاً. وقد طبعت وزارة الأوقاف في عهد الشيخ الباقوري كتاب المختصر النافع في فقه الشيعة الإمامية، وطبعت دار التقريب في القاهرة ٨ أجزاء من تفسير القرآن للطبرسي، وأصدرنا مجلّة رسالة التقريب، وأصبح مذهب الشيعة يدرَّس في الأزهر، ومذهب السنّة يدرَّس في جامعة طهران. لقد أوجدنا وعياً، وعالجنا بعض رواسب قرون طويلة ماضية.

الفصل الثالث

لقاؤه مع صحيفة الأخبار[1]

كتب المحرّر يقول:

الفلاح القادم من طهران إلى القاهرة يقول:

□ *الخلاف بين أهل السنّة والشيعة.. مسألة تاريخية*

□ *الباب المكسور يسمح بدخول اللصوص والهلافيت*

□ *أزمة التديّن سببها عدم وجود القدوة*

كأيّ فلاح في مصر كان الرجل يتكلّم بيده، إنّه يرفض بإصرار أن تتحوّل كلماته إلى شيك بلا رصيد، ويذكّرنا بما كان يعنيه العرب عندما يصفون رجلاً بأنّه يتكلّم بيده، ويقول: إنّهم يقصدون بذلك أنّه رجل أعمال لا رجل أقوال. ويضيف الرجل الفلّاح القادم من طهران: ومنذ البداية ـ وبتواضع شديد ـ اخترت أن أكون هذا الرجل.

وبكل البشاشة والبساطة والوضوح رحّب الرجل بالأسئلة التي وجّهتها إليه جريدة الجمعة، وأخذ يهمس وكأنّه يزأر: ليس عندي ما أخفيه، ولا ما أتستّر عليه، وأنا منذ جئت إلى القاهرة لأول مرّة، ومنذ أربعين عاماً، وأنا أسعى في وضح النهار،

---

١. الصادرة في الجمعة ١٨ ربيع الأوّل ١٣٩٦هـ ـ ١٩ مارس / آذار ١٩٧٦م العدد ٧٤١١ السنة (٢٤).

وتحت بصر الجميع وسمعهم إلى هدف نبيل وجليل هو التقريب بين المذاهب الإسلامية.

وبعبارة واضحة ومحدّدة: كان هدفي وما زال هو التقريب بين المسلمين من أهل السنّة والشيعة وإزالة ما بينهما من جفوة وخلافات استمرّت لقرون طويلة.

ويتوقّف سماحة الإمام محمد تقي الدين القمي إمام الشيعة في إيران ليستمع مرةً أخرى إلى السؤال الذي وجّهته إليه جريد الجمعة عن رأيه فيما يقوله بعض الناس عن تصريحاته وأحاديثه في الصحف والمجالس حول التقريب بين أهل السنّة والشيعة، وأنّ هذه التصريحات والأحاديث هي الوجه الظاهر من كلام الشيعة، وأمّا الباطن فهو في كتب ومعتقدات لا يظهرونها، وهي متناقضة تماماً مع أهل السنّة، بل ومحرِّضة على كراهيتهم.

ويبتسم الإمام القمي في وجوم معبّراً عن امتنانه لهذه الصراحة التي يتّسم بها الحوار، وقال: أحبّ أن تعلم أنّني لست موظّفاً لدى أيّة جهةٍ من الجهات أو حكومةٍ من الحكومات، وإنّني لا أتكسّب عن طريق هذه الدعوة، أنا رجل فلّاح، أعيش من عمل يدي وكدح ذهني وعرق جبيني، لا يد لأحد عليّ ولله الحمد والمنّة.. ومازلت أذكر اللحظة التي وصلت فيها إلى القاهرة لأول مرة منذ حوالي أربعين عاماً، ليلتها كنت وحيداً، لقد اتّجهت إلى السماء وقلت: يا إلهي، لقد جئت إلى بلد لا أعرف فيه أحداً، ولا يعرفني فيه أحد، يا إلهي أنت تعلم فيم كانت رحلتي، ولِمَ كانت غربتي، ولماذا أؤمن بفكرتي.. فانصرني. وأستطيع أن أقول الآن: إنّ الله قد نصرني.

اليوم حدث تحوّل عظيم، مذاهب الشيعة تدرَّس الآن ضمن مناهج الفقه المقارن في الأزهر، آراء فقهاء الشيعة يؤخذ بها في قوانين الأحوال الشخصية في مصر، كتب الفقه والتفسير التي وضعها علماء الشيعة تُطبع الآن ويتمّ تداولها في مصر. كلّ هذا حدث نتيجة للجهود الضخمة والشريفة التي بذلها كثيرون من العلماء، فتحوا قلوبهم وعقولهم لما نقول.

لقد قلنا: إنّه ليس هناك ما يمنع التقريب بين المذاهب الإسلامية، وأعني بذلك المذاهب المتّفقة في الأصول، والمؤمنة بكل ما لا يتمّ الإسلام إلّا به. إنّه لا خلاف يستحقّ أن نقف عنده، ولنكن صرحاء ونقرّر أن كان هناك خلاف حول الخلافة ومن يتولّاها.

وكان... ما كان

الشيعة يرون أنّ علي بن أبي طالب هو الخليفة المنصوص عليه، وهو الذي عيّنه رسول الله ﷺ وأوصىٰ به، والخلافة بمعنى الولاية حقّ له ولأولاده من بعده، وللشيعة أدلّتهم على ذلك. أمّا أهل السنّة فإنّهم يرون شغل منصب الخلافة بالاختيار.

وكان ما كان... وكان يمكن أن يبقي الخلاف محصوراً في دائرة معقولة لولا شهوة الحكم وبريق السلطة وكيد الأعداء. وعلى أيّ حال، فإذا كان الخلاف حول الإمامة والخلافة هو ما فرّق بين الشيعة وأهل السنّة، فإنّ هذا الأمر لا تترتّب عليه الآن أيّة آثار.

إنّ هذه القضية أصبحت من اختصاص العلماء والمؤرّخين، وهدفنا الآن هو رفع الأنقاض، وإزالة آثار هذه المعارك، وتمهيد الأرض لقيام وحدة إسلامية قوية وعزيزة، لا تزعزعها الرواسب القديمة والأحقاد وسوء الفهم.

ليست غايتنا أن يترك الشيعي مذهبه، أو السنّي مذهبه، إنّما نريد أن يتّحد الجميع حول الأصول المتّفق عليها، وأن يعذر بعضهم بعضاً فيما وراء ذلك.

ونحن لا نخفي أنّ هناك من يتسمّون باسم الشيعة من الفرق الباطنية والغلاة، ونحن نرفض هؤلاء، ولكن الشيعة التي أمثّلها، والتي أحاول التقريب بينهم وبين أهل السنّة، هم الشيعة الاثنا عشرية والزيدية، وكلّ عقائدهم ظاهرة ومعلنة، واتحدّى أيّ إنسان في أيّ بلد وفي أيّ مكان أن يأتيني بكتاب لهم تكون له صفة السرية أو ممّا يقال عنه من الأسفار.

القضايا... المعاصرة

▣ *يا سماحة الإمام: ألا ترى أنّ الطريق الأقرب إلى التقريب هو اتّخاذ خطوات إيجابية لتكوين رأي عام لجميع المسلمين، يتجاوز الشيعة وأهل السنّة ممّا على أساس وحدة النظر إلى القضايا المعاصرة التي يرتبط بها مصير الإسلام والمسلمين، مثل قضية فلسطين والاستعمار، وقضية مواجهة الغارات الفكرية التي تهب علينا من الشرق والغرب إلحاداً وانحلالاً، ومواجهة قضيه انصراف الشباب عن الدين؟!*

● لا أحبّ أن تطلقوا عليَّ ألقاباً فخمة ولها رنين، لست إماماً هنا في القاهرة، ولكنّي جندي في ساحة التقريب، وداعية أتشرّف بالدعوة إلى وحدة الصفّ الإسلامي.

ونحن فعلاً نرى الآن أنّ هذا هو الطريق الأقرب إلى التقريب، أقول: نرى هذا الآن، ولكن قبل الآن ما كان يمكن أمام كلّ ما خلّفته سنوات الفرقة والخلافات والظلمات التي جعلت كلّ فريق يتخوّف من الآخر ويتربّص به.

إنّ الإقبال على فكرة التقريب، وتأسيس جماعة التقريب، وإصدار مجلّة تتحدّث باسمها وتخدم أهدافها، هذا كلّه يعتبر نجاحاً منقطع النظير، يمكن بعده أن نسلك الطريق الأقرب إلى التقريب الذي تتحدّثون عنه.

وإمام أئمة الشيعة المرحوم آية الله البروجردي كان يرىٰ معنا أنّ المصلحة تفرض على المسلمين أن يتوحّدوا، وأن تضمّهم جامعة إسلامية تكون لها شخصية سياسية واحدة، لا تتدخّل في المسائل الخاصة بكل بلد ولكنّها تجتمع على المسائل العامة.

الباب... المكسور!!

أمّا قضية التيارات الفكرية المعادية، وانصراف الشباب عن الدين، فإنّني أقول لك ببساطة: إنّه ما دام الباب مكسوراً، فإنّ ذلك معناه الترحيب باللصوص، وإنّه ينبغي

أن نؤمن تماماً بأنّ ما لدينا من فكر يحقّق لنا الاكتفاء الذاتي، وإنّنا إذا لم نتحوّل إلى مصدِّرين للقيم النبيلة والمثل الرفيعة والعدل والحرية إلى خارج بلادنا، فإنّنا نتيح الفرصة لأيّ «هلفوت» من الشرق والغرب لكي يعبث في بلادنا فساداً وتخريباً!

الشباب... والقدوة

وتلفّت الرجل الفلّاح ـ القادم من طهران إلى القاهرة ليجمع المسلمين على كلمة سواء ـ إلى أوراقه يجمعها، وحقائبه يجمعها، ويشدّها، فقد كان يتهيّأ لمغادرة القاهرة عائداً إلى بلاده بعد زيارة استمرّت شهرين، اجتمع خلالهما بعددٍ من العلماء والمسؤولين، بهدف دعم دعوة التقريب، وزيادة فاعليتها، والانتقال بها إلى مرحلة جديدة أكثر تطوّراً وأشد تأثيراً.

ثم يلتفت إلينا قبل أن يودّعنا ويقول: أمّا عن الشباب وانصرافه عن الدين، فإنّني أشدّد على أنّ الشباب يحتاج فقط إلى القدوة.

ولنكن صادقين ونقولها: إنّ شبابنا يتلفّت إلى القدوة الصالحة، وقد طال انتظاره لها.

الفصل الرابع

لقاؤه مع صحيفة الأخبار[1]

كتب المحرّر يقول:

كان ذلك عام ١٩٣٨ حينما دعاه الأمير يوسف كمال إلى الغداء في قصره، ثم فاجأه الأمير بهذا السؤال: يا سماحة الإمام، لماذا يقول الشيعة: إنّ جبريل عليه السلام نزل بالرسالة على سيدنا علي بن أبي طالب، فأخطأ ونزل بها على محمد ﷺ؟

قال تقي القمي للأمير: يحكىٰ أنّ أميراً كان يعطف على الشعراء حتّىٰ أنّهم كانوا يتزاحمون على بابه، ولكن شاعراً منهم كان دائماً يخونه الحظّ فلايحظى بالمثول بين يديه. وحدث أنّ شاعراً من أرباب المبالغة وصف مائدة الأمير بأنّها استقبلت ـ بكرمه ـ كلّ من بالكون من بشر! فبعث الشاعر بورقة إلى الأمير، يقول فيها: إن لم أكن شاعراً ولم أكن بشراً فأنا ممّن يضمّهم هذا الكون لم يحظ بالجلوس إلى مائدة الأمير!

ثم قال الإمام تقي الدين القمي: وإن لم أكن عالماً أو باحثاً في المذاهب فأنا على الأقلّ واحد من الشيعة، لم أسمع في حياتي أنّهم يقولون هذه الخرافة المضحكة، وهي حكاية خطأ جبريل هذه!

---

١. الصادرة في ١١ محرم ١٣٩٦هـ ـ ١٢ يناير /كانون الثاني سنة ١٩٧٦م.

من هذا الباب دخل تقي الدين القمي، ومن أشهر علماء المسلمين في العالم، ومن أئمة الشيعة، إلى الحديث عن دعوته، حين زرته في غرفة هادئة بفندق شيراتون.. حيث يزور القاهرة زيارته السنوية المعتادة منذ عام ١٩٣٧.

رجل رقيق الحاشية، متدفّق بالحيوية رغم أنّه في العقد السابع من عمره. فقد ولد عام ١٩٠٧ في طهران، والعربية يتحدّثها بطلاقة أسلافه من علماء فارس المسلمين، شوامخ القرن الثاني والثالث والرابع الهجري.

هو رجل شغله النضال ضد التعصّب منذ صدر الشباب، وقرّر أن يكون التقريب بين المذاهب الإسلامية رسالة حياته، وقرّر أن تكون القاهرة منبر رسالته، لأنّها موطن الأزهر، ومنارة الإسلام، وعاصمة المصريين، أهل السماحة في الدنيا، كما قال لي وهو يشرح دعوته:

● أصل الانقسام في الإسلام هو جهل كلّ فريق بما عند الفريق الآخر، نقص المعرفة من منبعها، ودعوتي تعتمد أساساً على أن نبدأ بالحبّ، ونتعارف بالعقل، على أن تكون الحرية الفكرية هي عدّتنا. إنّنا في عصر التطّلع إلى السماء، ومع ذلك ونحن في البلد الواحد نجهل ما عند جارنا، أفكارنا الثابتة تصل إلينا بالوراثة.. بالتقاليد.. أو بالسماع!

إنّ زراعة الحب بين المسلمين هي متعتي.. أحبّ أن أراهم متحابّين، أحاسيسهم واحدة، قضاياهم واحدة، وهمومهم واحدة.

شغلتني قضية الفوارق بين مذاهب المسلمين، فلم أجد بينهم فوارق جوهرية، هم متّفقون على الإيمان بالله ووحدانيته، قرآنه كتابهم لا يختلف السنّي مع الشيعي على كلمة منه، نبيّهم محمد هو خاتم النبيين، يصلّون الخمس لا يختلفون على عدد ركعاتها أو سجداتها أو أركانها، وصيامهم واحد يبدأ بالرؤية وينتهي بالرؤية. وحجّ البيت فريضة عليهم جميعاً، وأساس استنباط الأحكام الشرعية عندهم جميعاً: كتاب الله وسنّة رسوله.

وإذا كانت هناك خلافات فهي خلافات اجتهادية في مواضع يسمح فيها بالاجتهاد والنظر؛ كالجهر بالبسملة أو إخفائها.

المسألة التي صارت سبب تمييز بين السنّة والشيعة هي درجة حبّ أهل البيت، وقد رأيت أنّ أهل مصر من السنّة يعشقون أهل البيت فآمنت أنّ المسلمين سنّيون متشيّعون جميعاً لأهل البيت.

في التاريخ ـ ولا أنكر ـ بعض الغلاة، بعض المتعصّبين، وحالياً هناك قلّة قد تقول في علي ما لا تقول في الله سبحانه وتعالى، والشيعة هي التي تحكم بنجاسة هؤلاء الغلاة المتطرّفين.

وبصراحة أكثر أقول: إنّ الخلاف بين السنّة والشيعة أساسه الولاية والخلافة. الشيعة ترى أنّ لعلي وأولاده حقّ الولاية، ويعتمدون في قولهم على وقائع في حياة النبي وأقواله ممّا نرى بعضاً منها ثابتاً في الكتب المدوّنة.

ليس هذا دفاعاً ولكنّه سرد لحقيقة الخلاف الوحيد الآن، لا الخلافة قائمة ولا الإمام المهدي المنتظر قد ظهر، الخلاف الوحيد ليس له أثر عملي كما ترى. تبقىٰ مسألة العواطف تجاه أهل البيت، وخلاف على تقييم بعض المسلمين الأوائل.

دعوتنا إذاً واقعية: لا ندعو أن يتنازل السنّي عن سنّيته، ولا الشيعي عن شيعيّته، «هما مكتبان» في الإسلام، والتقريب قائم على كيانين ليس بينهما خلاف على أصول العقيدة.

◙*كيف استقبلت مصر دعوتك؟*

● استقبلها الأزهر بقلب عطوف، ورمقها الملك السابق بقلق، ورحّبت بها الثورة على مدار مراحلها، عرفت عبد الناصر عن قرب، والسادات عن مودّة، ورجال الدين المصريين عن أخوّة في الإسلام حميمة.

عام ١٩٣٧ عرضت فكرتي على الشيخ المراغي، ورحّب بها، وجمعني بعدد من

رجال الدين، منهم الشيخ عبدالمجيد سليم ـ كان مفتي الديار وقتها ـ والشيخ مصطفى عبدالرازق ـ وكان وزير الأوقاف ـ وغيرهم من كبار العلماء في ذلك الوقت، رحّبوا وكان رأيهم أنّ الدعوة تحتاج إلى تمهيد، مكثت بمصر حتّىٰ عام اندلاع الحرب العالمية الثانية، ثم عدت بعد نهايتها وأسّسنا للدعوة دارها عام ١٩٤٧، وهي دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، وهي التي تضمّ علماء من المذاهب الأربعة المعروفة عند أهل السنّة ومذهبي الشيعة الإمامية والزيدية.

بالجهد المشترك تقرّر تدريس فقه أهل السنّة في جامعة طهران، والفقه المقارن في الأزهر، وطبعت وزارة الأوقاف المصرية مرجعاً لفقه الشيعة، وأصدر شيخ الأزهر، الشيخ محمود شلتوت فتوىً تجيز التعبّد على مذهب الشيعة الإمامية، ويعتبر ذلك حدثاً تاريخياً إسلامياً لإزالة الكثير من الخلافات، وانتصرت الألفة على التعصّب.

◘ *هل وجدت عقبات في الطريق؟*

● نعم وكان الله يذلّلها. وروى: في عام ١٩٤٧، سمع آغا خان بدعوتي وكان في القاهرة، التقينا مرتين في محاولةٍ منه للانضمام إلى الجماعة، قلت له: إنّنا نعمل بقلوب مفتوحة، واشترطت أن يقدّم عن جماعته الإسماعيلية «الآغاخانية» مراجعها ليطلّع عليها المشاركون في «دار التقريب» ليكونوا على بيّنة قبل اتّخاذ قرارهم بضمّها أو رفضها.

اعتذر آغا خان، قال: خذونا على علّاتنا! رفضنا، وكانت أخبار المقابلتين قد وصلت إلى فاروق عن طريق الوشاة، وكأنّها اتّصال سياسي، وكان انجليز ـ يوم أن كانت لهم كلّ السلطة في مصر ـ قد فكّروا بعقلية المستعمرين أن «يمنحوا» حكم مصر لآغاخان، ثم استقرّ رأيهم على الملك فؤاد، من هنا عزف الوشاة على وتر الخوف عند فاروق!

توفيقاً من الله سأل فاروق الشيخ مصطفى عبدالرازق ـ وكان في ذلك الوقت شيخاً للأزهر ـ عن حقيقة اتّصال آغا خان بي، وروىٰ له الشيخ الحقيقة فهدأ، ومرّت العاصفة بسلام.

وأيام التأزّم بين القاهرة وطهران زمن الثورة ـ أكثر من عشر سنوات ـ كنت أقوم بزياراتي المعتادة إلى القاهرة بغير قيد على حركتي، وفي إطار التقدير والترحاب.

واستطرد: الصراحة تكفّلت أيضاً بخلق مناخ طيّب، الفكرة واضحة والمنهج هو الصراحة، ولم يحدث منذ بدأنا الدعوة حتّىٰ اليوم أن نادينا بتغليب فريق على الفريق الآخر، أو بضمّ فرد من الشيعة إلى السنّة أو العكس. إنّنا نوفّق ولا نجنّد أحداً لهذا المذهب أو ذاك.

▣*هل تعتقد أنّ هناك من يستفيد من تعميق الخلافات المذهبية بين المسلمين؟*

● بكل تأكيد، وعلى رأس المستفيدين: الاستعمار. إنّ الاستعمار يرتعد من تضامن المسلمين، والفرقة المذهبية تزعزع التضامن. وأقطع بأنّ حركة المستشرقين في أساسها كانت تزرع مزيداً من جذور الفرقة بيننا، وساروي لك حكاية: لويس ماسينيون، المستشرق ذائع الصيت، عرفته في القاهرة عندما قام بزيارة مفاجئة لدار التقريب في أول تأسيسها للاستفسار عن رسالتها، ثم التقيت به في حفلٍ كان يضمّ الدكتور حسين هيكل، وراح الرجل يحدّثنا ـ وهو يظنّ أنّ حديثه يرضيني ـ عن أبحاث له جديدة عن فاطمة الزهراء، بحث يقارن بينها وبين العذراء مريم، وبحث عن حقّها في وراثة النبي. ولقد فوجئ الحاضرون حين رحت أسأل ماسينيون منكراً صدق حماسته لفاطمة وحقّها في الإرث: ما حماسك الشديد لفاطمة يا سيدي.. اتركوا لنا الأمر كلّه ولا تزرعوا الشوك في أرض المسلمين الطيّبة، وأولىٰ بك وأنت فرنسي لك مكانتك في بلادك أن تطالب

حكومتك بالكفّ عن ضرب المسلمين الجزائريين، وكانت فرنسا في ذلك الوقت في حرب ضروس مع الجزائر.

بعض المستشرقين يبحثون عن بقايا التعصّب ليدعموا جدرانها المتهاوية بسندات من أبحاثهم، وهؤلاء تزعجهم دعوتنا، لأنّها تخلق التضامن، والتضامن حتف الاستعمار.

مع دعواته بأنّ يؤيّدني الله غادرت الفندق، فيه نقاء أصحاب الدعوات بغير شكّ، وفيه حميّة على حرّية المسلمين بغير مواربة، وفي صدره رفض للعبة الاستعمار القديم والجديد: فرّق تسد.

الفصل الخامس

لقاؤه مع صحيفة الإهرام[1]

كتب المحرّر يقول:

يزور القاهرة الآن سماحة الإمام محمد تقي الدين القمي إمام الشيعة في إيران، ومؤسّس حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية. وفي القاهرة لا يعتبر الإمام القمي ضيفاً، حيث اعتاد منذ ٤٠ عاماً أن يقضي فيها عدة شهور كل سنة، يـلتقي فـيها بمئات من قيادات الفكر ورجال الأزهر والعاملين في حقل الدعوة.

وفي الزمالك يلتقي أعضاء جماعة التقريب بين المذاهب في مقرّهم الذي أسّسه الإمام القمي منذ ٤٠ عاماً، وقد زار الإمام القمي عدداً من كبار الشخصيات عـلى رأسهم فضيلة الشيخ محمد متولّي الشعراوي وزير الأوقاف وشؤون الأزهر.

عن جماعة التقريب بين المذاهب يقول الإمام القـمي: إنّ هـدفها هـو إتـاحة الفرصة للمسلم السنّي والمسلم الشيعي لكي يعرف كلٌّ منهما ما عند الآخـر مـن أفكار وآراء، وبذلك تزول الجفوة، ويزول سوء الظـنّ، وهـما مـن صـنع الجـهل والدعايات المغرضة التي تـهدف إلى تـمزيق وحـدة العـالم الإسلامي، وإيـجاد صراعات بين المسلمين ليس لها مبرّر حقيقي.

---

١. الصادرة في ٥ نيسان /أبريل سنة ١٩٧٨م.

وبادرة الإمام القمي التي بدأها منذ ٤٠ عاماً لها قصة، فقد جاء إلى القاهرة ـ كما يقول ـ لأنّها قلعة الإسلام، وبلد الأزهر العظيم، وكل دعوة لا تنطلق من القاهرة لا يمكن أن يكتب لها النجاح، يقول: جئت إلى القاهرة وأنا لا أعرف أحداً فيها، وكان من الطبيعي أن يتصوّر البعض أنّ هدفي هو تحويل السنيّين في مصر إلى شيعة، ولكن مع مرور السنين اتّضح الهدف الحقيقي، وهو أن يعرف المسلمون بعضهم، ويلتقوا حول المبادئ الجوهرية التي يتّفقون عليها والتي لا يكون المسلم مسلماً بغيرها.

ووصل النجاح بدعوة التقريب بين المذاهب إلى حدٍّ أن دخل فيها أكبر رجل الدين في مصر، أمثال المغفور له الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق الذي كتب يقول عن دعوة التقريب بين المذاهب:

«كان الجو السائد عند بدء الدعوة مليئاً بالطعون والتهم، مشحوناً بالافتراءات وأسباب القطيعة وسوء الظنّ من كلّ فريق بالآخر، حتّىٰ عدّ تكوين جماعة التقريب بأعضائها من المذاهب المختلفة السنّية الأربعة، الإمامية والزيدية من الشيعة، نصراً مبيناً أهاج نفوس الحاقدين، وهوجمت الدعوة لا من فريق واحد، بل من المتعصّبين أو المتزمّتين من كلا الفريقين.

حارب هذه الفكرة ضيّقو الأُفق، كما حاربها صنف آخر من ذوي الأغراض الخاصة السيئة، ولا تخلو أيّة أمة من هذا الصنف من الناس، حاربها الذين يجدون في التفرّق ضماناً لبقائهم وعيشهم، وحاربها ذوو النفوس المريضة، وأصحاب الأهواء والنزعات الخاصة، هؤلاء وأولئك ممّن يؤجرون أقلامهم لسياسات مفرّقة، لها أسبابها المباشرة وغير المباشرة في مقاومة أيّة حركة إصلاحية، والوقوف في سبيل كلّ عمل يضمّ شمل المسلمين».

ثم يختم الشيخ شلتوت حديثه عن دعوة التقريب فيقول: «وإنّا لنحمد الله أن أصبحت فكرة التقريب نقطة تحوّل في تاريخ الفكر الإصلاحي الإسلامي قديمه

وحديثه، وأنّه ليحقّ للمسلمين أن يفخروا بأنّهم كانوا أسبق من غيرهم تفكيراً وعملاً في تقريب مذاهبهم وجمع كلمتهم».

ويقول الإمام القمي: لقد مضت ٤٠ سنة ولم نحاول مرةً واحدةً تحويل شخص سنّي إلى الشيعة أو العكس، والزمن وحده هو الذي أظهر حقيقة دعوتنا التي بدأت بسؤال: لمصلحة من يختلف المسلمون؟ ودعوة التقريب لا تستند إلى حكومات أو هيئات رسمية، ولكنّها جهد شعبي في مصر وإيران.

وقد أصدرنا بالتعاون مع وزارة الأوقاف المصرية كتاباً عن فقه الشيعة الإمامية، وهو متّفق مع فقه السنّة، ومشروعنا الحالي هو إعداد كتاب من الفقه الإسلامي على مذاهب السنّة ومذهبي الشيعة الإمامية والزيدية، ليعرف الجميع في كلّ البلاد الإسلامية أنّه ليست بينهما خلافات جوهرية، فلماذا الجفاء؟ ومن المستفيد منه؟

وكذلك ـ كما يقول الإمام القمي ـ فإنّ جهدنا هذا العام سيتّجه إلى الفرق الباطنية في بعض البلاد المحيطة بنا، والتي تصدّر أفكاراً غريبةً إلى البلاد الإسلامية تحمل السموم والخطر، وهذه الجماعات التي تخفي عقائدها، وتعمل بشكلٍ أقرب إلى السرّية تتعارض مع حقيقة الإسلام الذي هو دين عالمي لكل البشر، يجب أن تكون كل حقائقه منشورة ومعروفة، وليس فيه أسرار، والمطلوب الآن ـ كما يقول الإمام القمي ـ من كل فرقة إسلامية في العالم أن تظهر كل أفكارها ومعتقداتها وتعاليمها، وبعض هذه الفرق انحرفت واسندت أفكاراً غريبة إلى الشيعة عامة دون تحقّق، فإذا أزحنا الستار سنجد أنّ أباطيلهم ليست من الإسلام في شيء.

ومن الضرورة ـ كما ينبّه الإمام القمي ـ أن نحمي شبابنا من تيارات الغزو الفكري التي تأتي من أعداء الإسلام لتسمّم أفكارهم، وتدفعهم إلى العنف والرفض والجريمة.

ملاحق

في طريق التقريب

ويشتمل على:

* وثائق تاريخية
* رسائل متبادلة موثّقة
* لقاءات وزيارات تقريبيّة
* ندوة التقريب في القاهرة
* مؤتمر الإمامان البروجردي وشلتوت في طهران

سيد هادي الخسروشاهي

ملاحق الكتاب

وفي ختام «قصة التقريب: أمة واحدة، ثقافة واحدة» نرغب أن نأتي هنا ببعض الرسائل المتبادلة، وأخبار اللقاءات المتكرّرة بين المراجع وعلماء الشيعة الإمامية ومشايخ الأزهر الشريف، وندرج بعض الصور والوثائق التاريخية ـ حسب تاريخها ـ الداعمة للتقريب بين المذاهب، بل الوحدة الإسلامية برمّتها.

وهذه الوثائق والصور يرجع بعضها إلى نصف قرن من قبل، والبعض الآخر حصيلة السنين الماضية القريبة، وكلّنا أمل أن يستفيد الباحثون والدارسون في علاقات المذاهب الإسلامية وقصة التقريب من هذه المجموعة النادرة من الرسائل والوثائق؛ لدعم الحركة الإصلاحية التقريبية في كلّ البلاد الإسلامية بإذن الله تعالىٰ.

والله من وراء القصد.

سيد هادي الخسروشاهي

قم ـ ايران ١٤٢٧هـ

ملحق رقم (١)

وثائق تاريخية

البيان الأول لجماعة التقريب[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

أمّا بعد، فإنّ الدين الإسلامي دين واضح الأُصول، بيّن المعالم، لا تعقيد فيه ولا غموض، ولا حرج ولا إعنات، أنزله الله على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ على حين فترةٍ من الرسل، وضلالةٍ من الناس، واختلافٍ بالهوى، وتنازع وتطاحن بالقوىٰ، فهدى الناس في العقيدة إلى كلمةٍ سواء، هي كلمة الله التي بعث بها كلّ رسول، وأنزل بها كلّ كتاب، وبيّن لهم شريعة الحكمة والرحمة والصلاح.

وأساس هذا الدين هو القرآن الكريم والسنّة المطهّرة، بهما تقرّرت عقائده وأُصوله، ومنهما استنبطت قواعده وأحكامه، وإليهما يرجع المسلمون في كلّ شأن من شؤون دينهم ودنياهم.

تلقّى المسلمون الأوّلون هذا الدين كما أنزله الله، والتفّوا حوله، يعتقدون عقيدته، ويدرسون شريعته، ويمضون على سنّته وطريقته. فما كان من نصٍّ ظاهرٍ واضحٍ في دلالته، قاطعٍ في معناه، اجتمعوا عليه، ونزلوا على حكمه متوافقين. وما كان محلّ نظرٍ وتأمّلٍ أعملوا فيه عقولهم، واجتهدوا فيه بقدر وسعهم في دائرة الأُصول التشريعية، والمقاصد التي أرشد إليها كتاب الله وسنّة رسوله.

---

١. دعوة التقريب، تاريخ ووثائق، وزارة الأوقاف المصرية / القاهرة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م: ٧٧ وما بعدها.

فإذا شجر بينهم خلاف عالجوه بالحجّة والإقناع، ولم يتجاوزوا به دائرة العلم والبحث، ولم يسمحوا له ـ مهما تباعدت وجهات النظر فيه ـ أن يقطع ما بينهم من الأواصر، أو يفسد ما أصلحه الله من القلوب، بل كانوا يتبادلون الثقة والمحبّة والاحترام، وربّما سأل بعضهم بعضاً عن دليله أو مدركه على ما يقول، فإذا لقّنه واستراح إليه سارع إلى إعلان قبوله والرضىٰ عنه، غير مستكبرٍ على الحقّ، ولا متعنّت في الخطاب.

هكذا كان شأن الأمة الإسلامية في أولها، ثم عَدَت عليها بعد ذلك عواد جعلتها تتفرّق فرقاً، وتقسم طوائف وشيعاً، وابتدأت هذه الانقسامات بأواخر عهد الراشدين، ثم ما زالت السياسة والحرب الأهلية تغذّيها وتنفخ في نارها حتّى تمخّضت البلاد الإسلامية عن فرقٍ شتّىٰ، وتشعّبت كلّ فرقة إلى شُعَب، وكان هذا هو الأساس الأول لما عاناه، وما يزال يعانيه المسلمون إلى الآن، من تفرّقٍ وتنازعٍ، وتقاطعٍ وتدابر.

وقد كانت المساجد والمجامع والمجالس أندية رأيٍ ونقاشٍ وجدل، ذهبوا فيها مع الحريّة الفكرية والنشاط العقلي إلى مدىً بعيدٍ جعلهم يخوضون حتّى فيما نُهوا عن الخوض فيه من البحوث العقيمة، والمسائل التي لاتتّصل بها فوائد عملية. وساعد على اتّساع دائرة هذا الجدل: امتزاج الثقافات المختلفة، والعلوم الجديدة التي جاءتهم من الأُمم الأُخرىٰ حين دخل الناس في دين الله أفواجاً من كلّ جنسٍ ولون، حاملين معهم قضايا تفكيرهم، وأساليب منطقهم وجدالهم.

ولم تقف الاختلافات والآراء عند دائرة المعارف الفكرية الكلامية، بل شملت الفقه والأحكام التشريعية المستنبطة، غير أنّها لم تكن في هذه الناحية الأخيرة عنيفة ولا مشتطّة، وإنّما كانت تجري في هدوء وسكينة ووقار، لايسيطر عليها إلّا العلم والحجّة والبرهان، وذلك في عهد الأئمة المجتهدين، ومن بعدهم من تلاميذهم الذين أُشربوا مبادئهم، وساروا على سنّتهم، فلم نعرف أنّ أحداً منهم رمىٰ غيره

بالخروج على الشريعة، أو المروق من الدين لخلافٍ بينه وبينه، ولم نعرف أحداً زعم لنفسه أنّه هو وحده صاحب الرأي المقدّس في الشريعة، أو فكّر في حمل الناس على ما يراه، بل كلّهم ورد عنه ما يدلّ على أنّه مجتهد، قد أتىٰ بما وسعه أن يأتي به، ويحتمل أن يكون مصيباً وأن يكون مخطئاً، وأنّ العمدة في ذلك: كتاب الله وسنّة رسوله عليه الصلاة والسلام، وما ارتضاه المسلمون من قواعد الشريعة وأُصولها العامة.

وها هو ذا مالك ﷺ يصرف أبا جعفر المنصور عمّا همَّ به من حمل الناس على «الموطّأ» ذاكراً له أنّ أصحاب رسول الله ﷺ قد تفرّقوا في الأمصار، وعند كلٍّ منهم علم، وليس من الرأي أن يحمل الناس على كتابٍ ما إلّا كتاب الله.

هكذا كانت ريح الفقه تجري رخاءً، ولذلك نما وزكا، وأينعت ثمراته، ودنت قطوفه، ووفي أعظم التوفية بحاجات المسلمين: أُمةً ودولةً وأفراداً، وحفظ به التاريخ أعظم تراثٍ فكريٍّ في الأحكام التشريعية، والمبادئ الإصلاحية التي تقوم عليها الأمم.

ولذلك أيضاً استطاع الفقه الإسلامي أن يقف عالي الرأي، عزيزاً كريماً، فلم يغزه يومئذٍ فقه فارسي ولا فقه روماني ولا فقه يوناني، على كثرة ما دخل بلاد المسلمين من علوم هذه الأمم وثقافاتهم، وعلى ما عهد في المسلمين من ترحيب بالنافع من هذه العلوم والثقافات، وتلقّيه بسماحةٍ وحسن قبول.

ثم جاءت بعد ذلك طبقات من المقلّدين والمتعصّبين للمذاهب، كلّت هممهم عن حمل ما كان يحمله سلفهم من العلم والنظر، وصادف ذلك عهود الضعف السياسي وانقسام الأُمة الإسلامية إلى دويلات صغيرة لاتربطها رابطة، ولاتجمعها جامعة، ومن شأن الضعف السياسي ـ إذا أُصيبت به أُمة ـ أن يخيَّل إلى أبنائها أنّهم أقلّ من سواهم قوةً وعلماً وتفكيراً، وأن تركد معه ريح العلم، ويفتر نشاط العلماء.

بهذا وبغيره تأثّر أكثر المشتغلين بالفقه، فحكموا علىٰ أنفسهم وعلىٰ جميع أهل

العلم في زمانهم بأنّهم ليسو أهلاً للنظر والاستنباط، ولا لفهم كتاب الله وسنّة رسوله، ومن ثم حكموا بإغلاق باب الاجتهاد. وترتّب علىٰ ذلك أن وقف الفقه وجمد، وأن تعصّب كلٌّ منهم لرأي إمامٍ، وزعم أنّه الحقّ، وأنّ ما سواه باطل! وأسرفوا في ذلك إسرافاً بعيداً حتّى كان منهم من لايصلّي وراء إمامٍ يخالفه في مذهبه! ومن لايزوّج ابنته لفلان! أو يتردّد في أكل ذبيحة فلان! أو في قبول قضاء فلان! لمجرّد أنّه يخالفه في المذهب!

ثم حصروا الأئمة الذين أوجبوا اتّباعهم في عددٍ معيّنٍ، وهكذا ضاق أُفق الأتباع والأشياع عمّا اتّسع له أُفق المتبوعين، وضاقت بهم دائرة الفقه الإسلامي، وركدت ريحه، وصوّح نباته، وقلّت ثمراته.

وكان من آثار ذلك أن خرج كثير من البلاد الإسلامية عن هذا الفقه عامةً، والتمسوا فقهاً آخر في هذه القوانين الوضعية يحكمون به، ويجعلونه نظامه في القضاء والتشريع والمعاملات، التسموا فقهاً لم يتقيّد بهذه القيود الطارئة، ولم يحدّ بهذه الحدود المصنوعة. ومن ثم رأينا القذىٰ في العيون، والشجىٰ في الحلوق حين رأينا أُمم الإسلام تحكم في بلادها بغير فقه الإسلام ومنهاج الإسلام!

ولكنّا قد استطعنا في عهدنا الحاضر ـ ونرجو أن يكون ذلك أولى الخُطىٰ في سبيل العودة إلىٰ مجدنا الفقهي التشريعي ـ استطعنا أن نتخلّص إلىٰ حدٍّ بعيدٍ من آثار هذه العصبيات التي تنكرها الشريعة، ولايعرفها الأئمة المجتهدون أنفسهم، وأن يسير بعضنا مع بعض علىٰ وفاق، فلم نعد نسمع خلافاً يؤدّي إلىٰ تضارب أو تقاذف أو تراشق بالتُهم بين حنفي وشافعي مثلاً.

وها هو ذا الأزهر الشريف، أكبر جامعة إسلامية يدرَّس فيه المذاهب الإسلامية الأربعة، ونرجو ألّا يكون هناك من يمنع أو ما يمنع من دراسة غيرها من مذاهب المسلمين إذا تهيّأت له أسباب هذه الدراسة، وإنّ كلّية الشريعة لتدرّس في العهد الحاضر إلىٰ جانب الدراسات المذهبية: دراسات فقهية مقارنة، لاتتقيّد فيها

بالمذاهب الأربعة. وممّا يبشّر بالخير أنّ الأساتذة والطلّاب يتلقّون هذه الدراسات المقارنة بإقبالٍ وشغف، وبروحٍ من السماحة، ورفض العصبية المذهبية، غير ناظرين إلّا إلىٰ الدليل، ولا باحثين إلّا عن الحقّ.

إذن قد انتهت هذه المشكلة أو كادت، ولم يعد لها خطرها ولا ضررها، ولعلّنا نشهد في القريب العاجل إن شاء الله مذاهب إسلامية أخرى يدرّس فقهها في الأزهر، كما يدرَّس فقه المذاهب الأربعة، ويومئذٍ يحقّ لنا أن نستوفي هذا الفخر برجوع الفقه الإسلامي إلىٰ مجده الأول، يوم كانت الآراء المحكمة، والحجج المتقابلة، والأدلّة، ووجهات النظر هي مادّته وغذاءه، وعمدته في التنوير الفكري، والوصول إلىٰ الحقّ، لا قول فلان، ولا رأي فلان.

إنّنا لنستبشر خيراً بهذا، وقد قارنه في نفس العهد إحساس المسلمين بأنّه لاينبغي أن يحكموا بغير شريعتهم، وتلك هي الصيحات ترتفع عالية من كلّ جانب ينادي بها المشتغلون بالفقه الإسلامي، والمشتغلون بغيره من رجال القانون والقضاء والتشريع: أن عودوا إلىٰ فقهكم، فإنّه عنوان مجدكم وعزّكم.

وقد اعترف بقيمة هذا الفقه وعظيم صلاحيته مؤتمر دولي عقد في مدينة لاهاي سنة ۱۹۳۷م، حضره ممثّلون للأزهر الشريف والحكومة المصرية.

وما كان هذا كلّه ـ علم الله ـ إلّا لأنّنا نبذنا التعصّب، فتجلّىٰ لنا ما في شريعتنا وفقهنا من روعةٍ وجلال، ومن قدرةٍ علىٰ مسايرة أرقىٰ أنواع الحضارات والمدنيّات.

هذا هو تاريخ الخلاف في الفقه والشتريع، بدأ خلافاً علمياً مهذّباً، فكان بركةً وفتحاً مبيناً، ثم تطوّر إلىٰ عصبيةٍ مذهبيةٍ عمياء، فكان جموداً وركوداً، وكان سبباً في انسلاخ كثيرٍ من الشعوب الإسلامية من تشريعها، ثم أخذ يعود إلىٰ هدوئه وسنّته الأولىٰ، فاستروحنا منه روح النهضة والتجدّد، وابتدأنا نلتفت إليه، ونستعزّ به، ونناد بأنّه فكرتنا ومنهاجنا في الحياة.

هكذا كان شأن الفقه، فماذا كان شأننا في غير هذه الدائرة؟

مــاذا كــان شأنـنا فـي المعارف الفكـرية والقـضايا التـي أثـارها الخـلاف الطائفي والكلامي؟

لقد بكرت هذه الخلافات على المسلمين منذ أول الأمر كما قلنا، وكانت عنيفةً حادّةً، وكانت في نفس الوقت متلوّنةً بألوان مختلفة؛ تـبعاً لمـا كـان يـمدّها مـن السياسة والأهواء، ولما كان يغذّيها من الثقافات المختلفة. وظلّت هكـذا تـتزايـد وتقوّىٰ وتتّسع آفاقها، ويتفاقم شرّها، حتّىٰ أصبح المسلمون فرقاً شتّىٰ، وطوائـف مبعثرة، بل أصبحت الأمة الواحدة متشعّبة إلىٰ فرق، والفرقة الواحدة مـتشعّبة إلىٰ شُعَب، وكلّهم متقاطعون متدابرون، ينظر بعضهم إلىٰ بـعض كأنّـهم أربـاب أديـان مختلفة، فلا تعاون ولا تزاوج، ولا تبادل للأفكار، كلّ طائفة عاكفة علىٰ ما عندها، متعصّبة له، نافرة عمّا سواه، تعتقد أنّها علىٰ الحقّ، وأنّ سواها علىٰ الباطل.

وإذا تقاربت منها طائفتان أو أكثر في بلاد واحدة احتكّ بعضها ببعض، وهـاج بعضها علىٰ بعض، وكثيراً مـا أفـضىٰ ذلك إلىٰ سـفك الدمـاء، وتـخريب البـيوت، وعداوات الأُسر والطوائف، ممّا نشهده بأعيننا، ونسمعه بآذاننا في الحين بعد الحين.

وساعد علىٰ ذلك المستعمرون الذين يهمّهم أن تتقطّع أسباب المودّة، وعوامـل الائتلاف بين المسلمين، ليسودوا عليهم في بلادهم، وليكونوا هم قبلة المختلفين، والحكـم الأعـلىٰ بـين المـتنازعين. وهكـذا طـاوع المسـلمون هـذه الأسـاليب الاستعمارية الماكرة، فزادوا من حدّة الخلاف بـينهم، وتـرامـوا بـالكفر والفسـوق والزندقة، والخروج على الدين، وأمثال تلك الاتّهامات الطائشةالتي أرست بـينهم العداوة والبغضاء، وزرعت في قلوبهم الحقد والضغينة وسوء الظنّ، وبذلك ساعدوا علىٰ أنفسهم، ومكّنوا لأعدائهم من رقابهم وأوصالهم.

حدث هذا كلّه، وما زال يحدث، مع أنّ هذه الخلافات عند كثيرٍ من طـوائـف المسلمين وفرقهم لاترجع إلىٰ أُصـول الديـن، ولاتـمسّ العـقائد التـي أوجب الله الإيمان بها، والتي يعدّ الخروج عنها خروجاً عن الدين، ومن الممكن ـإذا وجدت

هذه الفرق من يقرّب بينها، ويدرس أسباب خلافاتها ـ أن تعرض هذه الخلافات عرضاً هادئاً، دون تأثيرات خارجية ولا تعصّبية، فيتبيّن الحقّ فيها، ويزول كثير من أسباب الجفوة والقطيعة بين أرباب الدين الواحد، والنبي الواحد، والكتاب الواحد.

من الممكن أن يتقارب المسلمون فيعلموا أنّ هناك فرقاً بين العقيدة التي يجب الإيمان بها، وبين المعارف الفكرية التي تختلف فيها الآراء دون أن تمسّ العقيدة. ويومئذٍ يهون الأمر، فنجمع علىٰ ما نجمع عليه، وإذا اختلفنا لم يكن خلافنا إلّا كما يختلف أهل المذاهب الفقهية دون خصام ولا اتّهام، ودون توجّس واسترابة وسوء ظنّ بما يجعلنا متقاطعين في معاملاتنا، ومصاهراتنا، وثقافاتنا.

يومئذٍ يعود المسلمين كما كانوا أُمةً واحدةً، دينها الإسلام، وكتابها القرآن، ورسولها محمد عليه الصلاة والسلام، تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتتقبّل الكلام فيما وراء ذلك علىٰ أنّه آراء يدلي كلٌّ بما يراه منها، دون أن تسيء إلىٰ وحدة المسلمين، أو تكون عاملاً من عوامل فرقتهم وضعفهم.

كان هذا ممكناً، وما زال ممكناً، ولاسيّما بعد أن اتّسع نطاق العقول، وانتشر لواء العلم خفّاقاً، وأحسّ المسلمون بضرر ما هم عليه من التفرّق والتطاحن، وبأنّ هذه الخلافات قد احتسبت خلافات متّصلة بأصل الدين وأساس العقيدة، واتّخذت لذلك علامةً عند أعداء الإسلام، علىٰ أنّ هذا الدين لايستطيع النهوض بأُمةٍ تريد أن تنهض، وأن تتّخذ لها مكانةً بين الأُمم.

لقد كان من نتائج هذا: الاضطراب في الأفكار والمعارف الدينية، وتفكير كلّ طائفةٍ للأُخرىٰ أو اعتدادها بآرائها علىٰ أنّها هي الحقّ وما سواها هو الباطل، وأنّ من خرج علىٰ هذه الآراء فقد خرج علىٰ شيءٍ مقدّسٍ، ومرق أو تزندق أو تطرّف! كان من آثار ذلك مثل ما كان من آثار الركود الفقهي حين خرجت الأُمة الإسلامية عن فقهها إلىٰ ما سواه.

ذلك أنّ كثيراً من الشباب يخرجون علىٰ هذا التراث الفكري عامّةً، ويجنّبون

أنفسهم مشقّاته وأهواله، ويبتعدون عن أخطاره ومزالقه، ومغبّة البحث فيه؛ حذراً أن يضلّوا في مجاهله، أو يصيبهم رشاش من التكفير أو التفسيق، فنراهم يتجاوزون هذه الثقافات الفكرية الإسلامية، غير مميّزين بين غثّها وسمينها، إلىٰ غذاءٍ علميٍّ آخر لأرواحهم وعقولهم في المعارف الفكرية الأجنبية، يتلقّفونها من علماء الغرب ومفكّريه ومستشرقيه، والمأخوذين به، ويعتقدونها هي العلم الصحيح، والغذاء المفيد، والآراء الصالحة للحياة.

ولقد رأينا هذه النزعة الخطيرة تستولي علىٰ شبابنا، وكثيرٍ من مفكّرينا، وتتغلغل في أعماق نفوسهم، وتسيطر علىٰ أفكارهم وعقولهم، وتعمل عملها دون أن يشعروا أو تشعر الأُمّة بما لها من إيحاءات خفيّة، وضرر يسري كالسمّ الزعاف في أناةٍ ومثابرةٍ حتّىٰ يهلك أو يقارب، ومن شأن هؤلاء أن يهون عليهم تاريخهم، وتصغر في أعينهم ثقافتهم، بل أن يصبح دينهم غير عزيز عليهم، ولا أثير لديهم، وربّما مقتوه، وفرّوا منه، وتباهوا بأنّهم علوا عنه، وارتفعوا بأنفسهم عن مستواه!

هذه بعض أخطار التفرّق الذي مُني به المسلمون، أضعفتهم، وأطمعت فيهم أعداءهم، بل سلّطت عليهم هؤلاء الأعداء يسومونهم الخسف والذلّ وسوء العذاب، وهوّنت من شأن ثقافاتهم ودينهم، وجعلت العزّة والسلطان لغيرهم، وإنّما العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

من الممكن أن تتلافىٰ هذه الأخطار، وأن يجنّب المسلمون شرّها وضررها: إذا تعاونت القلوب، وتآزرت الجهود، ونُسيت العصبيات، ورجعنا إلى الحقّ ننشده مخلصين.

إنّ حوالي أربعمائة مليون من المسلمين منبثّين في بلاد الله شرقاً وغرباً، لم يؤتوا من قلّة، ولم يؤتوا من فقر في عقولهم، أو في بلادهم، أو في استعدادهم، أو في ثرواتهم الطبيعية. ولقد شهد التاريخ كيف كانوا أقلّ من ذلك عدداً، وأقلّ من ذلك مالاً وثروةً وخصباً، ومع ذلك سادوا وشادوا، ولفتوا إلىٰ علومهم وأفكارهم ومدنيّتهم أهل الزمان.

فالمسألة ـ إذن ـ إنّما ترجع إلىٰ هذا التفرّق والتقاطع، إلىٰ هذا الفقر الطارئ على النفوس والهمم والعزائم.

وقد تنبّه إلىٰ ذلك كثير من أهل العلم والفكر من المسلمين في عهود مختلفة، وكانت صيحاتهم تنبعث في الحين بعد الحين، عاليةً طوراً وطوراً خافتة، ينادون أُمتهم أن تنبّهي إلىٰ هذا المرض الخطير، وإلّا قُضي عليك القضاء الأخير.

ولكن هذا كلّه ـ مع شديد الأسف ـ لم يتجاوز حدود الأمل الذي يساور النفوس، أو القول الذي تجري به الألسنة والشفاه، ولم تتّخذ خطوات عملية مثمرة لتنفيذه، حتّىٰ كاد الناس ييأسون من شفاء هذه الأُمة، ويتوجّسون أن يدركها بسبب هذا الداء الوبيل موت نهائي، بعد أن ألحّت عليها العلّة حتّىٰ أضعفتها وبرتها.

ولكنّ الله ـ جلّت حكمته ـ أرحم من أن يترك الأُمة المحمدية لهذا المصير الفاجع، وهي خير أُمةٍ أُخرجت للناس. نعم إنّها أساءت إلىٰ نفسها، وخرجت عن دائرة دينها، وغيّرت وبدّلت وأعرضت، إلّا أنّها لاتزال أُمة القرآن، وأُمة خير الأنبياء عليهم السلام، وأنّ القرآن الذي أنقذ المسلمين، وأخرجهم من الظلمات إلىٰ النور بإذن ربّهم، وجمع بينهم، وألّف بين قلوبهم، وقد كانوا علىٰ شفا حفرةٍ من النار فأنقذهم منها، وجعلهم سادة العالم وقادته، لهو جدير بأن ينقذهم مرّةً أخرىٰ، وبأن يرفعهم من وهدة خلافهم وتطاحنهم.

وقد أنبأنا الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام بأنّه ما تزال طائفة أو طوائف من أُمته على الحقّ، لايضرّهم من خرج عنهم إلىٰ يوم القيامة، وأنّ الله يبعث في الحين بعد الحين إلىٰ هذه الأُمة من يجدّدها ويسدّدها، ويهديها بفضله إلىٰ سواء السبيل.

لعلّنا نلمح نور هذا الفجر المنتظر يشعّ على العالم الإسلامي.

لعلّنا ننتظر هذا التجديد الموعود به في هذا العصر الذي تنبّه فيه الغافلون، واستيقظ النائمون.

لعلّنا نلتمس أن تبزغ هذه الشمس في مصر والعالم الإسلامي بعد أن طال احتجابها عن المسلمين.

نقول ذلك ونحن نقدّم جماعتنا هذه (جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية) إلىٰ العالم الإسلامي الذي رزح تحت أثقال التفرّق أجيالاً بعد أجيال، وقروناً تطاول عليها الأمد، فنبشّر المسلمين بعهدٍ جديدٍ نرجو أن يكون بدءاً لانقشاع سُحُب الخلاف من جوّهم، ونرجو أن تكون الخطوات فيه إلىٰ هذا الغرض الشريف سريعةً موفَّقة إن شاء الله.

وقد أُلِّفت هذه الجماعة في مصر حاضرة الإسلام، وملتقى أفكار المسلمين ونهضاتهم، ومشرق شمس الأزهر الشريف، تلك الجامعة العلمية الإسلامية التي تهوي إليها أفئدة من الناس في مشارق الأرض ومغاربها، علىٰ أن تكون لها فيما بعد فروع في شتّىٰ البلاد، ومختلف البقاع، تسير علىٰ نهجها، وتخدم فكرتها، وتتعاون علىٰ جمع كلمة المسلمين بكلّ ما تستطيع من أنواع المعاونة.

وإنّنا ـ حين نعلن في العالم الإسلامي نبأ تأليف هذه الجماعة ذات الغرض الأسمىٰ ـ لنرجو من كلّ مسلم أن يتقبّلها بقبول حسن، وأن يضمّ جهده إلىٰ جهود أعضائها، وأن يبثّ فكرتها، ويعمل علىٰ تحقيق غايتها. نرجو ذلك من كلّ أُمةٍ وطائفةٍ، وجماعةٍ وفردٍ، ونرجوه من كلّ من يؤمن بالقرآن، ويعتقد برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

علىٰ بركة الله إذن تتقدم هذه الجماعة إلىٰ العالم الإسلامي، وتعلن بادئ الأمر أنّها ذات أغراض دينية اجتماعية فقط، كما جاء في قانونها الأساسي، ذلك القانون الذي اتّفق عليه أعضاؤها المؤسّسون، وهو العهد بيننا وبين المسلمين، في ظلّ الإسلام، وتحت راية القرآن، نستعين الله على الوفاء به، والنهوض بتبعاته.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

جماعة التقريب ـ القاهرة

مشروع علمي جليل

بين شلتوت والقمي

من الحقائق المقرّرة التي تؤمن بها «جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية» وتعمل على تجليتها للناس»، وتدعو إليها في كلّ مجال: أنّ جميع المذاهب الإسلامية تؤمن بالسنّة النبوية المطهّرة كمصدر مقدّس من مصادر الشريعة، مثلها في ذلك كمثل القرآن الكريم، فليس لمسلم أن ينكر حجّية السنّة، شيعياً كان أو سنّياً، وليس في هؤلاء وهؤلاء من يقول: هذا الحديث صحّ وروده عن رسول الله ﷺ ومع ذلك لا أعمل به، ولست ملزماً شرعاً بهذا العمل، ولكن ربّما قال قائل من هؤلاء أو هؤلاء: هذه الرواية لم تصحّ عندي فأنا لا أعمل بها، وإنّنا لنرىٰ هذا بين علماء السنّة أنفسهم في مختلف مذاهبهم، كما نراه بين علماء الشيعة في نطاق المذهب، ومع المذاهب الأخرى، فكم من أحاديث صحّت عند فقيه، ولم تصحّ عند آخر، وكم من أحكام فقهية خلافية انبنى الخلاف فيها على موقف كلٍّ من قبول حديث معيّن أو عدم قبوله.

والواقع أنّه لا غضاضة في ذلك ما دام الإخلاص هو رائد الجميع، وما داموا كلّهم مؤمنين بالسنّة كأصل من أصول التشريع، وبأنّه لا يجوز لمسلم أن يرفض ما صحّ عن رسول الله ﷺ.

ويتلخّص هذا المبدأ المسلّم به عند الفريقين في أنّ الاختلاف ليس واقعاً في كبرى القياس، وإنّما يقع أحياناً في صغراه، فإذا قلنا في قياس من الشكل الأوّل عند

المناطقة: هذا الأمر قد ثبت عن رسول الله ﷺ، وكل ما ثبت عن رسول الله ﷺ يجب العمل به، كان معنا مقدّمتان: الأولى منهما هي المعروفة عند المناطقة بالمقدّمة الصغرى، والثانية هي المقدّمة الكبرى، فإذا سلمت المقدّمتان صحّت النتيجة، وهي: «هذا الأمر يجب العمل به».

فالمسلمون لايختلفون في المقدّمة الكبرى التي تقول: كل ما ثبت عن رسول الله يجب العمل به، بل كلّهم يؤمن بها إيماناً لا يعتريه الشكّ، وكلّهم يعتبر هذا الإيمان ركناً أصلياً من أركان الإسلام، من شذّ عنه خرج من ربقة الإيمان.

لكنّ الخلاف حين يوجد إنّما هو في المقدّمة الصغرى التي تقول: «هذا الأمر ثبت وروده» فيقول بعضهم: نعم ثبت فأقبله، ويقول بعضهم: لم يثبت فأنا لا أقبله.

ولذلك اشتهر بين علماء المناظرة قولهم في بعض الأحيان: هذا الخلاف صغروي لا كبروي، أو خلاف في الصغرى دون الكبرى. هذه حقيقة.

وهناك حقيقة أخرى نؤمن بها، ونعمل على تجليتها، وندعو الناس إلى الإيمان بها.

تلك هي أنّ العدد الأكبر ممّا ورد عن رسول الله ﷺ في شؤون العقيدة والشريعة والأخلاق، وسائر الجوانب التي جالت في ميادينها السنّة المطهّرة، قد اتّفق عليه كلا الفريقين، فهو وارد من طريق صحيح يرتضيه كلٌّ منهما، أو وارد من طريقين لهؤلاء وهؤلاء، تطابقا عليه لفظاً أو معنى، وأنّه لايوجد خلاف إلّا في العدد الأقلّ من أحاديث الأحكام أو الأخبار، وليس هذا العدد الأقلّ من حسن الحظّ في الأصول الضرورية التي لايكون المسلم مسلماً إلّا بها، وإنّما هو فيما لايضرّ الاختلاف فيه، وفيما يسع المسلم باعتباره مسلماً أن يترخّص فيه دون أن ينازِع أو ينازَع.

على ضوء هاتين الحقيقتين المقرّرتين، رأت دار التقريب بين المذاهب الإسلامية أن تقوم بمشروع علمي إسلامي جليل الشأن.

ذلك هو جمع الأحاديث التي اتّفق عليها الفريقان في مختلف أبواب الإيمان والعمل والأخبار والأخلاق، وغير ذلك من أبواب السنّة المطهّرة، تجمع الأحاديث

المتّفق عليها في كل باب، ويبيّن مع كلّ حديث مصدره من كتب السنّة ومن كتب الشيعة، ودرجته عند كلٍّ من الفريقين.

ويمكن إصدار ما يتمّ من ذلك على سبيل التدرّج جزءاً بعد جزء حتّىٰ يكمل المشروع بإذن الله، ويومئذٍ يجد فيه المسلمون مرجعاً متّفقاً عليه، صالحاً للاحتجاج به، والاحتكام إليه.

لقد بذلت في دراسة هذا المشروع جهود كثيرة من رجال التقريب في مصر وغيرها استغرقت وقتاً طويلاً، وعملت تجارب في مختلف الأبواب والموضوعات، أسفرت عن نتائج تؤذن باستقامة الفكرة، وتبشّر بنجاحها.

ومن ثم اجتمع في هذا الشهر بمدينة القاهرة قطبان من أقطاب التقريب، هما السيدان الجليلان: الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر، والعلّامة الحجّة الأستاذ محمد تقي القمي السكرتير العام لجماعة التقريب، واستعرضا الفكرة، وما قام حولها من بحوث وتجارب، وما أسفرت عنه من نتائج، وما يمكن أن تسلك من الطرق في سبيل تحقيقها، فاتّفقا ـ والحمد لله ـ على أنّ المشروع جدير بالتحقيق، وعلى أن تقوم دار التقريب بخطوات تنفيذه العملية على بركة الله تعالىٰ، وأن يقوم بذلك رجال من علماء التقريب في مختلف البلاد الإسلامية، بحيث تقسّم أبواب السنّة، ويختصّ كل جماعة من العلماء بقسم، ثم يراجع ما يتم من ذلك أولاً بأول في دار التقريب بالقاهرة، ويبدأ في إخراجه مطبوعاً منّسقاً مقرّباً إن شاء الله.

إنّنا نبشّر أصدقاء التقريب، وهم المسلمون الواعون في كلّ بلد إسلامي، وفي كلّ طائفة ومذهب، بهذا المشروع العلمي النافع، الذي نعتقد بحقّ أنّه الأوّل من نوعه في تاريخ الإسلام، وفي تاريخ علم الحديث، ونسأل الله أن يعيننا على تحقيقه، إنّه نعم الموفّق والمعين.

ملحق رقم (٢)

رسائل متبادلة ووثائق

رسالة شيخ الأزهر إلى سماحة آية الله السيد حسين البروجردي ﷺ

مكتب شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد صاحب السماحة الأخ الجليل الإمام البروجردي / قم ـ ايران

سلام الله عليكم ورحمته

أمّا بعد، فإنّي أبدأ بالسؤال عن صحّة السيد الأخ الجليل الغالية، والدعاء بأن يكون سماحته دائماً مصدر بركات للمسلمين، ووحدة كلمتهم، أطال الله عمره، وأعزّ بالصالحات نصره.

وأنتهز الفرصة السانحة بسفر سماحة أخي العلّامة الجليل الأستاذ القمي أيّده الله في جهاده المشكور، لأكتب إلىٰ سماحتكم، مقدّراً جهودكم، سائلاً الله جلّت قدرته أن يحقّق ما ترجونه من الخير للمسلمين، وأن يوفّق مساعيكم الراشدة، في سبيل جمع كلمتهم، وتأليف قلوبهم، وأُبشّركم بأنّ خطواتنا في سبيل التقريب، تلك الخطوات التي أعرف أنّكم تؤيّدونها كلّ التأييد، وتولونها أعظم العناية والاهتمام، تسير سيراً موفّقاً، بتيسيرٍ من الله تعالىٰ، وبصالح دعواتكم، وأنّ النخبة المصطفاة من رجالنا في الأزهر، وإخواننا الذين جاهدوا في التقريب حقّ الجهاد، يعاونوننا عن إيمانٍ صادقٍ، ويقومون بما يجب عليهم لدينهم، وللرسالة الإنسانية الرفيعة التي اعتنقوها.

وإنّي لأرجو أن يعود السيد الأخ الأعزّ سماحة الأستاذ القمي إلينا بأسرع وقت لنسعد بأخباركم السارّة إن شاء الله، ولنتعرّف إلىٰ آرائكم السديدة في تحقيق أمانينا المشتركة، وقد أوضحت لسماحته كثيراً من الأُمور، ورجوت منه أن يبلغكم تفاصيلها.

والله المسؤول أن يجمع بيننا في رضاه، وأن يديم ربط قلوبنا للعمل في سبيله، إنّه سميع الدعاء، لطيف لما يشاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

٢٤ من ذي القعدة ١٣٧٩هـ — شيخ الجامع الأزهر

١٩ من مايو ١٩٦٠م — محمود شلتوت

مكتب شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد صاحب السماحة الأخ الجليل الامام البروجردى

قم - ايران

سلام الله عليكم ورحمته   أما بعد

فانى أبدأ بالسؤال عن صحة السيد الاخ الجليل الغاليه ، والدعاء بأن يكون سماحته دائما مصدر بركات للمسلمين ووحده كلمتهم ، أطال الله عمره وأعز بالصالحات نصره .

وأنتهز الفرصه السانحه بسفر سماحة أخى العلامه الجليل الاستاذ القمى ايده الله فى جهاده المشكور ، لاكتب الى سماحتكم مقدرا جهودكم سائلا الله جلت قدرته أن يحقق ماترجونه من الخير للمسلمين ، وأن يوفق مساعيكم الراشدة ، فى سبيل جمع كلمتهم ، وتأليف قلوبهم ، وأبشركم بأن خطواتنا فى سبيل التقريب ، تلك الخطوات التى أعرف انكم تؤيدونها كل التأييد ، وتولونها أعظم العناية والاهتمام ، تسير سيرا موفقا ، بتيسير من الله تعالى ، وصالح دعواتكم . وان النخبة المصطفاة من رجالنا فى الازهر واخواننا الذين جاهدوا فى التقريب حق الجهاد يعاونوننا عن ايمان صادق ، ويقومون بما يجب عليهم لدينهم وللرساله الانسانيه الرفيعة التى اعتنقوها .

وانى لأرجو ان يعود السيد الاخ الاعز سماحة الاستاذ القمى الينا باسرع وقت لنسعد باخباركم الساره ان شاء الله ، ولنتعرف الى آرائكم السديدة فى تحقيق أمانينا المشتركه وقد أوضحت لسماحته كثيرا من الامور ورجوت منه أن يبلغكم تفاصيلها .

والله المسئول أن يجمع بيننا فى رضاه ، وان يديم ربط قلوبنا للعمل فى سبيله انه سميع الدعاء لطيف لما يشاء .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،

شيخ الجامع الازهر
[توقيع]

٢٤ من ذى القعده ١٣٧٩ هـ
١٩ من مايو ١٩٦٠ م

رسائل متبادلة بين شيخين جليلين[1]

علم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ عبدالمجيد سليم شيخ الجامع الأزهر أنّ حضرة صاحب السماحة العلّامة الأكبر الحاج آقا حسين البـروجردي كبير علماء الشيعة بإيران قد مسّه طارئ من المرض أقعده عن مباشرة كثيرٍ مـن أعماله الطيّبة في خدمة الإسلام والمسلمين، وقد صادف أنّ فضيلة الأستاذ الأكبر كان معتكفاً في هذه الفترة لمرضه، فما إن عاد إلىٰ مباشرة أعماله بعد شفائه حتّىٰ أمر بإرسال كتاب ودّي أخوي إلىٰ سماحة العلّامة الجليل، هذا نصّه:

حضرة صاحب السماحة آية الله الحاج أقا حسين البروجردي:

سلام الله عليكم ورحمته.

أمّا بعد، فقد بلغنا ـ عن طريق المذياع ـ أنّ صحّتكم الغالية قد ألمّ بها طارئ من المرض، فأسفنا لذلك أشدّ الأسف؛ لما نعرفه فيكم من العلم والفضل والإخـلاص للحقّ، وإنّا لنسأل الله جلّت قدرته أن يعجّل بشفائكم، ويلبسكم لباس العافية، حتّىٰ تتمكّنوا من العود الحميد إلىٰ نشاطكم المعهود في خدمة الإسلام والمسلمين.

ولقد شاءت إرادة الله أن أكون أنا أيضاً في هذه الفترة مريضاً معتكفاً في بيتي، أحمل همّين ممضين: همّ نفسي وهمّ قومي، وأُطيل التفكير خالياً في حـال أمـتنا العزيزة، فيأخذني من القلق والحزن ما الله به عليم، فأرجو أن تسألوا الله لي العافية كما أسأله لكم، والله يتولّانا جميعاً برحمته.

إنّ الأمة الإسلامية الآن أحوج ما تكون إلىٰ رجـال صـادقي العـزم، راجـحي

---

١. نقلاً عن مجلّة رسالة الإسلام: السنة (٣) العدد (٢) رمضان سنة ١٣٧٠هـ، صفحة: ٢٢٨ ـ ٢٣٠.

الوزن، يجاهدون في الله حقّ جهاده، ليدرأوا عنها غوائل الفتن، ونوازل المحن، فقد تألّبت قوى الشرّ، وتجمّعت عناصر الفساد، وزلزل المؤمنون في كلّ قطر من أقطارهم زلزالاً شديداً، وكأن قد أتى الزمان الذي أنبأ الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه: «أنّ القابض فيه علىٰ دينه كالقابض على الجمر» وإنّما مثل أهل العلم من المؤمنين الصادقين كأطواد راسية، أو حصون منيعة، ألقاها الله في الناس أن تميد بهم الأرض من فتنة أو جهالة، أو كنجوم ثاقبة في ليلٍ داجٍ، ترشد السارين، وتهدي الحائرين.

فادع الله معي أن يحفظ هؤلاء، ويكثّر في الأمة منهم، وينشر عليهم رحمته، وينزل عليهم سكينته، ويؤيّد بهم الحقّ والدين، ويهزم بهم المبطلين والملحدين والمفسدين، إنّه علىٰ ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبدالمجيد سليم

شيخ الجامع الأزهر

١٤ من شعبان سنة ١٣٧٠هـ

❊ ❊ ❊

وقد تأثّر صاحب السماحة العلّامة الأكبر بهذا الكتاب الذي يدلّ علىٰ ما تنطوي عليه نفس فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، وكبير علماء السنّة، من عواطف كريمة نحو إخوانه المؤمنين، وحرصٍ علىٰ نهوض الأمة الإسلامية نهضةً تعيد إليها سابق مجدها وعزّها، فأجاب بهذا الكتاب:

حضرة صاحب الفضيلة الأكبر الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الجـامع الأزهـر دامت إفاضاته

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أمّا بعد، فقد بلغنا كتابكم الكريم الحاوي للعواطف الإسلامية السامية، يحكي لنا أنّه لمّا بلغكم عن طريق المذياع أنّ صحّة هذا العبد قد ألمّ بها طارئ من المرض، أسفتم لذلك، ودعوتم الله تعالىٰ أن يعيد له الصحّة.

فأشكركم علىٰ ذلك، وأسأل الله تعالىٰ أن يبدّل التعارف والتعاطف بين المسلمين، ممّا كان بينهم من التناكر والتدابر والتقاطع، إنّه علىٰ ما يشاء قدير.

ويحكي كتابكم أيضاً، أنّه قد ألمّ بصحّتكم الغالية طارئ من المرض، كما ألمّ بي، فاعتكفتم في البيت حاملين لهمّين ممضين: همّ نفسكم وهمّ قومكم، وأنّ إطالة التفكير في حالة الأُمة توجب لكم من القلق والحزن ما الله به عليم.

هكذا ينبغي أن يكون رجال العلم ورجال الإسلام، مهما حاقت بالمسلمين زلازل الفتن، وأحاطت بهم نوازل المحن، فأسأل الله عزّ سلطانه أن يلبسكم لباس العافية، ويوفّقكم لخدمة الإسلام والمسلمين، ولما يوجبه الاهتمام بأمر الأمة في مثل هذا الزمان، من أمثال جنابكم الذين وقفوا أنفسهم لخدمة هذه الأمة، ودرء عوادي المفسدين والملحدين عنها، إنّه قريب مجيب.

إنّ هنا أموراً كنت أحبّ إبداءها لكم، لكن حالي لاتساعدني علىٰ ذلك.

والسلام عليكم وعلىٰ من أحاط بكم من المؤمنين الصادقين ورحمة الله وبركاته.

حسين البروجردي /قم ـ ايران

١٧ من رمضان سنة ١٣٧٠هـ

حول تفسير مجمع البيان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الهداة الراشدين.

أمّا بعد، فإنّ كتاب مجمع البيان لعلوم القرآن الذي ألّفه الشيخ العلّامة ثقة الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي من علماء القرن السادس الهجري، هو كتاب جليل الشأن، غزير العلم، كثير الفوائد، حسن الترتيب، لا أحسبني مبالغاً إذا قلت: إنّه في مقدّمة كتب التفسير التي تعدّ مراجع لعلومه وبحوثه.

ولقد قرأت في هذا الكتاب كثيراً، ورجعت إليه في مواطن عدّة، فوجدته حلّال معضلات، كشّاف مبهمات، ووجدت صاحبه ﷺ عميق التفكّر، عظيم التدبّر، متمكّناً من علمه، قوياً في أسلوبه وتعبيره، شديد الحرص على أن يجلي للناس كثيراً من المسائل التي يفيدهم علمها.

فإذا قامت اليوم جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ـ ولي شرف المساهمة في تأسيسها وأعمالها ـ بإحياء هذا التفسير الجليل، فإنّه لعمل من الباقيات الصالحات، آمل أن يثيبنا الله عليه، ويثيب كل معين على إتمامه ثواباً حسناً، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً.

عبدالمجيد سليم ـ القاهرة

٤ من ذي القعدة سنة ١٣٧١هـ / ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢م

بين شيخي السنّة والشيعة[1]

لمّا عاد فضيلة الأستاذ الجليل السكرتير العام لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية من إيران إلى القاهرة، حمل إلىٰ حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الجامع الأزهر رسالةً شفويةً من حضرة صاحب السماحة الجليل الحاج أقا حسين البروجردي، فرأىٰ فضيلته إرسال الكتاب الآتي إلى سماحته:

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحبالسماحة آية الله السيد الجليل الحاج أقا حسين البروجردي حفظه الله:

سلام الله عليكم ورحمته.

أمّا بعد، فقد أبلغني حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد تقي الأمين العام لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية رسالتكم الشفوية التي رأيتم فضيلتكم إبلاغها إليَّ:

تفضّلتم فتحدّثتم إليه عن إعجابكم بما أُوَدّيه من جهود في خدمة الإسلام والمسلمين، وعن جهود جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وما لها من أثر في جمع كلمة المسلمين، وما تستطيع أن تفعله وترشد إليه ممّا يصلح به الفساد الذي دسّه ذوو الأغراض.

---

١. نقلاً عن مجلّة رسالة الإسلام: السنة (٤) العدد (٢) رجب سنة ١٣٧١هـ، صفحة: ٢١٨ ـ ٢٢٠.

والله يعلم أنّ هذه هي أعزّ آمالي التي أعمل لها جاهداً طول حياتي، وأسأل الله تعالىٰ أن يحقّقها، وأن يؤيّد كلّ ساعٍ في سبيلها، وإنّي لأشكر لسماحتكم هذه الثقة في شخصي، وهذا الاعتداد بجهدي، وأُنوّه بما أعرفه فيكم من مشاطرتي هذا الجهاد في سبيل الله، وأنّكم لاتفتأون تعملون علىٰ إصلاح شأن الأمة، بما لكم من العلم والجاه والنفوذ في إيران وغير إيران، وأنّ فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية تلقىٰ منكم عنايةً بالغةً، ومؤازرةً قويةً في شتّىٰ المواقف والمناسبات، لأنّكم ـكما هو المنتظر من مثلكم في علمه وتقواه ورجاحة عقله ـ قد أدركتم ما لها من جدوىٰ في إعلاء شأن المسلمين، وتقوية شوكتهم، وإحلالهم المحلّ اللائق بهم من العزّة والكرامة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إنّ أهل العلم ـياسماحة السيد الجليل ـ هم حملة أمانة الإسلام، والقائمون بالقسط مع الله وملائكته بشهادة القرآن، وإنّ عليهم لهذا لواجباً عظيماً، يجب أن يتعاونوا علىٰ أدائه، وأن يتبادلوا الرأي والمشورة في شأنه علىٰ بُعد البلاد، واختلاف الشعوب، ولقد أتىٰ على المسلمين حين من الدهر كانوا فيه هدفاً لكثيرٍ من الدسائس الفكرية التي يراد بها زلزلتهم عن الحقّ، واجتذابهم إلىٰ الباطل، وشغلهم عن الدعوة إلىٰ الله، والجهاد في سبيله، وتفريقهم بالخلاف والجدال تفريقاً يقضي عليهم جميعاً.

ولم تزل آثار هذه الدسائس تغشى العقول، وتشغل القلوب، وتحول بين كثيرٍ من الناس وما ينبغي أن يكونوا عليه من فهمٍ صحيحٍ للدين، وإدراكٍ لأسراره، وتفانٍ في سبيل إعلاء كلمته، فأوّل واجبٍ علينا معشر العلماء ـ لا فرق بين سنّيين منّا وشيعيّين ـ أن ننفي من أذهان الناس ما علق بها من ذلك، وأن ننشر صفحات الإسلام الناصعة، ومبادئه القويمة، وشريعته الحنيفية السمحة نشراً يبصّر الناس بما فيها من هدىً ورشاد، ويأخذهم بما لها من قوّة وجمال، ويجعلهم يدينون بها عن فهمٍ وحبٍّ لا عن وراثةٍ وتقليد، فإنّ المرء إذا فهم أحبَّ، وإذا أحبَّ آمن إيماناً تسهل

معه التضحية، ولايقف في سبيله شيء من أعراض هذه الدنيا الفانية.

وقد علمت أخيراً بنبأ وفاة العالم الجليل السيد محسن الأمين العاملي، فأسفت لهذا النبأ لما بلغني عنه ﷺ من علمه وإخلاصه، وجهاده في سبيل دينه وأُمته، وإنّي أبعث إلىٰ سماحتكم بخالص عزائي لإخواننا الشيعة الإمامية في شخصكم، وأسأل الله الكريم أن يتغمّد الفقيد برحمته ورضوانه، وأن يجزينا وإيّاكم عن مصابه جزاء الصابرين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبدالمجيد سليم

شيخ الجامع الأزهر

رسالة العلّامة شيخ الأزهر محمود شلتوت إلىٰ سماحة آية الله سيد محسن الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي في الله صاحب السماحة الأستاذ العلّامة السيد محسن الحكيم /النجف ـ العراق

سلام الله عليكم ورحمته وعلىٰ جميع إخواننا وإخوانكم علماء العراق الشقيق، وكلّ من ينهض مدافعاً عن الحقّ، ومحافظاً علىٰ الوحدة والأُلفة بين المسلمين.

أمّا بعد، فإنّ سماحتكم وجميع إخوانكم الأجلّاء تعلمون نبأ الحادث المحزن الذي حدث في هذه الأيام، وذلك هو اعتراف جلالة شاه ايران بعصابة إسرائيل التي اعتدت علىٰ فلسطين، وشتّت أهلها، واغتصبت حقوقهم.

هذا الاعتراف أقلقنا جميعاً، كما أقلق كلّ مسلمٍ في مشارق الأرض ومغاربها، إذ كيف يقدم ملك مسلم لشعبٍ مسلمٍ علىٰ تأييد أعداء المسلمين وموالاتهم؟! ولقد أبرقنا لجلالة الشاه مرّتين، وأبرقنا لسماحة السيد البروجردي «قم» منبّهين إلىٰ خطورة الشاه الذي هو شيعي من إخواننا الإمامية ممّا قد ييسّر الذين يحبّون أن يصّيّدوا في المياه العكرة وهمسة التشويش، ومحاولة قصم الروابط التي عملنا علىٰ تقويتها، هذا فضلاً عن منافاة ذلك الدين منافاةً صريحةً لاتحتمل التأويل.

ولا شكّ أنّكم أسفتم لذلك كما أسلفنا، وأنّكم أنتم وسائر إخواننا وإخوانكم علماء العراق الكرام ستبذلون كلّ ما في وسعكم من السعي لاستنكار هذا القرار بقوّة، والعمل علىٰ أن يرجع الشاه عنه كما رجعت حكومة الدكتور مصدّق في إيران عن مثله إيران نفسه، كما سيكون له تأثير حميد عندنا إذ تبيّن للناس جميعاً أنّنا وإيّاكم زملاء في الجهاد، والعمل علىٰ رفع راية الإسلام، وتثبيت الوحدة بين أهله، وإنّا لما تبعثون به إلينا من بيان سعيكم الموفّق وعملكم الصالح لمنتظرون، وإنّه المسؤول أن يكلأكم برعايته، وأن ينفع المسلمين ببركاتكم، وصالح سعيكم.

والسلام عليكم ورحمة الله.

أخوكم

محمد شلتوت شيخ الجامع الأزهر

القاهرة ١٣٨٠هـ

ردّ آية الله السيد محسن الحكيم

بسم الله وله الحمد

فضيلة العلّامة الجليل الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر/القاهرة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

تلقينا برقيتكم الكريمة، تستنكرون فيها اعتراف إيران بإسرائيل، فشكرنا لكم اهتمامكم بأمور المسلمين، وحرصكم علىٰ تقوية الرابطة الإسلامية بينهم، وإنّنا منذ بلغنا نبأ هذا الاعتراف بادرنا إلىٰ إبلاغ استنكارنا الشديد إلى المسؤولين في إيران بواسطة بعض إخواننا العلماء في طهران، وأوضحنا لهم خطورة الموقف واستياء الأمة الإسلامية، ونصحنا لهم بالاحتفاظ بواجبهم الإسلامي، ورعاية شعور المسلمين، وتلقّينا الجواب واضحاً: عدم صدور أيّ اعتراف من إيران بإسرائيل، وأنّه ليس في نيّة الحكومة ذلك، لا في الوقت الحاضر ولا في المستقبل، ومظهراً للعطف علىٰ قضايا المسلمين في كلّ مكان.

وإنّنا إذ نستنكر كلّ خطوة تتّخذ لتعزيز كيان إسرائيل من أيّ جهةٍ كانت، نلفت أنظار المسلمين كافّةً إلىٰ الظرف العصيب الذي يحيط بهم، وندعوهم جميعاً إلىٰ رصّ صفوفهم، وتوحيد كلمتهم، ليقفوا جبهةً موحّدةً أمام التيارات العاتية من قوى الظلم والكفر والطغيان، والتي جعلت همّها الأول محاربة الإسلام وإبعاده عن واقع المسلمين، وما إقامة إسرائيل في فلسطين إلّا مثل من الأمثلة الكثيرة علىٰ محاولة ضرب الإسلام والوقوف في طريقه.

ومن هنا كان لزاماً علىٰ المسلمين عامّة، والحكومات القائمة في بلاد المسلمين خاصّةً، أن يرجعوا إلىٰ حظيرة الإسلام، ويلتفّوا حول لوائه الظافر الذي هو عنوان نصرهم وعزّتهم، ويستمدّوا تشريعاتهم من ينبوعه الثري، ومنهله الصافي، ليستعيدوا مجدهم وكرامتهم، ويحلّلوا ما حلّل الإسلام، ويحرّموا ما حرّمه.

وما هذه المآسي التي ضجّت بها حياة المسلمين إلّا أثر من آثار تهاونهم في الإسلام، وإبعاده عن إدارة شؤون الأُمة، الأمر الذي ينذرهم بالخطر، ويهدّدهم بالخذلان.

وختاماً، نبتهل إلىٰ العلي القدير أن يجمع كلمة المسلمين على التقوىٰ والهدىٰ، ويأخذ بأيديهم إلىٰ ما فيه صلاحهم ونجاحهم، إنّه سميع مجيب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محسن الطباطبائي الحكيم

النجف الأشرف ـ العراق ١٣٨٠هـ

رسالة آية الله السيّد محمّد هادى الميلاني لشيخ الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

القاهرة — حضرة صاحب الفضيلة العلّامة الشيخ محمود شلتوت المحترم أدام الله بقاءه وأيّامه لنفع العلم والاسلام . آمين .

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته وتحيّاته ، لقد بلغني عن اذاعة القاهرة انّكم قد أرسلتم إلى برقيّة تأسّ وتسلية بمناسبة الفجائع الداميّة التي حدثت في ايران في هذا الشهر الحرام ولكن جريا على العادة المتبعة لم توصل الجهات المختصّة برقيتكم القيمة إلى كما لم توصل كثيراً ممّا يماثلها وانّى حيث اطلعت على ذلك لا أرى في وسعي الا تقدير مشاعركم الطيبة وعواطفكم السامية والثناء على تلبيتكم نداء المسلمين وصرخة المؤمنين وتأثّركم وتألمكم بما أصاب إخوانكم من عظيم المصاب، وكذا قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد » ولم يكن ينتظر منكم غير هذا ولا يرجى فيكم سواه وهذا مجية حماة الشريعة وأعلام الفضيلة وحرّاس مبادئ الاسلام ولا سيّما في مثل هذه الظروف والاحوال العصيبة .

نعم ، قد عملت أيدى فئة باغية وفيها يد الصهيونيّة وعمّالها الذين يتبرّء منهم الشعب الايراني مالم تعرفه البربريّة الوحشيّة إذ أحاطت ببدور كبار العلماء وحملتهم إلى ويلات السجون وحصدت نفوساً زكيّة تظاهروا لطلب حقوقهم ونصرة علمائهم ، و قامت بفجائع أخرى والحديث ذو شجون . إلى الله المشتكى ولا ملجأ إلّا اليه سبحانه وتعالى .

ثمّ إنّ أناساً تلبّسوا بلباس الاسلام كذباً ونفاقاً أخذوا ينسبون الى رجال الدّين من التهم والافتراء ما لا يليق الّا بافكارهم ومصالح أنظارهم وأرادوا بذلك غرس بذور التفرقة والنكاية بعلماء الدين وذلك مكرٌ مكروه ، والمرجوّ من فضله سبحانه وتعالى أن لا يحيق المكر السيئ الّا بأهله . وقد قال عزّ من قائل : « قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » .

وليت العالم الاسلامي عرف هذه الحقائق واطلع على مخازى هذه الفئة الجائرة التي منعت حقوق الشعب وحريّته الدينيّة والاجتماعيّة . وفي الختام إلى الله ابتهل في كشف الغمّة عن الأمّة ولدعوتكم واهدى جميل الثناء إليكم والسّلام عليكم .

٢٥ / محرّم الحرام / ١٣٨٣ — السيّد محمّد هادى الميلاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور محمد محمد الفحّام

شيخ الأزهر

سماحة الشيخ حسن سعيد من كبار علماء طهران، شرّفني بزيارة في منزلي ٥ شارع علي بن أبي طالب، ومعه سماحة العالم العلّامة، والصديق الكريم، السيد طالب الرفاعي. وقد أهاجت هذه الزيارة في نفسي ذكريات جميلة، ذكريات الأيام التي قضيتها في طهران سنة ١٩٧٠، فعرفت فيها طائفةً كبيرةً من طوائف العلماء الشيعة الإمامية، وعرفت فيهم الوفاء والكرم الذي لم أعهده من قبل.

وما زيارتهم لي اليوم إلّا مظهر وفائهم، جزاهم الله كلّ خير، وشكر لهم مسعاهم الجميل في التعرف بين المذاهب الاسلامية التي في الحقيقة والواقع شيء واحد في أصول العقيدة الاسلامية التي جمعت بينهم على صعيد الأخوّة التي جسّدها القرآن حيث يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

هذه الأخوّة من واجب علماء الأمة على اختلاف اتّجاهاتها المذهبية أن يحرصوا علىٰ كميّتها، ونبذ كلّ ما يسوء إليها، ويكدر صفوها من عوامل التفرقة، والتي شجبها الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

ورحم الله الشيخ شلتوت الذي التفت إلىٰ هذا المعنى الكريم، فخلّد في فتواه الصريحة الشجاعة، حيث قال ما مضمونه: بجواز العمل بمذهب الشيعة الإمامية باعتباره مذهباً فقهياً إسلامياً، يقوم على الكتاب والسنّة والدليل الأسدّ.

والله أسأل أن يوفّق العاملين علىٰ هذا الفتح القويم في التقريب بين الإخوة في العقيدة الإسلامية الحقّة ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

د. محمد الفحّام

شيخ الأزهر السابق

٢١ من شهر ذي القعدة ١٣٩٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور
محمد محمد الفحام
شيخ الأزهر

[illegible] حق بشيخ [illegible] من كبار علماء [illegible] وشرفني بزيارة في منزلي

شارع علي بن أبي طالب [illegible] العالم العلامة والمصلح الكريم

السيد طالب الرفاعي [illegible] وقد أعادت هذه الزيارة في نفسي ذكريات جميلة

ذكريات الأيام التي [illegible] في طهران سنة ١٩٧٠ فعرفت فيها طائفة كبيرة من

طوائف العلماء [illegible] الإمامية وعرفت فيهم الكرماء [illegible] الذين

لم أعهده من قبل [illegible] العلوم [illegible]

جزاهم الله كل خير [illegible] في التعرف بينهم [illegible] أهل

الإسلامية [illegible] والواقع [illegible] واحد في أصول العقيدة

الإسلامية [illegible] القرآن

الكريم [illegible]

[illegible]

[illegible] الفرقة [illegible] الله

[illegible] الله [illegible]

[illegible] هذا السعي الكريم [illegible]

[illegible] بحاجة [illegible] العمل [illegible]

[illegible]

[illegible] الإسلامية [illegible]

[illegible] ١٣٩٧

محمد الفحام
[illegible]

فضيلة الأُستاذ الدكتور فريد واصل نصر مفتي الديار المصرية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نرجو من سماحتكم أن تعطونا رأيكم الشريف في اقتداء أصحاب المذاهب بمن يتقلّد مذهب أهل البيت عليهم السلام من الشيعة الإمامية الاثني عشرية، هل يصحّ ذلك أم لا؟

افتونا مأجورين ١٦/شوال المكرَّم/١٤٢١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

كلّ مسلم يؤمن بالله، ويشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله، ولا ينكر معلوماً من الدين بالضرورة، وهو عالم بأركان الإسلام والصلاة، وشروطها هي متوفّرة فيه، فتصحّ إمامته لغيره، وإمامة غيره له إذا توفّرت فيه تلك الشروط ولو اختلف مذهبهما الفقهي.

وشيعة أهل البيت من نحلهم، ونشيّع معهم لله ولرسوله وأهل بيته وصحابته جميعاً، ولا خلاف بيننا وبينهم في أُصول الشريعة الإسلامية، ولا فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، وقد صلّينا خلفهم وصلّوا خلفنا في طهران وفي قم في الأيام التي شرّفنا الله بهم في دولة إيران الإسلامية.

وندعوا الله أن يحقّق وحدة الأمة الإسلامية، ويرفع عنهم أيّ شقاق أو نزاع أو خلاف قد حلّ بهم في بعض مسائل الفروع الفقهية المذهبية.

والله المؤيّد والهادي إلىٰ سواء السبيل.

دكتور فريد واصل نصر مفتي الديار المصرية

١٦/شوال/١٤٢١هـ ـ ١٢/١/٢٠٠١م

فتوای دکتر فرید واصل نصر

مفتی مسلمانان مصر مبنی بر جواز اقتدا به شیعه

بسم الله الرحمن الرحیم

جناب استاد دکتر فرید واصل نصر، مفتی کشور مصر

سلام علیکم و رحمة الله و برکاته، لطفا نظر شریفتان را در خصوص اقتداء پیروان مذاهب اهل سنت به اهل تشیع بفرمایید؟ ۱۶ شوال ۱۴۲۱

هر مسلمانی که به پروردگار یکتا ایمان داشته و به یگانگی او و رسالت حضرت محمد(ص) شهادت دهد، منکر ضروری دین اسلام نباشد و به ارکان دین اسلام اعتقاد داشته و از شروط نماز، علم و اطلاع کافی داشته باشد، امامت نماز برای دیگری و امامت دیگری نیز برای وی - در صورتی که شرایط یاد شده را دارا باشد - صحیح است، اگر چه امام و ماموم، به لحاظ فقهی مختلف باشند.

شیعه‌ی اهل بیت از مذاهب اسلامی است که ما نیز به همراه ایشان راه خدا، پیامبر و اهل بیت و اصحاب را می‌پوییم از این رو بین ما و آنان در اصول شریعت اسلامی و ضروریات دین هیچ اختلافی وجود ندارد. ما به امامت آنان - و پشت سر آنان - و آنان به امامت ما در تهران و قم - در ایامی که توفیق الهی حضور در جمهوری اسلامی ایران را نصیبمان کرده بود - نمازگزاردیم.

از پروردگار متعال می‌خواهیم که وحدت امت اسلامی را تحقق بخشد و هرگونه جدالی و نزاع و اختلافی راکه در برخی از مسایل فرعی مذهبی فقهی بین آنان وجود دارد، برطرف نماید.

دکتر فرید واصل نصر: مفتی کشور مصر

۱۶ / شوال / ۱۴۲۱ هـ - ۱۲ / ۱ / ۲۰۰۱ م

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية

١٨ جمادى الآخرة ٣١/١٣٧٥ يناير ١٩٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة العلّامة الأكبر مولانا الأجلّ السيد عبدالحسين شرف الدين أبقاه الله ذخراً للإسلام والمسلمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وصلنا خطابكم الكريم، وكم كنت بحاجة إلى هذا العطف، ونرجو الله ألّا يحرمني من عطفكم ودعواتكم وإرشاداتكم، والله ولي التوفيق.

ووصلني مع خطابكم مقال «صلح الحديبية» ولا أستطيع وصف شعوري حين طالعته، فهو أمتع ما قرأت، وقد حوّلته إلى رجال التحرير بالمجلّة، وكلّهم يعجب بفضل سماحتكم، ويقدّر مكانتكم ومركزكم، ويرجون أن يحسّوا دائماً بمقالاتكم، فاستلموه بيد التقدير، إلّا أنّهم أبدوا ملاحظةً ترجع قبل كلّ شيء إلى تقاليد ملحوظة في رسالة الإسلام وهي أنّها لاتنشر ما سبق نشره، وإنّ المقال نُشر بنصّه من قبل في إحدى المجلّات المحترمة، لذلك رأوا الاحتفاظ به لينشر في بحوث الدراسات التي تزمع الجماعة إصدارها.

وأنا حين أعرض على سماحتكم هذا نرجو أن تتفضّلوا على المجلّة ببحث آخر حول المسائل الفقهية، أو موضوع الاجتهاد وحدوده، أو غير ذلك ممّا يلائم الفكرة، وكلّ ما تكتبون يلائمها والحمد لله، وقد سبق أن نشرت رسالة الإسلام بحوثاً قيّمة لفضيلتكم كان آخرها «الجمع بين الصلاتين» وكان لها أثر طيّب وتقدير عظيم عند أهل العلم، ولاسيّما علماء الأزهر في مصر.

وإنّي أكرّر شكري على تشجيعكم لنا فيما نقوم به بتعبيراتكم القوية وبيانكم الآخّاذ.

وبانتظار ردّكم، وأثر من آثاركم، أرجوا أن تتقبّلوا تحياتي، مع إجلال وتحيّات أصحاب الفضيلة الموجودين بالدار. والسلام عليكم ورحمة الله

المخلص

محمد تقي القمي

السكرتير العام لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية

دار التقريب
بين المذاهب الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم القيد ١٢٩٨ / ٢٤١٥
١٥ جمادى الآخرة ١٣٧٠
٢٣ من مارس ١٩٥١

سماحة العلامة الاكبر مولانا الأجل

السيد عبد الحسين شرف الدين   ابقاه الله ذخرا للاسلام والمسلمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته   وصلنا خطابكم الكريم وكم كنت بحاجة الى هذا [illegible]
ونرجو الله الا يحرمنى من عطفكم ودعواتكم وارشاداتكم والله ولى التوفيق   ووصلنى مع خطابكم [illegible]
مقال " صلح الحديبية " ولا استطيع وصف شعورى حين طالعته فهو امتع ما قرأت [illegible]
حولته الى رجال التحرير بالمجلة وكلهم يحمد بفضل سماحتكم ويقدر مكانتكم [illegible]
ان يحلوا دائما بمقالاتكم فاستلموه بيد التقدير [illegible] ملاحظا [illegible]
الى تقاليد ملحوظة فى "رسالة الاسلام" [illegible] انها لاتنشر [illegible]
بنصه من قبل فى احدى المجلات المحترمة   كذلك رأوا الاحتفاظ به لينشر [illegible]
الدراسات التى تزمع الجماعة اصدارها   وانا حين اعرض على سماحتكم هذا [illegible]
على المجلة ببحث آخر حول المسائل الفقهية او موضوع الاجتهاد [illegible]
يلائم الفكرة وكل ما تكتبون يلائمها والحمد لله   وقد سبق أن نشرت "رسالة الاسلام"
بموافقة سماحتكم كتابكم "الجمعية الصلاتية" وكان لها أثر طيب وتقدير عظيم
عند اهل العلم ولاسيما علماء الازهر فى مصر [illegible]

وانى اكرر شكرى على تفضلكم [illegible] بتحياتكم الطيبة [illegible]
[illegible] تحياتى مع اجلال [illegible]
الفضيلة الموجودين بلبنان [illegible]

والسلام عليكم ورحمة الله

[illegible]

[illegible]

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية

١٩٤٧/٥/٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة العلّامة الكبير حجة الإسلام السيد عبدالحسين شرف الدين الموسوي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فإنّ ما تتمتّعون به في محيط رجال الدين من شهرة عالمية، ومكانة مرفوعة، وما نعرفه عنكم من المرونة وسعة الأُفق، والغيرة على الديـن، والجـهاد فـي سـبيله، والدأب على محاولة التقريب بين الطوائف الإسلامية، كلّ ذلك يدفعنا إلى تـلمّس مناصرتكم لجماعة التقريب بين المذاهب الإسـلامية التـي أرسـلنا لكـم قـانونها بالأمس، والتي تهدف إلى رفع الخلافات الطائفية، وتمهّد لعقد مؤتمرات إسـلامية عامّة، ونشر الدعوة الإسلامية في البلاد غير الإسلامية.

ولاشكّ أنّكم عرفتم من قانونها أنّها جماعة عالمية، نعتمد في تنفيذ برامجها على كلّ رجالات الدين، فمن تمكّنه ظروفه من حضور جلساتها بالقاهرة يعتبر عضواً بالإدارة، ومن لاتسمح له ظروفه بحضور جلساتها يعتبر عضواً بالمراسلة، وكـلّهم سواء، لا فرق بين واحد وآخر، وكلّهم مطالب بتقديم ما يستطيع تقديمه من خدمات تساعد على تحقيق أهداف جماعة التقريب التي يسرّ أعضاؤها جميعاً أن تنضمّوا إليهم، وتتقبّلوا العمل معهم، وكلّنا أمل أن ننتفع بتجاربكم، ويشتدّ ساعدنا بكم.

وبصفتي العضو الممثّل للشيعة في هذه الهيئة، يهمّني أن تـقبلوا هـذه المـهمّة، وتخطروني بذلك لأنتفع بآرائكم الناضجة، وإرشاداتكم السديدة، حتّى نتمكّن نحن الشيعة من إظهار أهل السنّة على حقيقة مذهبنا، ودحض ما علق بأذهان النـاس بسبب ما افتراه علينا بعض المغرضين.

وأكون شاكراً لو تكرّمتم بإهداء بعض مطبوعاتكم لمكتبة دار التقريب، وشكر الله لكم، وشفّع بكم الإسلام والمسلمين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المخلص
محمد تقي القمي
السكرتير العام للجماعة

دار التقريب
بين المذاهب الاسلامية
تليفون ٥٨٩٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم القيد [illegible]

[illegible]

٣٨

حضرة العلامة الكبير السيد
عبد الحسين شرف الدين الموسوي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد . فان ما تتمتعون به في محيط رجال الدين من شهرة عالمية . ومكانة مرموقة . وما نعرفه عنكم من المرونة وسعة الافق والغيرة على الدين والجهاد في سبيله والدأب على محاولة التقريب بين الطوائف الاسلامية كل ذلك يدفعنا الى تلمس مناصرتكم لجماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية التي أرسلنا لكم قانونها بالأمس . والتي تهدف الى رفع الخلافات الطائفية وتمهد لعقد مؤتمرات اسلامية عامة ونشر الدعوة الاسلامية في البلاد غير الاسلامية .

ولا شك أنكم عرفتم من قانونها أنها جماعة عالمية تعتمد في تنفيذ برامجها على كبار رجالات الدين . فمن تمكنه ظروفه من حضور جلساتها بالقاهرة يعتبر عضوا بالادارة ومن لا تسمح له ظروفه بحضور جلساتها يعتبر عضوا بالمراسلة وكلهم سواء لا فرق بين واحد منهم وآخر . وكلهم مطالب بتقديم ما يستطيع تقديمه من خدمات تساعد على تحقيق [illegible] جماعة التقريب التي يسر أعضاؤها جميعا أن تنضموا اليهم وتقبلوا العمل معهم و [illegible] أمل أن نتشرف بجوابكم بقبول ساعدها [illegible] .

ويسرني العضو [illegible] للهيئة [illegible]

[illegible]

دار التقريب
بين المذاهب الاسلامية
تيفون ٨٩٨٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم القيد
/ / ١٣٦
/ / ١٩٥

اهل السنة على حقيقة مذهبنا وتمحيص ما علق بأذهان الناس بسبب ما افتراه علينا بعض المغرضين .

واكون شاكرا لو تكرمتم بإهداء بعض مطبوعاتكم لمكتبة دار التقريب . وشكر الله لكم ونفع بكم الاسلام والمسلمين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

المخلص محمد تقي القمي

السكرتير العام
للجماعة

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية ١٩٤٨/٤/١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الفضل والسماحة العلّامة الأكبر السيد عبدالحسين شرف الدين الموسوي / صور ـ لبنان

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

يسرّنا أن نرسل إلى فضيلتكم صورة ما نشر في الجرائد المصرية عن آخر رسالةٍ لجماعة التقريب، وفيه رأي فضيلة العالم الكبير الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر، وعضو جماعة التقريب، وفيه يطلب نبذ كلمة «طوائف».

ولعلّ هذا يدلّكم على اتّجاه رجال التقريب، وصادق رغبتهم في العمل لتحقيق هدفهم وهو القضاء على الفرقة والتعصّب في كلّ صورة من صورها، واعتبار مسلمي الشيعة أتباع مذاهب يختلف عن غيره في الفروع، لا طوائف غريبة على الإسلام.

ولعلّ من الخير أن تكتبوا إلى هذا العالم الفاضل تقديراً لحسن فهمه للإسلام.

وتفضّلوا بقبول أزكى التحيّات.

المخلص
محمد تقي القمي
السكرتير العام للجماعة

دار التقريب
بين المذاهب الاسلامية
تليفون ٥٨١٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم القيد [illegible]
[illegible]
١٠ / [illegible] / [illegible]

حضرة صاحب الفضل والسماحة العلامة الأكبر السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي
صور - لبنان

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . يسرنا أن نرسل الى سماحتكم صورة [illegible]
[illegible] في آخر جلسة لجماعة التقريب [illegible]
[illegible] جماعة [illegible] جماعة التقريب [illegible]
[illegible] التقريب . [illegible]
[illegible] في كل [illegible]
[illegible] على الاسلام .

[illegible] الى هذا [illegible] .

[illegible] . . .

المخلص محمد تقي القمي

السكرتير العام
للجماعة

دار التقريب بين المذاهب الاسلامية القاهرة

رسالة من العلّامة شرف الدين ﷺ إلىٰ دار التقريب

أخي في الله عزّ سلطانه

بوركت تقيّاً قويّاً في ذات الله، عالماً عاملاً، مرابطاً مجاهداً، داعياً إلى الحقّ بالحكمة، وبوركت نهضتك مبرورة مشكورة بعوائدها على الأُمّة، وبورك حلفاؤك عليها ـ جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ـ وعسىٰ أن تكونوا خير أُمّةٍ أُخرجت للناس، تدعون إلى الخير وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.

أمامي كتابكم وقانونكم السديدان، أُنعم فيهما نظري، وأعمل فيهما رويّتي. وما أن سبرت غورهما حتّىٰ وجدت بهما قرّة عيني، وبرد كبدي، واستخفّني الفرح، فغلبت عليَّ نشوة الطرب تقديراً لنهضتكم، فإنّها أرجىٰ ما يرجوه المخلصون، وهياماً بأهدافها السامية، فإنّ بها رضا الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ، ومصلحة الأمّة في دينها ودنياها.

وكم أهبنا بها في هذه المهمّة، ونزعنا إليها برجائنا، وفي العين قذىٰ، وفي الحلق شجىٰ، نراهم طرائق قدداً، وعباديد شتّىٰ، يضلّل بعضهم بعضاً بلا دليل، ويبرأ بعضهم من بعض، وهم متّفقون بالإجماع علىٰ أنّ الله تعالى وحده لا شريك له ربّهم، والإسلام دينهم، والقرآن الحكيم كتابهم، وسيّد النبيّين وخاتم المرسلين محمد بن عبدالله ﷺ نبيّهم، وقوله وفعله وتقريره سنّتهم، والكعبة قبلتهم ومطافهم، والصلوات الخمس وصيام الشهر والزكاة الواجبة وحجّ البيت أركان دينهم، والحلال ما أحلّه الله ورسوله، والحرام ما حرّماه، والحقّ ما أحقّاه، والباطل ما أبطلاه، وإنّ الساعة آتيةٌ لاريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[1].

أليس الشيعيّون والسنّيّون شرعاً في هذا كلّه سواء؟ ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ

---

١. النجم: ٣١.

وَرُسُلِهِ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[١].

والنزاع بينهما في جميع المسائل الخلافيّة إنّما هو صغروي، ولا نزاع بينهما في الكبرىٰ أبداً، ألا تراهما إذا اختلفا في وجوب شيء أو حرمته أو استحبابه أو كراهته أو إباحته، أو اختلفا في صحّته وبطلانه أو في جزئيّته وشرطيّته أو في مانعيّته أو في غير ذلك كما لو اختلفا في عدالة شخص أو في إيمانه أو في موالاته ومعاداته، فإنّما يتحرّيان الأدلة الشرعية، فينزلان علىٰ حكمها، ولو علموا بأجمعهم ثبوت الشيء في دين الإسلام أو علموا عدم ثبوت أو شكّوا جميعاً في ذلك لم يختلف فيه منهم اثنان.

وقد أجمعت علماء الأُمّة علىٰ أنّ المسلم إذا تحرّى الأدلّة الشرعيّة فاستنبط منها حكماً عمليّاً وجب عليه العمل به، وله أجران إن أصاب وإلّا فله أجر واحد، وإليك النصّ عليه من رسول الله ﷺ، قال[٢]: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثمّ أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر».

وقد ذكرتم في قانونكم أنّ الآراء والخلافات كانت في عهد الأئمّة المجتهدين، ومن بعدهم من تلاميذهم، لايسيطر عليها إلّا العلم والحجّة، فلم نعرف أنّ أحداً منهم رمىٰ غيره بالمروق من الدين، ولا عرفنا أحداً زعم لنفسه أنّه هو وحده صاحب الرأي المقدّس في الشريعة أو فكّر في حمل الناس علىٰ ما يراه، بل كلّهم وردعنه ما يدلّ علىٰ أنّه مجتهد وقد أتىٰ بما وسعه أن يأتي به، إلىٰ آخر ما استرسلتم به من هذا المعنى، تدعون مجتهدي الأُمّة علىٰ اختلافهم أن يطبعوا علىٰ هذا الغرار، لايسيطر عليه إلّا العلم والحجّة من كتاب أو سنّة أو إجماع أو عقل مستعل أو قياس صحيح، فأحسنتم أحسنتم، ونحن في هذا معكم على الحقّ المبين، إن شاء الله تعالى.

عبدالحسين شرف الدين الموسوي ـ ١٣ رجب سنة ١٣٦٦

---

١. البقرة: ٢٨٥.

٢. فيما أخرجه البخاري ٤: ١٧٧ من صحيحه في باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، وهو في آخر كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة ٦: ٢٦٧٦ ح ٦٩١٩.

رسالة من السكرتير العام لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية رقم القيد ٢٢٨

٢٩ رجب ١٣٦٦ ـ ١٩٤٧/٦/١٨

حضرة العلّامة الكبير حجّة الإسلام السيّد عبدالحسين شرف الدين الموسوي

نحمد الله الذي جمعنا علىٰ أنبل غاية، وحوّل قلوبنا جميعاً إلىٰ خير هدف، ونصلّي ونسلّم على سيّدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته.

وبعد؛ فقد فرغنا من توزيع القانون الأساسي وبيان الجماعة للعالم الإسلامي، ونريد أن نخطو خطوات عمليّة، تحقّق بعض ما نهدف إليه من تقريب أرباب المذاهب الإسلامية، والقضاء علىٰ ما يثير في الناس العداوة والبغضاء، وفضليتكم من أكثر أعضاء الجماعة معرفةً بما يقضي على الخلافات، ويقرّب القلوب، ويجمع شتات الفرق؛ لأنّ لكم تجارب سابقة حاولتم بها تحقيق هذه الفكرة.

والجماعة أحوج ما تكون إلى الانتفاع بتجاربكم، ونحن نرجو أن تكتبوا إلينا بما ترونه يساعد على التقريب، ويقضي على الفرقة، وأيّ المشاكل الطائفية ـفي رأيكم ـ يجب أن تبدأ الجماعة بمعالجتها، وأيّ السبل نسلك ـفي حدود ما رسمه القانون ـ لنصل إلىٰ نتيجة مرضية، ذلك لأنّ الجماعة تفضّل أن ترجع إليكم في الشؤون عامّة، وتستنير برأيكم فيما يمسّ بيئتكم ووطنكم خاصّة.

ونودّ أن نعرف إن كنتم تتكرّمون بتقديم أبحاث تطبع في نشرات الجماعة ـكما جاء في المادّة الثانية ـ وأيّ الموادّ تفضّلون تناولها؟ وهل في محيطكم من العلماء ورجال الفكر من تنصحون بالاتّصال به ويسدي يداً في هذه السبيل؟

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المخلص محمد تقي القمّي السكرتير العام للجماعة

لقد وصل دار التقريب مؤلّفكم القيّم المراجعات وأصبح زينة مكتبتها، وقد كان لديّ نسخة منه اصطحبته معي من إيران، وكان من أهمّ المراجع التي كنت أستفيد منها. فأشكر سماحتكم باسم دار التقريب أجزل الشكر علىٰ هذه الهديّة العظيمة، ويا حبّذا لو تكرّمتم بإهدائها بقيّة مؤلّفاتكم الجليلة، دمتم أهلاً للفضل والمكرمات.

رسالة رئيس تحرير مجلّة رسالة الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الإسلام　　　　　　　　رقم القيد ٦٢٨/١١٢

التاريخ ٦ محرّم سنة ١٣٦٨ ـ ١٧ اكتوبر سنة ١٩٤٨

حضرة صاحب الفضل والسماحة العلّامة الكبير السيّد عبدالحسين شرف الدين الموسوي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أمّا بعد؛ فإنّ الأمل الذي طالما ترقّبه المخلصون لفكرة التقريب موشك أن يتحقّق فقد أخذنا نتهيّأ لإصدار مجلّة رسالة الإسلام التي ستحمل إن شاء الله قبس الدعـوة المحمّديّة إلىٰ جميع أقطار الأرض، عالي السناء، وهّاج الضياء، والتي ستكون مـنبراً لكلّ ذي علم نافع، وفكرٍ ثاقب، ودعاء بالغ، يفيد الأُمّة، ويجمع الكلمة، ويـهدي إلى الصراط السوي، ويجلو محاسن الإسلام، ويصلح الفاسد، ويرغم الحاسد.

وفضيلتكم ـ أطال الله بقاءكم ونفع بكم ـ خير من ينفتح لهذه البشرىٰ قلبه، ويهتزّ قلمه، وتنثال عليه المعاني من كلّ فجّ، فيتهدّى إليها، ويهدي منها، فهل تأذنون لنا بعون منكم ننشره ونشكره في صورة بحث ديني، أو مقال علمي، أو تحقيق تـاريخي، أو نصيحة للمسلمين ترسلونها، أو مشكلة تعالجونها، أو خفيّة من المسائل تجلونها، أو ما إلىٰ ذلك ممّا عهدناكم فيه مبرّزين، وإليه سبّاقين.

لعلّ وقت السيّد الجليل يسمح بورود ما يتفضّل به ردّاً علىٰ ذلك مع النصف الأوّل من شهر صفر إن شاء الله، وإنّا له لشاكرين.

رئيس تحرير مجلّة «رسالة الإسلام»

أخي في الله [illegible] بوركت نقياً تقياً في ذات الله عالماً عاملاً [illegible]

مجاهداً دائباً [illegible] ، وبوركت [illegible] بجهوده المشكورة [illegible]

وبوركت [illegible] – جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية – وعسى أن تكونوا

خير أمة أخرجت للناس (يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)

[illegible] جميعاً ورحمة الله وبركاته

أما بعد [illegible] أمر فيها نظري وأمعن فيها [illegible]

[illegible] واستقصي [illegible]

[illegible] ، [illegible]

[illegible] الله ورسوله صلى الله عليه وسلم [illegible]

[illegible]

[illegible] بعضهم بعضاً [illegible]

[illegible]

[illegible] خاتم المرسلين [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] بالحسنى)

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

كما لو اختلفا في عدالة شخص أو في طهارة [illegible] أو في [illegible] فإنما

يتحريان الأدلة الشرعية فينزلان على حكمها ولم يحكما [illegible]

الإسلام أو [illegible] فيه اثنان .

وقد أجمعت علماء الأمة على أن المسلم إذا تحرى الأدلة الشرعية فاستنبط منها

حكماً علمياً وجب عليه العمل به وله أجران إن أصاب والأجر واحد إن أخطأ [illegible]

عليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (١) : إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله

أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر

وقد ذكر [illegible]

[illegible]

[illegible]

المقدس في الشريعة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] من كتاب أو سنة أو إجماع [illegible]

[illegible] في هذا [illegible] على الحق المبين إن شاء [illegible]

١٣ رجب [illegible]

---

(١) [illegible]

[illegible]

دار التقريب
بين المذاهب الاسلامية
تليفون ٥٨٩٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم القيد ٨٤٤

٢٩ / ص / ١٣٦٦
١٨ / ٢ / ١٩٤٧

حضرة العلامة الكبير حجة الاسلام السيد

عبد الحسين شرف الدين الموسوى

نحمد الله الذى جمعنا على أنبل غاية ، وحول قلوبنا جميعا الى خير هدف ، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته . وبعد . فقد فرغنا من توزيع القانون الأساسى وبيان الجماعة للعالم الأسلامى . ونريد أن نخطو خطوات عملية ، تحقق بعض ما نهدف اليه من تقريب أرباب المذاهب الاسلامية والقضاء على ما يثير فى الناس العداوة والبغضاء . وفضيلتكم من أكثر أعضاء الجماعة معرفة بما يقضى على الخلافات ويقرب القلوب ويجمع شتات الفرق . لأن لكم تجارب سابقة حاولتم بها تحقيق هذه الفكرة . والجماعة أحوج ما تكون الى الانتفاع بتجاربكم . ونحن نرجو أن تكتبوا الينا بما ترونه يساعد على التقريب ويقضى على الفرقة . وأى المشاكل الطائفية — فى رأيكم — يجب أن تبدأ الجماعة بمعالجتها . وأى السبل تسلك — فى حدود ما رسمه القانون — لتصل الى نتيجة مرضية . ذلك لأن الجماعة تفضل أن ترجع اليكم فى الشئون عامة وتستنير برأيكم فيما يهم بلادكم ووطنكم خاصة .

ونود أن نعرف أن كنتم تتكرمون بتقديم أبحاث تطبع فى نشرات الجماعة — كما جاء فى المادة الثانية — وأى المواد تفضلون تناولها . وهل فى محيطكم من العلماء ورجال الفكر من تنصحون بالاتصال به ونستفيد منه فى هذه السبيل .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

[illegible]

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية

تصدرها دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم القيد ١١٤/ ٢٨ ٦

التاريخ ٦ محرم سنة ١٣٦٨

٧ أكتوبر سنة ١٩٤٨

حضرة صاحب الفضل والسماحة العلامة الكبير

السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته – اما بعد – فان الأمل الذي طالما ترقبه المخلصون لفكرة التقريب، موشك أن يتحقق، فقد أخذنا نتهيأ لاصدار مجلة "رسالة الاسلام" التي ستحمل ان شاء الله نبأ الدعوة المحمدية الى جميع أقطار الأرض، عالي السناء، بهي الضياء، والتي ستكون منبرا لكل ذي علم نافع، وفكر ثاقب، ودعاء بالغ، يفيد الأمة، ويجمع الكلمة، ويهدي الى الصراط السوي، ويجلو محاسن الاسلام، ويصلح الفاسد ويرغم الحاسد.

وفضيلتكم، أطال الله بقاءكم، ونفع بكم، خير من ينفتح لهذه البشرى قلبه ويهتز قلمه، وتنثال عليه المعاني من كل فج، فيتهدى اليها، ويهدي منها، فهل تأذنون لنا بعون منكم ننشره ونشكره في صورة بحث ديني، أو مقال علمي، أو تحقيق تاريخي أو نصيحة للمسلمين ترسلونها، أو مشكلة تعالجونها، أو خفية من المسائل تجلونها، أو ما الى ذلك مما عهدناكم فيه مبرزين، واليه سباقين؟

لعل وقت السيد الجليل يسمح بورود ما يتفضل به ردا على ذلك مع النصف الأول من شهر صفر ان شاء الله، وانا له لشاكرين.

رئيس تحرير مجلة

"رسالة الإسلام"

ملحق رقم (٣)

لقاءات وزيارات أخويّة

بين علماء الأزهر الشريف وعلماء ايران

وفادة وضيافة

وفي إطار التقريب، جاءنا في سنة ١٣٨٥هـ، أي قبل أربعين عاماً تقريباً، وفد من دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، وقد التقينا به في طهران، وكان علىٰ رأس الوفد الأُستاذ أبو المجد.

وقد ألقىٰ الأستاذ كلمةً قيّمةً في حفلٍ انعقد في منطقة «شميران» بطهران، في بيت المرحوم سيد محمد باقر الحجازي.

هذا وقد اشترك في هذا الحفل كلٌّ من: آية الله الشيخ خليل الكمرهاي الذي ألقىٰ بدوره كلمةً أشاد فيها بالتقريب وحركة التقريب، وآية الله السيد محمود الطالقاني، وآية الله السيد صفائي القزويني، والأستاذ سيد غلام رضا السعيدي، وكاتب هذه السطور، مع جمعٍ من المؤمنين الإيرانيّين... وجرىٰ خلاله مناقشة سبل تحقيق أهداف التقريب المباركة، وكيفية توسعتها.

ويذكر أنّه كان لهذا الاحتفال أثر إيجابي واسع في أوساط الحوزات العلمية في قم، ودار التقريب في القاهرة.



الدكتور أبو المجد رئيس موفد التقريب من مصر حين إلقائه كلمته في الحفل الذي انعقد بطهران وضمّ جمعاً من العلماء والأفاضل



أبو المجد وهو يلقي كلمته في الحفل الذي أُقيم في بيت المرحوم سيد محمد باقر الحجازي بطهران.

ويظهر من اليمين: السيد هادي الخسروشاهي، والسيد الحجازي، وآية الله سيد محمود الطالقاني، والشيخ خليل الكمرهاي، والسيد غلام رضا السعيدي



جانب آخر من حفل استقبال الوفد المصري الذي أُقيم في طهران العاصمة ويظهر آية الله الشيخ خليل الكمرهاي وهو يلقي كلمته ترحيباً بالوفد

وفي الصورة من اليمين: سيدهادي الخسروشاهي، آيةالله سيد محمود الطالقاني، السيد غلام رضا السعيدي، الدكتور أبوالمجد(مصر) والاستاذ بختياري‌نژاد

شيخ الأزهر الشريف
يزور الجامعة الإسلامية في قم المقدّسة

لأول مرّة في التاريخ المعاصر يزور الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الجامعة الإسلامية في قم المقدّسة.

إنّ هذه الزيارة الكريمة من صاحب الفضيلة الدكتور الشيخ محمد محمد الفحّام مع الوفد الديني المرافق له، كان لها الأثر الفعّال في تراصّ البناء لأُمة الإسلام، وفي تدعيم قواهم التي كادت تنهار؛ لما عانته من الشتات والتفرقة.

وإنّ لقاء زعماء من زعماء الدين ـ الشيعة والسنّة ـ وروّاد من روّاد العلم، وأعلام من أعلام الإسلام، لخطوة أُولىٰ، ونواة خير، تبشّر بالثمر اليانع الذي ينتظره عامة المسلمين الذين يعوزهم في سبيل نجاح مهمّتهم، وفوز قضيتهم، أن تتّحد كلمتهم على الحقّ، وأن يعملوا معاً في خدمة الدين وصالح المسلمين.

إنّ المسلمين في إيران، وعلىٰ القمّة منهم المراجع الدينية الكبار، ورجال الحوزة العلمية ـ في قم ثم في المشهد الرضوي ـ وأعضاء الجامعة الإسلامية، ليستقبلون هذه الزيارة ـ في هذه الآونة ـ بكلّ حفاوة وإجلال، وهم علىٰ ثقة بأنّ من وراء هذه الزيارة بشائر خير تبعث فيهم الأمل في نصرة الحقّ، وبثّ روح الأُخوّة بين أبناء محمد رسول الله ﷺ في ظلالٍ من الوحدة المنشودة.

إنّ الحقّ سبحانه ليمنّ بعميم لطفه على الضعف المستشري بين الصفوف إذا كانت النوايا علىٰ خير...

وما أجمل أن يلتقي أهل الحلّ والعقد في الإسلام، ليتعارفوا علىٰ بساط من الأُخوّة، وعلىٰ أساسٍ من الإخلاص للدعوة في سبيل ربهم!

وأن يتعاونوا ويتبادلوا الرأي علىٰ إيجاد أنجع الوسائل لحلّ المشكلة التي مني بها المسلمون، فيتمّ بذلك دحض الشرك، ورفع كلمة الحقّ والتوحيد!

كلمة الأُستاذ الكبير الشيخ محمد جواد مغنية

بسم الله الرحمن الرحيم

أهلاً بالإخوة المجاهدين، ومرحباً بحُماة ثغور الإسلام والمسلمين.

أهلاً بالشيخ الرئيس المعظّم سماحة الدكتور الفحّام، الذي أهّلته مكانته العلمية والأدبية لهذا المنصب الخطير: مشيخة الأزهر الشريف، ومرحباً برفاقه الأفاضل... وحيّى الله إخواننا المصريّين الذين صنعوا التاريخ جيلاً بعد جيل.

وليهنك يا رسول الله هذا اللقاء التاريخي العظيم بين قطبين كبيرين من أقطاب أُمتك، وقائدين كريمين من قاداتها...

وبورك لك يا سيّد الكونين بهذا الرمز الضخم إلىٰ تماسك المؤمنين برسالتك، وتعاونهم علىٰ مرضاة الله ومرضاتك...

ثم البشرىٰ لكم أيّها المسلمون، فقد تحقّقت الأُمنية التي تطلّعتم إليها منذ القديم، وتحوّل الحلم إلىٰ واقع.. الحمد لله.

إنّ هذا اللقاء التاريخي العظيم قد يتكرّر وقد لايتكرّر، ولكنّه علىٰ كلّ حال صدمة كبرىٰ لأعداء الإسلام والإنسانية، وطعنة نجلاء في قلوبهم، وقذىً لأعينهم، وقد كانوا من قبل يحسبونه ضرباً من المحال، وأشبه بالمعجزات.. وطالما وقفوا في طريقه، وصدّوا عن سبيله، ولكن صدق الرائد أهله، وتمّت المعجزة بصدق النيّة

المشتركة بين هذين الرائدين... الحمد لله.

إنّ أعداءنا ـ نحن المسلمون ـ يصفّقون طرباً لتنافر قلوبنا، وشتات أُلفتنا... إنّهم يعلمون علم اليقين أنّ فشلنا وهزيمتنا هي في تمزيق وحدتنا، لا في احتلال جزءٍ من أرضنا، وبالأصحّ في شعورنا بالعجز واليأس من جمع الصفوف، وتوحيد الكلمة، ومن أجل هذا سلكوا كلّ سبيل، وبذلوا جهد ما يستطيعون لكي يصلوا إلىٰ هذه الغاية، ولكن هذا اللقاء الميمون فوّت عليهم ما كانوا يأملون، وسيأخذهم ـ ولاشكّ ـ الجزع والقلق... عندما يقرأون أخباره في الصحف، ويسمعونها من الأذاعات... ولكن أنباء هذا الاجتماع تعيد السكينة والطمأنينة إلىٰ قلوب المؤمنين... الحمد لله.

وقد يبدو هذا اللقاء في نظر البعض نتيجة عاطفية لحرب حزيران... ولكنّه في واقعه إخلاص لدين الإسلام، وانسجام مع مبادئه التي تنادي بوجوب الوحدة بين أبنائه، وبالتعاون علىٰ ما فيه خير الجميع دنيا وآخرة.

نحن هنا معكم يا سماحة الرئيس، نمدّ يدنا إليكم، وإلىٰ كلّ من يبتغي الخير للمسلمين وللناس أجمعين، ونعاهد الله أن نظلّ حُماة صادقين لدينه، وحرباً علىٰ أعدائه، وحرّاساً يقظين لكلّ قرار يهدف إلىٰ الإسلام علىٰ أساس العدل، وردع المعتدي عن غيّه وضلاله.

نحن هنا مع جنود الله البواسل الذين يقفون وجهاً لوجه مع الصهاينة أعداء الله والإنسان... نحن هنا مع إخواننا المصريّين الذين عبّأوا طاقاتهم البشرية والمادّية ضدّ الاستعمار والصهيونية، وتلقّوا الضربة عن كلّ عربي ومسلم، وما فقدوا شجاعتهم وصدقهم في مواصلة الجهاد، وظلّوا شرفاء يدافعون عن الحقّ والعدل حتّى الموت، غير حافلين بأشواك الطريق وعقباته، وحاولت أعظم قوة في العالم أن تفرض عليهم العجز والاستسلام، فخاب ظنّها، وطاش سهمها... الحمد لله.

لقد أثبت المصريّون بصبرهم وتضحياتهم أنّ حرب حزيران مع الصهاينة كانت

هزّة لا هزيمة، هزّة تبعث على انتقاد الذات، وتطهير الأوضاع، لمن شاء أن ينتقد ذاته، ويطهّر نفسه من دنس الأغراض والشهوات...

وأيضاً أثبت المصريّون بقبول الوقف لإطلاق النار إلىٰ أمد، وبغير ذلك من الوسائل الحكيمة، أثبتوا للعالم كلّه أنّ الصراع بين العرب وإسرائيل ليس صراعاً على الأرض والحدود وكفىٰ... بل هو صراع بين مخطّط استعماري صهيوني لإضعاف العرب والمسلمين، وبالتالي لتهديد العالم بكامله، وبين قوة إنسانية ثورية تقف لهذا المخطّط العدواني بالمرصاد.

وقد شاءت الظروف أو الأقدار أن يقيم هذا المخطّط الصهيوني الاستعماري قاعدةً حربيةً عدوانيةً في بلاد العرب والمسلمين، وأن يزوّدها بشتّىٰ أنواع الأسلحة الحديثة وأمضاها.

وأيضاً شاءت الظروف أن تكون مصر هي القوة الرادعة المدافعة، وقد أدّت واجبها علىٰ أكمل وجه، وفوّتت على أعداء الله ثمرة العدوان ومكاسبه.

إنّ المنتصر هو الذي يملي شروطه على المنهزم، فهل أملت إسرائيل شروطها على العرب؟ وهل تعيش إسرائيل في أرض العرب آمنة مطمئنة؟

كلّا وألف كلّا... إنّها في حالة حرب دائمة، تنام في الملاجئ والمخابئ، وتجنّد من ابن ١٥ عاماً إلىٰ ابن ٥٥، وتستجدي السلاح من كلّ مكان، وتنفق على الحرب في كلّ يوم ٣ ملايين دولار! والفضل في ذلك لله، ولثبات المصريّين، ولمن جاهد في هذه السبيل بنفسه أو بماله.

وكان للإيرانيّين نصيب من هذا الجهاد، حيث ألّفوا اللجان لجمع الأموال، وافتتح المرجع الديني في قم حساباً خاصّاً في بعض البنوك لهذه الغاية، وتوالت التبرّعات، وأرسل مبلغاً محترماً من المال لمنكوبي الحرب، وأذاع على العالم الإسلامي بياناً باللغة العربية حذّر فيه المسلمين من الانشقاق والتخاذل، وناشدهم التضحية والوقوف صفّاً واحداً ضدّ العدوّ المشترك، وبيّن لهم أنّ المصيبة واحدة، والآمال

واحدة، ونشرت الصحف هذا البيان وأُذيع من بعض المحطّات.

وهكذا اختفت الفوارق المذهبية والقومية أمام العدوان الاستعماري الصهيوني، وفي ظلّ الأُخوّة الدينية، والأُمة الإسلامية... وهي الأمل المنشود لكلّ المسلمين في شرق الأرض وغربها.

ونكرّر: الحمد لله تعالىٰ، وهو سبحانه المسؤول أن ينصر الحقّ وأهله، وأن يعمّ السلام العالم كلّه علىٰ أساس الحقّ والعدل... إنّه خير مسؤول.

كلمة مختصرة للدكتور الشرباصي

وبعد أن أتمّ الأُستاذ مغنية إلقاء كلمته، وقد قوبلت بالاستحسان، علقّ الدكتور أحمد الشرباصي أُستاذ الدراسات العربية في الجامع الأزهر قائلاً:

إنّ أطيب وأحسن كلمة استمعتها هي كلمة (الحمد لله)... وهذه الخطوات التي نشرّف أنفسنا مع الإمام الأكبر لزيارتكم، لأجل أن نتعارف كعلماء، وأن نلتقي علىٰ الخير لننشر الإسلام باسم الإسلام.

محاورة ودّية

ثم توجّه سماحة المرجع الديني في قم إلىٰ فضيلة الإمام الأكبر الدكتور الفحّام قائلاً:

مرحباً بكم، نرجو أن يكون لهذا اللقاء نتيجة طيّبة، كما كنّا مشتاقين ومنتظرين لزيارتكم، ولأن يكون لذلك أثر حسن يعود صلاحه للمسلمين.

قال فضيلة الشيخ: نحن بشوق أشدّ، ويؤسفنا أن تكون الأوضاع قد حالت بيننا هذه المدّة من الزمان.

قال سماحة السيد: أودّ أن أذكر لكم ـ من باب التذكّر والاستفهام ـ أنّ مسألة الساعة اليوم هي اللادينية والإلحاد، وهي قضية مهمّة عالمية، قد اكتسحت جميع الأوساط في العالم الإسلامي وغيره، حتّىٰ أنّ كثيراً من الشباب بما هم عليه من

فراغ ديني بما يقتضيه الواقع الذي يعيشونه في مدارسهم ومعاهد تعليمهم، وفي المنتديات، وما يقرأونه من الصحف والمجلّات، وما يسمعونه من دور الإذاعات، قد تجرّدوا عن المفاهيم الدينية، واحتوشهم الاستذكار للمبادئ والمثل العليا، وضياع الإيمان. والإسلام وإن كان قوياً في واقعه، من حيث المبدأ، بيد أنّ المضاعفات الحالية تركت المسلمينَ وحَمَلَة الدعوة منهم ضعافاً من حيث التبشير، لما يفقدونه من وسائل في هذا المجال... فهل لديكم خطّة أو منهج في هذه السبيل يمكن أن تذكّرونا لنعمل معاً مشتركين في هذا الأمر؟

ومن جهة أُخرىٰ فإنّ الشباب بما هم عليه لايتقبّلون الدعوة، سواء أكانوا في البلدان الإسلامية أم في الخارج، فإنّ المرشدين لايؤثّرون فيهم كما نراه في بلاد إيران المسلمة، وكما نقل إلينا مبعوثونا في الخارج، وهذه مسألة يرجىٰ لها علاج بنظري إن أمكن وضع منهج دراسي ينسجم والمبادئ الإسلامية، يعمل على إلزام تطبيقه في المدارس، فهل لديكم نظر في بحث الطريق المجدية ضدّ هذه التيارات الإلحادية، والمحاولة علىٰ أن نظهر الإسلام علىٰ حقيقته التي شوّهها المغرضون؟

جواب فضيلة الإمام الأكبر

أمّا مشكلة الشباب فصحيح ما أمرتم، ليس الأمر منحصراً في شباب المسلمين، بل إنّما هو بلاء عام. فإنّ أمريكا بالذات تشتكي من فساد الشباب.

وأمّا مسألة الإلحاد، فإنّ الطريق الوحيد بنظري هو أن يطبّق المسلمون أنفسهم مفاهيم دينهم قبل كلّ شيء، ليمكنهم ذلك من الدعوة إلىٰ نشر فضائله.

واستشهد فضيلة شيخ الأزهر بالحادثة التالية:

لقد طلبت من بعض المستشرقين الفرنسيّين المتخصّصين في العربية والدراسات الإسلامية أن يزور بعض المساجد عندما زار القاهرة، ولمّا أخذته إلى مسجد الرفاعي بالقلعة، ورأي عظمة المصلّين أخذته رعشة ورعدة حتّىٰ خشيت أن يقع...

لقد أخذته روحانية المسجد... ولمّا سألته عن السبب قال: دخلت كنائس كثيرة، فما خشعت كما خشعت الآن حينما وجدت روحانية العبادة عندكم. وقال: درست كلّ شيء عن الإسلام، ولكن كما يقولون: الضيف يرىٰ من عيوب البيت ما لا يراه صاحب الدار.

قلت: ماذا رأيت من العيوب؟

قال: الواقع أنّ نظام الإسلام من أحسن نظم الحياة.. دين اجتماعي، اقتصادي، سياسي... ولكن العيب في المسلمين، فإنّهم يبدون صورة سريعة عن الإسلام، ولا يبدون للإسلام ماد!!

قلت: بعد معرفتك للإسلام، فما الذي يمنعك أن تكون مسلماً؟

قال: أنا مسيحي، ولكن ما صلّيت في كنيسة في عمري... وتأكّد أنّ كلّ من في (السوربون) لا يعتقد بالنصرانية!

إنّ الغربيّين لنضج عقولهم عندما تعرض عليهم مثل مسألة تعدّد الزوجات يقتنعون، وقد أسلم كثير منهم علىٰ أيدينا، وهم يقولون: كنّا نعرف كلّ شيء عن الإسلام.

ثم تكلّم فضيلة الدكتور الشيخ أحمد الشرباصي قائلاً:

إنّ مجيء فضيلة الشيخ إلىٰ هنا لهذا المعنىٰ، وليتبادل النظر في حلّ هذه المشاكل.

في المركز الإسلامي

وبعد فترة توجّه الوفد إلى زيارة المركز الإسلامي الذي غصّت قاعته بالمستقبلين، من العلماء ورجال الدين، والنخبة من الأفاضل في الحوزة العلمية.

وقد استعرض فضيلة الإمام الأكبر والوفد الكريم مرافق المركز وبعض أقسامه، خصوصاً المكتبة الضخمة التي اطّلع علىٰ بعض أجنحتها.

ثم توجّه نحو القاعة المكتظّة بالمحتفلين بمقدمه الكريم، ثم طلب فضيلة شيخ جامع الأزهر الشريف من الشيخ خليل الحصري شيخ المقارئ في مصر أن يعطّر الحفل بتلاوةٍ من الذكر الحكيم.

وبعد ما تمّت التلاوة التي اقشعرّ منها جلود المؤمنين، واطمأنّوا بـذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ تقدّم فضيلة الأُستاذ الشيخ الخاقاني أُستاذ الأدب العربي في المركز الإسلامي، فارتجل خطاباً ترحابياً، أخذناه ملخّصاً من آلة التسجيل:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ محمد وآله الطـاهرين وصـحبه الغرّ الميامين.

سيدي الإمام الأكبر الدكتور الفحّام..

سيدي آية الله المرجع الأعلىٰ..

سادتي أعضاء الوفد المرافق للإمام..

إخواني السادة العلماء... السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته..

أُتيحت لي فرصة شرف المثول، بأن أتقدّم باسم الجامعة الإسلامية في قم، وبالنيابة عن أساتذة الحوزة وطلّابها لأعبّر عن شعورهم بهذه المناسبة الكريمة، والفلتة الزمنية المباركة التي هيّأ الله تعالىٰ أشراطها، فالتقت قوى الايمان وعناصره تبشّر بالخير، وتدعو إلىٰ سبيل ربّها بالحكمة والموعظة الحسنة.

أيّها الضيف الكريم، أيّها السادة العلماء

إنّ الحوزة العلمية، بأساتذتها وطلّابها، ليرحّبون بهذه الزيارة الكـريمة، وبـلقاء هذين القطبين العظيمين، والعلمين الكريمين... اللقاء الذي كان يـتمنّاه كـلّ مسـلم غيور على القضية الإسلامية، وكلّ مؤمن تهمّه النصرة للدين، اللقاء الذي كان تتمنّاه القلوب المؤمنة والنفوس المطمئنّة بالله! في الوقت الذي يجب أن تنجمع القوىٰ بين المسلمين، وأن يتّحدوا كما أراد لهم، ورامه لهم دينهم.

إذ التفاهم والاتّحاد هما البذرة الوحيدة التي إذا تعاهدها المربّون زكت ونمت، وأثمرت القوة والمنعة والشكيمة، وحينئذٍ تنشر رايات النـصر. فـالنصر لايـتمّ إلّا

باتّحاد المسلمين، واتّحاد المسلمين لايتسنّىٰ إلّا باتّحاد زعماء دين المسلمين، الذابّين عن حرمات الدين... ليعملوا معاً علىٰ رفع راية الإسلام، والذود عن حياضه، والدفاع عن بيضته، بعدما اجتاح المجتمع الإسلامي ظلام من الغرب، وأحاط به لهيب من الشرق، وزرع في طريقه أشواك من الشرّ.. فاليوم يوم التفاهم والوئام، بين القادة الكرام...

أيها الضيف الكريم، أيها السادة العلماء

إنّ اخوانكم المسلمين في إيران عامةً، وأفراد الجامعة الإسلامية في مدينة قم بخاصّة، ليؤكّدون لكم بأنّهم معكم، لهم مالكم، وعليهم ما عليكم، علىٰ طول الخطّ في مسيرتكم ضدّ أعداء الدين، وضدّ الصهيونية وإسرائيل ومن أوجدها وأعانها، وضدّ الإلحاد والزندقة التي فشت بين المجتمعات، وضدّ التيارات الانحرافية..

إنّنا معكم علىٰ وفق ما تفرضه الأحكام الإسلامية والمفاهيم الدينية، فالمسلم أخو المسلم، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وأخال أنّكم لمستم ذلك من قريب، وثبت لديكم ما عليه الشعب المسلم في إيران من حبّ التضامن، والتعاضد في سبيل الدعوة الحقّة، والنصرة لدين الله الخالد علىٰ مرّ الزمان.

أيها الإمام الأكبر..

إنّ المركز الإسلامي هذا الذي يحتفل بمقدمكم الكريم لهو من المؤسسات التابعة للجامعة الإسلامية في قم، ومعهد عالٍ من معاهدها الكثيرة المتنوّعة علىٰ وفق ما يتطلّبه العصر الحديث، فشقّ طريقه في سبيل الدعوة، وقام بأعباء الرسالة حقّ قيام، لما خرج به إلى العالم من مناهج وثيقة، وبرامج شيّقة.

ولا أجدني مخالفاً لمقتضيات الأحوال عندما أضرب مثلاً عمّا قرّر فيه من مناهج وثيقة، وبرامج شيّقة: فإنّ بالاضافة إلىٰ العلوم الدينية «الكلاسيكية» والمعارف الإسلامية يفرض فيه تدريس الانجليزية، والأدب العربي، واللغة الأُردية، والعلوم الطبيعة الفلكية، وجغرافية البلدان الإسلامية، وفن الخطابة، وتدريس الفقه

علىٰ المذاهب الأربعة... إلىٰ غير ذلك من أُمّها العلوم التي تعين علىٰ القيام بالواجب الدعائي وفق متطلّبات العصر الحديث.

وأيضاً، فإنّه يصدر منشورات ومجلّات باللغات العديدة، كالفارسية والعربية والانجليزية والأُردية، والنشرات الانجليزية توزّع بالمجّان علىٰ أكثر الدول الأوربية والأمريكية!

والذي يلحظ من سلوك «المركز» المنهجي والقيادي، أنّه يرعىٰ التقارب بين المذاهب الإسلامية بصورة خاصّة، الخطوة المباركة التي يتمّ علىٰ وفقها النجاح، وعلىٰ ضوئها يمكن تحقّق النصر!

والذي يسترعي الانتباه أنّ هذه السنوات الثمانية التي مرّت علىٰ تأسيس هذا المركز وهو يؤدّي رسالته إنّما يقوم نفقاته المادّية جماعة من المؤمنين، يبذلون عليه بسخاء من مالهم الخاصّ لا غير، أو من الوجوهات الشرعية من الحقوق والمبرّات وممّا فرض الله على المؤمنين أداءه، من دون ارتباط بجهة من الجهات.

أيها الأُستاذ الأكبر:

إنّ الجامعة الإسلامية في قم ليبلغ عدد طلّابها سبعة آلاف أو يزيدون من مختلف البلدان؛ كالهند والباكستان وأفريقيا والأفغان والعراق وسوريا ولبنان والحجاز واليابان، ومن سائر بلاد إيران.. غير أنّ من المؤسف أنّ زيارتكم الكريمة صادفت العطلة الصيفية، وإلّا لكان الجميع ماثلين أمامكم، مغتنمين فرصة زيارتكم.

فنحن، باسمهم جميعاً، غائبين وحاضرين، أساتذة ومتعلّمين، لنرحّب بكم، وبالوفد المرافق لكم، وتحياتنا من أعماق القلوب عليكم، ونسأل الله تعالىٰ أن يكون لزيارتكم عطاء للإسلام مثمر، ونتاج للمسلمين وافر، في العاجل القريب إن شاء الله.

ونرجو إرسال المنهج القائم تدريسه في الجامع الأزهر الشريف لنستفيد منه في تكميل مناهج هذه المؤسسة، والله ولي التوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

خطاب الأستاذ الدكتور الشرباصي

ثم أمر الإمام الأكبر الفحّام فضيلة الدكتور الشيخ أحمد الشرباصي بأن يجيب الخطاب الترحابي، فألقىٰ كلمةً رائعةً:

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الحمد والصلاة:

سيدي سماحة آية الله المرجع الأعلىٰ...

أيّها الإخوة الأعزّاء...

بتكليف من صاحب الفضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد محمد الفحّام شيخ الأزهر الشريف، يسعدني ويشرّفني أن أقف بينكم لأتكلّم كلمةً قصيرةً وجيزةً.

لا أحاول أبداً في هذه الكلمة أن أُضيف شيئاً من العلم أو المعرفة، مع تمام العلم بأنّي أقف بين جمهرةٍ من العلماء الأجلّاء الذين يبلّغون كلمة الله، ويدعون إلىٰ سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادلون بالتي هي أحسن، وإنّما هو واجب الشكر علىٰ ما لقينا وشعرنا به خلال رحلتنا إلىٰ هذه الأرض الإسلامية التي نودّ أن تزداد صلتنا بها، والزيارة لها كرّة وعودة حتّىٰ نقضي حقّ الرحم في الإسلام، فالعلم رحم بين أهله، والأُخوّة في الله رحم أيضاً.

وأودّ أن أبدأ في هذا الواجب أن أُعرّف حضراتكم بإخوانكم وأشقّائكم أعضاء الوفد القادم إليكم من بلد الأزهر الشريف، بلد آل بيت النبي الطاهر، عليهم ألف تحيّة وألف سلام، لأنّي اعتقد، كما أرجو أن تشاركوني في هذا الاعتقاد، أنّ تعارفنا الشخصي من الخطوات المهمّة التي ينبغي أن نألفها، حتّىٰ نزداد تعارفاً.

إنّ الوفد القادم من بلد الأزهر الشريف، أرض كنانة الله في أرضه، يرأسه الشيخ

الأكبر الدكتور محمد محمد الفحّام، ومعه وفد يتكوّن من أربعة أشخاص:

١ ـ فضيلة الأستاذ الشيخ عطية صقر، مدير الوعظ في الأزهر الشريف.

٢ ـ فضيلة الشيخ محمود الحصري، شيخ المقارئ في جمهورية مصر العربية.

٣ ـ السيد الأُستاذ محمد محمد محمد الفحّام نجل فضيلة الإمام الأكبر وسكرتيره الخاصّ في إدراة الأزهر.

٤ ـ وآخر هؤلاء المتشرّف بخطابكم الدكتور أحمد الشرباصي الأُستاذ بجامعة الأزهر.

أيها الإخوة الأعزّاء

أمّا الذي قصد من وراء هذه الرحلة:

إنّ أقلّ ما يقال في هذه الرحلة أنّها حقّ لواجب الأُخوّة في الله. فإذا كان الحقّ تبارك وتعالى قد قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فأول واجبات هذه الأُخوّة أن يعرف الأخ أخاه، وأن يتزاور هؤلاء الإخوة في الله.

وإذا كانت أحداث الحياة قد حالت بيننا وبين التزاور زمناً، فإنّ من شأن المسلم أن ينتهز الفرصة للمبادرة إلى الخير، ليفتح طريقه إلىٰ قطف الثمرات الطيّبة من وراء طريق الخير.

فما كاد الباب يفتح في طريق الأزهر الشريف حتّىٰ سعىٰ إلىٰ هذه الأرض الطيّبة الإسلامية، لتتمّ العلاقة بين الجامعة الإسلامية في مصر والجامعة الإسلامية في إيران الإسلامية.

وأنا أتذكّر ما ينسب إلىٰ رسول الله ﷺ: «إنّ العلماء وَرَثة الأنبياء» ورثوا هذا الدين بمبادئه وتعاليمه، ورثوا الدين بفقهه وعلمه، فهم الحرّاس عليه، ويجب أن يكونوا كذلك، وهم الدعاة إليه، وهم يدعون إليه أول ما يدعون بالقدوة الطيّبة الحسنة، وإمامهم في ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فإذا كان رسول الله ﷺ يقول: «إنّما مثل المؤمنين في

توادّهم وتعاضدهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمّى» فإنّ أحقّ الناس بهذا التسالك، والتزاور والتآخي، أولئك الذين ورثوا النبوات في فقهها وعلمها وتآخيها.

إنّ أنبياء الله ورسله صلوات الله عليهم قد ضربوا لنا المثل في التكاثر والتظافر، فما من نبي جاء من الله برسالةٍ إلّا وهو يضيف خطوة إلهية على الأرض، تتكاتف مع خطوة سبقت من نبي سابق، ثم جاء النبي الخاتم الجامع، جاء رحمةً للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ وإذا هو يؤيّد هذا التعاون، وإذا هو يؤيّد هذا التعاضد، وإذا هو يقول: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كرجل بنىٰ داراً فأتمّها وحسّنها إلّا موضع لبنة، فجعل الناس ينظرون ويقولون ما أحسن هذه الدار لولا موضع هذه اللبنة! فأنا هذه اللبنة، وأنا خاتم النبيّين».

ولست بحاجة إلىٰ تفصيل القول في هذا النصّ النبوي الكريم، فأنتم أعلم منّي وأخبر، وإنّما ألمّح فيه معنىً واحداً: إنّ خاتم النبيّين وسيد المرسلين أراد أن يؤكّد فينا معنى التعاضد والتضامن، والتكاتف والتعاون، فمثّل نفسه بجزء صغير من بناء كبير تواضعاً منه، وهو الذي فضّله ربّه، وهو سيّد الأولين والآخرين، ورفع ذكره في الأولين والآخرين.

من أحقّ الناس الذي يقتدي بهذا الهدى الكريم، وهو التكاتف والتعاضد والتلاقي على الدعوة بالله هم ورثة الأنبياء... أنتم يا منار الطريق، ويا روّاد الإنسانية الحائرة الآن!

هذا المعنى الأساسي هو الذي دعا بالإمام الأكبر فضيلة شيخ الجامع الأزهر إلىٰ أن يزور إخوةً له وأبناءً في إيران..

وما أجمل أن يلتقي علمان في أعلام الاسلام، ومفكّري المسلمين، وأن يتشاورا فيما بينهما! قال تعالىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

وإنّا لنرجو من وراء هذا اللقاء الذي نشهد أُولىٰ ثمراته الآن أن يعقب خيرات

كثيرة، وأن تتكرّر هذه اللقاءات، وتلك الزيارات.. هنا في هذا المركز، وهناك بالأزهر الشريف، وفي غيرهما من مناطق العلم الديني والدعوة الإسلامية، ليصبح المسلمون أمةً واحدةً كما أراد لها ربّها ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.

أيها الإخوة.

نحن في حرب دائم اليوم، إنّنا نغزىٰ في كلّ ناحية من نواحي الحياة...

نغزىٰ بعقيدتنا بانتشار هذا الإلحاد المجرم!

نغزىٰ بديارنا بهذا الاستعمار الصليبي والصهيوني..

نغزىٰ في قيمنا ومبادئنا بهذه المدنية والحضارة الطارئة علينا!

نغزىٰ في كياننا، في تفرّق صفوفنا وتمزّق كياننا، ونحن أحوج ما نكون إلىٰ أن نتجمّع أولاً كعلماء للمسلمين، ثم ثانياً كمسلمين، ثم ثالثاً كدُعاة للخير، فنربّي أنفسنا كعلماء لنكون قدوةً وأُسوةً، ثم نربّي أبناءنا كصفوف خلفية من ورائنا، ثم نبشّر بدعوتنا بين أبنائنا وفتياننا لننقذ الجموع الكثيرة من المسلمين، لأنّنا نعاني الآن بأنّ أبناءنا وذرّياتنا لاتنشأ علىٰ مبادئ الإسلام وقيمه بحكم المؤثّرات من مبادئ التربية الماديّة والحضارية الغربية، وعلىٰ هذا نبلّغ هذا الإسلام إلى العالمين ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

إنّني عندما أسمع من الأخ الكريم أنّ هنا سبعة آلاف من طلّاب المسلمين يتلقّون العلوم الإسلامية، وما يتّصل بها من علوم أخرىٰ، تملؤني الغبطة، وأُعبّر عن شعور الإمام الأكبر عندما أقول: إنّ هذا يشرح صدره بالخير والأمل والرجاء.

ونتذكّر أنّ لكم شقيقة هناك، وهي جامعة الأزهر الشريف أيضاً يصل إليه آلاف من أبناء المسلمين في الأرض.

وإذاكان الأخ الكريم يطلب منهاج جامعة الأزهر، فإنّ هناك منهاجاً لجامعة الأزهر، ومنهاجاً للمعارف الدينية الإسلامية للأزهر، ومنهاجاً للبحوث الإسلامية في الأزهر، ومنهاجاً للمعاهد الإسلامية في الأزهر، ومنهاجاً لمجمع البحوث الإسلامية في الأزهر.

واعتقد أنّ من واجب الأزهر أن يبلغكم هذا المنهاج، ولست أدري كيف بقي هذا المنهاج من دون تبليغ إلىٰ مثل هذا المركز الذي سعد الإنسان عندما سمع هذه الأمثال الطيّبة عنه وعن علمائه، وأبنائها وطلّابه!

وإنّا لنرجو أن توضع اليد المؤمنة في اليد المؤمنة مع الأيدي المؤمنة في الشرق والغرب، بلا غرض أو مرض، وإنّما لهدفٍ واحدٍ هو أن تعلو كلمة الله دائماً، وتنخفض كلمة الشرك ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

إخوتي الأحبّاء:

لم أكن علىٰ علم بأنّي سأتكلّم بينكم، ولكن أمر الإمام الأكبر عرضني لذلك الموقف، وأرجو أن تكون هذه الزيارة فاتحة لزيارات، ليتحقّق من ورائها خيرات وبركات، لفائدة الإسلام وخير المسلمين.

شكر الله لكم، وثبّت أقدامكم علىٰ طريق الحقّ، وجمعنا وإيّاكم علىٰ كلمة الله عزّ وجلّ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

الهدف من زيارة الإمام الأكبر لجامعة قم المقدّسة

إنّ زيارة الإمام الأكبر لجامعة قم المقدّسة، وزيارة المشهد الرضوي والجامعة الإسلامية في خراسان، ولقاءه مع المرجع الديني آية الله السيد محمد هادي الميلاني، وجمع غفير من علماء الشيعة هناك وثم علماء طهران العاصمة ومراكزها الدينية، كانت ترمي إلىٰ هدفٍ أبعد من المجاملات، وتبادل العواطف الإخوية على مستوىً فردي شخصي، إذ هي تعني أُموراً كثيرة تعود كلّها بالمصلحة على المسلمين، وحفظ بيضة الإسلام.

فليست الزيارة بمعزلٍ عن الأُمور الجوهرية المتّصلة بالقضية الإسلامية، إنّها لفتة نبيلة بدأ بها فضيلة الدكتور الشيخ محمد محمد الفحّام ومن بصحبته من العلماء، ليوطّدوا أواصر الأُخوّة علىٰ مستوىً إسلامي شامل، وليوثّقوا عرى الرابطة الإسلامية بين المسلمين. وكان التجاوب التامّ بين الضيوف الكرام وممثلي جامعة قم من العلماء، يبشّر بنتائج طيّبة مأمولة.

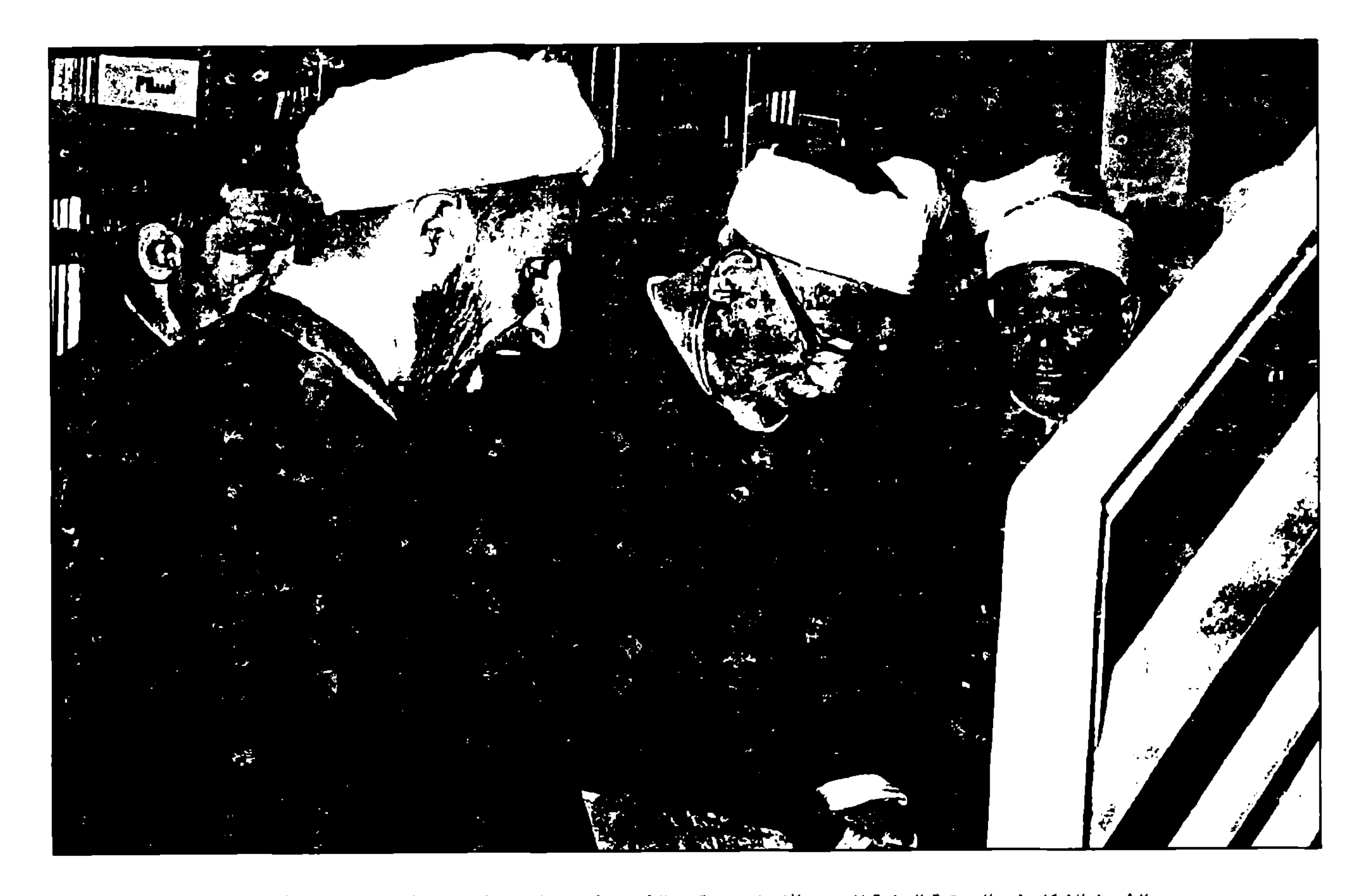
إنّ زيارة الإمام الأكبر هذه، تعني زيارة جامعة إسلامية كبرىٰ في مصر لجامعةٍ إسلاميةٍ كبرىٰ في ايران، لتوحيد الهدف في سبيل الوحدة الإسلامية، وتلاقي العناصر العاملة من أجل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل. وإنّها لخطوة مباركة في سبيل الاتّحاد والاتّفاق والتضامن، وصلاح المسلمين والتوفيق بينهم.

وليست هذه المصلحة الدينية بمقتصرة علىٰ مذهب دون مذهب، بل بركتها وخيراتها تعمّ وتشمل جميع الطوائف الإسلامية على السواء، ويتّضح ذلك بعد ملاحظة أنّ الأُسس الأُولىٰ لجميع تلك المذاهب والطوائف هي واحدة، ومن الواجب تقديم المصلحة الإسلامية العامّة علىٰ ما يفصل بين الطوائف الإسلامية من جزئيات وفروع يختصّ بها مذهب دون آخر، ممّا لايصحّ بحال أن تكون مدعاةً لفرقةٍ، أو سبباً لانشقاقٍ، بعدما أصبح من الواضح المعلوم أنّ أعظم ما مني به المسلمون هو شتات رأيهم، وتشتّت كلمتهم!

ونحن ـ في هذه العجالة ـ إذ تقدّم لمحات خاطفة عن زيارة الإمام الأكبر الفحّام لأضخم جامعة إسلامية للطائفة الإمامية في إيران، ولقائه بالمراجع الدينية والعلماء، وتفقّده لبعض المعالم الدينية.. نأمل أن يكون لذلك أثره الفعّال في جمع الكلمة، والخدمة للإسلام الذي أصبح غريباً في عصرٍ تنكّر أهله للمفاهيم الخلقية، وابتعدوا عن القوانين الإلهية، وظهرت البدع الزائفة، ما يدفع بالعلماء وروّاد الفضيلة إلى التكاتف فيما بينهم، ليكونوا في الطليعة من موكب الجهاد المقدّس.



الشيخ الدكتور محمد فحام شيخ الأزهر الشريف في قم، وفي اليمين العلّامة الشيخ محمد جواد مغنية، وفي اليسار آية الله الشيخ مجتبى العراقي



الشيخ الفحّام في المكتبة العامة للمركز الاسلامي بقم والشيخ شمس الدين في تعريف بعض المخطوطات

وفد من علماء طهران يزور القاهرة ومشيخة الأزهر الشريف

وفي عام ١٣٩٢هـ، أي بعد سنتين تقريباً، قام وفد من علماء طهران لزيارة القاهرة ومشيخة الأزهر الشريف، وكان على رأس الوفد بعض علماء طهران منهم: آية الله الخسروشاهي، آية الله الشيخ محمد واعظ زادة، وحجة الاسلام والمسلمين الشيخ محمد علي چرندابي. وقد التقوا أولاً بالشيخ العلّامة عبدالعزيز عيسى مساعد رئيس جامع الأزهر آنذاك، وأعضاء بارزين في دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ثم بالشيخ الدكتور محمد محمد الفحّام، شيخ الأزهر الشريف.

وكان للقاء الوفد مع الشيخ آثار إيجابية ومفيدة، وقد خاطب شيخ الأزهر مساعده الشيخ عبدالعزيز عيسى قائلاً ما نصّه: كلّ مرة أنا أزور علماء من إخواننا الشيعة أجد فرحاً وسروراً في قلبي، وأحسّ أنّهم في قلبي، حيث أرىٰ نوراً في وجوههم، يذكّرني بالآية الكريمة ﴿سِيَماهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ وهذا إن دلّ على شيءٍ فإنّما يدلّ على علمهم وتقواهم، ونور الإيمان في قلوبهم.

ثم أضاف: أنا زرت إيران والتقيت بالمراجع الدينية في قم وخراسان وطهران، فوجدتهم علماء كبار، وفقهاء عظام، يهتمون بأُمور المسلمين، لا في إيران فقط، بل في كلّ العالم الاسلامي... وهذا ممّا يؤكّد لنا أن نقوم بإرساء قواعد التقريب بين المذاهب الاسلامية...

ثم ألقىٰ آية الله السيد هادي الخسروشاهي كلمةً أيّد فيها الشيخ فيما قاله، وأكّد بأنّ علماء الشيعة في إيران والعراق على استعداد تامّ ليقوموا بدورهم في إرساء قواعد التقريب، والتعامل مع كلّ المذاهب الاسلامية... وكان هناك نقاش هادئ حول بعض المسائل الفرعية ـ الفقهية، مثل السجدة على التربة، والجمع بين الصلوات وغيرها... وكان لهذا النقاش العلمي تأثير في تبيين وتوضيح الأدلّة الفقهية...[1].

---

١. راجع مقدّمة: «ديدارى از الأزهر، گفتگوى آية الله خسروشاهى با علما الأزهر» نشرة مدرسة الشيخ عبدالحسين بطهران.



الوفد الإيراني في القاهرة

من اليمين: آية الله الشيخ محمد واعظ زادة، الشيخ عبدالعزيز عيسى، الشيخ محمد علي چرندابي، الشيخ الدكتور محمد الفحّام (شيخ الأزهر) وآية الله السيد هادي الخسروشاهي.

ملحق رقم (٤)

تقرير عن الندوة الأُولى

للتقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة

تقرير عن: الندوة الأولى
للتقريب بين المذاهب الاسلامية

القاهرة: ربيع الأول ١٤٢٢هـ/يونيو ٢٠٠١م

لقد استمرت «دار التقريب بين المذاهب الاسلامية» منذ نشأتها عـام ١٩٣٧م وتأسيسها بالقاهرة في أواخر الأربعينات[١] من القرن الماضي، في أداء رسالتها، وأكّد رجالها إفناء ذواتهم في العمل الصـامت الدائب لرفـع شأن المسـلمين، وبثّ روح المودّة والتراحم بين طوائفهم، ولمّ شملهم، وإزالة ما قد يكون بينهم من نزاع، عملاً بقوله تعالى: ﴿إنّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[٢] صدق الله العظيم.

وأنّه ليحقّ للمسلمين أن يفخروا بأنّهم كانوا أسبق من غيرهم تفكيراً وعملاً في تقريب مذاهبهم وجمع كلمتهم، ولا شكّ في أنّ أمر الأمة الاسلامية الآن لا يصلح مع الاحتفاظ بالعصبيات والخلافات، وإحياء ما مضىٰ من ضغائن وعداوات، في أعماق التاريخ.

وبديهي أنّ الخلاف الفقهي بين المدارس والمذاهب الاسلامية، ليس ممّا تشتغل

---

١. كان من بين المؤسّسين: الإمام الأكبر عبدالمجيد سليم والإمام الأكبر محمود شلتوت ـ وقد تولّيا منصب مشيخة الأزهر ـ والشهيد الشيخ حسن البنّا، كما كان منهم: الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء من العراق، والشيخ عبدالحسين شرف الدين الموسوي من لبنان، وفضيلة الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين. وكان أول من دعا إلى هذه الفكرة وتأليف هذه الجماعة هو سماحة الشيخ محمد تقي القمي.

٢. الأنبياء: ٩٢.

أو تنظر فيه العامة، ولانعني هنا بالعامة: العوام! وإنّما نعني كلّ من لايهتم بمعرفة فقه المذاهب، وهم معظم القارئين الكاتبين، وفي زمننا هذا معظم المثقّفين المتعلّمين، والخلاف المذهبي لايمكن أن يصل إلى العوام والجهلاء والدهماء، إلّا عن طريق الدعوة والدعاة، ولايصل إليهم عادةً إلّا بعد أن يفقد كل ما فيه من فكر وفقه، ويتحوّل أكثره إلى دعاوىٰ عريضة ساذجة، واتّهامات صارخة منكرة.

والفكر الاسلامي شأن كلّ فكر مفتوح الأبواب، وقد مارسه الخيّرون في نزاهة وحسن قصد واحتياط وتحرٍّ للصدق ما وسعهم، كما مارسه المفسدون واستغلّه ذو المصالح والأهواء.

وقد لابست مدارس الفكر الاسلامي من قديم في كثير من بلاد المسلمين، عصبيات تجمّعت حولها طوائف من الناس، جعلت في ظلّ الانتماء إلى هذه المدارس والمذاهب الاسلامية، تتناحر على أسباب الرزق والجاه، وعلى النفوذ السياسي والاجتماعي. فلم يعد الخلاف بين هذه العصبيات خلاف بين فكر وفكر، وفقه وفقه، وإنّما صراع على النفوذ والقوة بين مصالح سياسية واقتصادية واجتماعية، لايهمّها خير الاسلام، تختفي وراء عداوة جاهلة سافرة، تذكىٰ نارها باستمرار بين الكلّ، المنتمين إلى هذا المذهب أو ذاك!

ولقد تداول الناس في بلاد الاسلام، تلك الدعاوىٰ والاتّهامات الكاذبة عن طوائفهم جيلاً بعد جيل، قروناً وأحقاباً، حتّى اختلطت بعواطفهم وتفكيرهم، وصارت جزءاً من عقليتهم وسلوكهم، يستغلّه ذوي الأغراض، ويستخدمه أعداء الاسلام في محاربة الاسلام.

وهذا الاعتياد القديم، على تبادل العداوات، بعد أن جرّ على المسلمين الويلات في الماضي، يوشك في الظروف الحرجة التي يمرّ بها العالم الاسلامي الآن أن يعصف بنا، فضلاً عمّا نواجهه من الخطر الخارجي من حولنا. فسياسة الدول والأُمم في العالم اليوم، قائمة على التكتّل والتحالف والانضواء في مجموعات متعاونة،

يسند بعضها بعضاً، فمن الخير لنا أن نتضامن ونتّفق ونتكتّل.

وتحاول «دار التقريب» جاهدة، محاربة هذا الاعتياد الماكر المخادع واقتلاعه وإزالته بتعويد عامة أهل المذاهب الاسلامية على اختلافها: كفّ أذى بعضهم عن بعض في السرّ والعلن، وتبادل حسن المعاملة والتواصل والاشتراك والتعاون في السر والعلن، وإقناعهم بأنّهم جميعاً، ليس بينهم أيّ خلاف في الأُصول والأساسيات: إلههم واحد، وكتابهم واحد، ونبيهم واحد، وقبلتهم واحدة، لايختلفون علىٰ أيّ ركنٍ من أركان الإسلام، وإفهامهم أنّ هذا القدر المجمع عليه بينهم، هو «جوهر الإسلام» ورأس مال المسلم، أيا كان مذهبه.

رحم الله المغفور له الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق حين نبّه المسلمون في فتواه التاريخية[1] في شأن المذاهب الاسلامية بأن يتخلّصوا من العصبية بغير الحقّ لمذاهب معيّنة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكلّ مجتهدون مقبولون عند الله تعالىٰ.

وكان لتلك الفتوى وما زال ـ والحمد لله ـ أثرها الطيب بين علماء المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها.

وبهذا الفهم الصحيح للدين الحنيف والذي رأت معه «دار التقريب» أنّ من واجبها نشره وتعميمه بين الناس على اختلاف مذاهبهم بسلسلة من الندوات، فأجرت اتّصالاً «بالمجلس الأعلى للشؤون الاسلامية» ثم بمؤسسة «الأهرام» لترتيب ندوة حول التقريب بين المذاهب الاسلامية، والتي رحّبت بالفكرة، وعهدت للاستاذ الكبير محمود مراد بإدارتها، وفي ذكرى المولد النبوي الشريف وبحضور كوكبة من كبار علماء المسلمين من أهل السنّة والشيعة، عقدت هذه الندوة بالقاهرة في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ألف وأربعمائة واثنين وعشرون للهجرة النبوية الشريفة ١٤٢٢/٣/١٢هـ الموافق الرابع من شهر يونيه، سنة ألفان وواحد للميلاد

---

١. انظر صورة الفتوى في ملحق الوثائق.

٢٠٠١/٥/٤م وذلك بعد انتهاء أعمال المؤتمر الاسلامي العالمي الثالث عشر حول «التجديد في الفكر الإسلامي» وفيما يلي بعض مقتطفات ممّا قيل في الندوة:

● الإمام الأكبر فضيلة الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوي (شيخ الازهر): التقارب بين المذاهب الاسلامية من الأُمور الواقعة، لأنّ الخلاف ليس في ركن من أركان الدين، ولا في أصل من أصوله، وأنّما قد توجد خلافات بين أصحاب المذهب الواحد، ولكنّها خلافات في أُمور فرعية اجتهادية.

● آية الله سماحة الشيخ محمد علي التسخيري: لانريد أن تذوب المذاهب، فهي إضافات عظيمة تظهر الفكر الاسلامي، ولانريد تغليب مذهب علىٰ مذهب، فلاتغليب ولاتذويب، وإنّما هناك تقارب لتحقيق تفاهم أكبر، وإنّ الدعوة للوحدة إنّما هي دعوة لوحدة الموقف العملي مع اختلاف الأفكار، وهذا أمر طبيعي...

وأبدىٰ ملاحظةً حول تحوّل إنسان من مذهب لآخر، فالتقريب لايشجّع على التحوّل، لكنّ المشكلة في تصوّره هي النظرة السيّئة لاتّباع هذا المذهب الى المذهب الآخر، على أنّه إنسان خارج على الدين!! وأنّ ثقافة التقريب يجب أن ترسل إلى الجماهير، أي إلى أتباع المذاهب، وهي الجماهير.

● معالي الدكتور محمد حمدي زقزوق (وزير الاوقاف): يرىٰ ضرورة أن يكون هناك حوار إسلامي ـ إسلامي، وأنّ القضية ليست قضية خلاف بين المذاهب الفقهية، لكن هناك شيئاً ما يباعد بين أبناء الأمة، فالصراعات التاريخية التي حدثت في الماضي ليس للاجيال الحالية أيّ دخل فيها، والقضية في منتهى الخطورة، فالعالم يتجمّع ويتكتّل، والمسلمون لايزالون متفرّقون، ولايدركون خطورة الموقف في العصر الحاضر: عصر العولمة، والخلاف في وجهة النظر إثراء للفكر الاسلامي، وليس شقاق ونزاع، وهو مطلوب، ومطلوب بجانبه التسامح...

وشدّد علىٰ أنّ التقريب هو مسؤولية علماء الدين ومفكّري المسلمين، وعليهم أن يقوموا بواجبهم من أجل تثقيف العقول وتنوير الأذهان، وتوضيح معالم الطريق،

وإقرار التسامح، وأنّه لا خلاف على أيّ شيء من الأصول القطعية في الاسلام بين السنّة والشيعة، فلماذا الاستمرار في تعميق الخلافات؟؟

● فضيلة الشيخ أحمد بن مسعود السيابي: ٩٠٪ من أتباع هذه المذاهب الاسلامية هم عوام! تأخذهم العاطفة بالانتساب إلىٰ مذهبهم، بحيث لايقبلون أيّ قول آخر، وبالتالي يحدث التنابز بالألقاب! فالتخلّي عن الألقاب المذهبية هو من أولويات الوحدة الاسلامية.

● سعادة سفير ايران «في القاهرة» آية الله سيد هادي الخسروشاهي قال: إنّ الخلاف في الواقع ليس في الأُصول، أمّا في الفروع فهذا أمر اجتهادي، وهو إثراء للثروة الفكرية الاسلامية. وطالب بأن تكون هذه الندوة بدايةً لندوات أخرى عن التقريب بين المذاهب الاسلامية، وأشاد بالدور الخاص الذي كان لمجلة رسالة الإسلام في دعم وتقوية العلاقات بين كلّ الدول الاسلامية في ظلّ ما يمرّ به العالم الاسلامي من تحدّيات.

● فضيلة مفتي جمهورية مصر العربية الدكتور نصر فريد واصل: التقريب المقصود، هو التقريب بين الأتباع الذين ينتسبون إلىٰ هذه المذاهب الاسلامية. وأشاد بدور العلماء، وأنّ أتباع هذه المذاهب هم الذين فرّقوا بين الشريعة والعقيدة وبين المذهب كمذهب مستقلّ، وطالب التقريب بين أتباع هذه المذاهب، وبخاصّة بين علمائها، وقال فضيلته: إنّ العلماء بأقوالهم، وليس بأفئدتهم!

● فضيلة الشيخ محمود فرحات (لبنان): الخلاف المذهبي في الإسلام بدأ سياسياً، واستغلّ سياسياً، واستثمر كذلك حتّى تضخّم.

● آية الله الشيخ محمد واعظ زادة: إنّ وحدة الأمة تعتبر من أهم فرائض الله علينا، فهي تضع الأمة في المنزلة المناسبة لها بين الأمة. فالبحث في دعامة عزّة الأُمة ضروري، لأنّه ليس في اختلاف الأُمة وتفرّقها سوى الخذلان والخسران.

● الأُستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم (رئيس جامعة الأزهر): هذا اللقاء من أهمّ اللقاءات، لأنّه في هذه المرحلة التي تمرّ بها أُمتنا في أمسّ الحاجة إلى التقريب، بل

إلى توحيد الصفّ ومصادر التشريع، لا خلاف عليها بين السنّة والشيعة، والتقريب يحتاج إلىٰ حسن نوايا، وحسن ظنّ، وعدم جمود أو تعصّب، وهو موجود والحمد لله. وطالب المسلمون أن يكونوا علىٰ قلب رجل واحد.

● واختتم فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الندوة بقوله: أنّنا كلّنا مسلمون متقاربون، لأنّ التقريب هو الأصل، ولايوجد بيننا أيّ تباعد إطلاقاً.

❋ ❋ ❋

وبعد، فتلك كانت ندوة التقريب بين المذاهب الاسلامية الأُولى، والتي سيعقبها ندوات لاحقة «إن شاء الله» في بعض البلاد الإسلامية، أو في الدول التي تضمّ جاليات إسلامية كبيرة، ولها وزنها وتأثيرها.

وأجمع الحضور علىٰ عدم وجود أيّ اختلافات في الأُصول بين المذاهب الاسلامية الممثّلة في الندوة، وأنّ الخلافات إنّما في المسائل الفرعية أو بعض المسائل النظرية، وفي قضايا ليست من أُصول الدين، ولا من الأركان الثابتة في إيمان المؤمنين، وأنّ المسؤولية تقع علىٰ عاتق العلماء ورجال الدين، بما يجب عليهم أن يقوموا به من تبصير الأمة الاسلامية في مختلف الشعوب والطوائف، بعواقب هذا التفريق الخطير، والعمل علىٰ تبصير المسلمون بدينهم، وقطع أسباب الخلاف والتفرقة بينهم.

والشكر كلّ الشكر لمن ساهم علىٰ إنجاح هذه الندوة من السادة علماء المسلمين الأفاضل، الذين لبّوا دعوة «دار التقريب» واشتركوا في الندوة.

﴿ربّنا آمنّا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾

صدق الله العظيم

عبدالله محمد تقي القمي

سكرتير عام دار التقريب بين المذاهب الاسلامية

رجب عام ١٤٢٢هـ القاهرة



وفد من علماء مصر ولبنان وعمان

وهم من اليسار إلى اليمين: الشيخ فرحات، الشيخ فريد واصل نصر (مفتي مصر)، محمود مراد، الشيخ محمد طنطاوي (شيخ الأزهر)، الدكتور محمود زقزوق (وزير الأوقاف)، الشيخ السيابي (مسقط)



وفد علماء إيران في ندوة القاهرة

وهم من اليمين: الشيخ محمد علي التسخيري، الشيخ محمد واعظ زادة، السيد هادي الخسروشاهي، عبدالله محمد تقي القمي، علي المؤمن

لقاءات مستمرّة في القاهرة

وأجدني مضطرّاً الى القول بأنّ اللقاءات المستمرة التي كانت تتمّ بيني ـ بصفتي رئيس الهيئة الدبلوماسية الإيرانية في القاهرة ولمدة ثلاث سنوات متتالية ـ وبين شيوخ الأزهر الشريف، وعلى رأسهم الإمام الأكبر الدكتور سيد محمد طنطاوي شيخ الأزهر الشريف، والمفتي الدكتور فريد واصل نصر، ثم المفتي الدكتور الشيخ أحمد الطيب، ثم المفتي الدكتور الشيخ علي جمعة، والدكتور حمدي زقزوق وزير الأوقاف، والحضور في ندواتهم الرمضانية ـ مؤتمر الفكر الاسلامي ـ في ساحة مسجد سيدنا الحسين عليه السلام، والجلسات الخاصّة التي ندعى للاشتراك فيها، كجلسة رؤية هلال شهر رمضان المبارك، والتي يشترك فيها كبار العلماء ورجال مصر والسفراء الإسلاميين، أو جلسة إهداء الجوائز القرآنية و...، كان لها آثار واسعة في بسط الدعوة الى التقريب، رغم كلّ المحاولات العدائية من المتربّصين بالإسلام والمسلمين، ونشرهم الأكاذيب عن قول الشيعة ضدّ السنّة، وعن قول السنّة ضدّ الشيعة، منها كتاب: الجذور اليهودية للشيعة للشيخ عبدالمنعم البري، وكتب أخرىٰ عدائية فارغة، وغير مقبولة عند الشيعة، والصادرة من قبل الجماعة السلفية المصرية!

بيد أنّ اللقاءات الإخوية والعلمائية بيني وبين كبار العلماء، وخاصّةً الإمام الأكبر شيخ الأزهر، قد أبطل كلّ المحاولات والمؤامرات العدائية... بحيث أنّ مرةً ـ في لقائي الآخر ـ قال لي: نحن نعترف بأنّ الشيخ السيد هادي الخسروشاهي هو ممثّل عن الشيعة في مصر، ويا ليت كان مدّة وظيفته الإدارية ثلاثين سنة، عوضاً عن ثلاث سنوات!

ونحن نرحّب بدورنا بموقف شيخ الأزهر بالنسبة للشيعة، ونكبّره في جهوده الجبارة في إحياء فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية.

وهنا نأتي بوثيقة جاءت في جريدة صوت الأزهر[١] الناطقة باسم الأزهر الشريف، عن لسان الشيخ الكبير، ووثيقة أخرىٰ، عن مفتي مصر، جاءت في جريدة الدستور المصرية، وهذه نصّهما:

في تصريحات خاصّة لـ«صوت الأزهر»...

الإمام الأكبر: لا فرق بين السنّة والشيعة ومن يحاول التفريق بينهما مأجور

الشيخ محمود عاشور: الاستعمار يشكّل نفسه لتفتيت وحدة الأمة الإسلامية

في تصريحات خاصّة لـصوت الأزهر قال فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر: إنّه لا فرق بين السنّة والشيعة، وأنّ كل من يشهد أن لا إله إلّا الله فهو مسلم، وأنّ الخلاف إن وجد فهو خلاف في الفروع وليس في الثوابت والأصول، والخلاف موجود في الفروع بين السنّة بعضهم البعض، والشيعة بعضهم البعض.

وقال: إن كلّ من يحاول إشاعة الخلاف بين السنّة والشيعة مأجور، وإنّه يجب علينا أن نواجه الهجمة الشرسة ضدّ الدين الاسلامي، مؤكداً أنّه إذا لم نعتصم من أجل ديننا فلا أقلّ من أن نعتصم من أجل دنيانا.

وأضاف الشيخ محمود عاشور، وكيل الأزهر: أنّ العالم الإسلامي يواجه استعماراً قوياً يشكّل نفسه لتفتيت وحدة الأمة الإسلامية، ويحاول إشاعة الخلاف ما بين السنّة والشيعة حتّىٰ لا يلتفتوا إلىٰ قضاياهم الأساسية... مشيراً إلى أنّ الاستعمار الثقافي أصبح أقوىٰ وأخطر من السابق، وأنّه ينبغي علينا أن نواجهه بحسم وقوة.

* * *

وكذلك نورد بعض الصور الأخيرة للقاءات الحاصلة في الأزهر الشريف مع العلماء الكبار استمراراً لدعوة التقريب...، وإيجاد سبلٍ جديدة للوحدة الاسلامية، في كل العالم.

---

١. الصادرة في يوم الجمعة ١١ من المحرّم سنة ١٤٢٤هـ/١٤ آذار ـ مايس ٢٠٠٣م.



■ الجمعة ١١ من المحرم ١٤٢٤هـ ■ ١٤ من مارس ٢٠٠٣م ■ يومية تصدر أسبوعيا مؤقتا ■ السنة الرابعة ■ العدد

في تصريحات خاصة لـ «صوت الأزهر»..

الإمام الأكبر: لا فرق بين السنة والشيعة ومن يحاول التفريق بينهما مأجور

الشيخ محمود عاشور: الاستعمار يشكل نفسه لتفتيت وحدة الأمة الإسلامية

في تصريحات خاصة لـ «صوت الأزهر» قال فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوي، شيخ الأزهر: إنه لا فرق بين السنة والشيعة وأن كل من يشهد أن لا إله إلا الله فهو مسلم وأن الخلاف إن وجد فهو خلاف في الفروع وليس في الثوابت والأصول، والخلاف موجود في الفروع بين السنة بعضهم البعض والشيعة بعضهم البعض. وقال إن كل من يحاول إشاعة الخلاف بين السنة والشيعة مأجور وأنه يجب علينا أن نواجه الهجمة الشرسة ضد الدين الإسلامي مؤكدا أنه إذا لم نعتصم من أجل ديننا فلا أقل من أن نعتصم من أجل دنيانا.

وأضاف الشيخ محمود عاشور، وكيل الأزهر، أن العالم الإسلامي يواجه استعمارا قويا يشكل نفسه لتفتيت وحدة الأمة الإسلامية ويحاول إشاعة الخلاف ما بين السنة والشيعة حتى لا يلتفتوا إلى قضاياهم الأساسية.. مشيرا إلى أن الاستعمار الثقافي أصبح أقوى وأخطر من السابق وأنه ينبغي علينا أن نواجهه بحسم وقوة.



د. محمد سيد طنطاوي

خلال استقبال فضيلته وفدا ألمانيا..

شيخ الأزهر يؤكد: الرئيس مبارك يمثل السياسة والدين معا

أكد فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوي، شيخ الأزهر، أن الإسلام ضد الإرهاب لأنه عمل منكر وعدوان على الآمنين وأن الإرهابي هو من يعتدي على غيره ويحتل أرضه ويهدم بيته ويقتل الآمنين ويظلم الناس وهو ما تقوم به إسرائيل ضد الفلسطينيين. وقال خلال استقباله لوفد هيئة إيباب الألمانية إن التيارات المتطرفة لا توجد في الإسلام وحده وإنما في كل الأديان وأن على المسلمين أن يلتزموا بقوانين الدول التي يعيشون فيها. مشيرا إلى أن الأزهر يرسل علماءه إلى كل أنحاء العالم لتوضيح صورة الإسلام وتعاليمه وإقامة المؤتمرات والندوات التي تظهر سماحة الإسلام، مؤكدا أنه لا يوجد عذر لمن يقول إن رسالة الإسلام لا تصل إليه ومن يدعي غير ذلك فهو المقصر. فكل الثقافات في العالم أصبحت مفتوحة. وعن علاقة السياسة بالدين قال شيخ الأزهر: إنه لا فرق بين السياسة والدين فالسياسة إذا كانت بالحق والحكمة والفضائل ونشر العدل فهي الدين وإن كانت بمعنى الكذب والغش والخديعة فالدين بريء منها، مؤكدا أن الرئيس مبارك يمثل الدين والسياسة معا، وأن الإسلام دين ودولة وأنه يتميز بالتخصص سواء في النواحي الدينية أو السياسية. وأضاف أن المسلمين والمسيحيين في مصر أبناء أمة واحدة ومتساوون في الحقوق والواجبات. وأوضح الشيخ محمود عاشور، وكيل الأزهر، أن الدراسة في الأزهر تمتاز بالاعتدال والتوسط وأن رسالته تهدف إلى التيسير والتسهيل للناس في أمور حياتهم وأن الإسلام يدعو إلى الأمن والسلام وعدم الحرب أو الاعتداء على الآمنين. وعن الحرب المحتملة ضد العراق أكد وكيل الأزهر أن الحرب التي تنوي أمريكا القيام بها هي لون من الإرهاب.

الدستور

الأمة مصدر السلطات

شارك في تأسيسها: أحمد الخواجة

رئيس مجلس الإدارة: عصام إسماعيل فهمي

رئيس التحرير: ابراهيم عيسى

فتواه تذكر بفتوى الشيخ شلتوت

المفتى يعلن اعترافه بالمذهب الشيعى



بعد سنوات طويلة ، اعلن مفتى الجمهورية د. نصر فريد واصل اعترافه بالمذهب الشيعى فى التعبد، جاء ذلك فى تصريح خاص لـ «الدستور» أثناء حضوره الحفل الذى اقامته السفارة الإيرانية بمناسبة مرور عاما على الثورة الإيرانية - يوم الأربعاء الماضى - فالمفتى قال: إنه يحق لأى مسلم أن يتعبد إلى الله عز وجل وفقا لمذهب الإمام جعفر الصادق الشيعى مثلما يتعبد وفقا للمذاهب الأربعة الأخرى، وأكد أن الاختلافات التى يتخذها البعض مبررا للهجوم على الشيعة لا اصل لها. فالفوارق بين المذهب الشيعى وباقى المذاهب ليست سوى فوارق طبيعية كالموجودة بين مذهب الأحناف والمذهب الحنبلى مثلا. ضربنا له مثلا بتأدية الشيعة لثلاثة فروض فقط بدلا من خمسة، وهى صلاة الفجر ثم الظهر والعصر فى وقت واحد ثم المغرب والعشاء فى وقت واحد، وقال لنا المفتى: المذهب المالكى اجاز ذلك مثلا، وهذا يدل على أن الخلاف موجود فى أمور اتفقت معهم فيها بعض المذاهب، والخلاف الوحيد ينحصر فى اعتراف الشيعة بزواج المتعة فى حين تحرمه باقى المذاهب.

اعتراف المفتى يعيد للتطبيق فتوى الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق، الذى اعترف فى الخمسينيات بالمذهب الشيعى.

أعلن مفتي مصر الشيخ نصر فريد واصل رسمياً أنّ مذهب الشيعة، يعني مذهب الإمام جعفر الصادقعليه السلام يمكن كباقي المذاهب أن يُتَّبع ويقلَّد.

(صحيفة الدستور الاسبوعية المصرية، السنة الثالثة، العدد ١٥ ص٣)



في إحدى اللقاءات: السيد هادي الخسروشاهي مع الشيخ الدكتور السيد محمد طنطاوي، شيخ الأزهر الشريف، في مكتبه الخاص بالقاهرة



من اليسار: الدكتور شيخ نصر فريد واصل (مفتي مصر)، الشيخ محمود عبدالغني عاشور (وكيل الأزهر الشريف)، السيد هادي الخسروشاهي



في مشيخة الأزهر الشريف

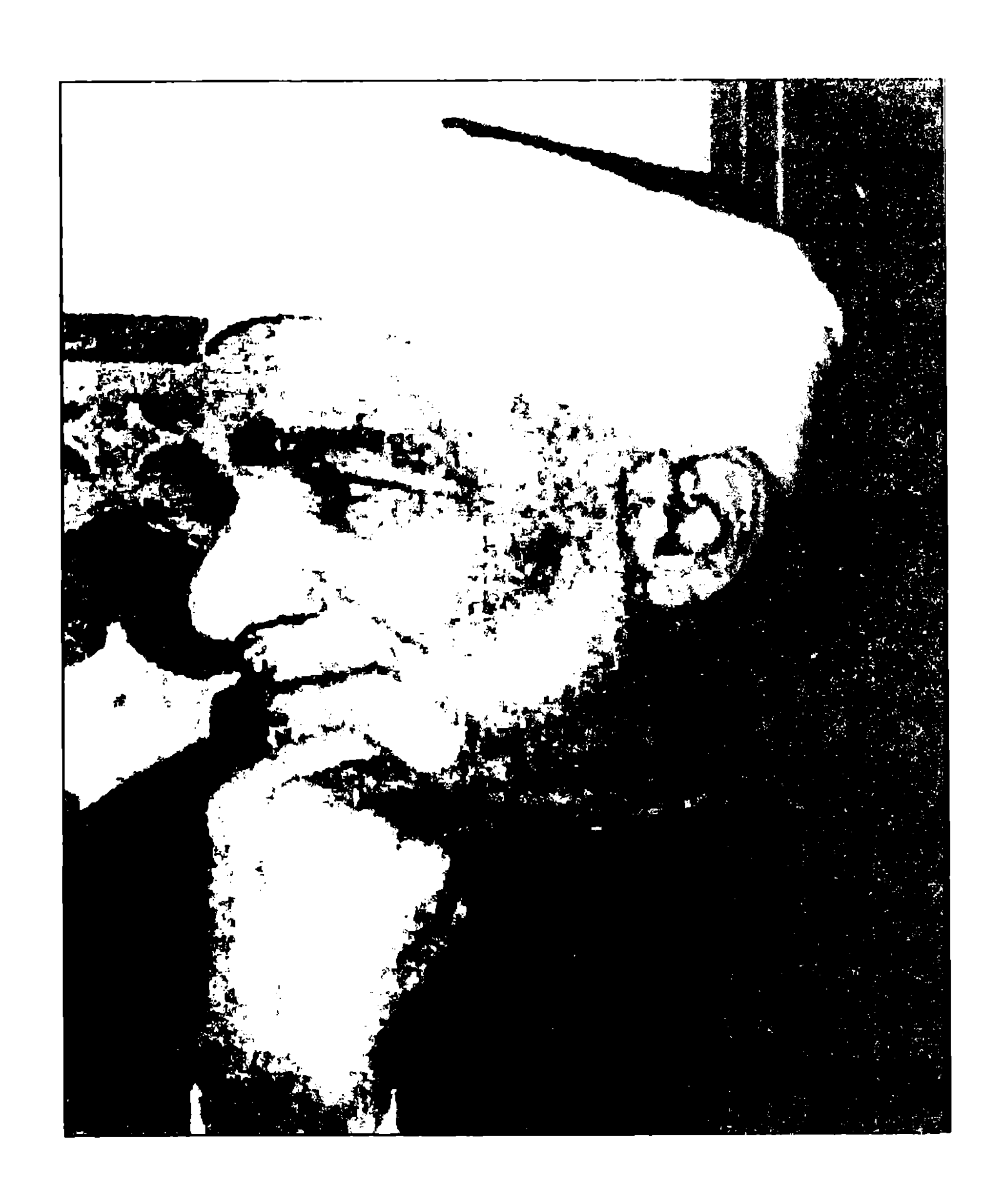
من اليمين: الشيخ فوزي زقزاق (مدير قسم الحوار مع الأديان)، الدكتور الشيخ أحمد الطيب رئيس جامعة الأزهر، الشيخ طنطاوي شيخ الأزهر، السيد هادي الخسروشاهي، والأخوان جودكي والشيخ عباس من أعضاء السفارة

ملحق رقم (٥)

تقرير عن مؤتمر
تكريم الإمامين البروجردي وشلتوت
باشتراك علماء الأزهر الشريف وعلماء إيران
سنة ١٤٢١ هـ في طهران



صورة السيد البروجردي



صورة الشيخ شلتوت

المقدمة

تحظى الحوزة العلمية في قم، وكذلك جامع الأزهر في القاهرة، بموقعهما الجغرافي في طرفي العالم الاسلامي بمكانتين خاصتين في تبيين الفكر الإسلامي، وبلورته من جوانبه المختلفة في الفقه والأُصول والكلام وغيرها، كما تتولّيان هدي الجماهير المسلمة نحو المجتمع الإسلامي الهادف.

وينعكس أيّ تحوّل وتقدّم يحصلان في الأفكار السائدة على هاتين الحوزتين العلميتين الكبيرتين بشكل مباشر أو غير مباشر علىٰ مجمل العالم الإسلامي، وستكونان مصدراً للتحوّلات، كما شكّلت التحوّلات الفكرية العظيمة في الحوزة العلمية بقم مصدراً أساسياً لظهور الثورة الإسلامية الرائعة في إيران في بداية القرن الخامس عشر الهجري.

ولايخفىٰ في هذا الجانب دور القادة الفكريّين وكبار الأساتذة في إيجاد النهضات والحركات والتحوّلات السياسية والاجتماعية الكثيرة، ممّا يشكّل ذلك دلالة واضحة علىٰ هذه الحقيقة.

ففي العصر الراهن، وفي أحلك المراحل التاريخية، وبعد الحربين العالميتين: الأُولى والثانية، حيث شهد العالم الإسلامي سقوط الدولة العثمانية، واحتلال الأراضي الإيرانية، وإيجاد الكيان الإسرائيلي غير المشروع، وقد أدّىٰ ظهور المصلحَيْن الكبيرين في الأُمة الإسلامية في هاتين الحوزتين الكبيرتين: الشيعية

والسنيّة، وطرحهما وجهات إصلاحية وتقدّمية من جانبهما، واهتمامهما الجادّ بالمبدأ القرآني والوحدة الإسلامية، وتبيين أُسسهما العلمية على أساس الكتاب والسنّة، أدّى إلى دفع أنظار المسلمين نحوهما.

وترك كلّ من آية الله السيد البروجردي المرجع الشيعي الكبير دون منازع والعلّامة الشيخ محمود شلتوت تأثيرهما المصيري في اهتمام المسلمين بهويتهم الاسلامية المشتركة، من خلال إجراءاتهما الإصلاحية والوحدوية في العالم الاسلامي بشكل غير مسبوق، وتأكيدهما على ضرورة وضع الخلافات المذهبية الناجمة عن الجهل والتعصّب، ودسائس الحكّام والمستعمرين جانباً.

وتعتبر الفتوى المعروفة للشيخ شلتوت في صحّة تعبّد الشيعة، والأخذ بالفقه الشيعي باعتباره مذهب رسمي إسلامي، وتأسيس دار التقريب بين المذاهب بأمينه العام الشيخ محمد تقي القمي في القاهرة، وعضوية كبار علماء الفريقين فيه، ودعم آية الله البروجردي لذلك، تعتبر من نتائج هذا التحوّل الفكري الكبير في فكر القادة الدينيين المسلمين.

ولعبت دار التقريب بين المذاهب الاسلامية في حياته المثمرة جدّاً دوراً كبيراً في التعارف بين علماء الشيعة والسنّة، ونشر ٦٠ عدداً من مجلّة رسالة الإسلام ونشر كتاب التفسير الكبير مجمع البيان وكتاب المختصر النافع وكتاب حديث الثقلين وغيرها من الكتب.

واعتبر المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية والذي جاء تأسيسه بأمر من سماحة آية الله السيد علي الخامنئي مدّ ظله العالي في عام ١٩٨٨ بأمينه العام آية الله واعظ زادة الخراساني في إيران بعد ٤٥ عاماً من تأسيس دار التقريب بين المذاهب في مصر، اعتبر فلسفته الوجودية استمرار للطريق الذي سلكه أُولئك العظام، ويعتبر نفسه استمراراً لوجود دار التقريب في مصر.

وعقد هذا المجمع في الذكرى السنوية لرحيل آية الله السيد البروجردي مؤتمراً

لتكريمه والشيخ محمود شلتوت بتاريخ شوّال المكرّم ١٤٢١هـ. ق في طهران وقم، شارك فيهما العلماء والمفكّرين وكبار مراجع التقليد من إيران، والشيوخ وكبار الأساتذة من جامع الأزهر من مصر، بدعوة من منظّمي المؤتمر، وتمّ فيه تبيين الأُسس العلمية لأفكارهما الإصلاحية كخطوة جديدة في سبيل الوحدة الإسلامية والتقريب بين المذاهب الاسلامية.

وقد كان من بين المشاركين وفد علمائي كبير من علماء الأزهر مؤلّف من ٢٠ شخصاً، من بينهم الشيخ محمود عبدالغني عاشور نائب شيخ الأزهر، والشيخ فريد واصل المفتي المصري آنذاك، وعمداء كلّيات الأزهر، وصحفيون وأساتذة معروفين، وقد أضفىٰ هؤلاء الضيوف طابعاً مرموقاً علىٰ هذا الاجتماع. كما التقى الوفد المصري هذا بكلٍّ من قائد الثورة الاسلامية ورئيس الجمهورية، كما حضر الوفد في صلاة الجمعة، وألقىٰ نائب شيخ الأزهر كلمةً مهمةً جداً بين المصلّين في صلاة الجمعة. كما التقى الوفد المصري في مدينة قم عدداً من كبار مراجع التقليد والفضلاء والأساتذة، وأجروا معهم محادثات، كما زار أعضاء الوفد المراكز المهمة في المدينة.

وحول أهمية هذا المؤتمر تكفي الإشارة إلىٰ ما قالته إحدى الصحف المصرية المهمّة حول المؤتمر، إذ كتبت هذه الصحيفة: لم يعقد مثل هذا المؤتمر الرائع والمهمّ طوال التاريخ، وبعد الحوادث المؤسفة في الصدر الإسلامي الأول، وقد اجتمع قادة العالمين: الشيعي والسنّي في مكان واحد. وكان لهذا المؤتمر أصداء واسعة في الصحف المصرية والإيرانية والمنطقة العربية[1].

---

١. الإمام البروجردي وشلتوت رائدا التقريب، مقدمة الأُستاذ سيد جلال الدين الميرآقائي.

رسالة الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية إلى السيد هادي الخسروشاهي

حضرة حجة الإسلام والمسلمين جناب الحاج السيد هادي الخسروشاهي دام ظلّه سفير الجمهورية الإسلامية الإيرانية في دولة مصر

السلام عليكم، وأسأل الله تعالى أن يمنّ عليكم بالصحّة والسلام وبمزيد من التوفيق.

مع تقديري وشكري الجزيل للجهود التي بذلها جنابكم في إطار إرسال الوفود الأزهرية الرفيعة المستوى إلى إيران لغرض المشاركة في المؤتمر التكريمي لآية الله البروجردي والعلّامة الشيخ محمود شلتوت، يشرّفني أن أُطلعكم على ما يلي:

أنّ المؤتمر قد انعقد في طهران لمدة يومين متتاليين، وكان اليوم الثالث منه من نصيب مدينة قم كأفضل وجه لانعقاده، وإجابةً لمتطلبات موعد انعقاده، وقد كان مثمراً، إذ صحب ذلك عدّة محادثات ولقاءات بين الفضلاء والمدرسين الكبار في الحوزة العلمية بقم، كآية الله مكارم والشيخ السبحاني، وبين مفتي مصر وآخرين.

وقد أعرب آية الله مكارم من خلال رسالة عن تقديره لهذا العمل المهمّ.

وقد قال بعض معرباً عن ثنائه للمؤتمر وتقديره للعاملين أن قال: إنّ مؤتمراتكم جميعاً في طرف، وهذا المؤتمر وحده في طرف! وهو تعبير ينبو عن حسن تقديرهم تجاهه.

أضف إلى ذلك الصدى الذي أحدثه هذا المؤتمر في الأوساط الثقافية في العالم الإسلامي، وهو ما التمسته أثناء مشاركتي في المهرجان الوطني الذي أُقيم في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، حيث سمعت من أكثر من جهةٍ كلمات التقدير والثناء تُكال على مؤتمرنا التكريمي، وهي بادرة خير تجاه حركتنا التقريبية.

وقد بادرت وبمساعدة الدكتور عاشور إلى إرسال رسالة شكر وتقدير مع هدية مناسبة إلى شيخ الأزهر الدكتور سيد طنطاوي الذي بادر فوراً مشكوراً بإرسال

رسالة جوابية مصحوبة بهدية معرباً عن أمله في دوام العلاقات بين البلدين: إيران ومصر، وأن تبقى دائماً طيّبة.

والسيد رفاعة القائم بالأعمال المصري أيضاً قد أعرب عن شكره تجاه الضيافة والترحيب الشديدين اللذين أبدتهما الهيئة التنسيقية للمؤتمر، كما وأبدى اعتزازه بالقائمين والعاملين عليه وسأبعث إليه رسالة شكر وتقدير على عواطفه النبيلة تجاهنا.

وسأرسل إليكم في المناسبة بعض الكتب التي طُبعت بالعربية والفارسية آمل أن تحظى برضاكم.

وبالأمس اتّصل بي الدكتور تبرائيان هاتفياً وهو يخبرني إجمالاً بالأصداء الطيّبة التي أحدثها مؤتمرنا التكريمي، ومدى انعكاساته في الصحف المصرية، ومن قبل قد أوعزت إلى السيد مير آقائي بأنّكم بانتظار إرسال جميع تلك الصحف التي نقلت وقائع المؤتمر وأخباره.

وفي الختام أُبلغكم بأنّ رسالة السيد مفتي سنبعثها إلى مكتب السيد القائد إن شاء الله.

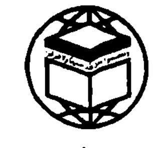
بلّغ سلامي وشكري الخاص إلى شيخ الأزهر وأعضاء الهيئة المحترمين، وإلى الدكتور كمال أبو المجد أيضاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد واعظ زادة الخراساني

الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

١٨ ذي القعدة ١٤٢١هـ





مجمع جهانی تقریب مذاهب اسلامی

شماره ۱/۲۷۹۹
تاریخ ۷۹/۱۱/۲۶
پیوست دارد

حضرت حجة الاسلام والمسلمین جناب آقای حاج سید هادی خسروشاهی دام ظله العالی

سفیر محترم جمهوری اسلامی ایران در کشور مصر

با عرض سلام، صحت و سلامتی و مزید توفیقات شما رااز خداوند متعال مسئلت دارم. با یک دنیا سپاس و تشکر از زحمات و ابتکارات جنابعالی در اعزام هیئت بلندپایهٔ ازهری به ایران جهت شرکت در کنفرانس تکریم آیة الله بروجردی و علامه شیخ محمود شلتوت، لازم است به اطلاع برساند که این کنفرانس دو روز در تهران و یک روز در قم به بهترین وجه برگزار گردید، فضلا و مدرسین بزرگ قم از این کار بسیار تقدیر کردند، آیة الله مکارم و آقای سبحانی همراه مفتی مصر و دیگران در قم صحبت کردند، آیة الله مکارم طی نامه‌ای از این کار مهم تقدیر نموده است. گاهی به ما می‌گفتند همهٔ کنفرانسهای شما یک طرف و این کنفرانس یک طرف. پس از کنفرانس در مهرجان الوطنی عربستان در ریاض شرکت کردم معلوم شد غالب حاضران خبر کنفرانس ما را شنیده‌اند و در آنجانیز پوشش خبری خوبی داشته است.

من توسط آقای دکتر عاشور نامهٔ تشکری همراه هدیه‌ای برای شیخ ازهر آقای دکتر سید طنطاوی فرستادم که فورا پاسخ داد که هر دو را برای شما می‌فرستم تادر پرونده‌های سفارت در رابطه با ایران باقی بماند.

آقای رفاعه کاردار مصر نیز میهمانی آبرومندی به افتخار این هیئت داد که عده‌ای از بزرگان ایرانی هم در آن شرکت داشتند. ومن طی نامه‌ای می‌خواهم از وی تشکر کنم. چند کتاب هم به این مناسبت به عربی و فارسی چاپ شد که برای شما می‌فرستیم.

دیروز آقای دکتر تبرائیان با تلفن اجمالا انعکاس اخبار کنفرانس رادر مطبوعات مصر خبر دادند، قبلا هم خود حضرتعالی به آقای میرآقایی گفته بودیدانتظار دارد کلیهٔ آن مطبوعات را برای ما بفرستید.

نامهٔ جناب آقای مفتی را به اطلاع رهبری معظم خواهم رسانید، یک‌بار برای آقای اختری فرستادم که گویا ایشان پیش از آن عازم حج شده بودند.

سلام وتشکر اینجانب را به آقای شیخ ازهر و اعضای هیئت و نیز به آقای دکتر کمال ابو المجد ابلاغ نمائید.

والسلام علیکم ورحمة الله و برکاته.

محمد واعظ زاده خراسانی

دبیر کل مجمع جهانی تقریب مذاهب اسلامی

تهران - بزرگراه رسالت - مقابل ضلع شمالی مصلی - مجتمع امام خمینی (ره) تلفن: ۸۸۴۸۹۷۳-۸۸۴۸۹۷۴ فاکس: ۸۸۴۸۹۷۴

رسالة الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية إلى شيخ الأزهر الشريف

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن والاه

سماحة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الجامع الأزهر الشريف مدّ الله في عمره وأيّده في مهمته

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

لقد استقبلنا بكل سرور واحترام الوفد الكريم الذي شارك نيابة عنكم في المؤتمر الدولي لتكريم الإمامين الكبيرين: الإمام البروجردي والعلامة الشيخ شلتوت رحمهما الله تعالى. هذا الوفد الكبير وتلك النخبة من الأزهريين برئاسة نائبكم العلامة محمود عبدالغني عاشور وسماحة المفتي الدكتور فريد نصر واصل قد شرفونا وشرفوا الجمهورية الإسلامية كرسل للوحدة ودعاة للتقريب بين المذاهب الإسلامية، فأفادونا كثيراً كثيراً وأعادوا علينا الذكريات الطيبة من قبل خمسين عاماً وفتحوا أبواباً جديدة في العلاقات الأخوية بين الحوزة العلمية عندنا وبين الأزهر الشريف وكل ذلك من فضلكم علينا ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وإني لا أجد كلمة تعبّر عن عواطفي وشكري لسماحتكم إلّا الاعتراف بالعجز. نسأل الله لكم كمال الصحة وموفور السعادة وللازهر الشريف الازدهار والنجاح في رسالته الخالدة وستبقىٰ ذكريات هذا الملتقىٰ مستمرة مثمرة تؤتىٰ أكلها كل حين باذن ربها. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد واعظ زادة الخراساني

الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم



۲۴۱۵/ ۱ ب
۲۴/ ۱۰/ ۷۹
پیوست:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله و اصحابه ومن والاه

سماحة الامام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الجامع الازهر الشريف مدّ الله في عمره وأيّده في مهمته

السلام عليكم ورحمة الله و بركاته وبعد:

لقد استقبلنا بكل سرور واحترام الوفد الكريم الذي شارك نيابة عنكم في المؤتمر الدولي لتكريم الامامين الكبيرين: الامام البروجردي والعلامة الشيخ محمود شلتوت رحمهما الله تعالى. هذا الوفد الكبير وتلك النخبة من الأزهريين برئاسة نائبكم العلامة الشيخ محمود عبدالغني عاشور وسماحة المفتي الدكتور فريد نصر واصل قد شرفونا وشرفوا الجمهورية الإسلامية كرسل للوحدة ودعاة للتقريب بين المذاهب الإسلامية، فأفادونا كثيرا وأعادوا علينا الذكريات الطيبة من قبل خمسين عاما وفتحوا ابوابا جديدة في العلاقات الأخوية بين الحوزة العلمية عندنا وبين الازهر الشريف وكل ذلك من فضلكم علينا ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وإني لا أجد كلمة تعبّر عن عواطفي وشكري لسماحتكم الا الاعتراف بالعجز. نسئل الله لكم كمال الصحة وموفور السعادة وللازهر الشريف الازدهار والنجاح في رسالته الخالدة وستبقى ذكريات هذا الملتقى مستمرة مثمرة تؤتي أكلها كل حين باذن ربها. والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته.

محمد واعظ زاده الخراساني
الأمين العام للمجمع العالمي
للتقريب بين المذاهب الإسلامية

[توقيع]

مجمع جهانی تقریب مذاهب ا
تهران - بزرگراه رسالت، مقابل ضلع شمالی
مجتمع امام خمینی ره ساختمان ۱۲ تلفن: ۸۸۳۸۹۷۳ فاكس: ۹۷۳

رسالة جوابية من شيخ الأزهر
إلى الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

الأخ الفاضل سماحة الشيخ محمد واعظ زادة الخراساني

الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد:

فقد تلقيت ببالغ الشكر والامتنان رسالتكم الكريمة التي تحمل كل معاني التقدير للأزهر الشريف وللوفد الذي حضر المؤتمر الدولي برئاسة فضيلة الشيخ محمود عبدالغني عاشور وكيل الأزهر الشريف وعضو مجمع البحوث الإسلامية وذلك لتكريم الإمامين الجليلين الإمام البروجردي والإمام الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر الشريف رحمهما الله رحمة واسعة.

وقد حمل الوفد إلىٰ مصر وأزهرها الشريف من سماحتكم ومن المؤتمر ومن دولة إيران الإسلامية الشقيقة رئيساً وحكومةً وشعباً ـ إلىٰ مصر ـ بلدكم الثاني رئيساً وحكومةً وشعباً كل الاحترام والإعزاز والإكبار.

وهذا إن دل علىٰ شيء فإنما يدل علىٰ عمق الأخوة وصدق المودة والصلة القوية المتينة التي تربط بلدينا، وبين الأزهر الشريف والحوزات العلمية اللذان يحفظان التراث الاسلامي بمذاهبه المختلفة التي تدرس بهما، والتي يراها كل منصف وكل دارس فاهم ومفكر واع للفقه أنها صالحة لكل زمان ومكان.

نسأل الله العلي القدير أن يجمعنا على الخير دائماً لخدمة ديننا ولخدمة بلدينا ولخدمة الأمتين الإسلامية والعربية والمسلمين في كل مكان من أرض الله.

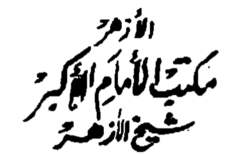
وفقكم الله وسدد خطاكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شيخ الأزهر

دكتور محمد سيد طنطاوي

٢٩ من شوال ١٤٢١هـ/٢٤ من يناير ٢٠٠١م

بسم الله الرحمن الرحيم



١٨ / ص
٢٠٠١/١/٢٧

الأخ الفاضل سماحة الشيخ / محمد واعظ زادة الخراسانى

الأمين العام للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠٠٠ وبعد :

لقد تلقيت ببالغ الشكر والامتنان رسالتكم الكريمة التى تحمل كل معانى التقدير للأزهر الشريف والوفد الذى حضر المؤتمر الدولى برئاسة فضيلة الشيخ / محمود عبد الغنى عاشور وكيل الأزهر الشريف وعضو مجمع البحوث الإسلامية وذلك لتكريم الإمامين الجليلين الإمام البروجردى والإمام الشيخ / محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر الشريف رحمهما الله رحمة واسعة ٠

وقد حمل الوفد الى مصر وأزهرها الشريف من سماحتكم ومن المؤتمر ومن دولة إيران الإسلامية الشقيقة رئيسا وحكومة وشعبا - الى مصر - بلدكم الثانى رئيسا وحكومة وشعبا كل الاحترام والإعزاز والإكبار ٠

وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على عمق الأخوة وصدق المودة والصلة القوية المتينة التى تربط بلدينا ، وبين الأزهر الشريف والحوزات العلمية اللذان يحفظان التراث الاسلامى بمذاهبه المختلفة التى تدرس بهما ، والتى يراها كل منصف وكل دارس فاهم ومفكر واع للفقه أنها صالحة لكل زمان ومكان ٠

نسأل الله العلى القدير أن يجمعنا على الخير دائما لخدمة ديننا ولخدمة بلدينا ولخدمة الأمتين الإسلامية والعربية والمسلمين فى كل مكان من أرض الله ٠

وفقكم الله وسدد خطاكم ٠

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تحريرا فى : ٢٩ من شوال ١٤٢١ هـ

الموافق : ٢٤ من يناير ٢٠٠١ م

شيخ الأزهر

[توقيع]

(دكتور / محمد سيد طنطاوى)

٢٠٠١/١/٢٤

ورود به دبيرخانه مجمع جهانى تقريب مذاهب اسلامى
شماره: ٢١٤٨ / ا ب
تاريخ: ١١٠٨ /٨٠

بيان القائد

آية الله السيد علي الخامنئي

حمداً لله سبحانه وتعالى أن وفّقكم أنتم العاملين المحترمين على إقامة هذا الاجتماع، لتكريم شخصيتين كبيرتين كان لهما السهمُ الكبير في تحقيق أمل التقريب بين المذاهب الإسلامية.

وهاتان الشخصيتان المرموقتان والممتازتان أحدهما: كبير فقهاء عصره والمرجع الأعلى لجميع شيعة العالم في وقته، والشخصية الفريدة بين علماء الدين في العصور الأخيرة حضرة آية الله العظمى السيد البروجردي، والآخر: الفقيه والمفتي الكبير لدى أهل السنّة، والرئيس الشجاع والمجدّد للأزهر الشريف العلّامة الشيخ محمود شلتوت.

إنّ تكريم هاتين الشخصيتين الشهيرتين في عالم الإسلام ليس فقط تكريماً لإنسانين كبيرين فحسب، بل الهدف منه هو ما قدّماه من خدمة عظيمة للأُمة الإسلامية.

واليوم العالم الإسلامي، الذي يشكّل أعظم المجموعات العالمية من حيث ما يحتويه من كنوز مادّية وإنسانية وفكرية وتاريخية، بحاجة أكثر من أيّ وقتٍ مضى إلى الوحدة والتقريب.

وإذا كانت أهداف وآمال كلّ مسلمٍ خيّر يحمل هموم أُمته تتمثّل في تمركز المساعي والطاقات باتّجاه إنقاذ الأُمة الإسلامية، فلابدّ أن نعلم أنّ هذا الهدف لايمكن بلوغه إلّا في ظلّ تقارب القلوب والأفكار والمعتقدات.

وهذان الرجلان الكبيران قد أدركا قبل قرابة نصف قرن هذه الحقيقة الوضّاءة، وبذلا من أجلها الجهود الكبير.

ولو كان رجال العلم والسياسة قد واصلوا هذه المساعي بجدٍّ، فلعلّ عالمنا الإسلامي لم يشهد النتائج المؤلمة لما بين المسلمين من خلاف، ولعلّ مأساة فلسطين وسائر أوضاع العالم الإسلامي المزرية ما كانت قد أحاطت بالعالم الإسلامي بهذا الشكل المأساوي والمرعب الذي عليه اليوم.

في تلك الأيام كانت همّة مرجع الشيعة الأعلى وعزمه وشجاعته، وحريّة إمام الإفتاء في مصر قد تبلورتا في خطوة مهمة وضرورية لعصرهما، واليوم أيضاً يتحمّل كلٌّ من الروّاد والمفكّرين، وعلماء الدين والمثقّفين، ورجال الإفتاء والساسة مسؤوليات كبرى في هذا الطريق.

والمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامي في طهران يجب أن ينهض بمشروع عظيم وخالد، كالذي نهضت به دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة، فأمواج تخريب علاقات المذاهب والشعوب المنبعثة من بؤر الفتنة في داخل العالم الإسلامي وخارجه، تستهدف زيادة تشتّت الشعوب والمذاهب الإسلامية، ولذا فبذل الجهود المخلصة أمام أمواج الفتنة هذه واجب يتحمّله الجميع، خاصة الواعون والمتعقّلون بتمسكنا بالقرآن الكريم وسنّة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام القطعيّة، مثل حديث الثقلين، واتّباع أهل البيت عليهم السلام يُصبح الطريق أمامنا واضحاً لا لبس فيه.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفّقني وايّاكم، وكلّ العلماء والأمة الإسلامية، لانتهاج هذا الطريق.

في الخاتمة أرى لزاماً أن أشكر العاملين على إقامة هذا الاجتماع لما بذلوه من جهود، وأسأل الله سبحانه أن يتغمّد برحمته ومغفرته المرحوم العلّامة الشيخ محمد تقي القمي مؤسّس دار التقريب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

السيد علي الخامنئي

١٢ شوال ١٤٢١هـ

أكبر وفد من الأزهر إلى إيران[1]

انتهت في طهران أعمال أهم مؤتمر شهدته العاصمة الإيرانية، والذي قد يكون هو البداية الصحيحة لتنقية الأجواء بين مصر وإيران.

ويأتي هذا المؤتمر ليلوح في أُفق العلاقات بين البلدين أمل جديد، خاصةً لأنّه ينعقد تحت شعار الإسلام، ويتّخذ من موضوع (التقريب) بين المذاهب الإسلامية وتوحيد كلمة المسلمين وصفوفهم هدفاً له.

وإذا كانت أميركا قد اتّخذت من لعبة (كرة الطاولة) مدخلاً لبدء الحوار مع الصين للمرة الأولىٰ في تاريخ البلدين، فإنّ الإسلام أدعىٰ بطبيعة الحال ليكون الوسيلة الأمثل لجمع الطرفين: مصر وإيران علىٰ كلمة سواء، سيّما وأنّ فكرة (التقريب) هذه لها تاريخها الراسخ بين البلدين منذ الثلاثينات، بذل خلالها علماء الأزهر الشريف جهوداً فقهية عظيمة، حمل لواءها أعلام من شيوخ الأزهر، كان في مقدّمتهم الشيخ محمود شلتوت، والشيخ عبدالمجيد سليم، والشيخ عبدالعزيز عيسىٰ، وغيرهم من مصر، ومن أئمة الشيعة في إيران آية الله البروجردي، وآية الله القمي.

كانت مصر هي المهد الذي ولدت فيه فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية، لنبذ الخلافات، وتوحيد كلمة المسلمين وتأليف قلوبهم، وكانت مصر أيضاً هي التي احتضنت الفكرة، ورعاها أزهرها وعلماؤه، ومن ثم ظهرت هيئات، وصدرت مجلّات، وانعقدت مؤتمرات، حقّقت للأمة الاسلامية أجلّ الخدمات والفوائد، وقلّصت خلافاتها، واستبدلت الصعب بالممكن، إذ كرست جهودها في مساحة الاتّفاق بين المذاهب، وهي مساحة واسعة تبلغ ٩٥٪ تقريباً، ونأت عن النبس في

---

١. مقال للدكتور كرم شلبي رئيس تحرير جريدة «صوت الأزهر» القاهرية.

المسائل الخلافية التي تمثّل الـ٥٪ الباقية، تاركةً ذلك لمزيدٍ من الاجتهاد، وإيراد الأدلّة التي يطمئنّ كلّ طرف علىٰ صواب ما يعتقده.

وإذا كانت فكرة التقريب تلك قد نشأت للمرة الأُولىٰ إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية، وكانت بمثابة ردّ فعل لها، وحاجة المسلمين الماسّة آنذاك إلىٰ نبذ خلافاتهم، والدخول كقوة بارزة إلىٰ عالم ما بعد الحرب، فإنّ الدعوة إلىٰ هذا المؤتمر من قبل إيران (وهي التي تملك مجلساً أعلىٰ للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية) تأتي في وقتٍ تشتدّ فيه الحاجة إلىٰ تأليف المسلمين وتقاربهم ووحدة صفوفهم، وهي الوحدة التي تحاربها قوى الغرب، وتبذل كلّ جهودها للحيلولة دونها... ومن ثم كان طبيعياً أن تتّجه الأنظار من إيران صوب الأزهر الشريف، وهو المؤسّسة الوحيدة في العالم الإسلامي القادرة على جمع كلمة المسلمين، وحقّقت التقارب بين المذاهب الإسلامية عندما أجازت تدريس كافّة المذاهب الفقهية ضمن البرامج التعليمية في المعاهد الأزهرية وجامعته الأزهر، وتقديمها في حيدةٍ تامّة، وموضوعية كاملة.

وعندما تلقّىٰ شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي الدعوة الإيرانية ـ بواسطة السفير السيد هادي الخسروشاهي ـ عقد مؤتمر التقارب في طهران، وجد فضيلته ـ ومعه علماء مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر ـ أهمية المشاركة في هذا المؤتمر، خاصةً وأنّ انعقاده يأتي في مرحلةٍ أحوج ما تكون فيها الأمة الإسلامية إلىٰ توحيد كلماتها، والتصدّي للهجمة الضارية التي تشن ضدّ الإسلام والمسلمين. وبدأ الإعداد بدعوة عددٍ من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية بإعداد البحوث والدراسات في الموضوعات الجديرة بالمناقشة، وتشكّل الوفد برئاسة وكيل الأزهر الشيخ محمود عبدالغني عاشور نائباً عن فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، وضمّ عدداً من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية ورئيس المجمع. وكان ذلك هو أكبر وفد من الأزهر، بل أكبر وفد مصري يزور إيران علىٰ مدى العشرين سنة الماضية.

ايران.. شيء مختلف

... وجدت إيران شيئاً يختلف كلّ الاختلاف عن الصورة التي كانت لها في ذهني، بدا واضحاً منذ البداية أنّ كلّ شيء يوحي بالأهمية القصوىٰ لهذا المؤتمر. فهناك كلمة موجّهة من قائد الثورة الإسلامية الى المؤتمرين، وهناك آية الله الهاشمي رفسنجاني الذي افتتح المؤتمر بما يشبه المحاضرة الدينية والسياسية التي تناولت أُموراً عدّة علىٰ قدر كبير من الأهمية، فقد تحدّث عن فكرة التقريب وأهميتها، وتحدّث عن أحوال الأُمة الإسلامية وواقعها، وعرج علىٰ ما يجري في فلسطين، موكّداً علىٰ أنّه لو كان الحال بين مصر وإيران مختلفاً، وكانت الأُمور بين البلدين على ما يرام، لكان الحال في فلسطين أفضل ممّا يجري الآن، لأنّ مصر ـ كما قال ـ هي قلب الأُمة الإسلامية، وحصناً من حصون الإسلام، وأنّ أزهرها الشريف هو رائد التقريب بين المسلمين وحامل لوائه.

وتحدّث عدد آخر من آيات الله، وجميعهم من الشخصيات الدينية التي تربّت في الحوزة الدينية في قم، والذين يحتلّون مواقع ومكانة خاصّة في سدّة الحكم، منهم آية الله الحكيم رئيس المجلس الأعلىٰ للتقريب بين المذاهب الاسلامية، ومنهم محمد واعظ زادة الخراساني الأمين العام للمجمع، ومحمد علي التسخيري رئيس رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، والدكتور عبدالكريم الشيرازي رئيس جامعة المذاهب الإسلامية.. وآخرون.

وعلى الجانب المصري، كانت كلمة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر، والتي أحدثت صدىً قوياً داخل المؤتمر وخارجه، عندما أشار الىٰ أنّ الأزهر الشريف كان أوّل من دعا للجهاد في فلسطين إذا ما فشلت محاولات السلام التي يتفاوض بشأنها الفلسطينيون مع الأطراف الأُخرىٰ. ثم كانت أوراق العمل التي قدّمها الدكتور فريد نصر واصل مفتي مصر، والدكتور محمد رأفت عثمان عميد كلّية الشريعة،

والدكتور عبدالمعطي بيومي عميد كلّية أصول الدين، والدكتور محمد عمارة عضو مجمع البحوث الإسلامية، والدكتور محمد إبراهيم الفيومي عضو المجلس، والشيخ علي فتح الله رئيس قطاع المعاهد الأزهرية، ثم كان البحث الذي قـدّمه الكـاتب فهمي هويدي، والذي أرّخ فيه لفكرة التقريب بين المذاهب ونشأتها ومؤسساتها، والظروف التي عملت في إطارها، وكانت تلك هي أهم الأوراق التي حظيت باهتمام واضح في جلسات المؤتمر ومناقشاته.

التقريب بين المذاهب الإسلامية... دعوة إصلاحية[1]

لبّىٰ مؤخّراً وفد من كبار العلماء والمفكّرين الإسلاميين من مصر دعوة طيّبة من جمهورية إيران الإسلامية، للمشاركة في الاحتفال بذكرىٰ رائدي التقريب: فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت من مصر، وآية الله البروجردي من إيران، وأناب فضيلة الإمام الأكبر فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر لرئاسة وفد مصر.

ويعتبر هذا اللقاء الأول من نوعه بعد فترة تباعد وانقطاع امتدّت لأكثر من ثلاثة عقود، وهو خطوة طيّبة من أجل وصل ما انقطع، وتقريب وجهات النظر في الأُمور الدينية بين البلدين الإسلاميين الشقيقين.

تلبية الدعوة

في بداية اللقاء كان من الطبيعي أن نسأل الشيخ محمود عاشور رئيس وفد مصر الذي زار الجمهورية الإيرانية، والتقىٰ بقياداتها الدينية، عن الجهة صاحبة هذه المبادرة الطيّبة، والتي جاءت بعد فترة تباعد بين البلدين زادت علىٰ ربع قرن.

أجاب فضيلته: أنّ هذه الخطوة الحميدة كان ورائها المجمع العالمي للتقريب بين

---

١. تقرير عن مؤتمر تكريم الإمامين العَلَمين: آية الله البروجردي والشيخ شلتوت الذي انعقد في طهران، أعدّته مجلّة منبر الإسلام الشهرية القاهرية، عن المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، العدد (١١) السنة التاسعة، ذو القعدة ١٤٢١هـ.

المذاهب الاسلامية في إيران، حيث وجّه أمينه العام دعوةً إلى فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوي ومجموعة من العلماء الذين لبّوا الدعوة التي وجِّهت إلىٰ مصر من الجمهورية الإيرانية وقياداتها الدينية، لتكريم رائدي التقريب: فضيلة الإمام الأكبر الراحل الشيخ محمود شلتوت من مصر، وآية الله البروجردي من إيران. وكان من المفترض أن يرأس وفد مصر فضيلة الإمام الأكبر، وتمّ اختيار أعضائه من علماء مجمع البحوث الاسلامية، وتمّ إعداد البحوث القيّمة التي ستلقى في هذه المناسبة الكريمة، إلّا أنّ ظروفاً طرأت وحالت دون سفر فضيلة الإمام الأكبر، فأنابني شرف رئاسة وفد مصر.

التقريب بين المذاهب

وعن أهمّ المحاور التي تناولتها جلسات المؤتمر، وأبرز البحوث التي طرحت فيه قال فضيلة الشيخ عاشور: إنّ الحديث كلّه انصبّ علىٰ مسألة التقريب بين المذاهب الدينية، وتحديداً بين مصر وإيران، وعلىٰ وجهٍ أخصّ بين الشيعة والسنّة. وهذه المسألة كانت محور الحديث الرئيسي في المؤتمر لكلّ من تكلّموا بمن فيهم رئيس الجمهورية الإيرانية الذي كانت كلمته التي ألقاها في حفل افتتاح أعمال المؤتمر تدور حور معنى التقريب بين المذاهب في الإسلام.

إلى جانب أنّ بعض البحوث التي أُلقيت بالمؤتمر تناولت بشكل خاص كلّاً من الإمام البروجردي وفضيلة الإمام الشيخ شلتوت ودور كلٍّ منهما في موضوع التقريب باعتبار أنّهما من روّاد التقريب والتقارب بين المذاهب، وكيف أنّ قضية التقريب هي حجر الأساس في علاقات طيّبة بين الأزهر في مصر والحوزات الدينية في إيران.

ويعتبر هذا اللقاء بين القيادات الدينية في مصر والقيادات الدينية في إيران خطوة جديدة بعد فترة تباعد وانقطاع امتدّت لأكثر من ثلاثة عقود، وهذا هو اللقاء الأول

من نوعه الذي يدعو إلىٰ وصل ما انقطع من أجل تقريب وجهات النظر في الأُمور الدينية بين البلدين الإسلاميين الشقيقين.

وصل ما انقطع

أمّا عن البدايات الأولىٰ للتقريب فقد بدأت مع منتصف القرن الماضي، حيث كان يوجد ما يسمّىٰ بدار التقريب، والتي كان يرأس أعضاءها «علوبة باشا» وكان أمينها العام الشيخ عبدالمجيد سليم، كما كان فضيلة الإمام الراحل الشيخ شلتوت أحد أعضاء هذا التجمّع، حيث بذل الجميع الجهد وجاهدوا من أجل التقريب بين المذهب السنّي في مصر وبقية المذاهب، وقد أثمر هذا العمل الدؤوب نتائج طيّبة حتّى مطلع السبعينات من القرن الماضي.

لقد بادر الإخوة في إيران بعمل جمعية صداقة إيرانية ـ مصرية من شخصيات مؤمنة بالتقريب والتقارب مع مصر برئاسة السفير السيد هادي خسروشاهي، كذلك يجري في مصر الآن العمل علىٰ تكوين جمعية صداقة مصرية ـ إيرانية تضمّ صفوةً من علمائنا، ومرشّح لرئاستها الأستاذ الدكتور كمال أبو المجد. ولاشكّ أنّ هذه الخطوة غير الرسمية من جانب كلٍّ من البلدين من شأنها الإسراع بخطوات التقارب واللقاء على الطريق الصحيح لمصلحة الشعبين الشقيقين والإسلام.

كما أنّ الأزهر ما زال يدرس فكرة إحياء دار التقريب مرّة أخرىٰ، وذلك يتطلّب وضع أُسس وقواعد ومناهج حتّىٰ نبدأ العمل.

وقد سبق أن كانت هناك مبادرات طيّبة من جانب المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية ومعالي وزير الأوقاف، حيث وجّهت الدعوة لأكثر من شخصية دينية من إيران لحضور فعاليات المؤتمر السنوي الكبير الذي ينظّم من جانب المجلس والوزارة معاً. وعلى سبيل المثال فقد حضر من قبل إلىٰ مصر آية الله واعظ زادة، وآية الله النعماني، وشاركا في أعمال المؤتمر، وما زالا يذكران الحفاوة البالغة

والترحيب الكبير من قبل الجميع أثناء تواجدهما بمصر، كما لمسا مدىٰ حبّ أهل مصر لآل بيت الرسول الكريم، والذي قيل: إنّه فاق حبّ أتباع المذهب الشيعي في إيران لهم.

وفد يليق بمصر الأزهر

أمّا عن أعضاء الوفد المصري فقد كان في مقدّمتهم حسبما ذكره فضيلة الشيخ محمود عاشور: فضيلة مفتي الديار المصرية الأستاذ الدكتور نصر فريد واصل، وفضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية، وفضيلة الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر، وفضيلة وكيل الأزهر السابق ورئيس قطاع المعاهد الأزهرية، وفضيلة الأستاذ عمر البسطويسي مدير إدارة الإعلام والعلاقات العامة، وفضيلة الشيخ المشرف العام علىٰ مدينة البعوث الإسلامية. كما ضمّ الوفد الأستاذ الدكتور رأفت عثمان عميد كلّية الشريعة، والأستاذ الدكتور عبدالمعطي بيومي عميد كلّية أصول الدين، والأستاذ الدكتور عبدالله النجّار عن كلية الشريعة، والأستاذ الدكتور رجب البيومي عن كلّية اللغة العربية، والأستاذ الدكتور محمد الفيومي عضو مجمع البحوث الإسلامية، كذلك الدكتور محمد عمارة عضو مجمع البحوث الإسلامية.

لقد ضمّ الوفد عدداً من العلماء الأفاضل، وعلىٰ مستوىً عالٍ جداً يليق بمصر الأزهر، وكانوا خير معبّر عن السماحة الدينية ووسطية الإسلام.

نتائج إيجابية قريباً

وعن الآثار الإيجابية المستقبلية لهذه الخطوة أكّد فضيلة الشيخ عاشور: أنّنا طالما نتّفق في الثوابت والأُصول، وأنّه لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله، ونؤمن بالقرآن وبالسنّة، فنحن نتّفق في الأصول، أمّا الفروع فيختلف فيها العلماء جميعاً، الأئمة الأربعة يختلفون في الفروع، وطالما هناك قاعدة ننطلق منها فلابدّ من حدوث التقاء وتقارب بيننا. نحن نتّفق معهم في خمسة وتسعين في المائة من الفقه الإسلامي،

الباقي وهو خمسة في المائة من الممكن أن يكون هناك حوار حولها.

وعن استقبال الإخوة في إيران للوفد المصري من علماء الإسلام وهو يقوم بهذه الزيارة التاريخية الأولىٰ لهذا البلد الشقيق منذ قيام ثورته عام ١٩٧٩م، يقول الشيخ عاشور: لقد ذهلنا منذ اللحظة الأُولىٰ ـ بعد أن هبطت الطائرة ـ حيث وجدنا جميع رجالات الدين في إيران من آيات الله في استقبالنا، وحقيقة لقد شعرت من هذه الحفاوة البالغة، وذلك الحبّ الجيّاش، بأنّ هؤلاء الناس يقدّرون مصر حقّ التقدير، وهذا ما عبّروا عنه بشتّى الطرق للوفد المصري وأعضائه.

لقد حرصت جميع القيادات الدينية الكبيرة في إيران على أن تعبّر عن سعادتها لوفد مصر من علماء الدين الأفاضل منذ اللحظة الأُولى لوصولنا، وأثناء تواجدنا بينهم، وإلىٰ أن عدنا بسلامة الله إلىٰ أرض الوطن، فضلاً عن الحفاوة والترحاب اللذين وجدناهما من مسؤولي القيادة السياسية، وعلىٰ رأسهم رئيس الجمهورية الإيرانية محمد خاتمي.

كذلك ما عبّر عنه الشارع الإيراني ممثّلاً في قياداته الشعبية، من حبّ وترحاب بأعضاء الوفد.

الصراحة والصدق والحوار العقلاني

تمّت مناقشة كافة الأُمور بصراحة وصدق، وانتهينا إلىٰ أنّنا أصبحنا نحن وهم أكثر حبّاً وتفهّماً لبعضنا بعضاً، ولقد حشّد المسؤولون في إيران كافّة الأجهزة الإعلامية من صحافة وتليفزيون وإذاعة، وتمّ نشر وبثّ معظم جلسات ووقائع المؤتمر.

ولأنّ هناك بعضاً من رجال الدين الإيراني فهموا خطأً أنّ أهل السنّة يكفّرون أصحاب مذهب الشيعة، فقد عملنا علىٰ إزالة هذا الفهم الخاطئ بالحوار العقلاني الهادئ، ونجحنا في إقناعهم بالرؤية الصحيحة للسنّة لهم، الأمر الذي أثّر فيهم وجعلهم يودّعوننا في نهاية اللقاء بالبكاء.

ولقد وجدنا أنّهم يدرّسون المذهب الحنفي في الحوزات الدينية، كذلك هناك كلّية تسمّى كلّية المذاهب الاسلامية سوف تدرّس المذاهب الأربعة من العام القادم، وأنّ المتشدّدين أصحاب الرأي الجامد كانوا في الماضي، ولم يعد لهم أثر يذكر الآن!

لقاء تاريخي ورؤية واحدة

لا شكّ أنّ هذا اللقاء التاريخي لعلماء الدين في البلدين سوف يعمل مستقبلاً على التقريب بين الدولتين بعد التقاء الأزهر والحوزات الدينية في إيران، خاصةً وأنّهم يرون في الأزهر الرائد في الفكر الإسلامي والدين المعتدل.

كذلك لمسنا اتّفاق القيادتين: الدينية والسياسية في الرؤية الواحدة نحو علاقات البلدين، وكيف أنّ مصر وإيران قوتان عظيمتان، ويملكان الإمكانات الكبيرة التي يجب أن تكون سنداً للأمة الإسلامية، فالعالم يتّجه إلى التكتّلات الكبرىٰ، ولا قيمة تذكر للكيانات الفردية الصغيرة، وعلى الدولتين السعي للتكامل فيما بينهما علىٰ جميع الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية حتّىٰ يعمّ الخير علىٰ شعبي البلدين، لأنّ إيران دولة ذات حضارة، ومصر دولة ذات حضارة، وإذا التقت الحضارتان فسوف تصنعان المعجزات.

وفي كلمته التي ألقاها نيابةً عن الإمام الأكبر شيخ الأزهر، قال فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر ورئيس الوفد: إذا كانت الدعوات تشرف بشرف أهدافها، وتسمو بسموّ غاياتها، فإنّ دعوة التقريب تأخذ أعلىٰ مكانة في تاريخ الإصلاح الإسلامي قديمه وحديثه، لأنّها دعوة إلهية؛ لأنّ الله عزّ وجلّ هو الذي وضع أساسها ورسم منهجها.. ورفع من شأن الداعين إليها، ووجّه الرجاء إلى اجتناء ثمرتها، كلّ ذلك في آية واحدة من كتابه العزيز، إذ يقول سبحانه: ﴿إنّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتّقوا الله لعلّكم ترحمون﴾[1].

---

١. الحجرات: ١٠.

فالجملة الأولى من الآية تقرّر حقيقةً من الحقائق الثابتة: ﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾ أي: أنّ هذا شأنهم، وتلك حقيقة أمرهم، فليس للمسلمين بعد هذا أن يسيروا إلىٰ هدفٍ يخالف هذا الهدف، ولا أن يخرجوا عن مقتضيات هذه الأُخوة لأيّ سبب من الأسباب.

والجملة الثانية تأمر بإصلاح ذات البين، أي بأن يدرأ المسلمون عن أنفسهم كلّ ما يفسد علاقة الأُخوّة التي قرّرها الله بينهم، ومن أجل ذلك جاء تحذير رسول الله ﷺ إذ يقول: «إنّ فساد ذات البين هي الحالقة».

والجملة الثالثة من هذه الآية الجامعة تأمر بأن يكون الإصلاح بين المسلمين في ظلٍّ من تقوى الله، فتحذر بذلك من اتّباع الهوىٰ، والتواء القصد، وأن يزعم فريق منهم أنّه ما يريد إلّا الإصلاح، بينما هو يريد التعقيد واللجاجة بالباطل، فإنّ الله عليم بذات الصدور، لايخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والجملة الرابعة: هي جملة الختام، يوجّه الله فيها رجاءنا إلىٰ ثمرة هذه الدعوة فيقول: ﴿لعلّكم ترحمون﴾ وما الرحمة في هذا المقام إلّا تيسير اليسرىٰ لمن استقام على الطريقة المثلىٰ...

تلك هي دعوة التقريب في أساسها ومنهجها وثمرتها.

إنّ فكرة التقريب بين المذاهب الاسلامية لاتعني توحيد المذاهب الإسلامية، ولا صرف أيّ مسلم عن مذهبه، ففكرة توحيد المذاهب أو إدماجها عمل ضدّ العقل، وضدّ طبيعة البشر، كما أنّ صرف المسلم عن مذهبه تحت شعار التقريب تضليل.

وفكرة التقريب كما شرحها روّادها، وكما يجب أن تكون، هي تذكير المسلمين بنقاط الوفاق بينهم، وهي كثيرة، كما أنّها في أُصول الدين وثوابته.

أمّا نقاط الخلاف فهي فرعية، لاينبغي أن تسبب تباعداً أو شقاقاً، ولذلك فإنّ الاجتماع علىٰ فكرة التقريب يجب أن يكون أساسه البحث والإقناع والاقتناع، حتّى يمكن بسلاح العلم والحجّة محاربة الأفكار الخرافية الطفيلية التي لاتعيش إلّا في ظلّ الأسرار والأجواء المظلمة.

والتقريب ـ كما نفهمه ـ دعوة إلى التعرّف على وجوه الاتّفاق، والالتفاف حول مواضع الاتّحاد، والقربى، ومعالم الأُخوة التي تربط بين المسلمين، وأن يلتقي علماء المذاهب يتبادلون المعارف والدراسات ليعرف بعضهم بعضاً في هدوء العالم المتثبّت المتبصّر، الذي لا همّ له إلّا أن يرى ويعرف ويقول فينصف.

إنّ فكرة التقريب بين المذاهب في ضوء الفكر المستنير المستقيم الراشد، والتي اجتمع شملكم عليها فكرة، حوارية علمية تعتمد الاجتهاد والحجّة، وتمقت التعصّب والتشرذم والانغلاق، وترحّب بالرأي ما دام يعتمد على المنطق والدليل، وهي فكرة تدعم الوحدة الإسلامية، وليس غريباً أن يكون عرض الخلافات المذهبية عاملاً في تدعيم وحدة المسلمين، لأنّ ذلك يتمشّى مع ما كان عليه أصحاب المذاهب المختلفة من التقدير المتبادل، وذمّ التعصّب للرأي، وأقوالهم في ذلك معروفة.

وأحسب أنّ الأحاديث العظيمة التي وردت في هذا الباب تدعو كلّ مجتهد لأن يبذل جهداً وهو مأجور عليه بإذن الله تعالى، فإنّ المجتهد إذا أصاب له أجران وإن أخطأ فله أجر. إنّ هذه القاعدة تدفع دفعاً إلى الحوار، ونبذ الفرقة، وتقبّل الآخر، وتغري بالانتفاع والاجتهاد، وتدفع إليه دفعاً.

إنّ مبدأ الاجتهاد يعني احتمال الخطأ، وما دام احتمال الخطأ وارداً فاحتمال صواب المخالف وارد أيضاً وبشكل متساوٍ.

كلّ هذا كما تعلمون شرطه الاتّفاق على الثوابت التي لا تقبل الاجتهاد أو المخالفة، وهي الأُصول المعروفة لدى المسلمين جميعاً، وإذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك فعلاً ـ فلا ينبغي أن تطغى العصبية المذهبية على المسلمين، بل الواجب أن يأخذوا بما أظهر البرهان صوابه، وأن تكون الرغبة الصادقة في الوصول إلى الحقّ ملء جوانحهم.

وأرى أن تجري دراسات مقارنة بين المذاهب المختلفة الأربعة السنّية والجعفرية والزيدية والظاهرية، بل وآراء بعض المجتهدين الذين لم يشتهر عنهم مذهب معيّن.

وفي ضوء ما سبق، وفي إطاره الواضح المستقيم، يصبح الخلاف الفقهي المذهبي وسيلةً من وسائل القوة العلمية والسماحة الفكرية، متمشّياً مع طبيعة الإسلام العالمي الدعوة التي تعمّ البشر جميعاً، ويتفرّغ المسلمون لما هو أولىٰ بهم من التعرّف علىٰ أسباب نصرة الدين وإصلاح حال المسلمين.

وإنّني في هذا اليوم أتذكّر علمين من أعلام التقريب، ملكا فكراً حراً وجرأةً في الحقّ لاتباري، أولهما: فضيلة الإمام الشيخ محمود شلتوت الذي ولد في بلدة منية بني منصور، مركز ايتاي البارود، محافظة البحيرة، جمهورية مصر العربية في ١٨٩٣/٤/٢٢م، حفظ القرآن الكريم وعمره اثنا عشر عاماً، نشأ في أُسرة دينية، فوالده تخرّج في الأزهر وجدّه أيضاً ولايوجد منزل في عائلته إلّا وفيه عالم أو حافظ للقرآن الكريم.

تخرّج في الأزهر سنة ١٩١٨م، وتنقّل في التدريس إلى أن نُقل إلى القسم العالي بالقاهرة سنة ١٩٢٧م، وكان داعية إصلاح، نيّر الفكر، سعىٰ إلى إصلاح الأزهر، وفُصل هو ومناصروه، فعمل بالمحاماة، وأُعيد إلى الأزهر وعيِّن وكيلاً لكلّية الشريعة، وكان عضواً في هيئة كبار العلماء، وكان خطيباً موهوباً، له ستة وعشرون مؤلّفاً في التفسير وشتّىٰ فروع الثقافة الإسلامية، وله اجتهادات لم يسبق إليها، منها فتواه الشهيرة التي أصدرها فضيلته وهو شيخ الجامع الأزهر بجواز التعبّد على أيّ مذهبٍ من المذاهب الإسلامية التي عُرفت أُصولها، ونقلت نقلاً صحيحاً. فلقد كانت هذه الفتوىٰ ثمرةً يانعةً من ثمار التقريب، صدرت من رجل عظيم ذي مركز خطير في الاسلام، اعتنق الفكرة من أول يوم.

والثاني: هو السيد الحبر آقا حسين الطباطبائي البروجردي، ولد في بروجرد غربي إيران من أُسرة عُرفت بطول باعها وسعة معارفها في الشريعة الاسلامية، ولا غرو أنّ الأُسرة الطباطبائية من صلب الإمام جعفر الصادق الرائد الأول للمذهب الجعفري، الإمام السادس عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية، وهم الأقرب في مذهبهم

إلىٰ أهل السنّة، ويدرَّس مذهبهم ضمن المذاهب التي تدرَّس في الأزهر الشريف.

بدأ دراساته في مسقط رأسه، ثم انتقل إلى إصفهان وقم، ورحل إلى النجف الأشرف، وهناك استطاع أن يترقّىٰ في درجات العلم المطلوب والمرتبة المعهودة لعلماء الشيعة، ممّن ينالون درجة الاجتهاد التي تؤهّل صاحبها لأن يكون مرجعاً للتقليد لأتباع المذهب، وبعدها عاد إلىٰ مسقط رأسه بروجرد، وبقي هناك مشتغلاً بالعلم والتدريس إلىٰ أن هيّأت له الأقدار تولّي مرجعية التقليد في إيران، ورحل إلىٰ مدينة قم وتولّى بذلك زعامة المذهب الإمامي الاثني عشري.

وتذكر مجلّة رسالة الاسلام لسان جماعة التقريب: أنّ الجهود الكبيرة التي بذلها الإمام السيد حسين الطباطبائي البروجردي، والذي يعدّ من أكبر العاملين على جمع كلمة المسلمين، فهو لم يكن رجل طائفة فحسب، أو صاحب مذهب معيّن، أو القائد الروحي لشعبٍ بذاته، وإنّما كان رجل الدنيا والدين للناس جميعاً والإسلام، توفّي في ٣٠ مارس ١٩٦١م.

التوصيات

وفي ختام الملتقى انتهى المجتمعون إلىٰ بيان عام حوىٰ عدداً من التوصيات والنقاط، من بينها:

١ ـ التأكيد علىٰ ما أشار إليه الإمام علي خامنئي من أن هدف تكريم العالمين الجليلين هو تقدير ما قدّماه من خدمة عظيمة للأمة الاسلامية التي هي اليوم في حاجة أكثر من أيّ وقتٍ مضىٰ إلى الوحدة والتقريب، وأنه يجب بذل الجهود لدفع أمواج الفتن بالتمسّك بالقرآن الكريم وسنّة الرسول ﷺ.

٢ ـ ضرورة إثراء الثقافة والفكر والفقه الإسلامي، وتعميق فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وتبادل الخبرات في مختلف المجالات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية بما يحقّق وحدة المسلمين.

٣ ـ أعرب المجتمعين عن تقديرهم لجهود العالمين الكبيرين: الإمام البروجردي والامام شلتوت؛ لما بذلاه من جهود عظيمة لوحدة المسلمين، واعتبروها نموذجاً يحتذىٰ به، وطالبوا بنشر أفكارهما ومؤلّفاتهما.

٤ ـ وجّه المجتمعون التحيّة للانتفاضة المباركة في فلسطين، وطالبوا بـدعمها، وأدانوا محاولات الانتقاص من حقوق الشعب الفلسطيني، وحقّه في تحرير كامل ترابه، خاصّةً القدس الشريف.

٥ ـ أثنى المشاركون في الملتقىٰ علىٰ جهود المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية، وباركوا إنشاء جامعة التقريب بين المذاهب الاسلامية في طهران.

٦ ـ كما أثنى المشاركون علىٰ جهود مجمع البحوث الإسلامية فـي مـجالات التقريب ودعم الوحدة الاسلامية.

٧ ـ أوصى المشاركون بالمزيد من العمل المشترك لتأليف مشـروعات عـلمية مقارنة تشمل حقول التفسير والفقه وغيرهما، وأكّدوا على ضرورة تبادل الأساتذة والطلّاب والكتب والمناهج بين الجامعات والمؤسسات.

٨ ـ دعا المشاركون لتكرار الملتقىٰ في الأزهر بالقاهرة عام ١٤٢٣هـ بـمناسبة مرور أربعين عاماً علىٰ وفاة المرحوم الإمام محمود شلتوت.

٩ ـ قدّم المشاركون بالغ الشكر والتقدير للإمام الدكتور محمد سـيد طـنطاوي شيخ الأزهر على اهتمامه البالغ بموضوع الوحدة والتقريب، ومـتابعته مشكـلات وقضايا المسلمين.

١٠ ـ قدّم وفد الأزهر الشكر والتقدير للإمام آية الله علي خامنئي علىٰ رعايته المؤتمر، وكلمته في الافتتاح.

خلاف السنّة والشيعة مجرّد خلاف في الفرعيات[1]

أثناء زيارة وفد الأزهر إلى إيران صلّى الشيعة الظهر والعصر خلف إمامة الشيخ محمود عاشور، وفي صلاة المغرب تولّى الإمامة آية الله شيعي وصلّىٰ خلفه الوفد المصري رغم أنّ الشيعة يضعون حصاة طوب للسجود عليها، ويجمعون الظهر مع العصر، والمغرب مع العشاء، لكنّ الصلاة خلف الإمامة المتبادلة كانت بهدف التأكيد على إمكانية التقريب بين المذهبين كما يقول الشيخ محمود عاشور وكيل مشيخة الأزهر ورئيس الوفد المصري، الذي أكّد أنّ نسبة الخلاف بين المذهبين لاتزيد عن ٥ في المائة، وكلّها في الفروع، وليس في أُصول العقيدة، وحتّى الخلاف القائم بين المحافظين بقيادة خامنئي والمعتدلين بقيادة الرئيس خاتمي لايؤثّر على إمكانية التقريب، فجميع الإيرانيين ينتظرون التقريب بشغف.

وأضاف الشيخ عاشور: أنّ أُولىٰ خطوات التقريب كانت زيارة الوفد المصري، ثم حضور ٣٠ أُستاذاً من جامعة الإمام بايران لدراسة اللغة العربية بجامعة الأزهر.

أمّا نقاط الخلاف فسوف تجتمع هيئة علماء ومجامع البحوث لدراسة كيفية التقريب بشأنها، خاصةً وأنّ زيارة إيران وصل الاتّفاق فيها بين الوفدين إلىٰ حدّ الوحدة، ولم نعد في حاجة إلىٰ عقد مؤتمرات مشتركة، خاصةً وأنّ الوفد المصري

---

١. حوار أجراه مع الشيخ محمود عاشور مندوب مجلّة التصوّف الإسلامي الشهرية، الصادرة في القاهرة، العدد ٢٦٤ ذو الحجة عام ١٤٢١هـ. حاوره أحمد أيوب.

اكتشف أنّ الاختلاف بين السنّة والشيعة لم يكن إلّا مجرد خيال سيطر على الطرفين، فالمصحف واحد، والقرآن واحد، حتّى قرّاء إيران يقلّدون عبدالباسط ومصطفى إسماعيل، ونساء مصر يرتدين الحجاب، ونساء إيران يرتدين الشادور.

▣ لماذا سافرت إلى ايران على رأس وفد مصري؟

● كانت دعوة من المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية لحضور احتفال المجمع بذكرى الإمام البروجردي، وذكرىٰ فضيلة الشيخ محمود شلتوت، باعتبارهما رائدين من رواد التقريب بين المذاهب الاسلامية.

كانت الدعوىٰ للدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر ومعه اثنين، وعدّد ١٢ مفكّراً من مصر لكتابة أبحاث عن الشيخ محمود شلتوت. وعرضت الدعوىٰ علىٰ مجمع البحوث الإسلامية، واختار شيخ الأزهر المفكّرين الاثني عشر الذين كتبوا الأبحاث، ولأن بعض الظروف الخاصّة بالعمل منعت فضيلة الإمام من السفر، فقد طلب منّي الإنابة عنه في رئاسة الوفد.

▣ هل هذه أول سفرية من هذا النوع إلىٰ إيران؟

● نعم.

▣ خلال هذه الرحلة تمّت مناقشة فكرة التقريب بين المذهبين السنّي والشيعي، فكيف يتمّ التقريب من وجهة نظرك؟

● السنّة يقولون: لا إله إلّا الله. محمد رسول الله، وهم يقولونها أيضاً، وبالتالي فالمسافة بين المذهبين قريبة وليست بعيدة، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: «من قال: لا إله إلّا الله دخل الجنّة» فيرد عليه أبو ذر بسؤال: وإن زنىٰ يارسول الله؟ قال الرسول: «وإن زنىٰ...» فالقضية قضية إيمان، وطالما لايوجد كفر فالتقريب جائز.

أضف إلى ذلك: إنّنا نتّفق مع الشيعة في الثوابت والأُصول، فهم مثلنا يأخذون من القرآن والسنّة.

في الفقه نتفق في ٩٥٪ منه ونختلف في ٥٪ ويمكن التقارب بينهما، فالإسلام

أمرنا بالحوار مع من لايتّفق معنا في العقيدة، فما بالنا بالمتّفقين معنا في العقيدة!

◘ ما هي أوجه الخلاف بين المذهبين؟

● نحن الآن نتحدّث في أوجه الاتّفاق وليس الخلاف، لأنّ الخلاف في الفرعيات، مثلما كان يختلف الائمة: أبو حنيفة وابن حنبل والشافعي، بل إنّ أبا حنيفة أنهى الخلاف قائلاً: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب» فالخلاف موجود حتّى بين الائمة، لكنّه لم يصل إلىٰ مرحلة أن يكفّر بعضهم بعضاً أو يجرمه.

وحين ذهبنا إلىٰ إيران صلّينا معهم وصلّوا معنا، ولم نجد اختلافاً جوهرياً في الصلاة.

◘ كيف لايوجد خلاف ومعروف أنّ الشيعة لهم طقوس خاصّة في الصلاة؟

● كل ما هنالك أنّهم يضعون «طربة» من جنس الأرض ـ تراب ـ ليسجدوا عليها.

◘ من كان الإمام؟

● تبادلنا الإمامة في الصلاة، ففي صلاة الظهر صلّى الشيعة وكان الإمام مصرياً، وفي صلاة المغرب صلّىٰ بنا الشيعة، وقد يكون أحد سمات الصلاة هناك أنّهم يجمعون الظهر مع العصر، والمغرب مع العشاء، وهذا وارد وجائز شرعاً.

◘ وهل لو تمّ التقريب بين المذهبين قد نصلّي في مصر الظهر مع العصر؟

● هذا صعب؛ لأنّنا تعوّدنا على صلاة كلّ فرض بمفرده حسب ما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن ليس هذا معناه أنّ الشيعة ليسوا مؤمنين، لأنّ الخلاف الأساسي ليس في العقيدة، وبالتالي يمكن تداركه بسهولة.

◘ طالما أنّك تتحدّث عن التقارب بين المذهبين، فلابدّ من وجود تقارب بين المجتمع المصري ونظيره الإيراني، هل لاحظت ما يشجّع علىٰ هذا التقارب بين المجتمعين خلال زيارتك؟

● لم أشعر بالغربة أبداً، فقد استقبلونا بحفاوة كبيرة، وكان ينتظرنا كلّ آيات الله في المطار، حتّى أنّ آية الله تسخيري كان مصاباً بالشلل ومع ذلك تحامل علىٰ نفسه

وحضر لاستقبالنا في المطار.

كذلك الحوزات الدينية في قم استقبلونا بحبٍّ شديد.

◙ وماذا لاحظت على الشعب؟ وهل وجدت اختلافاً بين الشعب الإيراني وحكومته حول ضرورة التقريب مع مصر؟

● الشعب الإيراني يحبّ مصر، وهم والحكومة يتطلّعون بشغف إلىٰ عودة العلاقات.

◙ إذا كانت الملاحظة علىٰ نساء العالم هي السفور، فما رأي المرأة الإيرانية؟

● المرأة الإيرانية ملتزمة بارتداء «الشادور» وهو مثل الحجاب في مصر.

◙ هل يمكن أن نقول بأنّ الالتزام الديني في إيران أكثر من مصر؟

● لا أستطيع تأكيد هذا لمجرّد أُسبوع قضيته هناك، فلابدّ من النزول والتعامل مع كلّ الطوائف، إنّما الملاحظة الأساسية أنّ المساجد في إيران تمتلئ وقت الصلاة، والجميع يراعون الله في تصرّفاتهم.

◙ طالبت خلال زيارتك بالعودة إلىٰ دار التقريب بين المذهبين مرّةً أخرىٰ، فماذا تفيد هذه الدار بعد ٣٥ سنة من إغلاقها؟

● دار التقريب مفيدة جداً، لإنّنا لسنا بعيدين عن الشيعة، فهم إخواننا في الإسلام. دار التقريب كانت فاعلة، وكانت تصدر عنها مجلّة رسالة الإسلام وكانت موضوعاتها ثرية بأوجه التقريب.

◙ أليس من الأفضل تنظيم مؤتمر يحضره جميع العلماء والأئمة من المذهبين للمناقشة والحوار؟

● تقابلنا وتناقشنا ووصلنا إلىٰ تقارب شديد قد يرقىٰ إلىٰ مرتبة الوحدة، أمّا المؤتمرات فتنعقد وتنفضّ ولا شيء يحدث، فلقاء إيران أكثر فاعلية من المؤتمرات، وكان له مردود طيب.

◙ ما هي الأُمور التي اتّفقتم عليها وتصل لمرحلة الوحدة؟

● اتّفقنا ألا نختلف في أمر من الأمور، لأنّ فكرتنا عن الشيعة قبل ذلك كانت

أنّهم يحملون مصاحف خاصة وطقوس خاصة، ولذلك حرصنا علىٰ أن يحتفظ كلّ عضو في الوفد المصري بمصحفٍ خاصٍّ به، لكنّنا فوجئنا بأنّ المصحف هو نفس المصحف، وكلّ المؤتمرات والندوات التي انعقدت خلال الزيارة تعبّداً بالقرآن، بل إنّ القرّاء الإيرانيين كانوا يحاولون تقليد مقرئ مصر، ففي الافتتاح كان القارئ يقلّد الشيخ عبدالباسط عبدالصمد، والثاني يقلّد الشيخ مصطفى إسماعيل. وخلال الزيارة تمّت إزالة اللبس الذي كان عالقاً في أذهاننا.

▣ ما جرىٰ خلال الزيارة من حوارات امتدّت إلىٰ موضوعات سياسية، جعل البعض يؤكّد أنّ هدف زيارة وفد الأزهر سياسي وليس دينياً!

● إطلاقاً... لم نذهب إلىٰ إيران إلّا للاحتفال بذكرى الإمام شلتوت وبروجردي، وكانت كلمتي الأُولىٰ عن التقريب بين المذاهب وأساسه الإسلامي.

▣ وما الذي حوّل الحديث إلى السياسة؟

● كان هذا فقط خلال لقائنا بالمرشد العام علي خامنئي، ثم لقاء رئيس الجمهورية، لكنّ الحقيقة الأكيدة أنّهم ينظرون إلى الأزهر الشريف ليكون مرجعية دينية لهم.

▣ وهل امتدّ الحديث في السياسة إلى الحديث عن موقفهم من أمريكا أو إسرائيل، خاصةً وأنّهم تحدّثوا عن كامب ديفيد؟

● كانت كامب ديفيد هي الملاحظة الوحيدة للمرشد العام، وتمّ الردّ عليها، وكان ردّاً شخصياً، ولم أحصل علىٰ توجيهات بشأن أحد، بل حتّىٰ بعد عودتنا لم يتّصل بي أحد، ولم يلمني أو يشكرني أحد، حتّى شيخ الأزهر عندما سألته عن توجيهاته قبل السفر قال لي... لا توجيهات.

▣ بعد العودة من إيران، هل ترىٰ أنّ التقريب بين المذهبين: السنّي والشيعي سوف يفيد سياسياً في العلاقة بين مصر وايران؟

● سوف يفيد على الأقلّ وحدة إيران مع مصر، فالبلدان قوّة هائلة، وحينما تلتقي القوّتان سوف تحدث معجزات، ثم لماذا لايكون هذا التقريب خطوة إلى الأمام.

العلاقات بين مصر وايران[1]

عاد فضيلة الدكتور نصر فريد واصل مفتي الجمهورية، من زيارة مهمّة واستثنائية لإيران، بكثير من الأخبار السارّة، فهناك حرص علىٰ تجاوز المشاكل التي عاقت عودة العلاقات السياسية بين البلدين. ورصد المفتي من خلال لقاءاته مع كبار المسؤولين ـ سواء آية الله علي خامنئي المرشد العام للثورة الإيرانية والرئيس محمد خاتمي ـ حرصهم جميعاً علىٰ عودة العلاقات مع مصر إلىٰ طبيعتها، بالإضافة إلى اتّفاق بين الطرفين علىٰ بعث الجهود مرةً أخرىٰ للتقريب بين المذاهب، خاصة السنّة والشيعة. «آخر ساعة» التقت مع فضيلة المفتي، وحاورته حول نتائج وأسباب زيارته لإيران.

▫ ما الهدف من زيارتكم إلى إيران؟ وما الذي تمّ في هذه الزيارة؟ وهل تحقّق هذا الهدف؟

● كانت زيارة إيران زيارة ناجحة ومهمة وضرورية لإذابة بعض الجليد الذي ما زال باقياً على السطح بين البلدين الشقيقين: مصر وإيران، لأنّ المسلم في كلّ مكان بالعالم هو أخ المسلم وشقيقه، فالعقيدة الواحدة التي تجمعه مع شقيقه هي الإسلام، وهي العقيدة التي جاءت للناس جميعاً في كلّ زمان ومكان مع اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم.

---

١. حوار أجراه مع الدكتور الشيخ نصر فريد واصل مفتي الجمهورية مندوب مجلّة آخر ساعة الأسبوعية التي تصدر في القاهرة، العدد (٣٤٥٧) بتاريخ ٢٤ يناير/كانون الثاني لسنة ٢٠٠١م، حاوره أُلفت الخشّاب.

وقد كان الهدف من الزيارة الاشتراك في احتفالية تقام لأول مرّة لعالمين جليلين كريمين، هما فضيلة الإمام الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق، وأول من أنشأ مدرسة التقريب بين المذاهب الفقهية الاسلامية على مستوى العالم العربي والاسلامي في عصرنا الحديث: سماحة الشيخ آية الله البروجردي، أهم من تعاونوا وأسسوا هذه المدرسة في إيران بعد الشيخ القمي الذي كان متواجداً في مصر في ذاك الوقت مع الشيخ شلتوت. وكان الهدف من المؤتمر التقريب بين المذاهب، وشهد المؤتمر الديني مشاركة واسعة من جميع العلماء والمتخصّصين في إيران وفي العالم الإسلامي.

◫ هل كان هذا المؤتمر أول لقاء رسمي وعلى هذا المستوى يتعرّض لقضية التقريب بين المذاهب؟

● هذا صحيح، فهو الأول الذي يعقد لهذا الغرض، فبعد إنشاء مدرسة التقريب بين المذاهب في مصر أُنشئ في إيران المجلس العالمي للتقريب بين المذاهب، وأخذ يمارس دوره وانشطته من خلال لقاءات تتمّ على مستوى العالم الإسلامي بين العلماء، في زيارات متبادلة لم تأخذ شكل المؤتمر الرسمي إلّا في المؤتمر الأخير.

والحقيقة أنّ هذا المؤتمر أخذ الشكل العالمي لأنّه ضمّ كلّ الشخصيات الاسلامية الهامة المتخصّصة في مصر وإيران خاصة بعد مشاركة علماء مجمع البحوث الإسلامية، وهي أكبر هيئة علمية بناءً على اختيار فضيلة شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي، وهي كما نعرف تضمّ كبار العلماء، وتجمع جميع التخصّصات العلمية الدينية والعملية.

◫ ما المقصود بالتقارب بين المذاهب؟ وكيف يتحقّق؟

● هو محاولة القضاء على وهمٍ زرعه الاستعمار بين المسلمين، بعد أن أشاع بوسائل مختلفة أنّ هناك فروقاً بين الشيعة وأهل السنّة بهدف الفتنة بينهم، ولعب دوراً رئيسياً عندما احتلّ البلاد الإسلامية، وأراد من خلال الغزو الفكري والثقافي

أن يوحي إلى كلّ فريق من فرق المسلمين ـ وبخاصة الشيعة وأهل السنّة ـ أنّ هناك تباعداً كبيراً بينهما لتحريف الكلم بينهم حتّى أصبح الشيعي والسنّي يتصوّران أنّهما أعداء، وكأنّهما ليسا على دين واحد، وأدخل في روع الجميع أنّ الشيعة انحرفت عن الاسلام! ممّا جعل الشيعة في نظر المسلمين من أهل السنّة خارجين عن الاسلام، وهو أمر ليس حقيقياً.

◙ هل هو أمر غير حقيقي بالنسبة لكلّ فرق الشيعة؟

● لا، إنّه ليس حقيقياً لأغلب الفرق، بالطبع هناك فرق منحرفة، ولكن هذه الفرق تنكرها شيعة إيران ولاتعترف بها، ولا وجود لهم في إيران، لكن الشيعة الموجودة في إيران هي الشيعة الإمامية المعترف بها، التي تدرَّس في جامعة الأزهر ونستعين بها في كلّ بحوثنا. كما أكّد فضيلة الإمام الشيخ شلتوت على أنّها من المذاهب التي نتعبّد بها، ونحن هنا ـ في دار الإفتاء ـ عندما نفتي نلجأ إلى كلّ المذاهب بما فيها المذهب الشيعي الإمامي والزيدي، ومذاهب الصحابة والتابعين جميعاً، وكلّهم على درجة سواء في مجال الدليل الذي نرجّحه للحكم والإفتاء. وهناك كثير من التشريعات في الأحوال الشخصية نستعين فيها بالمذاهب الشيعية، مثل الإمامية والزيدية السند القوي.

◙ ما هو انطباعكم بعد هذه الزيارة؟

● لقد وجدنا في هذه الزيارة أنّ الفقه الإسلامي والمذاهب الإسلامية تدرَّس لديهم علىٰ مستوىً عالٍ وراقٍ، فهم يدرسون هناك المذهب الشافعي والحنفي كمدارس متخصّصة، بل ويهتمون بالدراسات المقارنة، وقد تأكّد لنا أنّ كلّ ما كنّا نتصوّره ولانصل إلى حقيقته ما هو إلّا وهم، وأنّ الحقيقة أنّ الشعب الإيراني يحبّ المصريّين ومصر، ويعتبرونها السند القوي لهم، ونحن أيضاً نعتبرهم كذلك، لأنّ قوة المسلم مع أخيه المسلم هامة، وقوة إيران لايستهان بها، فهي دولة ذات حضارة قوية جداً من الناحية الإسلامية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

كما تأكّد لهم أنّنا هنا في مصر نتشيّع لأهل البيت أكثر منهم، فنحن نضع في قلوبنا أهل بيت رسول الله ﷺ: الحسين عليه السلام، والسيدة زينب، والسيدة نفيسة، والإمام علي زين العابدين. كما تأكّد لنا أنّهم يتشيّعون للإسلام عقيدةً وشريعة، والخلاف بيننا وبينهم إنّما في بعض الفروع الفقهية، وهو أمر لايؤثّر بأيّ حال من الأحوال على العلاقات، فهناك خلافات في فروع فقهية بين المذهب الشافعي والمذهب الحنفي والمالكي والظاهري، بل إنّ هناك خلافات في فروع داخل المذهب الواحد، وهذا يعتبر مصدر ثراء للفقه الإسلامي، فهذه الخلافات ما هي إلّا ميزة تؤدّي إلى ثراء الفقه الاسلامي لأنّنا عندما نريد أن نأخذ من الفقه الإسلامي في أيّ قضية من القضايا التشريعية، سنجد الحلول موجودة في كلّ هذه المذاهب وميسّرة، بدلاً من أن نأخذ عن الغرب.

◻ ما هو حجم الاختلاف بين المذهب الشيعي والسنّي؟

● ثبت لنا من تراثنا الإسلامي في مجال الشريعة الاسلامية والفقه الاسلامي أنّنا نتّفق في ٩٥٪ وأنّ الخلاف بيننا لايتعدّىٰ ٥٪ وهو يدور حول مسائل فرعية، وليست أساسية. والحقيقة أنّه أصبح من الضروري التواصل والتواؤم بين أبناء الأمة الإسلامية الآن، خاصةً في ظلّ التحدّي والتكتّل العالمي ضد المسلمين، وفي ظلّ العنصرية الصهيونية العالمية التي تسعىٰ للسيطرة على مقدّراتنا ومقدّساتنا في فلسطين.

◻ هل جاء التقارب الديني بين مصر وإيران انعكاساً للمواقف السياسية المتقاربة وصورها بين الدولتين هذه الأيام؟

● اعتقد أنّ التقارب السياسي قائم وموجود، وما لمسناه من القيادات السياسية هو الرغبة الشديدة في هذا التقارب، لكن كما نعلم أنّ التقارب الأصلي هو تقارب الشعوب الذي يقوم على التقارب الديني والعقائدي، وهو الذي يسهّل الأمر للحكّام والقيادات السياسية من أجل التقارب في شتّى المجالات الأخرىٰ، لأنّه إذا لم يكن

هناك ترابط بين الشعوب ينبع من العقائد والثقافة والتراث الاجتماعي، يكون من الصعوبة بمكان وجود اتّفاق سياسي، وأكبر دليل علىٰ ذلك حالة اسرائيل، لنا علاقات سياسية ودبلوماسية مع إسرائيل ولكنّها مجمّدة، ولا قيمة لها أمام الشعوب بسبب وجود عوائق كثيرة جداً بين الشعبين، فليست العبرة بالتقارب أو اللقاء السياسي وإنّما بالعلاقات الشعبية والثقافية والدينية المتينة والأصيلة التي تذيب الفوارق بين الشعوب.

◙ ما هي التوصيات التي خرج بها مؤتمر التقريب بين المذاهب؟

● كلّها تتعلّق بالهدف من المؤتمر، ونسعىٰ لزيادة هذا التقارب لتحقيق الهدف المنشود لنا جميعاً في استمرار التواصل بين الشعوب الإسلامية في المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية الذي به تتحقّق وحدة الأمة الاسلامية، وتنشأ السوق الاسلامية المشتركة.

◙ من الملاحظ أنّ هذه هي المرّة الأولى التي يذهب فيها إلى إيران وفد كبير من الأزهر ومجمع البحوث الاسلامية، فما تفسيركم لذلك؟

● إنّ الأرضية هناك أصبحت ممهَّدة لذلك، وفي نفس الوقت استدعت الظروف التي تمرّ بها الأمة الاسلامية أن يكون الوفد من مصر على هذا المستوى العلمي الكبير، وقد حقّق ذلك الهدف منه، وأنهىٰ كثيراً من الأوهام التي كانت... بما قدّمه من الأبحاث والحوارات واللقاءات والمناقشات والمؤتمرات التي دارت في مستويات مختلفة، حتّى ظهر للجميع حقيقة أنّ الدور المريب الذي قام به المستعمرون الذين أدخلوا في عقله الخلاف والفرقة، ونستطيع أن نقول: إنّ هذه الصورة اتّضحت وتغيّرت ١٨٠ درجة عند الشعب الإيراني بكلّ مستوياته الشعبية والسياسية، وعند علماء الدين، والعلماء هناك لديهم الثقل والقيادة للشعب، وتأكّد للجميع أنّ مصر ـ ولله الحمد ـ معها كلّ الخير، وأنّه ليس هناك تأثير عليها اطلاقاً من أيّ جهة أجنبية، وأنّ كلمتها في يدها ومع قيادتها السياسية والدينية، وأنّه لا سلطان لا حدٍ

عليها سوى الله سبحانه وتعالى. والحقيقة أنّ هذا اللقاء حقّق ما لم تستطع أن تحقّقه عشرات السنين الماضية.

◘ هل أُثير في المؤتمر قضية توحيد أوائل الشهور العربية في العالم الإسلامي؟

● نعم أُثيرت هذه القضية على هامش المؤتمر، وقد وجدنا أنّ كلّ شيء يؤدّي إلى التقريب هم يتّفقون معنا عليه تماماً، وقد طلبوا بيانات أكثر وتقارير أكثر فيما يتعلّق بهذه القضية. ما أودّ التأكيد عليه... أنّه يجب أن تتّجه كلّ القوى المادية والمعنوية للعمل علىٰ تحقيق هذا الهدف، وإذابة أيّ أسباب تعوق هذا التقارب، والعمل بشتّى الطرق على إنجاز التقارب السياسي لإعادة العلاقات الكاملة بأسرع ما يمكن. وهذه وصية عامة لكلّ مسلم، سواء كان هنا أو هناك أو في أيّ مكان في العالم، لأنّ هذا التقارب هو الذي سيقضي علىٰ أيّ خلافات فرعية، ويجعلها تذوب.

آيات الله وشيوخ الأزهر...[1]

لا يبالغ الإيرانيون كثيراً عندما يرون في اللقاء الذي ضمّ علماء الأزهر الشريف وآيات الله الكبرىٰ والعظمىٰ من علماء الحوزة الدينية الشيعية ومراجعها العليا أهمّ حدث في تاريخ الإسلام، منذ الفتنة الكبرى التي مزّقت العالم الاسلامي شيعاً ومذاهب قبل أربعة عشر قرناً، وباعدت بين السنّة والشيعة، وخلقت فجوةً كبيرةً في علاقات المسلمين استثمرها أعداء الإسلام لتمزيق وحدة العالم الإسلامي.

وبقدر الترحيب الضخم الذي لقيه علماء الأزهر على امتداد ستة أيام جرت فيها اجتماعات الجانبين في مدينتي طهران وقم، تكبر آمال الحوزة الدينية من أئمة الشيعة في أن يكون هذا اللقاء بداية انحسار خلافات طويلة مزّقت العالم الإسلامي، لأنّ لقاء الأزهر بمكانته الضخمة في العالم الإسلامي، ومرجعيته الأساسية على امتداد ألف عام، باعتباره حصن السنّة وحافظها، مع علماء إيران الذين يمثّلون المرجعية الدينية الأساسية لما يزيد علىٰ مليون شيعي في إيران وافغانستان والصين وبعض دول الخليج، يغلق أبواب التفرّق المذهبي الذي عصف بالأُخوّة الإسلامية، وأعطى الفرصة لاتّجاهات خبيثة سعت إلىٰ زيادة الفرقة بين السنّة والشيعة، رغم أنّ الخلاف بين الجانبين لم يكن يتعلّق بأُصول الدين...، ولكنّه التعصّب الذي حال دون أن يكون هذا الخلاف مصدر ثراء وغنىً لعقائد الإسلام،

---

١. مقال للأستاذ مكرم محمد أحمد، رئيس تحرير مجلّة المصوّر الأسبوعية القاهرية، نشرته المجلة في العدد (٣٩٨٠) شوال ١٤٢١هـ.

يعزّز سماحة الفكر وحرية الاجتهاد، ويعلّي مكانة العقل في الفكر الإسلامي، بدلاً من أن يكون أداة هدمٍ لوحدة العالم الإسلامي.

كان اللقاء موضع حفاوة إيران كلّها، ابتداءً من جماعة المحافظين الذين وجدوا في اللقاء سنداً قوياً لكسر عزلة الشيعة في العالم الإسلامي، ومدخلاً مهمّاً لتوثيق العلاقات الثقافية بين القاهرة وطهران، إلى الإصلاحيين الذين رأوا في هذا اللقاء دعماً لتيار الاعتدال الذي ينبذ التشدّد، ويدعو إلىٰ حوار الحضارات والأديان، ويسعىٰ إلىٰ تصحيح علاقات إيران بالعالم الخارجي، إلى الشارع الإيراني بمشاعره الجيّاشة تجاه مصر، الذي يرىٰ في لقاء طهران والقاهرة علىٰ أيٍّ من المستويات دلالةً على الاستقرار والاعتدال وحسن التوجّه، ويرفض كلّ المبرّرات التي تعوق تقدّم العلاقات بين مركزين مهمّين من مراكز الثقافة الإسلامية، يمكن لتعاونهما المشترك أن يسهم في تصحيح صورة الإسلام.

ولم يكن مصادفةً أن يحرص آية الله علي خامنئي مرشد الثورة على افتتاح المؤتمر بخطابٍ يؤكّد فيه على الدور المهمّ الذي يمكن أن تلعبه الحوزة الدينية في طهران مع الأزهر الشريف في توثيق روابط العالم الإسلامي، ودرء الأخطار التي تهدّد المسلمين، ودعم وحدة العالم الإسلامي التي كان يمكن ـ لو تحققت من قبل ـ أن تحول دون وقوع كارثة فلسطين، وأن يشهد أعمال المؤتمر عددٍ من آيات الله الكبرىٰ والعظمى الذين يشكّلون المراجع العليا للتيار المحافظ، ابتداءً من آية الله العظمىٰ مكارم شيرازي أكثر علماء التيار المحافظ تشدّداً إلى آية الله مهدوي رئيس رجال الدين المجاهدين «روحانيان مبارز» عصب الجناح المحافظ، إلىٰ آية الله جنّتي أمين عام مجلس صيانة الدستور، إلىٰ آية الله مشكيني رئيس مجلس الخبراء الذي يعيّن مرشد الثورة، إلىٰ آية الله محمد واعظ زادة الخراساني أمين عام المجلس العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية.

وكما حرص التيار المحافظ علىٰ تبنّي هذا اللقاء ودعمه، حرص الرئيس خاتمي

زعيم تيار الإصلاحيين علىٰ لقاء قطبي الوفد الأزهري: الشيخ محمود عبدالغني عاشور وكيل الأزهر والدكتور نصر فريد واصل مفتي الديار المصرية، ليؤكّد لهما أنّ اللقاء من وجهة نظره يعزّز سماحة الإسلام واعتداله، ويعطي مصداقيةً كبيرةً لحوار الحضارات والأديان، لأنّه ينطلق من وفاق السنّة والشيعة، كما حرص هاشمي رفسنجاني رئيس الجمهورية الأسبق على المشاركة في أعمال المؤتمر بخطابٍ مهمّ، ركّز فيه على دور الأزهر الشريف الذي بدأ قبل ٦٠ عاماً جهداً مخلصاً للتقريب بين المذاهب الاسلامية، رعاه عدد من شيوخ الأزهر الكبار، ابتداءً من الشيخ عبدالمجيد سليم، إلى الشيخ المراغي، إلى الشيخ محمود شلتوت الذي تواصلت علاقاته وحواراته مع آية الله العظمى الإمام البروجردي أكبر المراجع الشيعية في عصره، حتّىٰ أثمرت هذه الفتوى التاريخية التي أصدرها الشيخ شلتوت عام ٦١، لتؤكّد للمرة الأُولىٰ جواز أن يتعبّد المسلم علىٰ مذهب الشيعة الإمامية، هذه الفتوى الشجاعة التي كسرت حاجز العزلة حول الشيعة، وكانت فاتحة عهدٍ جديدٍ بين السنّة والشيعة، وجعلت من الأزهر منارةً لسماحة الفكر في عيون أئمة الشيعة.

باختصار تسابقت كلّ التيارات في إيران إلى الترحيب بدورٍ متجدّدٍ للأزهر، يواصل فيه ما انقطع، ويتبنّىٰ مرةً أخرىٰ جهود التقريب بين المذاهب الإسلامية، اتّصالاً مع جهوده التاريخية التي بدأها قبل ٦٠ عاماً، لأنّ المسلمين ـ كما يقول آية الله خامنئي ـ أحوج ما يكونون الآن إلىٰ توحيد جهودهم في عصرٍ يقوم على التكتّلات الدولية الكبرىٰ تصون مصالحها، علىٰ حين تتبدّد مصالح المسلمين تحت وطأة خلافاتهم المذهبية والسياسية، وانقسامهم إلىٰ شيع متفرّقة يحارب بعضها بعضاً.

وإذا كان المؤتمر قد أخذ في جانبٍ منه صورة الاحتفال بذكرىٰ هذين العالمين الجليلين: الإمام البروجردي أكبر مراجع الشيعة في عصره، والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر وقتها، الذي آمن بفكرة التقريب بين المذاهب بعد أن رأىٰ أنّ الخلاف بين الشيعة والسنّة قد أصبح مدخلاً لخصام المسلمين

وتشتّتهم رغم أنّه خلاف في الفروع لا في الاصول، إلّا أنّ المؤتمر قد أضاء الدور الباهر والعظيم الذي لعبه الأزهر للوصول إلىٰ هذا الهدف، في وقتٍ وصل فيه الخصام بين الشيعة والسنّة إلىٰ ذروته، إلىٰ حدٍّ أنّ كلّاً منهما كان يعتزل الآخر، ويروّج لكتب مشحونة بالطعن والسخرية والتجريح علىٰ آراء الآخر، دسّها فرقاء كثيرون حريصون علىٰ تمزيق وحدة الأمة الإسلامية، وأثمرت فهماً مغلوطاً لدى الجانبين زاد من صعوبة التقريب بينهما، لأنّ كلّاً منهما كان يتصوّر أنّ التقريب سوف يكون علىٰ حساب عقائده.

ولا أظنّ أنّه كان في وسع عالم آخر غير الشيخ شلتوت أن يصدر هذه الفتوى الشجاعة التي اعتبرت الجعفرية مذهب الإمامة الاثني عشرية مذهباً شرعياً كسائر المذاهب الإسلامية التي يجوز التعبّد بها، تلك الفتوى التي فتحت الطريق واسعاً إلى المصالحة بين السنّة والشيعة.

صحيح أنّ الشيخين الجليلين عبدالمجيد سليم ومصطفى المراغي كانا قد مهّدا الطريق إلىٰ هذه الفتوىٰ بحماسهما لجهود التقريب بين المذاهب الإسلامية المختلفة، وصحيح أيضاً أنّ عالماً إيرانياً فاضلاً هو الشيخ محمد تقي الدين القمي كان قد نزل من طهران إلىٰ مصر عام ١٩٣٧، وأقام في القاهرة بعد أن نذر نفسه لمهمة التقريب بين الشيعة والسنّة، وسعىٰ إلى الأزهر الشريف يحاول إقناع شيوخه بأهمية التقريب، إلّا أنّ الشيخ شلتوت وحده هو الذي ملك شجاعة إصدار هذه الفتوى التاريخية ١٩٦١...، ربّما لأنّه تربّىٰ علىٰ فكر الإمام المستنير محمد عبده، وكان واحداً من الشيوخ المجتهدين الذين يعلون قيمة العقل، ويملكون ثقةً في أنفسهم وعلمهم تحرّرهم من أن يكونوا مجرّد أسرىٰ لآراء السابقين، ويحسنون اختيار الرأي الصحيح الذي يوائم العصر والمجتمع، ويؤمنون بأنّ الخلاف في الفروع لاينبغي أن يكون أداة فرقةٍ وشتاتٍ ما دام الجميع يؤمنون بإله واحد وكتاب واحد، ويولّون وجوههم شطر قبلة واحدة، ويؤدّون الأركان الأساسية في الإسلام.

كان الشيخ شلتوت شجاعاً في رأيه عندما أعلن هذه الفتوى التاريخية، كما كان شجاعاً في رأيه عندما أعلن للمرّة الأولىٰ، ووسط غبار المناقشات المحتدمة حول قضية الربا في الإسلام، أنّ أرباح صناديق التوفير ليست حراماً، لأنّها ليست فائدة لدين حتى تكون ربا، كما أنّها ليست منفعة جاءت من قرض حتّىٰ تكون حراماً، ولم يكن أحد قبل الشيخ شلتوت يملك شجاعة إصدار هذه الفتوىٰ في مواجهة تيار قوي من الفقهاء المحافظين الذين كانوا يدعون إلىٰ تحريم صناديق التوفير.

وبفضل شجاعة الشيخ شلتوت أصبح الأزهر رمزاً لاكتمال العلم، ورمزاً للسماحة، ورمزاً للتقريب بين المذاهب..، وعرف الفقه الشيعي طريقه إلى الأزهر، وأصبح واحداً من المذاهب المعترف بها التي يتمّ تدريسها في مجال الفقه المقارن، ولم يعد ممكناً لأيّ طالب علم أو بحث أن يكمل بحثه أو دراسته دون الرجوع إلىٰ مذهب الشيعة حتىٰ تكتمل للمقارنة أركانها الصحيحة، ويصبح قادراً علىٰ ترجيح رأي دون آخر.

ولست أعرف الأسباب التي دعت طهران إلىٰ تجهيل دور الإمام القمي في التقريب بين السنّة والشيعة، وإبراز دور الإمام البروجردي وهو دور علىٰ أهمّيته يقلّ كثيراً عن دور القمي الذي لعب الدور الأكبر في إقناع شيوخ الأزهر، وكان له فضل إنشاء دار التقريب بين المذاهب في القاهرة مع عددٍ من شيوخ الأزهر، وإصدار مجلّة شهرية كان يحرّرها عدد من علماء الشيعة والسنّة، واستمرّ في مسعاه... وهو المسعى الذي أتىٰ ثماره في فتوى الشيخ شلتوت التاريخية عام ١٩٦١ بعد نهاية حكم فاروق بتسع سنوات.

وأيّاً كانت الأسباب والظروف، فالواضح أنّ جهود التقريب لم يكن ممكناً أن تكلّل بالنجاح لولا اتّفاق علماء الشيعة والسنّة يومها علىٰ أنّ التقريب بين المذهبين لايعني اندماجهما، أو تذويب مذهب في مذهب، ولكنّه يعني توسيع مساحة الاتّفاق بين الشيعة والسنّة والتي تصل إلىٰ ٩٥٪ من جملة قضايا الإسلام الأساسية

والفرعية، وقبول مساحة الخلاف الباقية باعتبارها اجتهاداً لأئمة لكلّ مذهب، يوائم الظروف المجتمعية لكلّ مذهب، ويحفظ له تميّزه، ومع ذلك فلقد فتحت فتوى الشيخ شلتوت الطريق لأيّ مسلم كي يتّعبّد علىٰ أيّ مذهب صحيح في أُصوله، الأمر الذي يعني جواز الانتقال من مذهب إلىٰ مذهب.

وفي مدينة «قم» المقدّسة، حيث يعيش المراجع العليا للشيعة في حوزاتهم ومدارسهم العلمية المنتشرة حول مرقد فاطمة بنت الإمام جعفر الصادق[1] التي يقدّس الشيعة روحها، يقلّدهم عدد ضخم من التلاميذ يصل إلىٰ حدود ٤٠ ألف مجتهد، يدرسون في هذه المدينة الجميلة التي تشتهر بمكتباتها القديمة التي تحوي عدداً ضخماً من المخطوطات الإسلامية النادرة، وأسواقها المزدحمة بطلّاب الحوزة العلمية، كما تشتهر بمراقد وأضرحة عدد ضخم من آيات الله العظمىٰ، الذين أنفقوا أعمارهم في هذه المدينة، يرعون حوزاتهم العلمية ومكتباتهم العامة، يتبعهم آلاف المجتهدين في إطار مؤسّسي يجعل من كلّ مرجعية عليا مؤسّسة بذاتها، تتلقّىٰ ضرائب العشور من العامة، وتنفق منها علىٰ أوجه نشاطها الخيري والعلمي.

... في قم انعقدت الجلسة الختامية لهذا المؤتمر التاريخي الذي جمع للمرّة الأُولىٰ بين علماء الأزهر وعلماء الحوزة الدينية الشيعية، حيث ساد الاجتماع روح من الوفاق والفهم المشترك ضيّقت دائرة الخلاف إلىٰ حدوده الدنيا، خصوصاً أنّ الخلاف الأساسي بين الشيعة والسنّة حول قضية الإمامة قد أصبح خلافاً تاريخياً لا علاقة له بمجريات الحياة الراهنة، ولم يعد هناك ما يستوجب تجديده، فالإمام المنتظر لايزال غائباً، والولاية تكون لنائبه «الفقيه» الذي يتمّ اختياره من الحوزة الدينية وفق ضوابط وشروط تضمن أن يكون الأفضل والأكثر علماً وورعاً، علىٰ حين تأخذ السنّة في رؤيتها لنظام الحكم بالبيعة التي تمثّل نوعاً من الانتخاب.

---

١. والسيدة فاطمة المعصومة، سمّيت بذلك لشدة تقواها وورعها، هي بنت موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق عليهم السلام.

انتهىٰ لقاء «قم» إلى اتّفاق علىٰ ضرورة إحياء جهود التقريب بين المذاهب، والعمل على لمّ شمل الأمة الاسلامية، وتواصل اللقاءات بين الأزهر والحوزة الدينية الشيعية في إطار جهد علمي خالص، يقوم عليه الشيعة والسنّة، يستهدف التقريب بين المذاهب المختلفة، بعيداً عن ضغوط السياسة ومنافعها الآنية، بحيث يكون الهدف السياسي الوحيد لهذه اللقاءات لمّ شمل الأُمة الإسلامية، وإزالة أسباب الخلافات بين المذاهب؛ تعزيزاً لوحدة العالم الإسلامي.

والحقّ أنّ وفد الأزهر إلىٰ هذا المؤتمر كان علىٰ مستوى مهمّته الكبيرة، فطنة ولباقة وعلماً وحسن تصرّف، وفي لقاء الوفد بمرشد الثورة آية الله علي خامنئي، تحدّث خامنئي عن اتّفاقية «كامب دافيد» باعتبارها عثرة أمام عودة العلاقات علىٰ مستوى السفراء، وكان ردّ رئيس الوفد الشيخ محمود عاشور حازماً ودقيقاً عندما قال لخامنئي: «لقد كانت كامب دافيد من عمل الرئيس أنور السادات وقد غاب عن عالمنا»، أو ماتت ـ الاتفاقية ـ كما قاله المفتي الدكتور فريد نصر واصل. وعندما طلب خامنئي أن تكون المبادرة من مصر ردّد الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الحديث الشريف: «لايحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فيعرض هذا ويعرض ذاك، وخيرهما من يبدأ بالسلام» وهزّ المرشد رأسه موافقاً وهو يتمتم: إن شاء الله.

والحقّ أيضاً أنّ هذا التقرير قد لايكتمل علىٰ وجه صحيح دون الإشادة بدور السفير المصري النابه محمد رفاعة الطهطاوي، حفيد رفاعة الطهطاوي الذي يحوز احترام كلّ الاتّجاهات السياسية في طهران على اختلافها، والذي فتح السفارة المصرية للإيرانيين، وجعلها مكان لقاء وتعارف، ولم يفارق وفد الأزهر الشريف لحظة واحدة، وكان خير عون لمهمته الكبيرة في إيران.

البيان الختامي للمؤتمر التكريمي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

بدعوة كريمة من المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية زار طهران وفد رفيع المستوىٰ من الأزهر الشريف بجمهورية مصر العربية الشقيقة ممثّلاً لمجمع البحوث الإسلامية. حيث أوفده الإمام الشيخ سيد طنطاوي شيخ الأزهر الشريف. وقد ضمّ الوفد الكريم وكيل شيخ الجامع الأزهر الشريف ومفتي الديار المصرية، وعدداً من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية، وذلك بمناسبة انعقاد الملتقى التكريمي للعالمين الكبيرين، آية الله العظمى الإمام البروجردي والعلّامة الإمام الشيخ محمود شلتوت رضوان الله عليهما، وقد استمرّ الملتقىٰ ثلاثة أيام ابتداءً من تاريخ ١٣ شوال المكرم ولغاية ١٥ شوال المكرم عام ١٤٢١ في طهران وقم.

وقد افتتح برسالةٍ هامةٍ من قائد الثورة الاسلامية الايرانية آية الله الخامنئي حفظه الله حيث أكّد فيها على: أنّ الهدف من هذا التكريم هو ما قدّمه الإمامان: البروجردي وشلتوت من خدمة عظيمة للأُمة الإسلامية التي هي اليوم بحاجة أكثر من أيّ وقتٍ مضىٰ للوحدة والتقريب. وأنّ رجال العلم والسياسة لو كانوا قد واصلوا تلك المساعي بجدٍّ لما شاهدنا الخلافات المؤلمة بين المسلمين، ولما حلّت مأساة فلسطين بهذا الشكل المرعب. ودعا سماحته إلىٰ بذل الجهود أمام أمواج الفتن بالتمسّك بالقرآن الكريم وسنّة

الرسول ﷺ القطعية. وقد اعتبر المؤتمرون هذه الكلمة وثيقة من وثائق المؤتمر.

هذا وقد ضمّ اللقاء إضافة إلىٰ ممثّل السيد رئيس الجمهورية، جمعاً من كبار العلماء والشخصيات الثقافية وأساتذة الجامعات الإيرانية، كما أُلقيت مجموعة من الكلمات، وخلاصة للدراسات والأبحاث، وتخلّلتها ندوتان: الأول حول التقريب والوحدة، والثانية حول الانتفاضة المباركة في فلسطين. وقد جرت مداولات في جوٍّ من الموضوعية العلمية والأُخوّة الإسلامية كانت نتيجتها ما يمكن إجماله بما يلي:

بارك المجتمعون اللقاء الهام والتاريخي بين الأزهر الشريف والعلماء في حوزة قم المشرّفة وطهران، ورأوا فيه ضرورة ملحّة لإثراء الثقافة والفكر والفقه الإسلامي، وتعميق فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وتبادل الخبرات في مختلف المجالات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية بما يحقّق وحدة المسلمين وعزّتهم وكرامتهم، وتبوّأ المقام الحضاري المطلوب.

كما أعربوا عن تقديرهم لجهود العالمين المرجعين الكبيرين: الإمام البروجردي والإمام شلتوت؛ لما بذلاه من جهود عظيمة لوحدة المسلمين، واعتبروهما نموذجاً ورمزاً يقتدىٰ بهما، وطالبوا بنشر أفكارهما ومؤلّفاتهما بالإضافة الى الرعيل المتقدّم في مجالات الفكر التقريبي من علماء المسلمين ومفكّريهم.

كما أنّهم وجّهوا التحيّة للانتفاضة المباركة في فلسطين، وطالبوا بدعمها وتأييدها بكلّ وسائل الدعم، كما أدانوا محاولات انتقاص حقوق الشعب الفلسطيني في تحرير كامل ترابه، وخاصّةً القدس الشريف، وطالبوا بمقاطعة منتجات الداعمين الرئيسيين للكيان الصهيوني الغاصب، وتثقيف الأُمة علىٰ روح المقاومة والإرادة القوية لمواجهة الاحتلال والانتهاك للمقدّسات الإسلامية في فلسطين.

وقد أثنوا علىٰ جهود المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية في إيران ونشاطاته المختلفة في المجالات العلمية والثقافية لتوطيد أواصر الأُخوة بين المسلمين، وباركوا له إنشاء جامعة التقريب بين المذاهب الإسلامية في طهران،

وتمنّوا توسيعها، وكذلك إنشاء مثيلات لها في المراكز العلمية الأُخرى ليتعرّف المسلمون علىٰ تراثهم العلمي المشترك. كما أثنوا علىٰ تجاوب مجمع البحوث الإسلامية لجهوده في مجالات التقريب، ودعم الوحدة الإسلامية. كما رحّبوا بجهود المراجع الدينيين والعلماء الروّاد والمعاصرين في مجال الوحدة الإسلامية. ودعوا إلىٰ نشر أفكارهم، وإشاعة ثقافة التقريب وروح الأُخوّة والتفاهم بين المسلمين.

وفي المجال العلمي دعوا إلى المزيد من العمل المشترك لتأليف موسوعات علمية مقارنة، تشمل حقول التفسير والفقه وغيرها.

وتمنّوا على الأزهر الشريف أن يتكرّر هذا الملتقىٰ في القاهرة عام ١٤٢٣هـ بمرور أربعين عاماً علىٰ وفاة المرحوم الإمام شلتوت بمشاركة المجمع العالمي للتقريب والأزهر الشريف، لتكريمه مع الرعيل الأول لهذه الحركة التقريبية، أمثال الأئمة: عبدالمجيد سليم، وعبدالعزيز عيسىٰ، ومحمد المدني، والشيخ كاشف الغطاء، والسيد شرف الدين... وغيرهم. وأكّدوا علىٰ ضرورة تبادل الأساتذة والطلّاب، والكتب والمناهج، بين الجامعات والمؤسسات.

وأخيراً قدّموا بالغ الشكر والتقدير للإمام الشيخ سيد طنطاوي على اهتمامه البالغ بموضوع الوحدة والتقريب، ومتابعاته لمشاكل ومسائل المسلمين. وقد قدّم وفد الأزهر الشريف الشكر والتقدير للإمام آية الله السيد علي الخامئني علىٰ رعايته للمؤتمر، وكلمته العظيمة في افتتاح الملتقىٰ، كما قدّموا شكرهم للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب وأمنيه العام آية الله الشيخ محمد واعظ زادة الخراساني، والمجلس الأعلىٰ للمجمع، والمسؤولين في الجمهورية الإسلامية الإيرانية علىٰ حسن الوفادة والاستقبال الأخوي، سائلين الله تعالىٰ أن يمنّ على المسلمين بالعزّة والكرامة، واتّباع كتابه وسنّة نبيّه، والرحمة والرضوان لكلّ العلماء الماضين، سيّما الإمام الخميني الذي كان الرائد العظيم للوحدة الإسلامية من هذا العصر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



لقاء مفتي الجمهورية د. نصر فريد واصل والشيخ محمد علي عاشور مع آية الله السيد علي الخامنئي في طهران



السيد محمد الخاتمي مستقبلاً مفتي الديار المصرية في طهران



الملتقى الدولي لتكريم آية الله البروجردي والشيخ محمود شلتوت في طهران للتقارب بين السنّة والشيعة



آيات الله وشيوخ الأزهر... لقاء تاريخي في مدينة «قم»



... آخر من ملتقى التكريم لآية الله البروجردي والشيخ محمود شلتوت في طهران



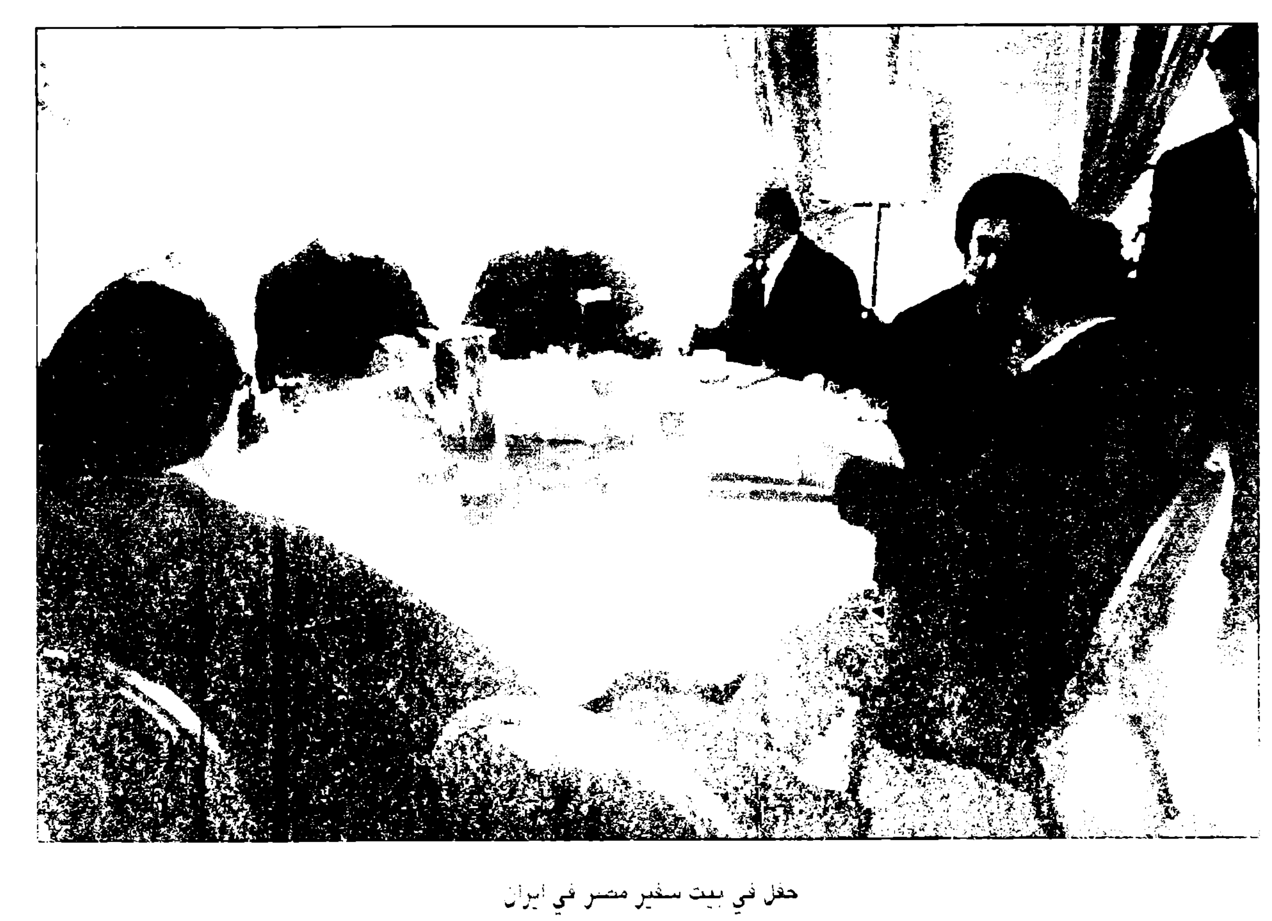
جانب من استقبال الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية الدكتور نصر فريد واصل أثناء زيارته لطهران



جانب آخر من استقبال مفتي الديار والوفد المرافق له في طهران



جانب من زيارة وفد الأزهر الشريف برئاسة مفتي الديار د. نصر فريد واصل للمعالم الثقافية في طهران



حفل في بيت سفير مصر في ايران

من اليمين الشهيد آية الله سيد محمد باقر الحكيم، محمد رفاعة، الشيخ محمود عاشور، الدكتور فريد نصر واصل، الشيخ محمد سعيد النعماني



الدكتور محمد سيد طنطاوي

المؤلّف في سطور

من مواليد إيران بمدينة تبريز ـ اذربايجان ـ عام ١٩٣٨م، درس هناك وتتلمذ علىٰ يد والده وهو من العلماء الكبار آنذاك، ثم التحق بالحوزة العلمية في مدينة قم، وتخرّج في العلوم الإسلامية هناك علىٰ يد العلماء والأساتذة الكبار، منهم: الإمام روح الله الخميني، العلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي... وغيرهم، ثم حضر في دروس بعض المراجع الدينية في النجف الأشرف لمدة شهور... وبعده قام بالتدريس في الحوزة العلمية لسنوات عدة.

ثم أسّس «مركز البحوث الإسلامية» في الحوزة العلمية ـ قم، وهو لايزال رئيساً لهذه المؤسسة الإسلامية العلمية، وللمركز إصدارات كثير متنوّعة بلغات مختلفة، منها: العربية، الانجليزية، الألمانية، الفارسية، وغيرها...

ويعتبر الأستاذ من العلماء البارزين المعروفين في إيران، وله مؤلّفات عدّة في شتّى المجالات العلمية الإسلامية، طُبع أكثر من ٥٠ مجلّداً منها في إيران وبعض البلاد العربية... ومرّات عدة، ويتقن عدّد لغات: التركية، الفارسية، العربية، الانجليزية والايطالية. وله دور خاص في مجال التقريب ونشر فكرته في أوساط الحوزة العلمية منذ نصف قرن... وله دور خاص في مجال التقريب، ونشر فكرته في أوساط الحوزة العلمية منذ نصف قرن... (كما جاء في القسم الأول من هذا الكتاب).

كما أنّه كان للأستاذ دور خاص في الكفاح ضدّ النظام الحاكم، واعتقل وسُجن،

ونُفي عدّة مرات... ولكنّه استمرّ في كفاحه ونضاله ضدّ الاستبداد والاستعمار رغم كلّ الضغوط ...

وبعد انتصار الثورة الاسلامية انتخب ممثّلاً للإمام الخميني في وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي في طهران، وعمل فيها لمدّة سنتين.

ثم انتخب سفيراً لإيران في الفاتيكان، وعمل هناك خمس سنوات، وأسّس في روما «مركز الثقافة الإسلامية في أروبا» حيث صدر من المركز أكثر من ١٦٠ كتاباً بلغات مختلفة في تبيين العقيدة الإسلامية والمسائل السياسية... تمّ توزيعها في البلاد الأوربية...

وبعد العودة إلى طهران، انتخب مستشاراً للوزير الدكتور ولايتي، ثم مستشاراً للوزير الدكتور كمال خرازي، وأستاذاً في كلّية وزارة الخارجية: كلّية العلاقات الدولية، وكلّية الحقوق جامعة طهران.

وهو كذلك عضو في مركز الدراسات السياسية والعالمية التابع لوزارة شؤون الخارجية ومجمع التقريب العالمي بين المذاهب الإسلامية.

وقد اشترك في كثير من المؤتمرات العالمية الإسلامية قبل الثورة وبعدها: في السعودية، ومصر، ولبنان، وقطر، والجزائر، وسوريا، وباكستان، وتركيا، والمانيا، وانكلترا وإيطاليا... منها مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية في القاهرة، نيابةً عن الوزير، ومؤتمرات إسلامية كثيرة.

وقد أسّس الأستاذ منذ سنوات جمعية الصداقة المصرية ـ الإيرانية بطهران، بالتعاون مع ٤٠ من كبار المفكّرين الإسلاميين والعلماء والكتّاب الإيرانيّين، وكان الأستاذ رئيساً لهذه الجمعية قبل سفره إلىٰ مصر.

عمل في القاهرة، بصفته رئيساً لبعثة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في جمهورية مصر العربية لمدة ثلاث سنوات، وبعد العودة، لايزال يشتغل في المجال العلمي والثقافي، في طهران وقم... ضمن النشاط السياسي...

الفهارس

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

فهرس الموضوعات

قصّة التقريب أمة واحدة، ثقافة واحدة

الفهارس



قصّة التقريب

أمة واحدة، ثقافة واحدة

هـذا الكتاب و إن يصنَّف ضمن كتب السـيرة التـي تتنـاول جانبـاً مشـرقاً مـن حيـاة شـيخ المصلحيـن العلاّمـة القمـي، وترجمة مسـاعيه الحثيثة مـن أجل تعزيز مكانة الوحدة والتقريب بين مدرستين عظيمتين: الشيعة والسنّة، قد أثرتا الفكر الإسـلامي وأغنتاه، إلاّ أنّه يعدّ من الوثائق التأريخية المهمّة التي تروي بالسـندات الموثّقة تاريـخ حركة التقريـب، وقصة نشـوئها، وكيف راجت وانتشـرت... يرويها أحـد روّادها، وممّن وقفـوا عن كثـب من ولادتها، ليثبـت في النهاية أمرين:

الاول: أنّ ولادة الحركـة لم تكـن على أيدي شيعية بحتة.

والثانــي: أنّ تحقيـق الوحدة بيـن المذاهب الإسـلامية ليس ضربـاً من الخيـال، كما يحاول البعض اليوم الإيحاء إليه.

